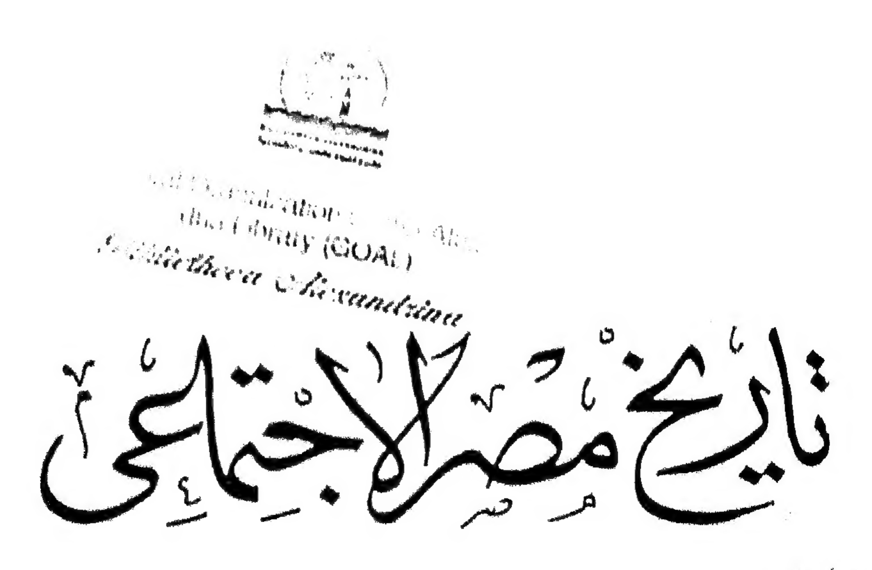
الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

عميد كلية الآداب ـ جامعة عين شمس



منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني ـ القاهرة
ص ب ١٣٠ ت : ٣٩٢٥٥٢٢

مقدمة

ولدت مادة التاريخ فى رحم الكتابات الادبية والدينية ، ثم اخذ يستقل بنفسه شيئا فشيئا .. ولكن لا يزال جدل كبير حول العملية التاريخية من حيث : هل التاريخ علم ام فن ، وما هو المنهج الذى يتبع ؟.

ولقد استقر الراى على أن المنهج التاريخى (المنهج الاستردادى) هو اكثر المناهج ملاءمة للبحوث التاريخية حيث اننا اذا اخذنا بالمنهج العلمى البحت نجد انفسنا امام قضايا ذات طابع انسانى لا تستجيب له ، وهذه القضايا الانسانية هى التى تبعد (التاريخ) عن المنهج العلمى قليلا ، وحيث ان المؤرخ يعمل فكره وان كتابته تتأثر بخلفيته الفكرية والاجتماعية فان التناول لقضية من القضايا يختلف من مؤرخ لآخر حتى ولو كانت المادة التى اعتمدوا عليها واحدة وهذه هى احدى معضلات التاريخ .

فالمؤرخون لكل عصر لهم طابعهم واسلوبهم ، فمنهم من كان يكتب سير الملوك والدول ، ومنهم من كان يكتب عن مدينة او دولة ، ومنهم من كتب مدافعا عن عقيدة و مذهب ، ومنهم من تناول قضية بعينها ، ومنهم من تصدى لعصر من العصور ، ومنهم من ترجم لطبقة او فئة من الفئات . وبصفة عامة ليس فى استطاعة مؤرخ — مهما كان موسوعيا — ان يكتب تاريخا كاملا لشعب او لفترة ، فمن العسير ان يلم مؤرخ بكافة جوانب عصر من العصور وانما يستطيع ان يجمع معلومات كافية عن فترة محدودة من الزمان يستطيع بتعمقه أن يصبح الحجة فيها .

وكم من محاولات مضنية بذلت لوضع صورة عن تاريخ العالم ، وكم من نقد مرير للغاية تعرضت له مثل هذه الأعمال التاريخية العامة ، ومن اشهر هذه المحاولات قصة الحضارة لديورانت ودراسة فى التاريخ لأرنولد توينبى ومجموعة كامبردج الشهيرة ، وغير ذلك من الموسوعات التاريخية ، ومع ذلك فهى من اكثر المصادر شيوعا بين ايدى الباحثين فى التاريخ .

فلا غرو أن دبت الخلافات والاختلافات الجوهرية حول العديد جدا من القضايا التاريخية ، وخاصة اذا ما تناول المؤرخ موضوعه من زاوية وطنية ، وتزداد هوة الاختلاف كلما زادت حدة الصراع حول الأرض أو المسائل الاقتصادية . ومن ابرز القضايا التاريخية التى تناولها طرفا النزاع كل من زاوية متطرفة حادة قضية الالزاس واللورين بين المانيا وفرنسا ، كما تناول مؤرخو المانيا النازية التاريخ الاجتماعى من زاوية « آرية » متطرفة ، جاعلين الجنس الآرى على قمة الاجناس وما عداها فى مراتب ادنى حتى اذا ما وصلوا الى العرب واليهود وضعوهم فى اسفل القائمة . ويعتمد دعاة الحركة الصهيونية اعتمادا ضخما على التاريخ ليدعموا ادعاءاتهم فى الأرض العربية المحتلة وما هو وراءها .

والى جانب كل هذا ، يوجد مؤرخون كرسوا قدراتهم والمادة التاريخية فى خدمة الأهداف الامبريالية التوسعية مبررين حق دولهم فى بناء امبراطوريات استعمارية على حساب الشعوب المستضعفة .

وهناك ايضا المؤرخون السوفييت الذين لا يرون بديلا عن المنهج المادى للتاريخ وعن حتمية الصراع الطبقى وصولا الى دكتاتورية الطبقة العاملة ، ولقد هزت حركة « التضامن » فى بولنده بشدة هذه النظرية فضلا عن الحركات التحريرية التى انفجرت فى المجر (١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (١٩٦٨) ، ومع ذلك يستخدم المؤرخون السوفييت كافة الأساليب لتثبيت حق السوفييت فى أن يكون لهم اليد العليا على دول أوربا الشرقية التى وقعت فى قبضة الجيش الأحمر خلال الحرب العالمية الثانية . وتطرف السوفييت أكثر فى هذا الصدد لتبرير اجتياح القوات السوفيتية لافغانستان . حتى كشفت التطورات مساوىء تلك الاتجاهات فعقد جورباتشوف العزم على احداث تغيير كبير فى سياسات الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية .

كان التاريخ — حتى القرن التاسع عشر تقريبا يركز على التطورات السياسية ، وعلى أعمال الملوك والحكومات ورجالات البلد أو الأمة ، واذا تعرض مؤرخ للأوضاع الاجتماعية — مثله فى ذلك عندما كان يتعرض للأوضاع الاقتصادية — كان ذلك يتم دون ادراك حقيقي لمفهوم التاريخ الاجتماعي أو التاريخ الاقتصادي ،

ولكن لهؤلاء المؤرخين الفضل كل الفضل فى انهم سجلوا ما وصل اليهم من معلومات وحفظوا لنا متون مؤلفات اندثرت كانت تتحدث عن بيئات قامت ونمت وتلاشت ، وكادت — لولا هؤلاء المؤرخون أن تختفى أبد الدهر .

ان عدم وجود مفهوم محدد لدى هؤلاء الرواد عن التاريخ بصفة عامة ، أو عن التاريخ الاجتماعى بصفة خاصة لا ينقصهم اى حق أو أية مكانة ، وما قدموه لنا من تراث عن الحضارة هو المادة الخام التى نحاول صياغتها لتعبر عن مفهوم متكامل للتطور الاجتماعى لبيئة أو مجتمع أو أمة من الأمم .

يعتبر التاريخ الاجتماعى واحدا من الميادين العلمية الحديثة التى عنى بها المؤرخون وعلماء الدراسات الاجتماعية منذ وقت قصير . وليس معنى هذا أن التاريخ الاجتماعى كان غير معروف منذ العصور السابقة . وانما هو موجود فى تلك العصور ولكن دون تقنين ، والتقنين لعلم الاجتماع هو الظاهرة الواضحة خلال العقود الأخيرة من هذا القرن ، واستمرت الجهود فى تصاعد ونمو حتى اخذ التاريخ الاجتماعى مكانته بقوة بجوار بقية فروع التاريخ وبجوار العلوم الاجتماعية الأخرى ، على ان ذلك لم يصل الى ما وصل اليه التاريخ الاجتماعى الا بعد أن أخذت العلوم الاجتماعية فى الاستقرار ، والا بعد أن أصبح للتاريخ منهج ، فخلال ذلك كان يتضح أن التاريخ الاجتماعى يقدم تفسيرات أكثر دقة وشمولا للعديد من الظواهر والتيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسيكلوجية .

ولقد ظل التاريخ الاجتماعى فى مصر موضوعا غير مطروق حتى عقود قليلة مضت . فبعد أن اخذت العلوم الاجتماعية فى الاستقرار ، وعندما أصبح للتاريخ مدارس ، وبعد أن أصبح جليا أنه لا يمكن فهم التطورات السياسية الا بفهم حقيقى للتطورات الاجتماعية وغيرها ، بعد كل هذا اتخذ التاريخ الاجتماعى مكانته فى مصر ، وان كانت مكانته لا تزال محدودة الا انها تسير بسرعة نحو الرسوخ والتأصيل .

انه لمن أهم ثمرات دراسة التاريخ الاجتماعى لمصر ذلك اللقاء الفكرى بين المؤرخين والعلماء والباحثين فى علم الاجتماع ، وخاصة أن هناك مجالات

ومفاهيم مشتركة بين علماء الاجتماع والمؤرخين من حيث تحليل الحدث التاريخى وديناميكية الفرد فى المجتمع ، والعلاقة بين الانسان والبيئة ، وبين مجتمع وآخر ، وطبقة واخرى ، وبين شعب وآخر وبين حضارة واخرى .

حقيقة ان التاريخ الاجتماعى جديد ولكنه ولد فى مصر قويا ، حتى لقد اصبحت فى مصر مدرسة تاخذ الى حد كبير بالفكرة القائلة بأن التاريخ الاجتماعى هو المدخل الحقيقى للتاريخ .

ولسنا من انصار هذا التحيز ، وانما نقول ان العملية التاريخية تحتاج الى كافة الأدوات وكافة مصادر المادة العلمية الخام حتى يمكن ان نكتب التاريخ كتابة صحيحة لا خلاف جوهرى عليها .

فمدينة القاهرة - على سبيل المثال - يتناولها علماء الجغرافيا وعلماء الاجتماع كل بمدخله الخاص ، والمؤرخ عاكف على رصد تاريخ المدينة منذ نشأتها حتى الآن ، ولا يستطيع اى من هؤلاء المتخصصين ان يخرج دراسة علمية بمعنى الكلمة الا اذا كان على مستوى علمى عال يؤهله لأن يضع كافة هذه العلوم فى خدمة بحثه .

ومن هذا يتبين لنا أن ذلك التعاون بين الباحثين فى التاريخ والباحثين فى علم الاجتماع يمهدون الطريق نحو وضع تاريخ متكامل علمى لمصر عبر العصور ، نحو اعطاء تفسيرات علمية للتطورات الرئيسية بايجابياتها وسلبياتها ، وامكانية التوصل الى نظرية تحكم عجلة التطور الاجتماعى فى مصر أو على الأقل تحدد العوامل الرئيسية التى تؤثر على التطور وتوجهه .

ولدينا فى تاريخ مصر العديد من الظاهرات التى تحثنا على التعمق أكثر واكثر فى دراسات تاريخ مصر الاجتماعى . فحياة الريف المصرى الآن لا يمكن أن نفهمها بمعزل عن التاريخ الفرعونى . ونظام الحكم فى مصر له جذوره الاسلامية القوية ، وأن كانت توجد الى جانب ذلك قوانين (مدنية) أو شبه (علمانية) « واعراف » سارية المفعول . فلا تزال الأنثى مهضومة الحق عند التوريث ويفضلها البعض (منقبة) ويفضل البعض مضاعفة عدد زوجاته لمجرد انه قادر على الانفاق عليهن وليس لأى سبب آخر ، ويا لفرحة الزوج

ببشرى ولادة ذكر من صلبة ويا لحرص الأم والأب على تحديد مستقبل الابن او الابنة ربما — وان كان فى ذلك مبالغة — من المهد الى اللحد ، والموالد والحفلات الدينية وشبه الدينية تضرب جذورها الى قرون عدة مضت خلفت ما خلفت من آثار وعادات وتقاليد لا تزال تلعب دورا فى المجتمع .

ان نظرة سريعة على مكونات معبد الأقصر تكشف لنا من ذلك التطور التاريخى للفكر الدينى والسياسى والاجتماعى ، ففى هذا المعبد تماثيل فراعنة مصريين عظام ، والاسكندر المقدونى اليونانى وعلى راسه رمز آمون — رع ، وبقايا كنيسة ومسجد اسلامى ، وعلى مقربة منه الكاتاراكت والسد العالى والفأس والشادوف ومراكب شراعية وسكك حديدية ومطار ، ويطوف بالمعبد شباب فى طريقهم الى الجامعة الحديثة ، وشيوخ نسوا ما تعلموه فى الكتاب ، وسيدات محجبات وفتيات كأنهن أوربيات ، وآلام الثار وضحايا البارات ، وأوراق النقد المصرية والأجنبية والمقايضة بين زمبيل تمر ودجاج فلاحة ريفية فى سوق تقليدية يباع فيها الذهب والماشية . وبيوت من طين وأخرى من حديد ، وحجاج سمر الوجوه بيض الملبس فى طريقهم الى بيت الله الحرام على دابة الى قطار فطائرة ، وحجاج بيض الوجوه زرق العيون فى طريقهم الى وادى العدم فى الضفة الغربية من النيل حيث يرقد ملوك وملكات مصر الفراعنة ، وأصوات الناى الحزين فى أفراح الطهور والزواج وموسيقى الشارع الغربى الصاخبة ، وشيخ محدود الثقافة مسموع الكلمة ، والطبيب والمعلم والموظف الذى يؤدى واجبه بطريقة أو بأخرى وعيناه معلقتان بالقاهرة ، كل هذا فى بيئة واحدة ، تراث من الماضى وحاضر غلاب .

تلك صورة من بيئة واحدة ، الحديث عنها فى الماضى البعيد الفرعونى غيره فى الماضى القريب ، فأسوان قبل السد العالى غيرها الآن ، ومصر قبل الاسلام غيرها بعده ، ومصر قبل محمد على غيرها بعده ، ومصر قبل ١٩٥٢ أو ١٩٧٣ غيرها بعدهما . واذا كان التطور الاجتماعى فى التاريخ القديم والاسلامى على نوع من البطء فانه سريع فى التاريخ الحديث والمعاصر .

فبينما كان الاختلاف بين الأجيال محدوداً فيما سبق أصبح الاختلاف جوهريا حتى يكاد الوالد أن ينبذ أخلاقيات ابنه لولا رابطة الأبوة ، ويكاد الابن يتهكم من تقاليد أبيه لولا رابطة البنوة . ومع هذا وذاك فلا زالت قيم قديمة راسخة ، ولا تزال تقاليد وأعراف قديمة محترمة .

ان تاريخ مصر الاجتماعى زاخر بالتطورات ، ويلقى الضوء على تركيب مجتمع مصر وما أصابه من تغيرات ، وعلى المؤسسات الاجتماعية ، والريف والحضر والبادية ، والفلاح والعامل والمثقف والطوائف والحرف والقرية والمدينة ، والمعتقدات والايديولوجيات ، وتأثر المجتمع بغيره وتأثيره فى المجتمعات الأخرى .

وتطور اللغة فى مجتمع من المجتمعات له دلالته الاجتماعية العميقة ، ومن ذلك ان اللغة الفرعونية سادت فى مصر حتى العصر الرومانى ، وظهرت على أنقاضها اللغة القبطية وهى لغة قومية بحتة يمكن أن نصفها بأنها محصلة الفرعونية واليونانية فضلا عن اضافات جديدة جوهرية . فلما فتح العرب المسلمون مصر وتحول المصريون الى الاسلام أخذوا باللغة العربية ، وازدهرت اللغة العربية بشكليها الفصحى والعامية . ثم دخلت عليها تعابير ومصطلحات أوربية فى التاريخ الحديث . ان هذه التغييرات والتطورات التى ألمت بلغة المصريين عبر التاريخ انما هى انعكاسات للتطورات الاجتماعية والسياسية التى مرت بمصر فى تلك العصور المتتالية .

ان التاريخ الاجتماعى لمصر يقدم أرضية لازمة لأى باحث فى شئون مصر . فليس الباحثون فى علم الاجتماع فقط هم الذين يحتاجون الى هذا التاريخ الاجتماعى ، بل ان الباحثين فى الجغرافيا فى حاجة اليه ، والباحثين فى الأدب والسياسة والنظريات السياسية والفلسفية ، وكذلك الباحثون فى الدراسات الاستراتيجية فضلا عن الدراسات السيكولوجية .

لقد أصبح ذلك أكثر الحاحا عن ذى قبل بسبب التداخل الشديد المستمر بين مختلف العلوم بعضها ببعض .

ومن أبرز التطورات الرئيسية فى مجال التاريخ فى مصر التركيز على

التاريخ الاجتماعى بعد ثورة ٢٣ يوليو . فلقد كان الخديو اسماعيل وملكا مصر فؤاد وفاروق يعنون عناية كبيرة بالتاريخ ، وبطبيعة الحال بتاريخ الأسرة الحاكمة ، وكان من بين رجال الأسرة الحاكمة من تصدى للتاريخ بنجاح مشهود مثل عمر طوسون .. والحقيقة أن هذا كان تيارا من التيارات البارزة فى مجال التاريخ ولكن هذا ما كان ليخفى تيارات اخرى عنيت بالشعب وبالمجتمع.

كان تاريخ مصر الفرعونية يكتب بأقلام اجنبية ، نظرا لأن المصريين المسلمين انكروا أو تجنبوا تناول من وصموا بأن الاسلام قد لعنهم لعنة ابدية ، وما لعن الاسلام الا من طغى وتجبر ، وليس جميعهم كان كذلك . وحتى لو كانوا كذلك ، فانها حضارة قدمت للانسانية تراثا تطورت بفضله البشرية الى حضارات اخرى ، فلنكن على بينة من تاريخ البشر أيا كانوا ، وبموضوعية . والفكر الاسلامى لا يقف مناهضا لدراسة تاريخ الفراعنة ، وانما المفكرون هم الذين اتخذوا هذا الموقف حتى تولاه الأجانب وأصبحوا هم الأقدر على الكشف عن آثار الفراعنة ، واصبحوا هم علماء الاجيبيتولوجى (علم المصريات) فى العالم ، وأصبحنا نبعث اليهم بأبناء مصر ليتعلموا على أيديهم تاريخ مصر الفرعونية .

واذا كانت ظروف العصور الاسلامية الوسطى قد فرضت على المفكرين الاسلاميين هذا الموقف المعادى للفراعنة ، فانه لما يثير العجب أن نجد من بين المثقفين الآن من يعيش بنفس ذلك الفكر ، ومنهم من تطرف يمينا أو يسارا فى هذا الصدد ، والأمر لا يحتاج تطرفا ، وانما يحتاج موضوعية علمية . وهذا ما ندعو اليه .

حتى التاريخ الاسلامى ، اصبح فية مدارس فى أوربا وأمريكا تفوق احيانا ما فى الشرق الاسلامى من مدارس ومؤسسات من حيث المنهجية والانتاجية العلمية ، وتخرج على يدى علماء اوربا عدد ليس بالقليل من مؤرخى مصر الحاليين .

وفى التاريخ الحديث حدث نفس الأمر ، فكان الرعيل الأول من مؤرخى مصر الحديثة ممن تخرج على يد كبار المؤرخين الأوربيين ، ومن هؤلاء المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ، مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بمصر وعلى

يديه تخرج المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس ومؤسس مدرسة تاريخ العرب الحديث فى مصر والعالم العربى .

فللمؤرخين محمد شفيق غربال وتلميذه احمد عزت عبد الكريم الفضل الأعظم فى انتقال ريادة التاريخ لمصر وللعالم العربى من ايدى الأجانب الى ايدى أبناء مصر وأبناء الوطن العربى .

ويعتبر سمنار التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس — الذى أسسه منذ ١٩٥٥ الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — المدرسة التى تخرجت منها أجيال متتالية من المؤرخين والباحثين فى التاريخ أحدثوا نقلة علمية فى مجال التاريخ لمصر الحديث ولتاريخ العرب الحديث ، وذلك من مختلف جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعسكرية والسياسية .

ولقد عنيت مدرسة التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس عناية خاصة بالتاريخ الاجتماعى لمصر والوطن العربى ، ومع ما صدر عنها من دراسات ، فلا يزال هناك الكثير جدا من الموضوعات الاجتماعية التى تحتاج الى أن يتناولها الباحثون وهذه هى مسئولية جيل المؤرخين والباحثين الحاليين ومسئولية الأجيال القادمة منهم .

* * *

ينقسم تاريخ مصر الى الأقسام الرئيسية التالية :

(أ) التاريخ القديم :

١ — لا ندرى متى بدأت الحياة البشرية بالضبط على أرض الوادى ولكن هناك على أى حال فجر التاريخ ، ودولة حورس فى الدلتا قبل عهد الأسرات .

٢ — عهد الدولة القديمة :

(أ) توحيد الوادى جنوبه وشماله .

(ب) عهد الأسرات الست الأولى ويتضمن عصر بناة الأهرام .

(ج) الثورة الاجتماعية فى أواخر عهد الأسرة السادسة .

٣ — عهـد الدولة الوسطى :

وهو عصر الازدهـار الثـانى فى التـاريخ القـديم وينتهى هـذا العهـد بتدهور البلاد ووقوعها تحت الاحتلال الأجنبى (الهكسوس) ، وكفـاح البـلاد حتى تحررت من حكمهم .

٤ — الدولة الحديثة :

مصر فى أوج حضارتها القديمة فى عهـد الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ويتضـمن بنـاء أول امبراطورية دفاعيـة ، وقيـام حضـارة مبدعة وحيـاة اجتماعية متقدمة وحـرية فى التعبير وثورة دينية ، والرعامسـة والحـكام العسـكريين وأخيرا تدهور الامبراطورية .

٥ — عهـد الغزوات المتتالية :

(أ) الغزو الليبى والأسرة الحاكمة الليبية .

(ب) الغزو النوبى والأسرة الحاكمة النوبية .

(ج) الغـزو الأشورى .

(د) الغزو والاحتلال الفارسى لمصر .

(هـ) الغـزو المقـدونى لمصر وقيـام حكم البطالمة .

(و) الغـزو الرومانى لمصر : مصر ولاية رومانية .

(ز) انتشار المسيحية ومصر ولاية بيزنطية .

(ب) مصر فى العصر الاسلامى الوسيط .

(أ) الفتح الاسـلامى لمصـر .

(ب) عهـد الـولاة .

(ج) تحول الشعب الى الاسلام .

(د) الدول الاسلامية المستقلة فى مصر .

١ — الدولة الطولونية .

٢ — الدولة الأخشيدية .

٣ — الدولة الفاطميـة .

٤ — الدولة الأيوبيـة .

٥ — الدولة المملوكيـة .

(ج) مصر فى التاريخ الحديث :

١ — مصر العثمانية :

— الفتح العثمانى لمصر .

— مصر ولاية عثمانية (الحكم المباشر العثمانى) .

— مصر فى العهد المملوكى العثمانى .

— الحملة الفرنسية على مصر .

٢ — الدولة الحديثة .

— بناء الدولة الحديثة فى النصف الأول من ق ١٩ .

— وحدة وادى النيل .

— توحيد المشرق العربى .

— نهضة مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

— الاحتلال الانجليزى لمصر .

— ثورة ١٩١٩ .

— المملكة المصرية البرلمانية المحدودة السيادة (١٩٢٣ — ١٩٥٢) .

(د) التاريخ المعاصر :

— ثورة ١٩٥٢ .

— التغيرات الجذرية فى مصر .

ويجدر بنا هنا أن نحذر من أن هذه التقسيمات الرئيسية والفرعية انما هى من وضع المؤرخين وان الانتقال من عصر الى عصر أو من عهد الى عهد كان تدريجيا . وقد تستغرق عملية الانتقال هذه عدة عقود من الزمان . وكثيراً ما يقع الخلاف بين المؤرخين حول بداية عصر ونهاية عصر .

فهناك من يرى أن تاريخ مصر الاسلامية يمتد الى يومنا هذا على اعتبار أن الطابع الرئيسى الذى يسيطر على مصر ويتحكم فى توجهاتها السياسية والاجتماعية هو الاسلام وعلى اعتبار أن الأغلبية الساحقة من المصريين مسلمون .

وهناك من يرى أن تاريخ مصر الاسلامية يقتصر على الفترة الواقعة بين

الفتح الاسلامى والفتح العثمانى ، على اعتبار أن الفتح العثمانى يمثل بداية التاريخ الحديث .

ان هذه المقولة تثير ايضا كثيرا من النقد الشديد حيث أن هناك من يرى ان التاريخ الحديث ينبغى أن يغطى فترة من الزمن تتميز بالنهضة الحديثة ولو بصورة ما من صورها . واذا ما القينا نظرة عامة على مصر فى العهد العثمانى (من القرن السادس عشر حتى الثلث الثانى من القرن الثامن عشر) وفى العهد العثمانى المملوكى حتى هبوط الحملة الفرنسية أرض مصر ، فاننا نجد أن مصر لم تتطور تطوراً جديداً ولم يصبها شىء من التحديث أو التجديد الجوهرى . حقيقة كانت مصر خلال القرن الثامن عشر تتحفز لتطور جديد ، ولكنه كان تطورا على الطريقة الشرقية التقليدية وليس على الطريقة الحديثة .

ان السبب الرئيسى فى اعتبار الفتح العثمانى لمصر وللبلاد العربية بداية للتاريخ الحديث او مدخلا له هو ان هذا التوسع العثمانى احدث تغييرا جذريا فى المنطقة العربية متزامنا مع النهضة الأوربية الحديثة ، وان كان ذلك الفتح العثمانى وما أعقبه من حكم عثمانى ذا طابع غير حديث .

وبمجىء الحملة الفرنسية الى مصر فوجىء الشعب المصرى بمجتمع أوربى لم يكن يتصوره ، فوجىء بحضارة متفوقة غلابة ، وتهيأ المناخ لاحداث تغيير فى المجتمع لمواجهة تربص الدول الأوربية الاستعمارية بمصر وبالبلاد الاسلامية . انه لتغيير يقوم على نقل عناصر الحضارة الغربية لمواجهة اطماع الغرب مع الحفاظ على الكيان والحضارة الاسلامية الشرقية ، وشرع فعلا محمد على فى بناء مصر الحديثة .

ان نظرة سريعة على التطورات الرئيسية التى مرت بها مصر خلال العصور القديمة تجعلنا نقول أن نوعا من التدهور والضعف الم بمصر منذ أواخر عهد الرعامسة ، فقد تعرضت مصر فى أواخر العهد الفرعونى لسلسلة من الغزوات الخارجية ، وكانت كل غزوة تترك انطباعا واضحا عن أن المقاومة المصرية أصبحت أضعف من ذى قبل .

فلقد تعرضت مصر لغزوات اجنبية متعددة ابتداء بغزوة الهكسوس الذين استقروا فى مصر زهاء قرن ونصف قرن ثم طردوا من البلاد لتقوم من بعدهم دولة فرعونية (الدولة الحديثة) وصلت بالبلاد الى ذروة الحضارة القديمة فى عهد الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ، ومن بعد هذه الأسرة تعرضت مصر لغزوة ليبية استقر ملوكها فى مصر متخذين من بوبسطه عاصمة لهم ومن بعدهم غزا مصر ملوك نباتا (كهنة آمون فى المنفى) ، ولكن عندما تعرضت مصر لغزوات اشور وبابل لم يستقر الحكم الاشورى والبابلى ثم تعرضت مصر لغزوة الفرس الذين استمر حكمهم للبلاد حوالى قرنين (٥٢٥ ق.م. — ٣٢٣ ق.م) .

وبذلك يكون الفرس قد استقروا لفترة طويلة فى حكم مصر كانت البلاد خلالها مجرد ولاية فارسية . ولم يخرج الفرس من مصر الا على يد الاسكندر المقدونى ، ورغم مقاومة المصريين للحكم الاغريقى (البطلمى) لم يقض على بطالمة مصر الا على يد الرومان ، ولم يخلص مصر من الحكم البيزنطى الا الفتح العربى ، ومعنى هذا أن المصريين اصبحوا اضعف من ان يخلصوا انفسهم بأنفسهم من المحتلين وكأن الأمر كان استبدال محتل بآخر .

بالفتح العربى الاسلامى لمصر بدأ عهد جديد استعادت مصر خلاله مكانة عالية اذ تولى الحكم فيها — بعد فترة حكم الولاة — اسرات اسلامية مستقلة (الطولونية — الأخشيدية — الفاطمية — الأيوبية — المملوكية) ، وكلما تولى مصر — خلال ذلك — حاكم قوى مد سلطانه الى الشام والحجاز وفرض كلمته العليا على المنطقة ، ولم تفقد مصر مكانتها الا بعد الفتح العثمانى لها ، اذ اصبحت مجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية فعادت مرة أخرى تعانى من الجمود الحضارى حتى استعادت مصر حكما ذاتيا كاملا على يد محمد على فاستعادت بالتالى مكانتها العالمية ، واصبحت مصر منارة الحضارة الحديثة فى المنطقة .

استعادت مصر دور الدولة القائد فى منطقة الشرق الأوسط ، واصبحت مصر القرن التاسع عشر على مستوى عال جدا من الحضارة الحديثة بالقياس الى جيرانها من البلاد العربية والإسلامية .

سبقت مصر البلاد العربية والاسلامية والشرقية فى بناء دولة حديثة، ثم اخذت البلاد الشرقية الاخرى تسير فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه مصر . فالتعليم المصرى الحديث الذى بدأ فى اوائل القرن التاسع عشر انتقل الى البلاد العربية فارتفع بمستواها ، ومن ذلك ان التعليم والمعلمين المصريين نقلوا الحضارة الحديثة الى الجزيرة العربية بصورة واسعة وبتطور تصاعدى سريع للغاية حتى يمكن القول ان تحديث الجزيرة كان ولا يزال يفضل المصرى سواء عندما كانت بلاد الجزيرة العربية فقيرة وتدفع مصر نفقات العملية التعليمية التحديثية او عندما اصبحت ثرية فى الفترة الأخيرة .

وهنا نلاحظ ان ادوات النهضة المصرية متميزة متفوقة حضاريا عن بقية بلاد الشرق الاسلامى ولكن تختلف نهضة مصر فى القرن التاسع عشر عن نهضتها فى اعقاب الفتح العربى وعهد الولاة ، اذ ان النهضة المصرية على الطريقة الاسلامية كانت نهضة ذاتية . بينما كانت النهضة المصرية الحديثة على الطريقة الأوربية ، نهضة استعارت مصر ادواتها من الخارج ، فلم تلبث ان وقعت مصر فى قبضة اصحاب تلك الحضارة الأوربية .

واذا كان الشعب المصرى قد عجز عن تحرير نفسه من الاستعمار الفرنسى الا بعد أن نزل الانجليز بثقلهم العسكرى فأرغموا الفرنسيين على الخروج من مصر بعد ثلاثة اعوام من الاحتلال (١٧٩٨ — ١٨٠١) فاننا نلاحظ أن مصر لم تستطع أن تخلص نفسها من الاستعمار الانجليزى الا بعد سبعين عاما من الكفاح (١٨٨٢ — ١٩٥٤) .

ففى ١٩٥٤ وقعت اتفاقية الجلاء وفعلا خرج آخر جندى انجليزى من مصر فى ديسمبر ١٩٥٥ ، وعاشت مصر متمتعة باستقلال كامل حقيقى . واستمدت مصر مفهوم الوحدة العربية من بعض البلاد العربية — ومدت مصر هذا المفهوم (عمليا) الى الشام (سوريا) ولكن تعرضت مصر لضربة فى ١٩٦٧ ولم تستطع مصر أن تخرج اسرائيل من الأرض المحتلة الا بعد ست سنوات من الاستعدادات المريرة . وكانت حرب ١٩٧٣ — التى تحملت مصر اعباءها الرئيسية — باسم العرب — جبريا اثبتت ان الدولة القائد

هى مصر . وهو دور يعكس قوة المجتمع المصرى على امتصاص الصدمة واستيعابها ثم النهوض مرة اخرى :.

ومن ناحية اخرى فهناك نوع من التشابه بين العدوان الاسرائيلى والعدوان الصليبى من حيث :

١ ــ ان كلا منهما وفد من خارج المنطقة وان ادعى انه صاحب الأرض فى فلسطين وان من فيها من عرب ومسلمين انما هم مغتصبون .

٢ ــ ان الجبهة الأوربية ــ تقريبا ــ كانت تدعم بقوة الصليبيين والصهيونيين . ولكن يجدر بنا ان نلاحظ أن حجم الظهير الصهيونى (يهود العالم) اصغر حجما من الظهير الصليبى (مسيحيى اوربا) :. ولكن من ناحية اخرى نجد أن ادوات الحضارة المعاصرة فى تناول الحركة الصهيونية اكثر منها فى متناول مصر والعالم العربى نظرا لما كان بين الصهيونية والدول الأوربية والولايات المتحدة من علاقات تحالف قوية :. ولكن الامر الذى يجب أن نحذره باستمرار وان نستوعبه هو أن دولة صغيرة (اسرائيل) غزت مصر اكثر من مرة . كانت غزوتها الأولى لمصر محدودة جدا خلال حرب ١٩٤٨ / ١٩٤٩ . ثم غزتها بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا فى ١٩٥٦ ، ولم تخرج اسرائيل من سيناء الا بفضل الصمود المصرى والدور الأمريكى فى اقناع اسرائيل بالانسحاب من سيناء فى مقابل حصول إسرائيل على الملاحة فى خليج العقبة وعبر مضايق تيران تلك الملاحة التى كانت محرومة منها حتى ١٩٥٧ ، ثم وقع العدوان الاسرائيلى على مصر فى ١٩٦٧ ودعمت الولايات المتحدة استمرارية الوجود الاسرائيلى فى سيناء وفى الضفة الغربية وفى غزة وفى الجولان السورية ، وما كان لاسرائيل ان تقتنع بجدوى الانسحاب الا بالحرب التى كانت مصر دائما تدعو الى تجنبها .

واستعدت مصر لتحرير ارضها وخاضت حرب ١٩٧٣ المجيدة ، وافاقت اسرائيل على حقيقة المصرى ، انه قد يتعرض لفترة من الفترات الى الضعف شأنه شأن أى شعب ، ولكنه يمتلك القدرة على الكفاح من أجل حريته ومن اجل المبادىء الانسانية :. فوجئت اسرائيل ، وفوجيء العالم باسره بالمصرى المقاتل الانسانى فى

آن واحد . واضطرت اسرائيل الى ان تستجدى الدعم العسكرى من الولايات المتحدة وكانت الأخيرة فى حاجة الأن تشعر اسرائيل بأنها وحدها ليست قادرة على مواجهة مصر ، وكانت الخلافات بين مصر والولايات المتحدة قد دفعت بالأخيرة الى مواقف متشددة للغاية من مصر . واستطاعت الولايات المتحدة ان تدعم اسرائيل عسكريا وماديا لمنع انهيار فى الجبهة الاسرائيلية وهو انهيار يضر بالمصالح الاستراتيجية الأمريكية .

ان الصراع العربى الاسرائيلى على هذا النحو يبين لنا بجلاء ان التغيير الديموجرافى جزء جوهرى من هذا الصراع ، واذا وضعنا فى الاعتبار ان الهزيمة العسكرية لدولة لا تمحو شخصية الدولة المهزومة وان التغير الديموجرافى هو الذى يمحو وجودها لادركنا ان هذا الصراع العربى الاسرائيلى يشكل أخطر نوع من الصراعات على مستقبل الطرفين المتصارعين .

ويرجع السبب الرئيسى فى ضعف سياسة الاستيطان اليهودى فى سيناء عنها فى بقية الأراضى العربية المحتلة الى أن اسرائيل كانت تدرك أن مصر هى القوة العربية الحقيقية المقاتلة القادرة على استرداد أراضيها المغتصبة ، وهذا ما حدث فعلا حيث ازالت اسرائيل المستوطنات التى اقامتها فى سيناء .

وتنبهت الحكومة المصرية الى خطورة وجود هذه الاتساع الضخم (سيناء) النادر السكان بجوار اسرائيل التى تعتمد سياستها على استغلال الأراضى القليلة السكان باقامة مستعمرات يهودية فيها ، ولذلك اصبح تعمير سيناء مشروعا ليس فقط لمواجهة الانفجار السكانى فى الوادى وانما للحيلولة دون أى تطلع اسرائيلى الى سيناء ، ذات الذكريات الدينية الهامة لدى اليهود وللقضاء على فكرة اقامة دولة يهودية من الفرات الى النيل على حد قول بعض التيارات المتطرفة والفكرية بين اليهود .

ولننظر فيما اصبحت عليه العديد من المدن فى البلاد العربية وخاصة القاهرة ، فالقاهرة تضخمت واصبحت تشكل مشكلة اجتماعية خطيرة ، نتيجة هذه الكثافة السكانية المريعة فى نفس الوقت الذى تتناقص فيه الايدى العاملة المنتجة فى الريف المصرى وفى ذلك يقول د . السيد الحسينى :

« ان الهجرة الريفية الى القاهرة تشكل العامل الأساسى فى نموها السكانى ، فمحور الهجرة هو من القرى الى العاصمة ، اذ ان فقر القرية المصرية هو السبب المباشر فى لفظ فائض السكان الى المدن والعاصمة على الاخص ... ان تيارات الهجرة الريفية الى القاهرة تعاظمت خلال العقود الأخيرة بسبب الفارق الحضارى الهائل بين مناطق الطرد الفقيرة المزدحمة المتخلفة ومناطق الجذب الغنية المتقدمة ... وفى ١٩٦٠ بلغ عدد سكان القاهرة والاسكندرية نصف سكان مدن مصر (٤٩,٤٪) ... لذلك فان هذه المدينة قد بدات تتحول من نافورة فكرية » الى (بالوعة اقتصادية) ..

ان مصر هى من البلاد القليلة التى يطلق فيها اسم الدولة على العاصمة ، لذلك يبدو لنا ان اللامركزية هى مطلب أساسى لتحقيق تنمية حضرية فعالة فى مصر .. بل اننى اعتقد ان حل كثير من مشكلات القاهرة يبدأ أساسا من الريف المصرى » (*)

ان النمو الحضرى على حساب الريف أو اجزاء اخرى من الدولة يمثل مشكلة كبرى حقيقية للكثير من البلاد العربية ، وهو تغير اجتماعى يجب ان نتداركه بالعلاج قبل ان تتحول العواصم العربية الى قنبلة قابلة للانفجار لسبب من الأسباب (*)

والمشكلة الاجتماعية فى الريف لا تقل خطورة عن مشكلة المدينة . فان الريف المصرى يعانى من هجرة الفلاح الأرضه للعمل فى اعمال اخرى مجزية سواء فى القرية نفسها او بالهجرة الى اقرب مدينة أو الى العاصمة ، كما يعانى من زحف المبانى على الأرض الزراعية واقامة المنشآت عليها وبالتالى نفقد خبرة الفلاح الانتاجية ونفقد مساحات واسعة من الأراضى الزراعية الأمر الذى يهدد مصر بأزمة اقتصادية طاحنة ان لم ينزل الشباب المثقف بعلمه الى الأرض الزراعية ليعيد اليها خصوبتها وانتاجيتها وقدرتها على تمويل حاجة (الفلاح الحديث) بمتطلبات العصر الجديدة ، فيستقر فيها ولا تصبح الهجرة هدفا له .

وانه الأمر يدل على الخطأ المريع ان يتدفق الريفيون المصريون على القاهرة ، وأن تقام المدن الجديدة حولها ، حتى تصبح القاهرة الكبرى حوالى ربع سكان

مصر ، بينما سيناء قليلة السكان . ان علاج هذه المشكلة ليس مسئولية الحكومة فقط ، وانما ايضا مسئولية الشعب . فرؤوس الأموال التى يمتلكها المصريون حاليا ولا تستغل فى تعمير مصر وخاصة سيناء هى فى حقيقة الأمر رءوس أموال غير وطنية ، ورءوس الأموال المصرية الموجودة فى البنوك الأجنبية فى الخارج هى رءوس أموال خائنة ما دامت لا تخدم الاغراض الحضارية المصرية ورءوس الأموال العربية البترولية التى يمكن أن تستثمر فى مصر ولا تقدم على ذلك انما هى رءوس أموال تعرض المنطقة باسرها الى التسلط الأجنبى والانفراد بالبلاد العربية والاسلامية الواحدة بعد الأخرى .

لقد وقعت تطورات جوهرية فى الريف خلال النصف الثانى من القرن العشرين ، واختفت قيم وظهرت مفاهيم جديدة .

● فالفلاح اصبح يغادر ارضه ويهاجر الى البلاد العربية ، وكانت هجرة الفلاح الى ما وراء مصر مسألة محدودة جدا فى دائرة اهتماماته واصبح مسألة مثارة باستمرار امامه .

● اصبحت الأرض الزراعية مفتتة تفتيتا شديدا يعوق العملية الانتاجية الاقتصادية .

● اقدم الفلاح على عمليات مرفوضة لديه تماما من قبل وهى (تجريف الأرض) ، وكان ذلك يعنى عند الفلاح العصامى من قبل تفريطا فى عرضه .

● ليس الفلاح على المستوى العلمى المعاصر وانما هو ينفذ تعليمات اكثر منه مدركا لهذه التعليمات ولذلك ليس جديرا بالأرض والجدير بها هو الفلاح المثقف على مستوى العصر وعلومه .

● ان الاصلاح الزراعى الذى وزع الأراضى على الفلاحين انما وزعها عليهم للارتفاع بمستواهم المعيشى ولكن ايضا للارتفاع بمستوى انتاجية الأرض فالهدفان متلازمان ، واذا كانت انتاجية الأرض متدهورة او غير متناسبة مع المعدلات الحديثة فهو يضر بمستقبل بلاده وليس بمستقبله هو فقط .

● ان مشكلة الانتاج ومستواه ليست مشكلة اقتصادية وانما هى مشكلة قومية لا يمكن حلها الا عن طريق الفلاح (المثقف) ثقافة زراعية اقتصادية معاصرة . فالاسراف فى استخدام مياه الرى ادى الى تلف التربة ، وترك نبات (ورد النيل) ينمو بوحشية حتى فى الترع الصغيرة .

ويعلل كثرة من المفكرين اسباب تدهور الانتاجية الزراعية والصناعية الى الاصلاح الزراعى والى التأميمات التى صدرت فى السنوات الأولى من عهد ثورة ١٩٥٢ . والحقيقة ان ذلك يمكن علاجه علاجا جذريا اذا ما تحددت المكافأة على اساس معدلات الانتاج . فمن لا ينتج أو من يكون انتاجه اقل من المستوى أو غير جيد لا يحصل على اية مساعدات تقدمها الحكومة اليه . ومن يستطيع ان يزيد من انتاجيته يحصل على الامتيازات والا فسنقع فى ورطة كبيرة ان عاجلا أو آجلا .

ان الدول الاشتراكية والراسمالية تعيد النظر فى أوضاعها لتحسين انتاجياتها حتى لا تصبح هدفا لقوى اخرى . الم يحن الوقت الآن نقدم على (مشروع قومى) للارتفاع بالانتاجية المصرية ، قبل ان تصبح مصر هدفا للآخرين .

وانه لمن المتعذر فهم اصرار الحكومات المتعاقبة على تخريج عشرات الألوف من الشباب من الجامعات والمعاهد العليا فى مختلف التخصصات باعداد تزيد زيادة رهيبة عن حاجات البلاد لتعينهم موظفين (على المكاتب) بمرتبات هى (بدل بطالة) يستهلكون ولا ينتجون ثم تشكو الحكومة من كثافة المرتبات ومن ضعف الانتاجية ، والاغرب من ذلك ان الشباب ايضا يقبلون على الوظيفة حتى ولو كان المرتب (بدل بطالة) بئس الفكران الحكومى والشبابى .

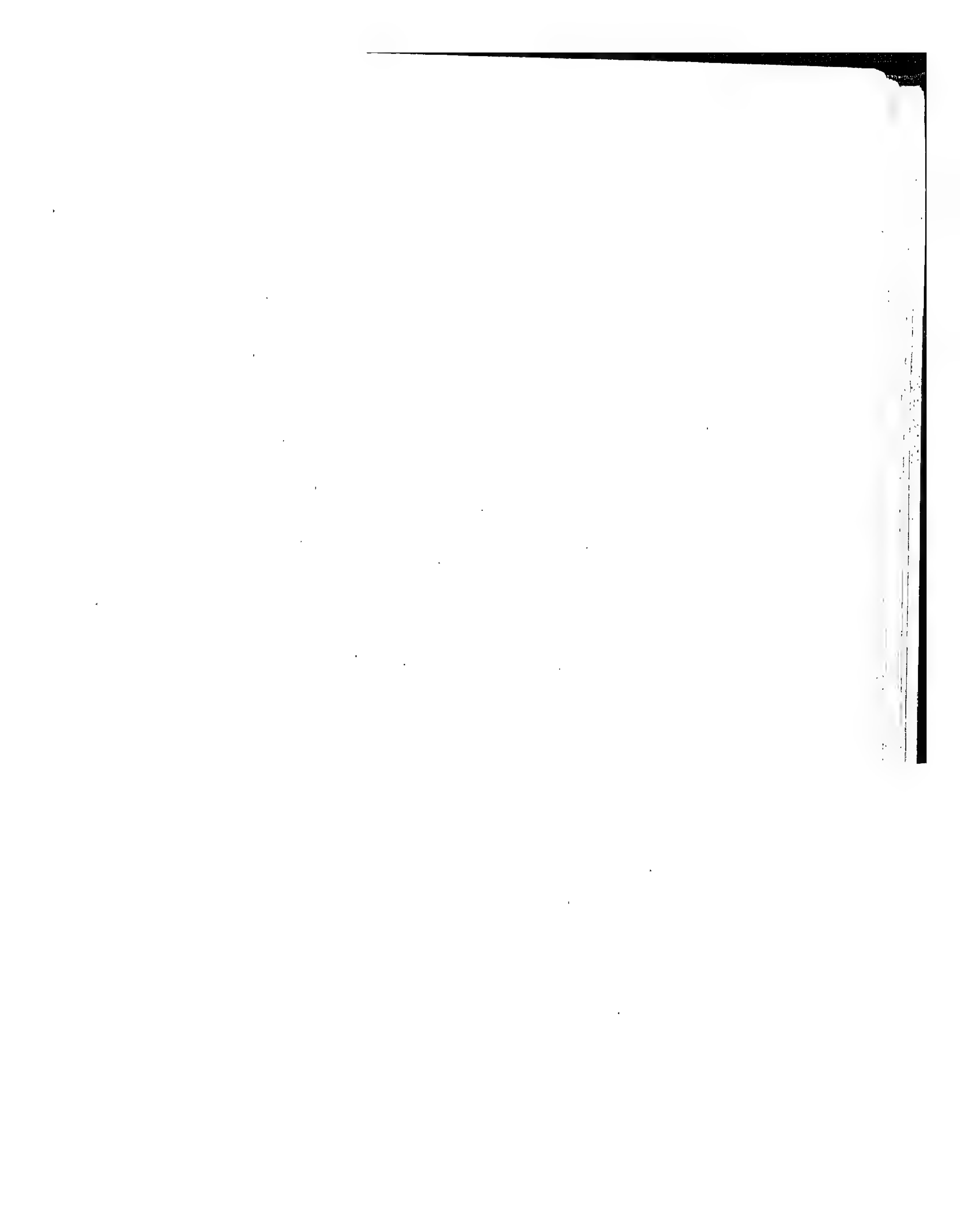
الباب الأول

المجتمع المصرى فى عهد الفراعنة

الفصل الأول : الدولة القديمة .

الفصل الثانى : الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى .

الفصل الثالث : الدولة الحديثة .



الفصل الأول

الدولة القديمة

فجر التاريخ :

متى بدأت الحياة الاجتماعية في مصر ؟ الاجابة عن هذا السؤال تتوقف على ما يكتشفه الباحثون من آثار وشواهد ، وفي الفترة الأخيرة استخدمت التكنولوجيا المعاصرة فقدمت لنا أدلة تكاد أن تقلب رأسا على عقب ما توصل اليه من قبل ذلك الباحثون عن زمن ظهور مجتمعات بشرية في مصر ، فقد ثبت عن طريق البحوث الأخيرة لطبقات الأرض — بواسطة أتوبيس الفضاء خلال شهر أكتوبر ١٩٨٢ — وجود وديان — وانهار وآثار مجتمعات بشرية عاشت في المنطقة الواقعة بين مصر والسودان وليبيا منذ مائتى ألف عام ، ولا نزال في انتظار ما سيتوصل اليه الباحثون عن شكل الحضارة حينذاك (*)

وما لدينا من معلومات تقليدية عن نشأة الحضارة في مصر تذهب الى أن نيل مصر وصل الى جبل السلسلة في جنوب الصعيد وظل آلاف السنين يحاول أن يشق طريقه حتى نجح في ذلك ، وانطلق ليصب في البحر المتوسط ، مكونا واديا ودلتا ، وكان على جانبيه من شرق وغرب هضبتان كان يعيش عليهما جماعات احترفت أفرادها الصيد فأخذوا يهبطون الى هذا الوادى الخصب (*)

ويرجع احتراف الصيد دون الرعى الى قلة العشب (*) ولما تبينوا امكانية وقيمة الزراعة اتجهوا اليها لتصبح من بعد حرفة المصريين الرئيسية ، وهى الحرفة التى تقوم على مياه النيل وطميه الخصب وعلى قدرة المصرى على تنظيم استخدام المياه ، وعلى تحديد نوعية المحصول المناسب واستخدام انسب الطرق حتى ينضج أو يثمر (*)

اخذ المصرى ينظم نفسه فى قرى تكاد أن تكون كل منهـا قائمة بنفسـها فى أول الأمـر ، قليلة التجانس ، مختلفـة الى حـد مـا فى ممارسـتها لملكيـة الأرض وتوزيـع الانتـاج . ففى « وردان » وفى « حلـوان » « والفيـوم » و « المعـادى » ظهـرت قـرى اختلفت نظـم الملـكية فيهـا ، فكانت الغـلال تجمـع فى مطـامير خاصـة بكـل اسـرة فى كـل من وردان وحلوان ، وأمـا فى الفيوم ، فكان اهلهـا يخزنون انتاجهم الزراعى من الحبـوب فى مطـامير جماعية ، وهذا يعنى — فى رأى البعض — أن الملـكية هنـا كانت « مشـاعة » .

ولعل عدم المقـدرة على الأخـذ بنظـام الملكية الخاصـة للأرض فى منطقة الفيـوم يرجع الى ضيق المسـاحة الزراعية ، الأمر الذى فرض على الأهـالى نظام الملكية المشـاعة ، أمـا فى المعـادى فظهر نظام وسـط بين النظامين سالفى الذكر ، وهو يجمـع بين الملكية الخاصـة التى ظهرت فى وردان وحلـوان وبين الملكية المشـاعة التى ظهرت فى الفيـوم .

وتعتبر حضـارة مرمدة بنى سـلامة — جنوب غرب الدلتـا — وحضـارة دير تاسـا — قرب أسـيوط — أقدم الحضـارات قبـل عصر النحـاس ، ذلك العصر الذى ترك آثاره فى حضارة (البدارى) . وبعد عهـد البدارى نمت وتطورت حضـارة عرفت بحضـارة (نقـادة) التى تميزت بنمـو الفنون فكانت بذلـك ارهاصا لما ستتطور اليه هذه الفنون فيما بعد .

كانت الغلال بمثابة رأس المـال الرئيسى حينذاك ، وكان مكيـال (الحنطة) هو الذى يقيم به المصرى السـلعة ومثل هذا الأسـلوب فى تقييم السـلع عنـد اجراء عمليـات التبـادل التجـارى يتناسـب مع تلك الفترة المبـكرة من تاريخ مصر ، تلك الفترة التى كانت فيهـا الجمـاعات متفرقة متباعـدة ، وكل منهـا قد ركزت نفسـها فى مجـال محـدود ، وفى نفس الوقت كانت العـلاقات بين هذه الجماعات المتفرقة ضعيفة ، ولذلك كان استـخدام مكيال (الحنطة) يفى بالغرض عند تقييم السـلع محليـا .

وبمرور الوقت نمت كل واحـدة من تلك الجماعات ، وتقاربت كل جمـاعة من الأخرى ، ونمت العـلاقات والمبـادلات ، وفى مثل هذه الحالة يتعـذر استخدام

مكيال الحنطة كمقياس لتقييم السلع التجارية لثقل وزنها وضخامة حجمها وصعوبة نقلها . فكان طبيعيا أن تعيد هذه الجماعات النظر فى (الحنطة) كمعيار . وادى ذلك الى استخدام (النحاس) كمعيار لتقييم السلع ، فأعطى استخدامه دفعة قوية لعمليات التبادل التجارى ، فأصبحت أكثر سهولة واوسع نطاقا الأمر الذى يفتح الطريق أمام تقارب أشد وبالتالى أمام توحيد المجتمعات الصغيرة وظهور المجتمعات الكبيرة ، وكذلك ظهور ادارة محلية وسلطة مركزية أو بمعنى آخر ظهور (الاقليم) كوحدة سياسية اقتصادية اجتماعية .

مع نمو المجتمعات المصرية فى فجر التاريخ نمت التأملات الفكرية فى محاولة لتفسير الظواهر الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التى تسود وتفرض نفسها .

وكانت عدة اسئلة تفرض نفسها على المصريين حينذاك :

— من نظم مسيرة هذا النيل العظيم من أقصى الجنوب المجهول ليجرى على طول الوادى حتى البحر ؟ ومن نظمه أو كيف نظم نفسه فى فيضان محدد المواعيد من كل عام ليخصب الأرض ولتخضر بعد كل فيضان ؟ .

— ما هذه الشمس ودورتها ، وما هذا الدور المعجز فى استمرارية الحياة ؟ .

— كيف انتظم القمر والكواكب والنجوم فى نظام معقد كل التعقيد ؟ .

— ما سر هذه الكائنات الحية النافعة منها والضارة وما دورها ؟ .

— ما هى العلاقة بين مختلف ظواهر هذا الكون .. الحى منه والجماد ؟ .

تأمل المصرى .... وقادته تأملاته الى أن هذه (الشمس) رب ... بل رب الأرباب ، واتخذ اهل كل اقليم لنفسه الها من وحى طبيعة الاقليم وما يدب فيه من حيوان . ولعلهم فعلوا ذلك اما لتجنب شر يستطيعه او لجلب خير كثير يمكن أن يقدمه — لقد قدسوا (الحية) وجعلوها حارسا لرب الأرباب رع (الشمس) وعبدوا البقرة (حتحور) لما تقدمه من خير كثير ولما تضربه من أمثلة رائعة للأمومة والحنان .

وبنمو الاقليم ، نمت العلاقات ، وبدأت ارهاصات التوحيد والتوحد تنمو ، ومع هذا النمو تهيأت الظروف لظهور أول دولة فى مصر هى مملكة الشمس ، ولكن ليس لدينا معلومات وافية عنها ، الا ما خلفته بعض الأساطير التى تشير بوضوح الى ظهور مملكة متحدة فى دلتا مصر ، ولعل أبرز ملوكها « حورس » الذى أصبح فى نظر المصريين فيما بعد الها ذائع الصيت ، وهو أحد عناصر أسطورة ايزيس وأوزيريس ، تلك الأسطورة التى تقدم نماذج من أنماط العلاقات الأسرية التى لا نزال نعيشها الى الآن كما تقدم لنا تصورا لرؤية المصريين لخلق هذا الكون .

وتتحدث هذه الأسطورة عن صراع بين أخوين ، على السلطة هما « أوزوريس وست » . وكان الأول يمثل الخير ، والطيبة ، وزوجته « ايزيس » تمثل الوفاء والاصرار على حماية ابنهما حورس من افتيات عمه ست عليه .

اتخذ حورس من « أون » (١) عاصمة له ، فكانت أول عاصمة فى التاريخ ولكن ضاعت آثارها تماما ، وذلك يرجع الى طبيعة الدلتا الرطبة ، ومع ذلك ظلت لحورس عبر التاريخ القديم مكانته ، وكان يصور على هيئة صقر فتى .

وتحمل العديد من المدن المصرية اسمه حتى الآن : فدمنهور بالفرعونية تعنى مدينة «حور » أى حورس ، وقس على ذلك أسماء العديد من المدن الأخرى .

ولأمور لا نعرفها ضعفت هذه المملكة ، ولكن حسب نظرية ابن خلدون ، فلكل دولة نشأة ، وفترة فتوة وقوة ، ثم ضعف وانهيار . وعادت مصر الى أن تصبح مكونة من العديد من الأقاليم ، لكل اقليم أميره والهه . ولكن التفكك ليس من طابع وادى النيل ، ففترات التفكك ما هى الا فترات شاذة ، ولذلك لم يلبث وادى النيل أن اقتصر على مملكتين احداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب .

---

(١) قرب عين شمس الحالية .

ودار صراع بين المملكتين فى سبيل الوحدة ، وتحققت على يد ملك الجنوب فى هذه المرة « مينا أو نارمر » مؤسسى أول أسرة فرعونية حاكمة ، وذلك فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد . فكان بداية لثلاثين أسرة حكمت مصر حتى عام ٣٠ ق.م .

الدولة القديمة :

يعتبر عهد الدولة القديمة — أى عهد الأسرات الست الأولى — من اروع عهود التاريخ القديم سواء المصرى أو العالمى ، ففى هذا العهد بنيت الأهرامات المعجزات . ويمتد عهد الدولة القديمة من أواخر الألف الرابع حتى أواخر الألف الثالث (٣١٩٧ — ٢٢٣٠ ق.م) .

كان على رأس الحكم فى مصر على عهد الدولة القديمة فرعون (١) . يحكم البلاد من عاصمته (منف) مقر الادارة المركزية . وكان فرعون ابنا وصورة للاله . وبعد وفاة فرعون يندمج مع رب الأرباب (رع) .

وكان اذا مات فرعون يخيم الحزن على البلاط والبلاد وتطوف مئات من النسوة المدينة مولولات يهلن التراب على رءوسهن وبعضهن ينشدن مآثر الفقيد فى الطرقات .

وكان فرعون هو الكاهن الأعظم ، وصاحب الأرضين ، وله الكلمة التى لا ترد ، وهذا لا يعنى أنه يعمل بلا قيود . فقد كان فرعون فى الحقيقة ملتزما بالقانون ، وكان أمراء الأقاليم يحدون من سلطته . اذ كان فرعون يستعين بهم فى اعداد الجيش . وكان من أبرز مظاهر التزام الملك بالقانون أن محاكمة بعض الأميرات كانت تجرى طبقا للاجراءات القانونية ، وكان الملك نفسه لا يتدخل فيها وكان يحضرها أحد كبار الموظفين .

كان فرعون هو القائد الأعلى للجيش ، وكان يقوده فى المعارك . ولكن كثيرا ما سجلت الآثار خروجه على رأس جيشه الى معركة لم يزحف اليها ولم يشهدها اطلاقا ، وذلك يرجع الى أن رعيته كانت تفخر بأن تنسب الى فرعون ما يتحقق من أمجاد .

---

(١) لا ندرى من أين أتى هذا اللقب ولا متى بدأ استخدامه .

وكانت فى الدولة القديمة ادارة تعرف بادارة الوثائق الملكية ، وهى المختصة باصدار وحفظ المراسيم الملكية ، وكانت نسخ من هذه المراسيم تعلن على الشعب بوضعها على أبواب المعابد .

وتعتبر مصر اقدم دولة اتبعت نظام « الوزير » أو بمعنى آخر المعاون الأول للملك ، فالوزير هو المسئول عن الشئون الادارية كلها ، وهو الذى يعين الموظفين الاداريين ، ومسئول عن تنفيذ المشروعات ، وخاصة مشروعات الرى والانتاج الزراعى ، وكان الوزير فى نفس الوقت « كبير القضاة » وهى مسئولية كان يعتز بها .

وكانت الادارة فى عهد الدولة القديمة موزعة الى مجموعة من الوظائف والكتبة . ونلاحظ أن مكانة الموظف كانت عالية ، وهذا وضع نشاهده عبر العصور فى مصر . حينذاك كان الموظف مولعا بالالقاب ، لدرجة انه كان معنيا بتسجيل القابه الصغرى الى جانب القابه الكبيرة التى حظى بها فيما بعد . وفى فترة ضعف فراعنة الدولة القديمة ، يلاحظ انهم أسرفوا اسرافا كبيرا فى منح الموظفين الألقاب ، كما يلاحظ ان الموظف الواحد كان يحتكر العديد من الوظائف ، وهذا مظهر من مظاهر الضعف فى بنية المجتمع بصفة عامة .

وكان لكل عاصمة من عواصم المقاطعات مجلس يتولى الأمور الادارية والقضائية . وكان لكل قرية « سيد » مسئول عن أمورها الأمنية ، وكانت له سلطات قضائية عرفية فى المسائل العادية أما حالات الجنايات الخطيرة فكان يخطر الحكومة المركزية بشأنها . وكان سيد القرية مسئولا عن تسجيل الأراضى وتسجيل الايجارات ، ودوره فى ذلك العهد البعيد لا يختلف كثيرا عن دور عمدة القرية القوى فى القرية المصرية حتى زمن قصير .

وفى اى مجتمع قروى او حضرى ، يوجد الحرفيون « ولكن تميزت فى عهد الدولة القديمة طبقة من الصناع الفنيين الذين كانوا على درجة عالية لا شك انها كانت نتيجة لتوارث الابن الأبيه فى الصنعة ، وخاصة فى مجال صناعة الأوانى وفن النقش والنحت » الذى بز فيه المصريون كافة شعوب العالم .

وتؤكد النصوص القديمة باستمرار أن الأرض لفرعون ، وريث الالهة ، من الناحية النظرية، ولكن من الناحية الواقعية كانت هناك اشكال متعددة من الملكيات :

- ملكية فردية :
- ارض تمتلكها اسرة بعينها :
- ملكية استغلال :
- أراضى حبست على الآلهة والكهنة والمقابر .

وكانت هناك ملكيات واسعة واخرى صغيرة ، فقد كان لفرعون الحق فى أن يهب من يشاء من الأسرة المالكة والحاشية اقطاعات زراعية كما كان يكافىء رجال الدولة بمساحات من الأرض . ولوحظ أن بعضها كان يحتاج الى جهد واستصلاح . ان ظاهرة منح الاقطاعات التى تحتاج الى استصلاح من الظواهر المتكررة فى التاريخ المصرى ، ومن ذلك اننا نصادفها فى عهد محمد على فى القرن التاسع عشر وما بعده .

لقد كان حق التصرف فى الأرض المملوكة ملكية خاصة مكفولا لصاحبها ، الى جانب ذلك كان هناك حق الانتفاع دون التصرف فى الأرض ، وهو ما نشاهده فى تاريخ مصر فيما بعد ، فيما يعرف باسم « حق الرقبة » أى الامتلاك الكامل وحق الاستغلال دون التصرف .

ولقد تردد كثيرا فى بعض المؤلفات أن الفلاح المصرى كان عبدا لفرعون وانه سخر فى اعمال المنفعة العامة مثل شق الترع وحماية الجسور . حقيقة كان هناك نظام السخرة ، وكان اللجوء اليه فى ذلك الوقت من الأمور المعتادة فى ذلك العصر ، فلم تكن ميزانية الدولة على نظام دقيق يكفل وجود مخصصات مالية مجددة لمواجهة الأعباء العامة الكبيرة ، ولذلك كان الرجال يسخرون فى هذه الأعمال بشكل يقرب من مفهوم الضرائب الوطنية . تدفع على هيئة عمل ، وليس المقصود منها الاذلال .

كانت الضرائب تفرض على الانتاج والعقارات ، وخاصة على الأراضى الزراعية تبعا لطبيعة فيضان النيل . وحتى تضبط الحكومة عملية

جمع الضرائب كانت تجرى احصاء عن الأملاك . كان هذا الاحصاء يجرى مرة كل عامين فى أول الأمر ثم أصبح مرة كل عام . لكن فى فترات الاضطراب كانت تتوقف عملية اجراء هذه الاحصاءات .

وكانت هذه الضرائب عينية (غلال واقمشة) وتدفع على هيئة معادن ثمينة وتقدم الى (بيت المال) الذى كان بمثابة وزارة المالية . ومن هذه الأموال كانت الحكومة تنفق على الجيش والأشغال العامة وتغطى نفقات البلاط الفرعونى ودور العبادة .

اما فى المجال العسكرى ، فكان فرعون يعتمد على حرس خاص ، وعلى فرق يشكلها حكام الأقاليم ، يستدعيها عندما يحتاج اليها ، وكانت بسيطة السلاح . وبصفة عامة كان المصرى يرى أن العسكرية اقل شأنا من العمل الوظيفى حتى لقد ذعر مثقف عندما رأى الشباب وهم ينخرطون فى سلك الجندية ، فكتب يحذرهم من هذا الاتجاه .

كان الحفاظ على تماسك الأسرة فى الدولة القديمة من أسس المجتمع حينذاك .

والبيت السعيد فى نظر المجتمع القديم يقوم على الأسس التالية :

١ — زواج مبكر فى بيت مستقل .

٢ — ذرية تأتى فى وقت مبكر ليحترم الناس الأسرة ، فالأولاد لم يكونوا عبئا على الأسرة حينذاك بل كانوا (عزوة) فضلا عن أنهم سرعان ما يتحولون فى سن مبكرة الى أيد عاملة منتجة .

ان كثرة من الشواهد والتماثيل والصور المنحوتة تتحدث عن وفاء الزوجين بعضهما لبعض كل الوفاء ، حتى لو كان الزوج قزما أو مريضا .

أما عن الأم والأمومة فقد تناولها الفيلسوف المصرى القديم (آنى) ناصحا شباب عصره بقوله :

« أطع والدتك واحترمها فان
الاله هو الذى أعطاها لك »

وطبيعة الحال فى المجتمعات توجد كذلك المشكلات الأسرية العديدة وخيانة الزوجة لزوجها ، وخيانة الزوج لزوجته ، وما يترتب عن ذلك من عواقب وخيمة تحل بالأسرة بصفة خاصة وبالمجتمع بصفة عامة .

الأهـرام :

اتخذ فراعنة الأسرة الأولى والثانية عاصمتهم فى (ثينة) بالقرب من البلينا ، ثم اتخذ الفراعنة من (منف) عاصمة أزدهرت فى عصر الدولة القديمة .

وعرفت أسرات هذه الدولة ببناة الأهرامات ، وأنها الأبلغ شاهد على قدرات مصر المعجزة فى ذلك الوقت المبكر .

وانه لمن الضرورى للغاية أن نتعرض الأعظم انجاز حكومى شعبى خلال عهد الأسرة الرابعة ، تلك الأسرة التى عرفت بمعجزة بناء الأهرام . ولسنا هنا بصدد تقديم دراسة تاريخية عن هذا الاعجاز الفنى المعمارى ولكن بصدد تقديم صورة عما تضمنه هذا العمل المعجز من مفاهيم العمل الجماعى والتنظيم الدقيق لعمل يقوم به عدة الوف من العمال .

وهناك دلالات هامة للغاية تنبثق من مفهوم بناء الأهرامات :

١ — ان سلطة فرعون كانت فى منتهى القوة والتحكم فى رصيد الدولة وان النظام الحاكم كان مستقرا .

٢ — ان معدلات الخطأ — التافهة للغاية — تدل على حنكة ومهارة معمارية لا تنتج فقط عن ذكاء خارق ولكن عن طول مران وتجربة وخبرة نادرة فى فن الادارة العليا فضلا عن الهندسة .

ويحدثنا أحد المؤرخين عن مدى الدقة التى تميز بها مهندس عصر بناة الأهرام فيقول :

« .... من الأوصاف المتعة فى تصوير مدى الدقة فى بناء الهرم ، ما يقال عن ان متوسط الخطأ فى طول جوانبه لا يعدو ١ : ٤٠٠٠٠ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه اى لا يعدو كسرا عشريا يساوى دقيقة واثنتى عشرة ثانية ، وان معدل الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد على ٣ : ١٠٠٠

وان الفواصل بين احجاره لا تزيد عن نصف ملليمتر (١) .

لقد تحدث عدد كبير من المؤرخين عن ان بناء الاهرام كان يتم على حساب القوة البشرية للشعب وعلى حساب المفاهيم الانسانية . ولم يتنبه هؤلاء الباحثون الى أن المشاركة فى بناء مثل هذا العمل الضخم تضفى على الفرد نوعا من الراحة النفسية ، حيث أن هذا العمل من باب الأعمال المقدسة وجزء من مفهوم العبادة لرب من أرباب مصر القديمة بل لرب الأرباب (رع — الشمس) .

ولا شك أن الاشتراك فى هذا العمل كان يعنى تحمل العامل مشقة الغربة عن مسقط راسه ، ومشقة الاقامة بجوار موقع العمل ، ولمدة ليست بالقصيرة قد تصل الى ثلاثة اشهر . ولا شك ان العامل بصلابته واجه هذه الصعاب . ومما لا شك فيه ايضا أن نوعا من السخرة فرضت عليه ولكن يجب أن لا نبالغ فى ذلك ، والا نأخذ ما كتبه عدد كبير من الباحثين الا بعد تمحيص .

ان بناء الأهرام كان حقا جزءا من العقيدة ولكنه فى نفس الوقت كان يتطلب العمل بنوع من السخرة ولكنها سخرة محدودة اقرب الى الضريبة المفروضة على القوة البشرية المصرية .

ان هذا العمل الذى كان يقوم به عدة آلاف من الشباب والرجال فى آن واحد يدل حقا على مقدرة فذة فى التحكم فى مسيرة العمل وتوجيهها . وهى مقدرة نادرة فى العمل الجماعى وتوزيع مسئوليات العمل بدقة ومتابعة لكافة التفاصيل ولكافة العمليات سواء الفرعية أو الرئيسية .

ان عملية بناء الأهرام تثبت بما لا يدع مجالا للشك ان المصرى فى عهد الفراعنة كان على مستوى رفيع للغاية من حيث العمل الجماعى ومن حيث القيادة الجماعية والتنظيم الدقيق .

ولقد عنيت الهيئة المسئولة عن تنفيذ الاهرام براحة العمال ، وكان هؤلاء

---

(١) د. عبد العزيز صالح : الشرق الادنى ، ج ١ ، ص ١١٣ .

العمال بالآلاف ، وكانوا يتجددون من فترة لأخرى . فأقامت لهم (مدينة عمال) بالقرب من موقع العمل . ولا تزال آثار هذه المدينة باقية الى وقتنا هذا .

ونظرا لأن طقوس وأساليب الدفن فى مصر الفرعونية كانت ذات قدسية خاصة واجراءات تحنيط معقدة ، فقد أصبح من الضرورى اقامة مستعمرات لعمال الدفن بجوار مواقع الدفن الرئيسية . ولقد اكتشفت العديد من هذه المستعمرات ، وتدل بقاياها على أنها كانت تضم عددا كبيرا من العمال وكانوا يتظاهرون عندما يتقاعس المسئولون عن دفع رواتبهم بانتظام .

ولكن من زاوية أخرى جر بناء الأهرام والمعابد الضخمة العديدة على البلاد نتائج جد وخيمة . فقد أسرف الفراعنة فى الانفاق حتى اضطربت الميزانية واحتكرت الأسرة الحاكمة المناصب العليا حتى اضطربت الادارة بسبب عدم الكفاءة وسوء التصرف .

وقد ادى ذلك الى أن تعيد الأسرة الخامسة النظر فى الأمور حتى لقد تخلى افرادها عن العديد من المناصب العليا لصالح قيادات من الشعب .

ضعف الدولة القديمة :

اذا كان هناك دليل على أن الاسراف فى طول مدة الحاكم تؤدى الى وقوع ثورة جذرية فهذا الدليل كان قائما منذ عهد الأسرة السادسة . فلقد حكم بيبى الثانى زهاء قرن من الزمان ، ومن بعده كان الطوفان اذ وقعت بعده الثورة الاجتماعية الكبرى التى قوضت الدولة القديمة وأدت الى تغير جوهرى فى تركيب مصر الاجتماعى .

لقد كان بيبى مصلحا محبا لوطنه ، ولكن بعد تلك السنوات الطويلة لم يعد قادرا على متابعة جهوده ومن جاء من بعده كانوا ضعافا غير قادرين على معالجة تراث طويل من الأخطاء فانفلت الأمر من يده الى أيد أخرى عديدة ... وذلك هو التطور الطبيعى نحو الثورة الاجتماعية لتصحيح أوضاع عجزت عنها الحكومة لأمر أو لآخر .

من ابرز مظاهر انحدار مكانة القصر أن فرعون وافق على تزويج

بناته من كبار موظفيه ، وكان مثل هذا الزواج من قبل غير مقبول .
وفى داخل القصر نفسه أصبحت زوجة فرعون تحاكم على يد قضاة وكبار الموظفين بتوجيه من فرعون ، ولم يقتصر بناء المقابر على البلاط وانما امتد ذلك الى كبار رجال الدولة .

كان نمو قوة امراء الاقاليم نتيجة طبيعية لضعف فرعون وبلاطه وعدم قدرتهم على ادارة دفة الحكم . وكان هؤلاء الأمراء فى اول الأمر يتولون بقرار من القصر . وكل عمل يقومون به انما هو بتوجيه القصر ، ولا هدف للأمراء الا خدمته والحفاظ على حقوقه . ولكن مع تدهور سلطة القصر اصبح الأمير يورث امارته لابنه رضى القصر أم لم يرض ، وتحدث الأمير عن أعماله المجيدة للحفاظ على حقوق الاهالى فى اقليمه ، بل منهم من ذهب الى ابعد من ذلك عندما تجاهل القصر ورفض سلطة فرعون فكان ذلك تفككا ليس فى الادارة فقط ولكن فى المجتمع .

كان فرعون وبلاطه فى أواخر الدولة القديمة يعملون على تثبيت اقدامهم عن طريق كسب ولاء العناصر التى اصبح النفوذ فى قبضتها . ونظرا لأن نفوذ الكهنة كان قويا ، فقد أغدقوا عليهم الهبات والمنح والأوقاف مرضاة لهم ليعملوا على بقاء اسم فرعون مسموعا ومطاعا .

ان هذا الاسراف فى العطايا والمنح والأوقاف المعفاة من الأعباء المالية كانت من عوامل الفساد ، فضلا عن أنها كانت من عوامل تصاعد قوة الكهنة على حساب القصر .

ولعله من مظاهر التدهور الخلقى فى أواخر الدولة القديمة ذلك الانفلات الذى ظهر فى المجتمع ، ويسميه البعض تحررا من القيود الاجتماعية ومن التقاليد المتزمتة . ولقد عبر الفنان عن هذه الموجة التحررية فى عهد الأسرة السادسة اذ صور الراقصات عاريات وشبه عاريات فى حركات فنية راقصة رقيقة رقة حركات الباليه المعاصر ولكنها فى نفس الوقت مثيرة فتانة على الطريقة الشرقية .

ان هذه الحرية فى الرسم والتصوير كانت جديدة على مجتمع الدولة

القديمة . وهذا الاتجاه يشير الى ان الحياة اصبحت مليئة بالمباهج والملاذ المتطرفة القريبة من مفهوم الرذيلة .

وتكشف لنا بعض المتون عن استشراء الفساد فتقول :

« ان الاستقامة اصبحت منبوذة ، وضرب الظلم أطنابه فى المجلس ، وسلك القوم طريق الخطايا والذنوب ، وافتقدوا الاحترام المتبادل ، وافتقد الفقير من يدافع عنه ضد حكم ذوى البأس . وكان من يتلفظ بنقد ما يفقد صديقا ويكسب عدوا ، اذ اصبحت القلوب عازفة عن قبول صدق المقال » .

لقد كان ذلك مقدمة لوقوع الثورة الاجتماعية الكبرى التى اندلعت فى اواخر الدولة القديمة .

الفصل الثانى

الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى

بعد تلك النهضة المعجزة على يد بناة الأهرام ، وبعد تلك الالوهية لملوك فراعنة الدولة القديمة ، كان الاسراف فى الانفاق على بيوت الآخرة وتصاعدت حاجات الفرعون الاله وبلاطه ورجاله وحريمه وأعوانه الى الأموال من المتحكمين فى الانتاج فى مختلف اجزاء البلاد ، وكان هؤلاء فى نفس الوقت يمارسون قوة ومكانة تتصاعد كلما احتاج اليهم القصر ، فنمت قوتهم واعتزوا بما سيطروا عليه ، وبمن التف حولهم من رجال ، وطاولوا رجال فرعون .

واضطر رجال القصر امام الحاجة الى الأموال وأمام الحاجة الى كسب رضاء اصحاب القوة والنفوذ فى مختلف البلاد الى ان يمدوا قبضتهم الى كل من يحصل على دخل من الرعية ، حتى تحول الأمر الى ما يشبه الابتزاز ان لم يكن هو الابتزاز نفسه . وتحمل الشعب فى أول الأمر ، ثم طفق يتساءل ويقارن ، وأخذت تتكشف له الحقائق من حيث ان هذا البلاط المسرف لا يشعر بحاجات الفرد الأولية ، وتلفت حوله فوجد أن علية القوم واثرياءه ليسوا علية ولا اثرياء الا لما اقترفته أيديهم من سرقة اقوات الشعب وارهاقه بحرمانه حتى من مقومات الحياة اليومية . وعندما عرضوا الشكاية فى تواضع أزورت عنهم الوجوه او الهبت السياط جباههم وظهورهم ، وسيق اولادهم وبناتهم خلف الزوجة الباكية ليلقوا جزاءهم لمجرد الشكوى او التململ ناهيك عن الرفض أو المقاومة .

كان الضعف والتدهور والفساد ينخر فى جسد الدولة وخاصة الحكومة ببلاطها وموظفيها ، فالموظفون لا يقدمون عملا الا انتزعوا من مسكين قوته ، واذا قام الموظف بعمله فما ذلك الا مجرد عمل يؤديه ولا قيمة لجدواه ، وغابت عنه حاجات الشعب الحقيقية وان لامه لائم أشاح عنه وجهه فى سخرية بلهاء .

خربت الذمم ، والمصلحة الذاتية هى فلسفة الأداء الوظيفى او اى عمل يتصف بالمصلحة العامة ، فضاعت هذه بين الفساد الخلقى والفساد الادارى

وضاعت المسئولية الجماعية ، ونفض المسئول عن نفسه الدافع الذاتى ، فأصبحت الادارة هلامية ، قائمة وكأنها غير قائمة ، مطلوبة غائبة ، ففقدت المضمون وربما الشكل ايضا وانتظرت ريحا صرصرا أو غير صرصر لتطيح بها ومن فيها .

فقد الشعب ثقته بالحكم والحاكمين ، وبالفكر الدينى والدنيوى وبالاله فيما وراء الطبيعة ، وبالاله الانسان التعس فى بلاطه ، وبالأمير أو الأميرة أو العين أو الثرى ، اذ فقدوا مقومات سلطتهم ، فلا يستمع اليهم أحد .. وكيف يسمع أحد أمرا وهو كاره ليوم مولده ويوم مصرعه ..... لقد ضاعت هيبة الحياة الاخرى ، ولا بعث ولا باعثون ، ولا آلهة فى الشرق وأخرى فى الغرب لمن يموتون ، ويتساءلون عن عذاب وضياع فى حياة وآخرة .. انهم فى معتقداتهم لقوم ضالون مضللون ، فلتصل الأيدى الى ما تصل اليه ، تلك شريعة لم يقل بها الحكماء ، فليقل بها البائسون ولينفذوها مهما كانت النتائج ..

اليست أبواب مصر الشرقية على الأقل مفتوحة أمام ذلك المتخلف حضاريا .. ولكنه الوصولى السريع الحركة ؟ .

لقد تقدمت كتائب الشرق الأسيوى الى قلب الدلتا ، كتائب بعضها من عسكر شهر سيفه ، وبعضها تجار شهروا بضاعتهم ، وبعضهم ذوو خبرة فى الادارة فرضوا أنفسهم على من فقد الخبرة والرؤية ..

وهؤلاء يتطلعون الى ما هو فى الشرق .. ويعملون على فتح واستمرار انفتاح باب مصر الشرقى فمنه قد وفدوا ومنه يستقدمون من يبتزون به ، واليه يفرون اذا ما اضطروا الى الفرار ..

وبدو الصحراء وجدوا فرصتهم فى الانطلاق الى قرى الوادى الأخضر وكان محرما عليهم ، لما جبلوا عليه من القضاء على كل ما هو أخضر .. وضاعت المحاصيل المثمرة .. واجتاحوا الأخضر واليابس .. فهل كان ذلك لمجرد النهب أم لكى يسلبوا هؤلاء الفلاحين مقوماتهم الحضارية ليصبحوا أمما تحت سياطهم أو هائمين فى الصحراء على نحوهم ؟ .

والشعب ينظر الى هؤلاء وهؤلاء نظرة عجب ، أهكذا يردون ماء النيل صفوا ويعبه المصرى عكرا ؟ وكيف يتدفق هذا وذاك بينما البلاد فى ضنك

ومجاعة ، هل غضب النيل على مصر وشعبها ، فغاض الماء عنها حسرة على ما فيها ، أم لينزل بهم العذاب بعد امتلاء سفه .. علهم يدركون عوامل الرخاء ومسببات المجاعة ؟! .

اصابت المجاعة كل من على الأرض ، ثريا أو فقيرا ، ولكن ذلك الثرى يستطيع ان يتحملها اكثر لما لديه من مخزون فى (صوامعه) فوق الأسطح ولما لديه من مخزون فى جسده . اما ذلك الفقير الذى كان نصبة لغيره ، فليس لديه شىء هنا ولا هناك ، فما من سبيل امامه الا ان يصل بطريقة أو باخرى الى توت يومه ، وان يشفى غليله من هؤلاء الذين دفعوا البلاد الى هذه الهاوية المروعة .. فانطلقوا وجلين فى أول الأمر .. واذا بالآلهة والسادة وعلية القوم كانهم أعجاز نخل خاوية .. فتحولت الحركة الى ثورة ، ثورة مدمرة لا تبقى ولا تذر ولا قيم ولا مثل .

اقتحموا بيوت الاثرياء والأمراء ... وماجوا فيها واقاموا اقامة حاقد لا ينهب لياكل .. ولكن ينهب ويدمر لينتقم أو ليشفى غليلا .. ومن كانت فى جوانحه دوافع لصوصية انفجرت ، أما من كان لصا فقد جاء زمانه ، فكان أن عقدت السيادة لهم . وسرى الذعر والفزع والخوف .. خوف من كل شىء ومن كل انسان ، لقد أصبح الناس بلا راع .. وانطلق الجمع افواجا ، فاذا الأب ذبيح ولده .. والأخ نال أخاه فى مقتله فما بالك بما وقع بين من لا أواصر قربى بينهم .. تذابحوا دون شفقة وضاعت الانسانية وكأنها نغم رومانسى لا يسمعه ولا يريد أن يسمعه أحد .

وفرعون يجلس على عرشه اليوم لينزل عنه غدا وربما فى يومه . وينزل عنه مضرجا أو غير مضرج ولكن الى حيث تلقى فضلات قوم . والمخدرات الناعمات انطلقن مذعورات من دمار مؤكد الى دمار مؤجل .

واطلقت المأساة لسان أدباء تلك الفوضى الدموية فعبروا بابلغ كل عما أصاب البلاد ، فيقول (ابيوور) :

ها هى بلادى قد خرجت ... دون أن نجد دمعة من أجلها .

السلاح يمشى على الأرض فذعرا لمن يطؤها أمامه .. وغاض م

النيــل ... فلتدب الأقــدام القــذرة على قاعه ، البــدو فى قلب الــوادى وله يمزقون ، والآسيويون الشــعث ــ يتســللون ــ وينخرون عظــامه فلا ســاعد يدفع عادية غاز ولا وقاحة مغتصب ، فتدفق المغتصبون من شرق البلاد .

فقد الرجل نخوته حتى أدار ظهره كى لا يرى أخــاه مجندلا بخنجر غــدر ، واذا أردت لقمة عيش فبدم صديق أو عدو .. فلا يهم .... ولا قيمة حتى لهذا الدم أو لهذا الموت ... بل أن الموت أصبح يبتغى ... فالجســد يرتاح من هول مــا هو فيه ، وهزىء المصرى من ذلك الذى كان يقول بأن الموتى تقوم وأن عليه أن يعمل عملا صالحا ليوم بعث وتقديم ومحــاكمة . كفــر المصرى بالبعث ، وبالآلهــة ... الأحياء منها والأموات والى جانب من كفر بالبعث والآخرة كان هنــاك من يدعو الى الدنيــا وزخرفها فهى القائمة الحقيقية ، أما الأخرى ــ من وجهة نظره ــ فظنية ــ واندفعوا الى ما لذ وطاب لا يلوى أحــد على شىء ... ولا يدرى اى النقيضين له الحق والبقــــاء .

الـــــدولة الوســــطى :

ان هذه الفوضى مهمــا طالت فهى تعبر عن فترة شــاذه ضــــد التيــــار الطبيعى الذى يتلاءم مع وادى النيــل : تيــار الوحدة والاتحــاد . ولذلك أخــذ التفكك يقل تدريجيا حتى كاد أن ينحصـــر الصـــراع بين بيتين حاكمين أحدهما فى اهناسيا والآخر فى طيبة ، وظل الصراع بين البيتين حتى عقــد لواء النصــر لبيت (طيبة) وحصلت مصر على الوحدة وعلى نوع من الاستقرار على عهد الاســرة الحــــادية عشــــرة .

لقــد عنيت الأسرة الحــادية عشرة باســــتعادة هيبــــة فرعون فبذلت جهــدا ضد أمراء الاقاليم ، وظهــر فى مصر جيش خاص بفرعون حتى لا يعتمــد كلية على قوات هؤلاء الأمراء . وازدهرت الحضارة فى عهــد الدولة الوســطى ، وهى حضــــارة لم تكن مركزة فى العاصــمة (على نحو مــا كان عليه الحــال فى الدولة القديمة) وانما كانت مراكز الحضارة منتشرة فى مراكز حكام الاقاليم . ونفذ فى عهد هذه الدولة مشـــروع تجفيف عشـــرات الألوف من الأفدنة فى الفيوم تمهيدًا لزراعتهــــا .

وبينما كانت الاسرة الثانية عشرة تسيطر سيطرة قوية على البلاد اذا بها تنكب بخطر لم نتوقعه وهو تسلل ثم اجتياح (الهكسوس) لمصر فى اواخر الاسرة الرابعة عشرة بالذات .

لقد كان اغماض الاسرتين ١٣ ، ١٤ العيون عن خطر الهكسوس هو الذى اعطى لهؤلاء البدو الفرصة اولا للتسلل ثم لفرض سلطتهم على البلاد المصرية حتى انهم مدوا سيطرتهم الى اطراف طيبة التى استطاعت لبعدها ان تحافظ على استقلالها ، وهو استقلال كان غصة فى حلق الحكام الهكسوس ولذلك عملوا على توجيه ضربة تدخل طيبة — آخر معقل وطنى — فى طاعة الهكسوس فكان ذلك بمثابة بداية النهاية لهم فى مصر .

الفصل الثالث

من ذروة الحضارة الفرعونية حتى ضعفها

الـــذروة :

صمدت « طيبـــة » أمـام الهكسـوس ولكن لفترة من الزمان حتى قـرر الهكسوس تقويضـها ، فكافحت تحت قيـادة الفرعون سـقنن ــ رع حتى قضى نحبـه مكافحا ليرفع من بعـده « كاموسى » لـواء الكفـاح وأخذ يزحـزح الهكسوس ويدفعهم نحو الشـمال حتى اسـتكمل احمس المهمة المقدسـة وطرد الهكسوس تماما من مصر ، بل لقد طاردهم الى مـا وراء حـدود مصـر ، فقد تعلم المصريون خلال فترة كفـاحهم الطويلة المريرة أن مسـئولية الدفاع عن بلدهم ليسـت بقاصـرة على رد العدو حتى حـدود مصر ، وانما أدرك أن تفكك منطقة سـوريا يجلب على مصـر الكثـير من النكبـات . واذا كان من ضرورات السياسة حينذاك التحكم فى مفتاح مصر الشـمالى الشـرقى فقد جلب ذلك على مصر أشد المتاعب حيث كانت القوى المطلة على سوريا تدبر المؤامرات على مصـر .

ومن أبرز الجولات التى خاضتها مصر فى منطقة سـوريا ذلك الصراع الذى دار بين تحتمس الثالث والحلف الكبير الذى كان يتزعمه ملك قادش (فى الشام) وملك ميتانى وبقـايا الهكسوس هناك ، فلقنهم تحتمس درسـا قاسـيا فى موقعة « مجدو » التى تعتبر واحـدة من معـارك التاريخ الحاسـمة وبداية لظهور أول امبراطورية دفاعيـة مصرية . وأصبحت مصر بعد انتصارات تحتمس الثالث أكبر قوة فى الشرق القـديم . ولكن ابتلى البيت الفرعونى الحاكم بالاقبال على الرفاهية واقبلت أميرات دول العـراق الأسـيويات على الاقتران بفراعنة مصر وأمرائهـا وكبـار رجالها فكانت والدة امينوفيس الثالث أميرة أسـيوية ، وكانت زوجـة امينوفيس الرابع فاتنة من فاتنات البيت المالك فى « ميتانى » وهى نفرتيتى .

ويرى البعض أن الطبيعة الرخوة التى اتصف بهـا أمينوفيس الرابع ترجـع الى ذلك الـدم الآرى الذى ورثه عن أمـه وتشـبعت به روحـه من زوجتـه ، ولسـنا من أنصـار هذا القول . فالدم الآرى معـروف بصـلابته فى أيام مجـد (الآريين) ، وبرخاوته فى أيام التدهور . ان الرخـاوة التى أصـابت فراعنـة

مصر من عملهم هم ، من اقبالهم على الفاتنــات أميرات وجــوارى ، وليس تمثال أمينوفيس الثالث الذى صــوره الفنـــان المصرى وقد تهدلت يداه الى جانبـــه فى رخاوة المنهك الا ارهاصـــا للضــعف الذى دب فى الدولة المصرية، فقـــد أخــذت البلاد الآســـيوية تخرج على مصر الواحدة بعــد الأخرى حتى أصبحت مصر مـــرة أخرى مهــددة من حدودها الشـــمالية الشرقيــة ، فهب « حور محب » منتقــدا وأتى من بعده ســيتى الأول ورمســيس الثانى ليعملا على توطيد نفــوذ مصر فى ســوريا .. بل لقــد واجه رمسيس الثانى موقفا مشــابها لمــا كان عليه الحال فى أيام تحتمس الثالث .

فقد واجه رمسيس الثانى تحالفـــا من أمراء وملوك الشرق ، ولكنه صــمم على أن يخوض المعركة وزحف على رأس جيشــه الى فلســطين ، وعند (قادش) دارت معــركة رهيبــة بدأت بتفوق واضح من جانب الأعــداء حتى أنه لم يبــق ســوى الحرس الامبراطورى الفرعونى فى المعركة . وهنــا نادى رمسيس الثانى ربه أمون متســـائلا معاتبا كيف يخذله الرب فى هذه المحنــة . ولعل رمســـيس الثانى أيقن أن هذا العتــاب جنبــا الى جنب العزيمة على الانتصـــار هما مفتــاح الفرج ولقــد دبت فعلا فيــه وفى حرســه النخوة الوطنية وظلوا وراء جيــوش الأعداء حتى ردوها ولكن لم يهزموها .

لقــد كانت موقعــة قادش ســــجالا ليس فيهــا منتصر ولا مهزوم رغم أن الملك الفرعون صــور الأمر على أنه نصر كبير . أن الفــارق بين ما حــدث فى (مجدو) — على عهــد تحتمس الثالث ، وما حــدث فى (قادش) — على عهــد رمسيس الثــانى يكشــف عن حقيقــة هــامة هى أن الدولة المصرية القديمـــة كانت قد بلغت أوج مجــدها فى التاريخ القديم فى عهــد الدولة الحديثة ، وأنهــا من بعد ذلك بدأت فى الانحــدار التدريجى . ومن أمثلة بداية الضــعف تلك الأخوة التى قامت بين الفراعنـــة وملوك الحيثيين بعد قادش بينما كانت العلاقة فى عهــد الأسرة الثامنة عشرة علاقة الفرعون الســيد بأمراء تابعين يكفيهم فخرا أن يتقبــل فرعون منهم الخضوع والطاعة .

لقد كانت الدولة الحديثــة شــهرة عالية فى زمانهـــا ومن بعــد زمانهـــا ، كانت أســـماء فراعنتهـــا العظـــام تملأ أســماع الدنيـــا ، حتشبســـوت —

تحتمس الثالث — اخناتون — رمسيس الثانى ، وكان اتساع رقعة الامبراطورية من الفرات الى النوبة قد جعلها أعظم دولة ظهرت فى التاريخ القديم حينذاك بل أعظم وأول امبراطورية .

ولكن فوق هذا وذاك قدمت لنا هذه الدولة الحديثة من فنون العمارة والنحت والأدب ما لا تزال مؤسسات العالم العلمية تحاول أن تتفهمه وتبحث عن سر تلك العظمة الابداعية التى فتحت امام الدول الكبرى من بعد آفاق العلم والمعرفة والتطور ، وهو فضل للحضارة المصرية القديمة على الحضارات التالية سجله المؤرخون القدامى وأكده المؤرخ العالمى الذائع الصيت « توينبى » .

وكانت القوة السياسية التى بلغتها مصر فى عهد الدولة الحديثة وارتفاع مستوى التنظيم الحكومى والادارى والعسكرى ، واتساع رقعة البلاد التى تسيطر عليها مصر ، كان كل هذا من العوامل الرئيسية التى أدت الى تصاعد النمو الاقتصادى فى مصر وزيادة مستويات الدخل عند مختلف فئات الشعب .

ونظرا لأن الفلاح والأرض الزراعية كانت هى المصدر الرئيسى للدخل على مستوى الفلاح العادى أو على مستوى الدولة ، فقد عنيت الحكومة بالفلاح وأرضه ، اذ كان الوزير مسئولا مسئولية مباشرة عن الفلاح ومشاكله وعلاقته بالادارة والحكومة وعن مراقبة موارد المياه والفيضان .

وكان هناك مكتب لتسجيل الوثائق ، ومن آثار المكتب أمكن التأكد من وجود الملكيات على اختلاف أنواعها حيث كان نقل الملكية يتطلب اجراءات قانونية وتسجيلا وتوضيحا لنوع العقار الذى تنتقل ملكيته .

وقد اختلفت أشكال الملكية فى الدولة الحديثة ، كما تطورت تبعا لفلسفة الحكم وتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفى أول عهد الدولة الحديثة كانت الملكية الفردية وأملاك الفرعون وأسرته وأملاك المعابد والكهنة هى الاشكال الرئيسية حينذاك للملكية .

كذلك كان طبيعيا أن يكافىء فرعون قواده فى أعقاب النصر الكبير على الهكسوس ، وكانت المكافأة على هيئة اقطاع من الأرض ، وكان هذا الاقطاع ينتقل الى الأبناء ، كما كانت الأسرة الفرعونية الحاكمة تمتلك مساحات

واسعة ، كذلك كانت المعابد تحصل على هبات من الأرض متسعة ربط بها الفلاحون (*)

ولوحظ أن كثيرا من تلك الهبات كانت عبارة عن أرض تحتاج الى استصلاح ، فتكون الدولة قد كافأت رجالاتها وعملت على توسيع الرقعة الزراعية وزادت من دخلها من وراء ما سيفرض على تلك الأرض من ضرائب .

وسواء كان الفلاح مالكا لقطعة أرض محدودة أو يعمل فى أرض موقوفة على اله أو معبد أو كهنة أو فى أرض فرعون فقد كان يعيش حياة طيبة نسبيا اذا ما قيست بالحياة السابقة على الدولة الحديثة أو بالعصر الصاوى الذى جاء من بعدها (*)

فقد كانت مظاهر الرخاء تصل الى الفلاح فى عهد الدولة الحديثة ، وكانت عناية الحكام به وبأرضه أكثر وضوحا ، فمن حكام بعض الأقاليم من شجع على هجرة الفلاحين الى منطقة قليلة السكان ، وشجع على استصلاح الأراضى البور « وتوزيعها على المعدمين سواء بالتملك أم بالايجار أم بحق الانتفاع » ، ومنهم من أعفاهم من المتأخرات وأوصى بتاح حتب ابنه بقوله : « أرض العوام فان النعم لا تكمل من دونهم » (*)

وقال آخر لابنه : « لا تزحزح العلامات الفاصلة بين الحقول .. ولا تعتدين على حقوق أرملة — وارقب بنفسك من يفعل ذلك فبيته عدو للبلد .. واملاكه تنتزع من أيدى أطفاله » (١) (*)

وكانت الحكومة فى سبيل الحصول على الضرائب من الفلاح ، تقوم بمسح الأرضه قبل نضج المحصول حتى لا يهمل الفلاح فى عملة وحتى يدفع الضريبة المطلوبة (*)

وفى سنوات استقرار الحكم كانت الضريبة تقدر حسب جودة المحصول وتتجاوز الادارة عن الضرائب المتأخرة بسبب الكوارث الطبيعية (*)

وكانت الدولة تستفيد من الفلاح — الى جانب دفع الضرائب — فى بعض أعمال السخرة فى مشروعات الرى وفى المناجم وعمال التراحيل . فكان

---

(١) د. عبد العزيز صالح : الأرض والفلاح ، ص ٦٤ — ٦٥ (*)

يلقى عنتـا ، وكانت هناك فعلا ادلة على معاملة الفلاح بقسوة على يد الملاك ، ولكن يجدر بنـا الا نبالغ فى هذه الصورة .

وفى العصر الصـاوى اصبحت الملكية الواسعة هى السائدة اذ كانت فى حوزة المعابد والكهنة والأسرات المالكة وكبار رجال الاقطـاع ، وعندما أصبح رجال الدين هم اصحاب السلطة خلال القرن الثانى عشر ق.م. وحتى منتصف القرن العاشر ق.م. « تداخلت املاك الدولة مع املاك المعابد تداخلا كبيرا وتكتلت مساحات ضخمة من الأراضى الزراعية تحت أيدى اسر الكهنة الكبيرة التى توارثت كهنوت الاله امون جيلا بعد جيل » (١) .

واخذت حكومة الدولة الحديثة فى الضعف ، وفقدت البلاد التى كانت تسيطر عليها فيما وراء مصر ، واخذت الفتن والمشكلات الداخلية تتصاعد ، واخذ الاستهتار بالمعتقدات والتقاليد يستشرى ، وفى ذلك يقول احد المصريين المعاصرين لتلك الفوضى « لقد مرت الأعوام العديدة دون أن يكون للأفراد رئيس ... كانوا يقتتلون سواء من كان فيهم عظيما أو بسيطا ... الآلهة اصبحت تعامل وكأنها بشر ولم يعد هناك من يقدم القرابين للآلهة » . وتأثر الفلاح والريف بذلك وبالتطورات التى حدثت فى شكل الملكيات فى القرون الأخيرة من مصر القديمة وخاصة منذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد عندما أصبح نظام الحكم ثيوقراطيا ليسقط هذا الحكم على يد زعامات ليبية منذ منتصف القرن العاشر الى أوائل القرن الثامن ق.م. تلتها زعامات نوبية منذ الثلث الأول من القرن الثامن ق.م. حتى منتصف القرن السادس ق.م.

ساعدت تلك التطورات على ازدياد عدد الملكيات الزراعية الواسعة ، ولكن مما ساعد على تصاعد هذا العدد أن ضعف الأسرة الحاكمة ادى الى ظهور أسرات اخرى منافسة ، حتى لقد ظهرت فى وقت واحد أكثر من أسرة حاكمة ، ولكى تضمن ولاء رجالها ولشراء ولاء الآخرين ، كان الأسلوب المعتاد هو توزيع الاقطاعيات عليهم حتى أصبحت مصر تقريبا موزعة الى اقطاعات يتولاها كهنة أو أمراء اقطاع او عسكريون ، ونظرا لارتفاع شأن هؤلاء العسكريين بسبب تعدد القوى المتصارعة فى داخل البلاد فقد اكثر

---

(١) المصدر السابق .

الملوك من منح الاقطاعات للعسكريين وسمح الأبنائهم بوراثتها ، ومنحت لصغار الضباط اقطاعات محدودة المساحة ولكن كانت نسبيا مغرية الدخل، وهذا يفسر لنا اقبال الرجال على العمل العسكرى للحصول على اقطاعات عسكرية ولو محدودة . ومع هذا لم تكن أراضى الكهنة أو أراضى العسكريين ملكا خالصا ، وانما كانوا ينتفعون باستغلالها فقط .

وبسبب تصاعد اعداد ومساحة الملكيات الاقطاعية الواسعة كانت الاسرات تخشى على ممتلكاتها من أن تبتلعها الاقطاعات الكبيرة المجاورة وتخشى من الذوبان اذا ما طبقت عليها قواعد الميراث ، ولهذا نجد الأسرات الكبيرة تعمد الى الحفاظ على وحدة ممتلكاتها تحت نظارة الابن الأكبر وفى نفس الوقت ينتفع الأبناء بريعها ، وبذلك لا يسمح هذا الاسلوب بانتقال أملاك الأسرة الى أيد أخرى .

كان اتساع نطاق الاقطاع على تلك الصورة على حساب الملكية الفردية الضيقة وعلى حساب الملكية الحرة ، وبالتالى اصبحت حالة الفلاح فى هذا العصر تتسم بالتبعية لسادة الاقطاع وأخذ الفلاح يعانى من احواله المتردية ، ولدينا عدة أمثلة على ما كان يعانيه .

١ — فقد كان الفلاح الذى يضطر الى الاستدانة يرهن أرضه « الرهن الحيازى » أى ينتقل بالأرض الى الدائن حتى يفى الفلاح بدينه ، وكان الأمر يصل الى استرقاقه .

٢ — كانت الفائدة على الدين فاحشة .

لقد لفتت الأوضاع المتردية نظر الحكومة ، وتولى المشرع المصرى (باكن رنف) — فى القرن الثامن ق.م. — علاج هذه الحالة فاصدر عدة تشريعات تقضى بالامتناع عن استرقاق المدين وحدد سعر الفائدة وان ظلت مرتفعة جدا ، وتقضى بجواز سقوط الدين اذا مرت عليه ثلاث سنوات دون مطالبة ، ولكن — كما هو عليه الحال الآن — فان « التقادم » يؤخذ به فيما بين الأفراد من قضايا مالية ولا تأخذ به الحكومة .

وبصفة عامة تميز الفلاح المصرى القديم بالتدين والصبر والقناعة ، وكان من المتعارف عليه أن الفقر ربما يكون خيرا من الثروة التى تجلب التعاسة ،

وكان ذلك من العوامل التى تدعو الى القناعة السلبية ، ولكنه فى نفس الوقت كان يتدس ارضه حتى لقد بلغ به الامر ان اوصى بعدم بناء المساكن عليها ، وكان ينقلب الى ناقد شديد اللهجة للحكومة التى تهاونت فى حقوقه ، مثلما فعل الفلاح الفصيح (القرن ٢١ ق٠م٠) ٠

* * *

فترة الضعف والغزوات :

كانت عظمة رمسيس الثانى تتركز فى الدفاع عن الامبراطورية والابقاء على جزء كبير منها تحت يده والحفاظ على مكانة مصر الحضارية الدولية عالية ٠ ولكنها كانت مكانة اقل من تلك التى بلغتها على عهد تحتمس الثالث ٠ ويمكننا القول ان مصر فى عهد تحتمس الثالث وصلت الى القمة اما فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد أخذت تنحدر ، ذلك هو الفارق بين نتائج الانتصار فى (مجدو) ونتائج الانتصار فى (قادش) ٠

فلقد اتخذت مصر بعد معركة قادش موقف المدافع عن نفسها وأخذت خلال عمليات الدفاع تتخلى تدريجيا عن ممتلكاتها ونفوذها فيما وراء مصر فى المشرق ٠

لقد كانت مصر فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين ، ثم فى عهد الأسرات التالية تجاهد من اجل منع الغزوات ونجحت مرة وفشلت مرة وانعكس الأمر على مكانتها فيما وراء الحدود المصرية بل وعلى استقلالها ٠

فتلك البلاد الآسيوية التى كانت ترجف فزعا من سماع اسم فرعون اصبحت لا تقيم وزنا لمبعوثيه ٠ بل اصبح مبعوث فرعون محل سخرية واستهزاء حكام الشرق ٠

استطاع رمسيس الثالث أن يتصدى لهجمات جحافل (شعوب البحر المتوسط) ، ووجه اليهم ضربات قاصمات ، وكان نصره مؤزرا ٠ ولكن عرف هؤلاء المهزومون كيف يطورون مواقفهم لمصالحهم ولو جزئيا ٠ فمع أنهم قبلوا الهزيمة العسكرية الا انهم لم يتخلوا عن هدفهم وهو الاقامة والعمل والتمتع بخيرات مصر ٠ وكانت ظروف مصر حينذاك تعطى لهم الفرصة ٠ فقد أصبح فرعون مصر يعتمد علي القوات المرتزقة اكثر من اعتماده على رجال الوطن

انفسهم . فكان ان رحب الفراعنة فى بداية فترة الضعف بهؤلاء المرتزقة فى الجيش ليصبحوا من بعد وفى وقت قصير يشكلون القسم الاكبر من القوات المدافعة عن مصر . ولقد اعطى لهم الفراعنة امتيازات هامة للغاية (*) اذ اقطعوهم مساحات مناسبة من الاراضى ، وتأقلم هؤلاء مع البيئة المصرية فاتخذوا من آلهة مصر آلهة لهم . لقد كسب هؤلاء المرتزقة حياة رغدة وان كانت خطرة ، وخسر الشعب المصرى اكبر خسارة بسبب ابعاد أبنائه عن اكبر مسئولية يجب أن يتحملوها وهى الدفاع عن وطنه وارضه (*)

ولقد تابعت الأسرات الفراعنة الحاكمة فى العصر المتأخر هذا الأسلوب وخاصة أن المرتزقة اثبتوا فعلا انهم على مهارة عالية فى استخدام السلاح ، ولكن مرة اخرى ، مهما كانت المهارة عالية فلا بديل عن الانتماء الوطنى وعن تحمل المواطن المصرى المسئولية كاملة نحو وطنه (*)

الى جانب ان شعوب البحر قد اعترفت بالعجز امام قوة فرعون ، وآثرت الانخراط فى خدمته سلميا ، فان ابواب مصر ظلت مفتوحة من شرق ومن غرب وجنوب امام كل من يانس فى نفسه القوة ليدق بابها وليقتحمها ان استطاع ذلك أو ينتهز الفرصة اذا سنحت .

ومن أمثلة تدفق عناصر من المشرق ، ذلك السورى المدعو (آرسو) الذى خدم البلاط حتى اصبح يحكم مصر ، وهزأ من معتقدات المصريين حتى ظهرت حركة وطنية مصرية مناهضة له (*)

ولقد دق الليبيون ابواب مصر وكانوا فى أول الأمر يدخلونها فى اعداد كبيرة استقر بعضها فى الدلتا وبعضها التحق بالجيش واستطاعوا ان يتولوا المناصب الكهنوتية الرئيسية ، ومن ذلك سيطرتهم على كهانة هرقليوبوليس وعلى كهانة (طيبة) ، وكان هذا كله ممهدا لأن يرتفع الى العرش الفرعونى أحد الزعماء الليبيين ، وهذا ما حققه (شيشنق) مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (*)

ورغم الاتجاهات القوية الدينية للأسرة الليبية الا ان كهنة أمون فروا من وجه هذه الأسرة واقاموا لأنفسهم مملكة عاصمتها (نباتا) ليحافظوا على معبودهم (أمون — رع) . واقاموا هناك فى النوبة مملكتهم (الدينية) حتى أصيبت الأسرة الليبية بالصراع بين رجالاتها وحتى وصل الأمر الى أن كان

ثمانية عشر أميرا يقتتلون فى آن واحد . بل لقد وصل الأمر الى أن أمراء الدلتا آثروا الارتباط بآشور ـ الدولة النامية فى المشرق ـ وسعت الدلتا الى الاستقلال (*)

لقد كانت مصر تنحدر ، واضطربت أمورها ، وأصبح يحكمها من يدق أبوابها ويقتحمها ، وحاولت عبثا أن تصد التيار الآشورى . فلقد تحالفت مصر مع (هوشع) صاحب الدولة اليهودية فى جنوب سوريا وما كانت هذه الدولة تريد لمصر الفرعونية خيرا . ومع أن مصر ردت عادية آشور الا أن هذه الدولة الفتية الآشورية لم تلبث أن اجتاحت سوريا وانقضت على مصر فاستولت عليها (*)

وحاولت مصر ان تتخلص من الاحتلال الآشورى فما كان من آشور بانيبال الا أن انقض عليها وزحف بجيشه حتى (طيبة) وقصدها ليس فقط ليحتل هذه العاصمة الدينية القوية النفوذ الذائعة الصيت وانما ليهوى بمعاوله على المعابد والتماثيل تحطيما ، فخرب (طيبة) فكان ذلك بمثابة بداية النهاية لمكانة هذه المدينة الدينية العالية .

ان تلك التطورات توحى بوضوح أن مصر فقدت الكثير من مقومات القوة ، ولا شك أن ذلك كان انعكاسا لما كان ينخر فى المجتمع المصرى . فما هى العوامل التى أدت الى استمرارية هذا التدهور حتى سقطت مصر فى يد اشور ثم فى يد الفرس ثم فى يد الاغريق ثم فى يد الرومان باستثناء فترات محدودة من الاستقلال (*)

هناك عوامل داخلية وأخرى خارجية ولنبدأ بتناول العوامل الداخلية :

١ — نلاحظ أنه منذ رمسيس الثالث كان الغالبية العظمى من فراعنة مصر ضعاف الشخصية ، ولذلك لم يستطيعوا أن يضعوا فى أيديهم جميع الخيوط فانفلت الأمر من ايديهم (*)

٢ — كان من الفراعنة الأواخر من كان على قسوة شديدة بالناس الأمر الذى افتقدهم محبة وتقدير الشعب . وابرز الفراعنة ممارسة للتجبروت والغطرسة رمسيس الحادى عشر (*)

٣ ـ كان الصراع بين الزعامات وانقسام البلاد بين المتنافسين قد اصبح ظاهرة خطرة ، ومن ابرز الصراعات المدمرة تلك التى دارت بين (حريحور) فى الجنوب و (نسى بانب دد) فى الشمال .

٤ ـ ان هذا الضعف الذى اصاب المراكز القيادية ابتداء من فرعون ورجالات بلاطه وحكمه جعلهم فى حاجة الى استرضاء الكهنة اذ كان فى استطاعة هؤلاء الحفاظ ولو الى حد ما على فرعون ورجاله محترمين فى اعين الشعب . فكان ان تدفقت الأموال على رجال الدين ، ومنحت المعابد اراضى واسعة وارتفع شان كبار الكهنة حتى لقد صور أحد الكهنة نفسه بطول فرعون وهذا ما لم يحدث من قبل . واصبحت المناصب الكهنوتية هدفا لكل متطلع الى المال حتى لقد ظهرت كاهنات ثريات متنفذات .

٥ ـ انهارت الأخلاق ، والقيم طرحت جانبا . وساعد على ذلك الفقر الذى ساد البلاد لسنوات متتالية ، مثل تلك السنوات السبع العجاف .

٦ ـ وبينما كانت مصر على هذا النحو من التدهور التدريجى كانت فى الشرق وفى اوربا شعوب ناهضة ، تسلحت بالقوة الاقتصادية والقوة العسكرية المتطورة ، وكانت هذه القوى تنمو حتى تفوقت على مصر ولم تستطع مصر ان تجدد شبابها فآل الحال بها الى احتلال آشورى ثم فارسى فاغريقى ثم رومانى .

٧ ـ ان من يتابع محاولات مصر التصدى للطامعين ليجد ان القوات المصرية كانت مصرية بالاسم فقط اذ اصبح المرتزقة يشكلون معظم الجيش المصرى . وهذا وضع يساعد على التدهور .

ولا شك ان استبعاد المصريين من العسكرية كان مسئولا الى حد كبير عن التدهور المتتالى الذى اصيبت به مصر منذ الأسرة الحادية والعشرين ، ومنذ ذلك العهد سيكون دور المصريين فى العسكرية دورا جانبيا فى معظم فترات التاريخ حتى تستعيد حكومة مصر رؤيتها الحقيقية لدور المصريين فى الدفاع عن بلدهم فى عهد محمد على فى القرن التاسع عشر وبشكل كامل فى عهد الاستقلال التام بعد ثورة ١٩٥٢ .

ويلاحظ انه خلال فترة الضعف منذ عهد الأسرة العشرين نمت روح سلفية فى المجتمع المصرى ، فقد دار صراع بين الكهنة والمرتزقة العسكريين ووصل الكهنة الى الحكم ، وبلغ ذلك ذروته حين تولى حرحور منصب الكاهن الأعظم ثم تولى الحكم ، وعندما انتصر الليبيون على حكم الكهنة لجأ هؤلاء الى النوبة ونمت قوتهم حتى كروا على الليبيين وطردوهم من مصر على يد (شباكا) مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين فى ٧١٢ ق ٠ م ٠

كذلك تجلت تلك السلفية فى العصر الصاوى اذ اخذ المجتمع المصرى فى عهد الأسرات الحاكمة المتأخرة يقلد فنون وتقاليد (الدولة القديمة) فقد كانت الدولة القديمة ، فى نظر المجتمع المصرى فى فترة الضعف الأخيرة رمزا لعصر المجد والعزة وانها رمز للعصر الذهبى فى تاريخ مصر ٠ فلقد قلدوا الكتابة فى الدولة القديمة كما قلدوا النقوش ٠ ولكنها كانت سطحية عجزت عن أن تعيد ذلك المجد التليد وعن الحفاظ عن البلاد بعيدة عن الطامعين ٠



الباب الثانى

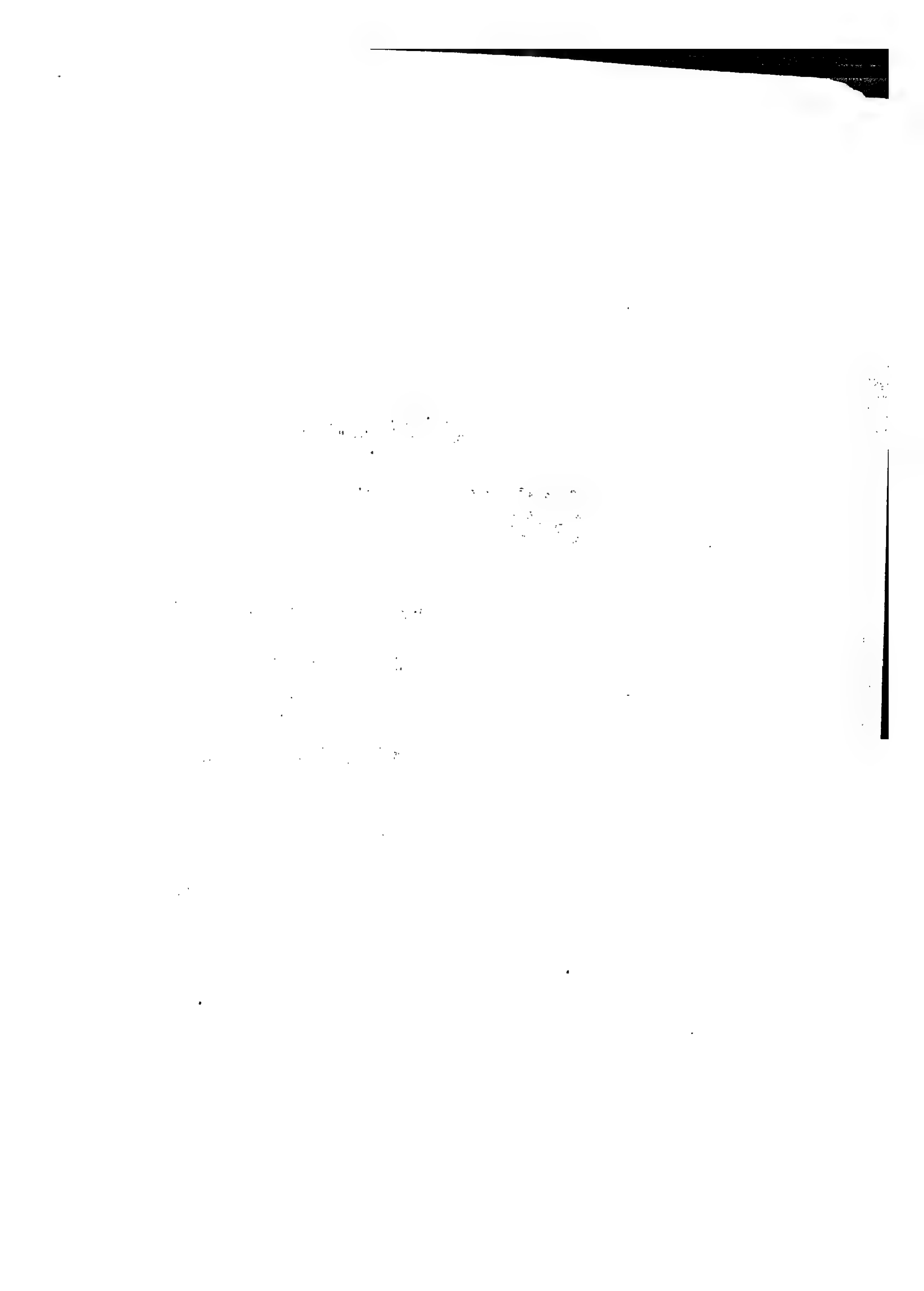
مصر تحت الحكم البطلمى والرومانى

الفصل الأول : مصر تحت حكم البطالمة

الفصل الثانى : مصر فى عهد الرومان

الفصل الثالث : المسيحية فى مصر

الفصل الرابع : المرأة فى التاريخ القديم



الفصل الأول

مصر تحت حكم البطالمة

حيث أن مراكز القوة العالمية قد انتقلت الى الدولتين الفتيتين فى فارس وبلاد الأغريق (اليونان) ، فقد دارت رحى حروب طويلة بين الفرس والأغريق كان كل منهما يريد أن يقضى على الآخر ، ويريد أن يستيطر سيطرة مطلقة على وديان الرافدين والنيل وعلى سوريا ، واخذت كفة الاغريق ترجح حتى استطاع فيليب أن يفرض سيطرته على كل بلاد الأغريق وأن يستخدم ابنه (الاسكندر المقدونى) القوة العسكرية والحضارة الأغريقية فى توجيه ضربة حاسمة الى الفرس فى موقعة أسبوس (٣٣٣ ق٠م٠) ليستولى من بعد على العراق وسوريا ومصر ولتصبح مصر اقليما فى امبراطورية الاسكندر وان كانت اقليما له شخصية خاصة ٠

كان الاسكندر الأكبر فاتحا من طراز خاص ، وكان يسعى الى تحقيق مفهومه للسلام العالمى ، سلام يفرضه الأغريق ويجتذب كافة عناصر امبراطوريته ٠ ولذلك قام بخطوات جريئة فى هذا الاتجاه ولنلتقط عملين قام بهما الاسكندر — عندما زار مصر — لهما دلالة خاصة لدينا ٠

الأول : انه عندما جاء الى مصر استطاع أن يكتشف قيمة ذلك الموقع الذى كانت تقوم عليه قرية راقوده (رع كوت) وهو مكان كان فراعنة مصر يضعون فيه بعض الحاميات لمواجهة غزوات شعوب البحر ، وهناك بنى الاسكندر مدينة وميناء الاسكندرية ، لتكون عاصمة لمصر (١) ، ولتكون مدينة أغريقية ، واصبحت فعلا عاصمة البلاد المصرية ٠ وحزن الشعب المصرى كل الحزن على « منف » عاصمته الفرعونية التى تقع عند رأس الدلتا بين شطرى الوادى وكأنها القلب وجناحاه الدلتا والصعيد ٠ أما الاسكندرية فتولى وجهها نحو بلاد الغزاة ، ولقد ظلت الاسكندرية على هذا النحو خلال العهد البطلمى والرومانى والبيزنطى ٠

---

(١) أطلق على الاسكندرية التعبير اللاتينى التالى Alexandria ad Aegyptum بمعنى الاسكندرية المضافة الى مصر ٠

الثـانى : ان الأســكندر — على مـا يذهب اليـه بعض المؤرخين — كان يشـك فى أنه ابن شرعى ، وان ذلك دفعه الى اعـلان نفسه ابنـا لآمون ، رب ارباب مصـر » وان كانت هنـاك حقيقة وراء تلك الأسـطورة فان الأسـكندر كان يدرك ان مهمته الكبرى هى أن يكسب الشـعب المصرى الى جانبه وان يكسـبه عاطفيا ، وكان يدرك أن المصرى متعلق كل التعلق بعقيدته الدينية : العقيدة التى جعلت لآمون مكانا مقدسا فى قلوب المصـريين ، تلك العقيدة التى جعلتـه يقدس « فـرعون الاله » ، فليلائم اذا بينه وبين فرعون ، وليجعل نفسه فرعونـا الهـا حتى ولو كان ذلك متعارضا مع عقائد بنى جلدته من الأغـريق .. فوجد فى اعـلان نفسه ابنـا لآمون حلا للمعضلة التى واجهها وهى معضـلة كراهيـة المصريين لمن يحكمهم من غير فراعنتهم ممن لا يكونون على عقيدتهم ، وذهب الأسكندر الى معبد قصى لآمون ، يقـع عنـد واحة سيوه .. وهناك وعلى يـد كهنة آمون ، وبطريقة مـا ، خرج الأسكندر ابنـا لآمون فرعونا لمصر ، واتخذ زينـة الفراعنة وريشتى آمون المقدسـة و (الحية) حامية رع ..

غـادر الأسـكندر مصر من بعـد ذلك ليتـابع فتوحاته صـوب الهنـد ، ليمـوت فى العـراق ولم يلبث أن تنـاحر قواده على امبراطوريتـه الواسـعة الممتدة من بلاد الأغريق الى الاناضـول وايران والعراق وسـوريا ومصـر ..

كان بطليموس — أحـد قـواد الأسكندر — طموحا يسـعى الى أن يكون له ملك خاص به ، وأن تكون مصر مملكته مستقلا بها ، فكان طبيعيا أن يصطدم بـ « بيرديكـاس » الوصى على العـرش الذى بعث بحملة لغـزو مصر ولطـرد بطليموس منها ، ولكنه فشل فى حملته (٣٢١ ق.م.) واصبح بطليموس صـاحب اليـد العليـا فى البلاد المصرية ..

كان بطليموس يرى أن مصـر قـد أصـبحت بذلك النصر غنيمة ملكـا له ، واعتبرها جنده من الأغريق — الذين أحرزوا له النصر — بيتهم ..

لكن الشعب المصرى — بقاعدته الفلاحية العريضـة وبكهنـة مصـر ، ظـل متعلقـا بآلهتـه ، وكان بطليموس بعيـد النظـر حين اسـتخدم الآلهـة المصـرية لتحقيق هدفـه فادعى أن « الاله حورس أهـدى الى ابنـة » حورس الحى (أى بطليموس) كل أراضى مصـر المزرعة ... وقدم له وثائق الملكيـة .. وقد خطها جميعا الاله تحوت فى السجل السماوى « مبيرة » ..

لم يقتصر الأغريق فى مصر على أولئك الذين جاءوا مع الاسكندر فاتحين وبقوا فيها تحت قيادة بطليموس وانما شجع بطليموس استقدام اعداد كبيرة من الأغريق الى مصر ليشدوا أزر حكمه . ولكن لم تكن اغراءات الملوك وحدها هى التى جذبت الأغريق الى ان يهاجروا من بلادهم الى مصر وانما كانت هناك عوامل أخرى اهمها ان خيرات مصر كانت وفيرة وامكانيات الثراء متعددة المجالات (*)

لقد فتح البطالمة ابواب مصر امام الأغريق للأسباب الرئيسية التالية :

١ — كان الملوك البطالمة يعتمدون عليهم فى تكوين جيش وأسطول كبيرين ليس هدفهما حماية مصر البطلمية فقط بل كذلك التوسع خارج البلاد وخاصة أن البطالمة استبعدوا المصرى من العمل فى سلك الجندية وفرضوا عليه العمل الزراعى وتزويد الحكومة بحاجاتها فضلا عن أن البطالمة لم يعطوا المصريين فرصة لمناددة الأغريق الذين كانوا يمثلون العمود الفقرى للاحتلال البطلمى لمصر (*)

٢ — كان لابد من اعادة تنظيم الدولة البطلمية فى مصر على الطريقة الأغريقية ، ولذلك كانوا فى حاجة الى العديد من الموظفين والفنيين الأغريق ، بل لقد قصروا الوظائف العليا فى البلاد على الأغريق دون المصريين أصحاب البلاد .

ويكشف لنا احد الشعراء الأغريق فى القرن الثالث ق.م. عن ثروة مصر وجاذبيتها لدى شعوب البحر المتوسط عندما تحدث على لسان عجوز تغرى فتاة شابة بأن تنسى عشيقها الذى سافر الى مصر وبأن تتجه الى فتى آخر ، فكانت تغريها بأن عشيقها لن يعود من مصر : « فهناك فى مصر يوجد كل شىء ... ثراء ومعاهد جمنازيوم وسلطات ورخاء ومجد ومسارح وفلاسفة وذهب وشباب ومعبد الأخ والأخت المؤلهين والملك الكريم ومجمع العلماء والخمور وكل ما يشتهيه الفؤاد من طيبات الحياة ونساء أيضا يفقن نجوم السماء عدا وينافستهن فى الحسن ... » (*)

وحيث ان الأغريق كانوا عدة وعتاد بطليموس ، فجيشه منهم ، وادارته منهم ، فقد خصص لهم مدنا أغريقية يعيشون فيها حياتهم الأغريقية بنظمها

وامتيازاتها ، واصبح المصرى فى مرتبة اقل بكثير من تلك التى كان يتمتع بها الاغريقى . ومن هنا اصبح الفلاح المصرى وارض مصر الزراعية فى خدمة بطليموس والاغريق .

وضع بطليموس سياسته على اساس استغلال مصر ارضا وبشرا ولصالح الاغريق ، وحيث أن الضرائب كانت المصدر الرئيسى للخزانة عمل بطليموس الأول على أن يحدد بدقة الضرائب على الأرض فقام بعملية مسح شاملة ، وقسم الأراضى الى الأقسام التالية :

١ ــ ارض الملك وهى التى يستغلها لحسابه .

٢ ــ ارض الهبات وهى التى وهبها لأعوانه .

(أ) ارض فى حوزة الكهنة (١) ، وكانت تضم مساحات واسعة من ارض مصر قبل عصر البطالمة ، وقد ابقاها البطالمة تحت يدهم . ولكن اعتبروا دخلها دخلا للحكومة فأصبح الكهنة تحت رحمة الحكومة البطلمية .

(ب) اقطاعات وزعت على الجند .

(جـ) أرض منحت للموظفين .

٣ ــ أرض المدن التى خصصت للمدن الأغريقية .

٤ ــ أراض مملوكة ملكية خاصة .

وبصفة عامة كان فى استطاعة الملك البطلمى أن يسترد هذه الأراضى .

ولكن النكبة الكبرى التى تعرض لها الفلاح المصرى هى أن الحكومة البطلمية فرضت الضرائب بغزارة شديدة لدرجة أن بعض المؤرخين قالوا أن الهواء فقط هو الذى لم يفرض عليه البطالمة ضريبة .

وبتوالى ابتزاز البطالمة لجهد الفلاح وانتاجه أصبحت حالة الفلاح مزرية والانتاج متدهورا حتى لقد اقدم الفلاحون فى ذلك العهد على أمر لم يقدموا

---

(١) كان الكهنة يدعون ان الاله منحهم ثلث ارض مصر .

عليه من قبل وهو وأد الأطفال خشية الفاقة ، وتوالى هروب الفلاحين من الأراضى ، حتى لقد هجرت قرى بأكملها والتجأ المئات من الفلاحين الى المعابد ، فرارا من مطاردة رجال الحكومة (•)

وازاء هذا التدهور لجأت الحكومة البطلمية الى عدة اجراءات لعلها تنقذ الانتاج من تدهور أسرع ومن أهمها :

اولا : نظرا الأن عدد المزارعين كان يتناقص بسرعة كان لابد من اعادة النظر فى قيمة الايجار حتى تصبح مغرية لهم لاستئجار الأرض والبقاء فيها وبذلك يمكن وقف تيار الهجرة وهذا ما لجأت اليه الحكومة .

ثانيا : حتى لا تواجه الحكومة مشكلة البحث عن مستأجرين جدد كلما انتهت مدة عقود الايجار لجأت الى اطالة مدة عقد الايجار والتى وصلت الى عشرين سنة الأمر الذى يعطى للمستأجر نوعا من الاستقرار ، بل كانت تعفى احيانا السنوات الخمس الأولى من دفع الايجار ، وكان طبيعيا أن يؤدى طول مدة عقد الايجار الى نوع من العقود الوراثية ، ولكن المشكلة الاجتماعية جاءت نتيجة ذلك من حيث أن كبار المستأجرين كانوا يعيدون تأجير اراضيهم من الباطن الى الفلاحين الفقراء مما يجعل عائد الربح لهؤلاء قليلا فيؤدى بالتالى الى العودة الى مشكلة هجرة الأرض (•)

ثالثا : نظرا الأن الاجراءات السابقة لم تؤد الى النتيجة المطلوبة عمدت الحكومة الى ارغام الفلاحين على الاستمرار فى الأرض عن طريق التعهد بالبقاء فيها « بالقسم » على ذلك (•)

رابعا : اتجهت الحكومة الى أسلوب الارهاب بارغام الأهالى على زراعة الأرض المهجورة ، وادى هذا بطبيعة الحال الى أن تصبح القرية ككل مسئولية عن زراعة الأراضى المهجورة الواقعة فى زمامها ، وبالتالى أخذت الحكومة بنظرية المسئولية الجماعية عن زراعة الأرض (•)

خامسا : حثت الحكومة كبار الملاك بل عمدت أحيانا الى ارغامهم على زراعة الأراضى المهجورة (•)

حقيقة نمت موارد خزينة البطالمة على حساب الفلاح المصرى ، ومولت

ثروة مصر جهود البطالمة العسكرية للسيطرة على سوريا ضد منافسيهم وبنى عمومتهم السيليوكيين اليونانيين ملوك سوريا ، وتعب البطالمة ووهنت قوتهم ، ولم يعد الاكتفاء بالجند الأغريقيين كافيا للدفاع عن مصر وسوريا مما اضطر الملك البطلمى لأن يشرك المصريين فى الجيش .

ولكن ثقة الملك البطلمى وادارته كانت فى الأغريق ، وكانوا يعدون الجندى المصرى — للقيام بأعمال عسكرية على نفس المستوى الذى يقوم به الجندى الأغريقى بأسلحة قديمة تجعله عديم الجدوى أمام الفرق الأغريقية ذات التدريب العالى والكفاءة لخوض غمار الحروب . ولكن تطورات الصراع بين الملك بطليموس الرابع وعدوه انطيوخوس حول السيطرة على سوريا ارغمت الملك البطلمى على ادخال تعديلات جوهرية على سياسة البطالمة التقليدية فى التجنيد .

وفى هذا يحدثنا مؤرخ مصرى :

« لاحت بوادر الهزيمة التى تنتظر بطليموس الرابع عندما تمكن انطيوخوس من الاستيلاء على سليوكيا على نهر العاصى عام ٢١٩ ق.م .

وعندما خان ثيودوتوس مولاه البطلمى بانضمام الى عدوه السيليوكى ، وسلمه صور وعكا وأربعين سفينة حربية . ولم تكن قوات بطليموس الرابع ملك مصر ذات قيمة فطلب الهدنة ، ومن ثم حدث تطور خطير فى نظام الجيش البطلمى ، ذلك أن المصريين ادمجوا فى صلب الجيش وسلحوا بالأسلحة المقدونية ، وعندما دارت رحى القتال من جديد انتزعت القوات المصرية من انطيوخوس نصرا مؤزرا فى رفح سنة ٢١٧ ق.م .

ادرك المراقبون للأمور حينذاك أن تطورا خطيرا قد وقع . فالمصريون بعد موقعة رفح قد اصابهم الزهو واصبحوا لا يطيقون حكم أولئك الأغريق لهم وتطلعوا الى وطنى يقودهم فى حرب تحررهم من الحكم الأجنبى »

لقد كان انتصار الملك البطلمى بالسيف المصرى يعنى أن انقلابا سياسيا واجتماعيا قد وقع ، فلم يعد المصريون ادوات فى يد البطالمة وانما أصبحوا قوة لها شأنها ، قوة تنتصر . وبالتالى تطلع المصريون الى الحصول على حقوقهم من هؤلاء الأغريق الذين اغتصبوا بلادهم وادعوا انهم فراعنة وما هم

بفراعنة . ولم يقابل البطالمة تضحيات المصريين بما يناسبها حيث أعطى الجندى المصرى من الأرض مبا يتضاءل بجانب ما كان يعطى للجندى الأغريقى . وجاء هذا مع ضعف الحكم البطلمى وتدهور اقتصاديات البلاد ، فأخذت الثورة تدب بين المصريين وخاصة ان البطالمة — مع أنهم اتخذوا القاب الفراعنة وآلهة المصريين القدماء — لم يكونوا فى أعين المصريين سوى دخلاء محتكرين خيرات مصر لهم ، والنزر اليسير للمصرى ، فقلة قليلة جدا من المصريين كانت تحصل على اقطاعات بينما كان يعطى للأغريقى مساحات أكثر اتساعا ، فضلا عن الامتيازات الأخرى .

وقد بدات ارهاصات هذه الثورة الوطنية ضد الحكم البطلمى فى عهد بطليموس الثالث (٢٤٦ — ٢٢١ ق.م.) اذ انتشرت بين الناس « نبوءة صانع الفخار » تلك النبوءة التى تعود — على ما يدعيه مروجوها — الى عهد الملك امينوفيس احد ملوك الأسرة الثامنة عشرة درة أسر مصر الفرعونية . وفى الواقع ان هذه النبوءة صيغت مادتها فى عهد بطليموس الثالث ونشرت بين الناس حينذاك لحث الشعب المصرى على الثورة ، واغلب الظن ان مروجى هذه النبوءة عمدوا الى القول بأنها ترجع الى زمن الأسرة الثامنة عشرة حتى يعطوها صفة التقدم والعراقة والدقة فى التنبؤ ، ولعل مروجى النبوءة ارادوا احياء ذكرى تلك الأسرة ذات المجد الفرعونى الرائع لتكون نموذجا يسعى المصريون الى الاقتداء به .

وتقول هذه النبوءة ان ذلك الصانع توقع ان تتعرض مصر لغزو خارجى ويحتلها الأجنبى ، وتعانى منه حتى يظهر من ابناء مصر من يخلصها منه ، وتعود الآلهة من تلك المدينة المطلة على البحر (يقصد الاسكندرية) الى « منف » فتعود اليها البهجة .

ونبوءة اخرى تقول ان مصر التى عانت من الأجانب الفرس ثم الأغريق ستحظى بالخلاص بعد وقت غير طويل على يد وطنى من أبناء اهناسيا المدينة .

ان تعدد ظهور مثل هذه النبوءات يؤكد لنا ان الثورة كانت تتأجج فى الصدور . وكان من الطبيعى أن تظهر مثل هذه النبوءات فى الاسكندرية

بالذات التى كانت مدينة قد اسست للاغريق الذين عاشوا فى ترف على حساب عرق المصرى الذى كان فى نظر البطالمة فى مرتبة ادنى من الاغريقى .
واصبحت الاسكندرية فى نظر المصريين رمز الاحتلال وتسلط الأجنبى ، بينما كانت منف رمز الحرية والأصالة . وكان كهنة مصر يتألمون كلما نفذوا أوامر البطالمة التى تقضى بأن يقوم هؤلاء الكهنة بزيارة الاسكندرية مرة فى كل عام ، وكانوا ينتظرون اليوم الذى تصبح فيه آلهة مصر القديمة هى المعبود فقط فى البلاد وليست تلك الآلهة الممسوخة التى جلبها معهم البطالمة او التى حاول البطالمة أن يشبهوها بآلهة مصر .

فلقد ادعى البطالمة ان كبير البولييبوس ليس سوى آتون ، وأن افروديت هى حتحور وأن ابوللو هو حورس ، وعمد البطالمة الى الاله اوزير ابيس ، فجعلوا له اسما يونانيا اسموه سيرابيس واعطوه هيئة زيوس الاغريقى حتى يكون مقبولا من المصريين والاغريق فى آن واحد ، وعبده الاغريق ، وجعلوه معبود مصر البطلمية الرسمى ، ولكن هذا المعبود لم يحترمه المصريون الا بعد تدهور الحكم البطلمى والا فى عهد الحكم الرومانى . وما كان هذا التحول الا لأن الاله استعاد شكله المصرى القديم .

لقد كانت الثورة المصرية تعتمل فى الصدور ولم تتحول الى العمل الايجابى الا بعد أن انتصرت فى موقعة رفح ٢١٧ ق.م. فقد أصبح جليا أن المصرى هو قلب القوى المدافعة عن مصر ، وأن ما يحصل عليه من اقطاعات من يد الحاكم البطلمى لم يكن سوى استرداد جزء من حقوق كثيرة مهضومة .
ومع أن البطالمة بعد موقعة رفح زادوا من عدد الاقطاعات المخصصة للمصريين الا أن ذلك لم يخفض من تيار الثورة المتصاعد بينهم ، واخذت هذه الثورة عدة اشكال .

١ — فقد هاجم الثوار المصريون كبار الملاك من المصريين واراضيهم ، وكذلك هاجموا بعض المعابد المصرية وممتلكاتها ، وما كان هذا الا لأن هؤلاء كانوا يمالئون الحاكم الأجنبى البطلمى .

٢ — ثارت بعض المدن المصرية واغلقت ابوابها على نفسها ، واضطر الملك البطلمى الى حصارها واخضاعها بالقوة ، ولكن خلال هذا الحصار لاحدى مدن الوجه البحرى كان البطالمة فى موقف متميع حيث لجأوا الى

اغراء الثوار المصريين باسترجاع أملاكهم لو انهوا ثورتهم ، ولقد طالت الثورة وارهقت الحكم البطلمى حتى قضى عليها بالحديد والنار .

٣ - رغم ما اصاب طيبة - القلعة المصرية الأصيلة - من تدهور عبر عصور الاحتلال الأجنبى الا انها بذلت جهودا ضخمة فى مناواة البطالمة ، وكانت ثورتها فى ايام بطليموس الخامس عنيفة بلغت حد اعلان الاستقلال (١٨٥ ق.م) ، ولربما تلقت طيبة خلال ثورتها هذه دعما من ملوك النوبة الذين كانوا يعتبرون انفسهم ورثة وحماة الحضارة المصرية وبالتالى المسئولين عن تحرير مصر من الحكم الأجنبى البطلمى .

صورة اخرى من صور المقاومة المصرية تكشف لنا عما أصاب المجتمع المصرى السكندرى من تطور هام بعد موقعة رفح (٢١٧ ق.م.) فعلاوة على تزايد اعداد المصريين فى الجيش البطلمى ، وتصاعد اعدادهم فى ادارة الوظائف ووصل بعض كبار مثقفى المصريين - ممن تأغرقوا ثقافة واحتفظوا بمقوماتهم الوطنية - الى مناصب عالية مثل ديونيسيوس بيترابيس الذى كانت له شهرة فى منتصف القرن الثانى ق.م. والذى استغل منصبه الرفيع الذى وصل اليه فى البلاط الملكى من أجل الوقيعة بين اعضاء الأسرة الحاكمة البطلمية المتطلعين الى العرش . فقد وقع فى أيامه صراع على العرش بين اخوين من البيت البطلمى فعمل على ان يضرب هذا بذاك حتى يصفى كل منهما الآخر ، وليضرب هو ضربته النهائية فى الوقت المناسب ، ولكن اكتشف الأخوان البطلميان الخطة فى وقت مبكر فاتفقا فقضيا على ثورته .

لقد اصبح البطالمة فى اواخر عهدهم أعجز من ان يواجهوا القوة الكبرى الفتية - ونعنى بها الدولة الرومانية - التى مدت سيطرتها على بلاد الاغريق انفسهم (اليونان) ثم آسيا الصغرى (الأناضول) وسوريا ، وأخذت تدق أبواب مصر واصبحت ذات نفوذ قوى حتى فى داخل البلاط البطلمى نفسه .

وبمرور الوقت اخذت الحضارة المصرية والغلبة الشعبية المصرية تدفع بالاغريق الى التأقلم فى مصر على الطريقة المصرية فلقد تشبه البطالمة بالفراعنة وبنوا معابدهم على النسق الفرعونى وكذلك تأثر الاغريق المنتشرون فى البلاد

بالمجتمع المصرى ، فنجد بعض الاغريق يتزوج من مصريات وبعض المصريين يتزوجون من اغريقيات . وكان هذا يعنى امتصاص المجتمع المصرى لأعداد كبيرة من الاغريق . وعلى العكس كان عدد المتأغرقين من المصريين محدوداً .

حقيقة كان هناك عدد من المصريين استطاعوا عن طريق اخذهم بالحضارة الاغريقية وباللغة اليونانية ان يصلوا الى مناصب رفيعة فى الحكومة البطلمية ، ولكن ذلك كان من الامور القليلة المحدودة الانتشار .

كانت كليوباتره السابعة هى آخر من حكم مصر من ملوك البطالمة ولقد تجمعت فى عهدها مثالب العهد البطلمى فى مصر ، فلا غرو أن كانت سياساتها الخارجية والداخلية معقدة ومتأثرة كل التأثر بالأوضاع السياسية والاجتماعية والعسكرية التى عاشت فيها .

وجدت كليوباترا نفسها أمام مشكلة التطاحن على العرش ، وكان منافسها عليه أخوها ، وكانت روما قد أصبحت فعلا — من قبل ذلك — حكما بين المتنافسين على مصر من ابناء الاسرة البطلمية ، جاء يوليوس قيصر — الامبراطور الرومانى الى مصر ، واستطاعت كليوباتره — الصبية الفاتنة اللعوب الذكية — أن تأسر قلبه ، وارتقت العرش وانجبت من قيصر ابنهما قيصرون واشركته معها فى الحكم دون أخيها وزوجها .

ولكى تكسب ود الشعب المصرى أمعنت أكثر فى اتخاذ المظاهر الفرعونية ، فلم يقربها ذلك الى قلوب المصريين ، بل تراجعت شعبيتها بين اغريق مصر لما كان يكنه هؤلاء الاغريق من كراهية للرومان وللمصريين على حد سواء فساءهم أن تميل هذه الملكة البطلمية اليهم ، وساءهم اكثر تلك العلاقات التى كانت بينها وبين يوليوس قيصر ثم بينها وبين انطونيوس القائد والسياسى الشهير المنافس القوى لغريمه اكتافيوس على وراثة حكم يوليوس قيصر فى روما .

فلقد استهوت كليوباترة انطونيو وتحالفت معه ضد اكتافيوس ، وكانت تأمل فى ان نصرا على اكتافيوس لن يبقيها على عرش مصر فقط بل يفتح لها آفاقا واسعة فى الامبراطورية الرومانية . ولكن اغريق مصر جند

كليوباترة كانوا قد أصيبو باهتزاز فى الولاء لملكتهم للاسباب التى سبق الاشارة اليها . كذلك كان جند انطونيو من الرومان مستائين من تلك العلاقة بينه وبين تلك الملكة البطلمية التى تحارب واحدا من افذاذ الرومان (اكتافيوس) ، فكان طبيعيا ان تدور الدائرة على انطونيو وكليوباترة وانتحر انطونيو ، وكانت كليوباترة تدرك انها لو وقعت اسيرة فى يد اكتافيوس فانة لن يتورع عن جرها بالسلاسل خلف ركابة وهو يدخل روما مزهوا بانتصاره ، فآثرت أن تنتحر :

عمدت كليوباترة الى الانتحار بالصل المقدس (الحية) حامية « رع » رب أرباب مصر الفرعونية فكان مصرعها على هذا النحو مثيرا لشاعرية احمد شوقى فرأى فى ذلك نهاية لبطلة مصرية فرثاها فى روايته الخالدة « مصرع كليوباتره » قائلا :

بنتى رجوتك للضحية والفدى
فوجدت عندك فوق ما انا راجى
سيقول بعدك كل جيل منصف
ذهبت ولكن فى سبيل التاج

واذا كانت كليوباتره قد تقربت من المصريين ، واذا كانت ماتت بالصل المقدس ، فانها عاشت اغريقية بطلمية وماتت كملكة بطلمية .

* * *

الفصل الثانى

مصر فى عهد الرومان

حقيقة اصبحت مصر ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية ، الا ان اكتافيوس عاملها وكانها ضيعة له ، ورفع يد اية سلطة مسئولة اخرى عن توجيه امورها وكان ابلغ مظهر لذلك انه استبعد حق مجلس الشيوخ الرومانى (السناتو) (١) من الرقابة عليها .

ولكى يضفى اكتافيوس على سياسته هذه نوعا من الشرعية ادعى انه لم يكن للبطالمة حق ما فى مصر ، وانما هو — أى اكتافيوس — صاحب الحق فى وراثة ملك الاسكندر الأكبر (٢) ، بل وبدا كأن اكتافيوس ملك الملوك وارث الهلنستية .

بعد فتح الرومان لمصر اصبحت الادارة العليا والفرق العسكرية الرومانية مظهر السيادة الجديدة . واخذت أعداد الرومان — من بعد — تتزايد فى سلك الادارة وفى المجالات التجارية ، وتراكمت فى أيديهم رءوس الأموال حتى استغلوا بقرض الأموال لمحتاجها . وغالبا ما كان الجندى الرومانى الذى ينجح فى تجارته وأعماله يفضل الاقامة فى مصر بعد تسريحه من الجيش ، وخاصة انهم كانوا يتزوجون ويبنون اسرات محلية . وقد شجعت الحكومة الرومانية الرومان فى مصر على شراء الأرض واستصلاحها الأمر الذى يزيد الانتاج ويربط الرومانى بمصالحه فى مصر والحفاظ عليها ولاية رومانية .

ونظرا لما كان يتمتع به الرومان من مكانة اعلى من اية طبقة اخرى

---

(١) Sennato

(٢) قارن ذلك باستنكار نابوليون بونابرت — عندما جاء الى مصر على رأس الحملة الفرنسية فى ١٧٩٨ — حق المماليك فى مصر مطالبا اياهم بابراز حجة — اذا كانت هناك حجة لديهم — تعطيهم حق احتكار خيرات مصر لأنفسهم .

ونظرا لتمتعه بالامتيازات المخصصة له كصاحب « مواطنة كاملة » ، كانت فرص الاثراء أمامه أوسع فقد كان معفى من « ضريبة الرأس » ومن الخدمات الاجبارية ومن تكاليف السخرة (١) .

وحيث أن الأرض هى المصدر الرئيسى للثروة ، وهى التى يمكن باستغلالها ملء الخزانة الحكومية ، عملت السلطات الرومانية على وضع يدها على أكبر مساحة ممكنة منها ، وبصفة أولية على ما كان تابعا من هذه الأراضى للدولة ، ثم وضعت يدها على الأراضى التى هجرها الفلاحون .

أما الأراضى الواقعة فى دائرة « الملكية الخاصة » فقد شجعوها ، وشجعوا بصفة خاصة — الجند الرومان على شراء الأرض ، ويلاحظ ان معظم هذه الأراضى التى استحوذ عليها الرومان كملك خاص كانت فى حاجة الى الاستصلاح كما كان للحكومة الرومانية دور هام فى تسهيل حصول كبار رجال الادارة على مساحات واسعة من الأراضى القابلة للاستصلاح — عرفت باسم « الوسيات » — وفرضت عليها ضرائب مخفضة ، ولعل هذه الاتجاهات كانت تستهدف بشكل رئيسى زيادة رقعة الأرض الزراعية المنتجة : ويبدو ان هذا الاجراء الأخير لم يثمر الثمرة المرجوة فاستردت بعض هذه الأراضى من كبار الملاك .

ولكن ، على وجه العموم ، أدت السياسة الاقتصادية الرومانية الى ارتفاع عدد كبار الملاك وزيادة مساحة الأرض التابعة لهم ، بينما كانت أحوال صغار الملاك فى تدهور بسبب الأزمات الاقتصادية وتزمت الادارة فى جمع الضرائب ، حتى لقد اضطر كثير من صغار الملاك الى ان يضعوا انفسهم تحت حماية كبار الملاك .

على ان واحدا من اهم أهداف الادارة الرومانية هو أن تنتج مصر اكبر قدر من المواد الغذائية ، وكان ذلك يتطلب استقرارا فى أوضاع مصر الاجتماعية . ولكن التركيب الاجتماعى فى مصر كان متعددا ، فالمصريون يشكلون الأغلبية الساحقة من سكان البلاد ، بينما كان للاغريق مدنهم وأوجه نشاطهم ، وكذلك كان لليهود جاليتهم الكبيرة نسبيا . ولم يكن هناك انسجام

---

(١) أحيانا كان يسند الى الجند الرومانى مسئولية شق وتعبيد الطرق وحفر القنوات .

بين هذه العناصر الثلاثة ، ومن ثم كان من مسئوليات الادارة الرومانية وضع نظام يكفل خضوع الجميع للحكم الرومانى وتوجيه القرارات نحو تنمية اقتصاديات البلاد لصالح الامبراطور والامبراطورية .

وسنتناول فيما يلى أوضاع وتطورات كل من المصريين والاغريق واليهود خلال الحكم الرومانى .

❋ ❋ ❋

كان تعداد مصر فى العصر الرومانى حوالى سبعة ملايين نسمة ، منهم حوالى المليون يهودى ، هذا فضلا عن اغريق المدن الاغريقية وغيرها . وكانت أعداد من الاغريق واليهود تعيش فى ريف مصر ، كما كانت هناك أعداد من المصريين تعيش فى المدن الاغريقية ولكنها كانت محدودة جدا .

كان اكتافيوس يدرك الدور الثورى المصرى ضد الحكم البطلمى حتى سقط ولذلك وضعت سياسة الرومان ازاء المصريين على الأسس التالية :

١ — أن لا يعطى للزعامة المصرية فرصة ما لقيادة الشعب فى ثورة تحررية .

٢ — أن يحترم العقيدة المصرية التى تؤمن بها القاعدة الشعبية المصرية .

٣ — أن يوجه الفلاح المصرى الى الانتاج الزراعى بكل طاقاته .

كان اكتافيوس على بينة من مكانة العقيدة لدى المصرى ومدى تعلقه الكبير بالمفاهيم الفرعونية الدينية . ومع أن اكتافيوس كان لا يتقبل هذه المفاهيم عقائديا ويستنكر الممارسات الدينية الفرعونية الا أنه كان حصيفا حين أظهر غير ما يبطن ، بل وتابع السياسة التقليدية الرومانية نحو العقائد الدينية ، وكانت سياسة تأخذ بمبدأ حرية العقيدة والعبادة .

عمل اكتافيوس على ارضاء النزعة الدينية لدى الشعب المصرى ، واحترم وبجل الآلهة الفرعونية فشيد لها المعابد ، بل وبدا للشعب المصرى وكأنه فرعون (١) . وعمل اكتافيوس هذا ليس بجديد اذ سبقه

---

(١) قارن بين الرومان والاغريق البطالمة من حيث الأخذ بالعقيدة الفرعونية فقد تشبه البطالمة بالفراعنة وحاولوا التوفيق بين العقائد والآلهة لدى كل من المصريين والاغريق .

اليه البطالمة .. ولكن لم ينطلق اكتافيوس ومن جاء بعده في التيار الفرعوني (١).

أن يبجل الامبراطور الروماني الآلهة الفرعونية شيء ، وأن تكون هناك فرص امام الزعامات الدينية لقيادة الشعب في حركة تحريرية شيء آخر .. ولذلك عملت السلطات الرومانية على عهد اكتافيوس على سلب الكهنة قدراتهم .. فاقدمت على ما يشبه التأميم لأراضي المعابد ، واصبحت مناصب الكهنة تعلن في مزاد ، وان كان بعضها وراثيا ، ورغم محاولات الكهنة لاستعادة مكانتهم ولقيادتهم بعض الحركات التحررية ، فان عهد الكهنة كان قد مضى او كاد .. فلقد توالى ظهور الديانات السماوية ، واضعف البطالمة ثم الرومان من حيوية العقيدة الفرعونية الدينية ، وقلموا اظافر رجال الدين المصريين حتى لقد فرضت السخرة على بعضهم فأخذت هيبتهم تضيع ، ولعل قيادة الكهنة لبعض الثورات الوطنية المصرية — في العهد الروماني — كانت الومضة الأخيرة او قبيل الأخيرة لهذه الطائفة التي ملأت اسماع التاريخ بالفكر والأحداث ..

أما المصري العادي فقد عاش تحت حكم روماني لا يختلف عن سابقه من حيث اعتبار المصري في مرتبة أدنى من كافة الأقليات الحاكمة (الرومان) او المتميزة (الاغريق واليهود) . كان هؤلاء عليه يستكبرون ، ولقد كانت فعلا مستوياتهم الثقافية أعلى من مستواه .. فلم يعد المصري يشغل الوظائف ، ولم تكن له مؤسسات تدافع عن حقه ، وما كان لأصواتهم أن تصل الى اذن مسئول .. وركن الى بيته الحقير ، والى الأرض يزرعها وينتجها ليقيم أوده ، ان استطاع ، ويقدم محصوله للغاصبين ..

كان انتاج مصر وفيرا جدا من القمح ، ليس لأصحاب البلاد الحقيقيين وانما لسد حاجة روما المتزايدة منه ، حتى لقد اعتبرت مصر مخزن قمح روما ، وكان اذا بيع انتاج مصر في الأسواق الخارجية على يد الأجانب كان يباع بأربعة أضعاف قيمته في البلاد ..

اصبح قمح مصر سلعة استراتيجية ، اذ كان اداة يستخدمها المطالبون بالعرش الامبراطوري ، فمن كان منهم يضع يده على مصر وقمحها يستطيع

---

(١) قارن هذا بمحاولة نابوليون بونابرت التظاهر بأنه مسلم ..

أن يجبع روما فيحرج مركز خصمه وربما تغلب عليه . وظلت مصر وانتاجها على هذه الأهمية الاقتصادية معظم التاريخ الرومانى ، ففى أواخره اخذ انتاج مصر يقل ويتدهور حتى أصبح المنتج منه يكاد يكفى البلاد ولا يسمح بالتصدير ، وحتى فقدت مصر قيمتها الاقتصادية فى هذا المجال بالنسبة للرومان الذين اتجهوا الى جلب حاجاتهم من القمح من افريقية (تونس) .

وهناك عدة اسباب وراء ذلك التدهور فى انتاج المواد الغذائية وخاصة القمح :

١ — اتبعت الادارة الرومانية أساليب غاية فى القسوة حتى تجمع أكبر قدر من أموال الضرائب . ومن هذه الأساليب .

(أ) اتباع المسئولية الجماعية ، وهذا يعنى أن القرية كانت تعتبر فى نظر الادارة الرومانية وحدة ضرائبية يجب أن تدفع ما هو مقرر عليها بحيث يتحمل الموجود فيها دفع ضريبة الغائب عنها ، أو المتقاعس عن دفع الضريبة . فهدف الادارة الرومانية هو توريد المبلغ المقرر الى الخزينة بأية وسيلة . حتى لقد بلغ بالادارة الرومانية أن نبشت قبر الفلاح الذى يموت دون دفع ما عليه من ضرائب ، وتظل جثته فى العراء حتى يضطر أهله الى تسديد ما كان عليه .

(ب) أما من كان يفر من الفلاحين من أرضه وقريته لعجزه عن الدفع فكانت الادارة تحبس افراد أسرته كبارا كانوا أم صغارا حتى يعترفوا بمكان اختفائه .

(ج) كان الفلاح الأجير فى حالة ضنك شديدة ، اذ كان اجره زهيدا ، ثم انه كان مطالبا باعمال سخرة مرهقة ، كانت تفرض عليه وعلى ماشيته . فضلا عن ارتفاع القيمة الايجارية للأرض .

(د) كانت الضرائب المفروضة على المصرى أضعاف ما كان يدفعه غيره من الاغريق واليهود ، حقيقة كان الاغريقى معفى من ضريبة الرأس بينما كانت مفروضة على اليهود الا ان مجالات العمل والاثراء كانت متوافرة لليهودى .

(هـ) كان المصرى محتقرا من الفئات الثلاث المتميزة (الرومان والأغريق واليهود) ، وكان يعاقب بغير ما يعاقب بة افراد تلك الفئات ، الأمر الذى

يفقد الدافع الذاتى للانتاج . وحتى بعد ان أصدر الامبراطور كاركالا تشريعا يمنح سكان الامبراطورية الاحرار حق « المواطنة الرومانية » فتساوى المصرى نظريا مع الرومانى والأغريقى واليهودى ، الا ان ذلك فتح على المصرى أبواب ارهاق جديدة مثل التجنيد فضلا عن ان هذا التشريع زاد الاعباء الملقاة على كاهل المصرى .

٢ — تدهور نظام الرى فى البلاد ، وادت الثورة الاجتياحية اليهودية (١١٥ — ١١٧ م) الى مصرع جموع من الفلاحين — الذين عجزوا عن التصدى بسلاحهم للعاصفة المدمرة اليهودية — وبارت مساحات شاسعة من الأراضى واحرقت العديد من القرى . ففقدت مصر جزءا من قدراتها الانتاجية .

٣ — فشلت أساليب الدولة فى تحسين أحوال الفلاحين لافتقارها الى الرؤية الواقعية . ومن ذلك ان الادارة الرومانية وزعت على الفلاحين أراضى تحتاج الى استصلاح ، ولكن من اين يأتى الفلاح برأس المال اللازم لعملية الاستصلاح هذه . كذلك لم تجد التشريعات التى اصدرها الامبراطور سبتيموس سفروس التى قضت بانشاء مجلس محلى فى كل عاصمة من عواصم المحافظات (٢٠٠ م) بقصد اشتراك كبار الملاك فى المسئوليات الادارية .

لقد كان طبيعيا ان يلجأ الفلاح المصرى الى أسلوبه التقليدى السلبى فى مقاومة الادارة الرومانية الفاشمة ، ونعنى بذلك الفرار من الأرض وهجرة الريف والرحيل اما الى المدينة — لعله يضيع فى زحمتها — او الى الاحراش والمستنقعات لعله يغيب من أعين الجند . وربما استطاع أن يقاوم بنجاح ان هاجموه .

ولقد حدث فعلا فى الربع الأخير من القرن الثانى الميلادى ان فرت جموع غفيرة من الفلاحين من قراهم الى المستنقعات الموحشة فى شمال الدلتا ، وجمعت بين نفوسهم روح الثورة على جبروت الحكام الاجانب ، وجاءتهم زعامة وطنية حبيبة الى نفوسهم متمثلة فى كهنتهم الذين كانوا بمثابة الرمز الحى لحضارتهم المصرية الفرعونية .

تحركت الثورة عارمة ، وتصدى جموع المصريين للفرق الرومانية المتفوقة فى السلاح وفن القتال . ولقد نجح الثوار فى صد الحملات الأولى ولكنهم عجزوا عن الاستمرار فى القتال (١٧٢ م) .

والحق ، ان هزيمة الثوار المصريين لم تكن نتيجة لذلك التفوق العسكرى الرومانى فقط بل كانت ايضا بسبب ما كان يعانيه المجتمع المصرى من ضعف انعكس على الثوار فاعطى الفرصة للرومان لشق الحركة الثورية من الداخل ، فكان ان قضى عليها .

ومع ذلك ظلت روح المقاومة حية فى المصرى ، فكان مستعدا لدعم القوى المناهضة والمعادية للرومان . وهناك فى اقصى الجنوب كانت القبضة الرومانية قوية احيانا واحيانا اخرى واهية . ولكن الضعف العام فى الامبراطورية كان ينعكس اكثر ما ينعكس على الأطراف النائية مثل بلاد النوبه .

فلقد نمت هناك فى النوبة قوة عسكرية ضارية نجحت فى ان تكيل للرومان ضربات موجعات متتاليات على مدى عدة قرون من الزمان امتدت من الثالث حتى القرن الخامس سواء عندما كان النوبيون على وثنيتهم البدائية أو بعد أن تحولوا الى المسيحية .

ومع ما كانت تصحبه هجمات النوبيين من تخريب وتدمير لقرى مصر ، فقد أخذ المصريون جانبهم ، وشدوا أزرهم ضد الغاصبين الرومان (١) ، وبالتالى أصبح الرومانى يعيش هناك على أرض معادية .

ولنا هنا وقفة مع القدرات المصرية القتالية ضد الغاصبين ، فنلاحظ انها كانت تنتقل من ضعف الى ضعف .

● فقد شعر المصرى بعد انتصاره فى موقعة رفح (٢١٧ ق.م) انه لا يقل مقدرة عن الاغريقى المغتصب ، فامتشق المصرى الحسام ، وشن الثورة بعد الثورة ، فلم ينجح فى اسقاط الحكم لصالحه ، وانما تفتحت الأبواب امام مغتصب جديد (الرومان) .

● كانت ثورات المصريين على الحكم الرومانى ضعيفة . لم يثر المصريون فى الفترة الأولى من ذلك الحكم ربما بسبب نوع من الرخاء تمتعت به البلاد حينذاك .

---

(١) قارن ذلك بموقف بعض الزعامات المصرية — مثل محمد عبده — من الثورة المهدية فى السودان ، اذ بعد هزيمة الثورة العرابية على يد الانجليز تطلع محمد عبده الى انقاذ مصر على يد المهديين السودانيين .

ولكن عندما اجتاحت الفوضى الدموية للثورة اليهودية مصر (١١٥ — ١١٧ م) تشكلت قوة مسلحة مصرية لم تثبت جدارتها فى القتال (*)

● عندما تجمعت عناصر الثورة المصرية فى احراش الدلتا الشمالية ، كانت تحتمى بالاحراش ، وليس بالشعب وشقها الرومان من الداخل ولم يهزمها السلاح فقط (*)

من وراء كل هذا يمكننا القول ان الخط البيانى للقدرات التحررية المصرية كان نحو الهبوط ولكن الى حين (*)

لقد جاء التدهور الاقتصادى وذلك الخور فى العزيمة فى وقت كانت فيه مقومات مصر الحضارية القديمة تنهار ، فاللغة العامية الديموطيقية اصبحت هى السائدة . ومع ان عبادة الآلهة المصرية العريقة قد عادت مرة اخرى الى البروز فى بعض المواقع ،مثل عبادة اوزيريس وسبك . ومع ان المصريين تخلوا عن عبادة الاله المسخ البطلمى سيرابيس وعبدوه فى صورته المصرية ، الا ان ذلك كان الومضة الأخيرة فى الحضارة المصرية القديمة التى كانت تلفظ أنفاسها واجهزت عليها المسيحية عندما انتشرت فى البلاد (*)

اما الأغريق فقد هبطوا الى المرتبة الثانية — بعد الرومان — وفقدوا عزة الحكم والسيادة ، ويتعجبون من هذا الزمن الغدار الذى يجعل الحضارة اليونانية الراقية تحت اقدام هؤلاء الرومان ، ويبحثون عن مخرج لهم من هذه النكبة ، وما كان لهم من سبيل الى ذلك . ولكنهم كانوا ينتظرون فرصة ما تسنح لهم لاستعادة اليد العليا فى البلاد (*)

ونظرا الأن المدن الاغريقية كان لها نظامها الخاص بها ، وكان الاغريق يقومون بدور هام جدا فى المجالات الاقتصادية والادارية ، فقد عمل اكتافيوس — ومن جاء من بعده من الاباطرة — على أن يفيد منهم ، دون أن يمكنهم من أن يحققوا آمالهم السياسية . وكان الاغريق بدورهم يعملون على الاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من مقوماتهم ككيان فى مصر . وحيث ان الاسكندرية كانت تمثل أبرز مظاهر المدنية الاغريقية حينذاك فسنلقى ضوءا على أوضاعها وتطورات الاحداث بها ، وما كان اكثرها (*)

كانت الاسكندرية مدينة أغريقية بكامل هيئتها ومضمونها ، وكانت المدينة

الأغريقية الحرة بمثابة دولة قائمة بذاتها داخل الدولة ، وعلى هذا النحو أيضا انشئت فى مصر مدن اغريقية أخرى ومنها مدينة (بطلمية) .

وكانت المدينة الاغريقية ذات نظام سياسى خاص يقوم على الاسس التالية :

١ — هيئة من الموظفين والحكام ينتخبهم المواطنون جميعا .

٢ — مجلس شيوخ .

٣ — محاكم خاصة بالمدينة .

ويمكن تقسيم المجتمع الأغريقى فى الاسكندرية الى الأقسام الرئيسية التالية .

١ — طبقة المواطنين « كاملى الاهلية » وهم من كان قد وفد من البلاد الأغريقية ، وقد تزايدت أعدادهم بالتناسل وباستقبال هجرات جديدة وخاصة فى العهد البطلمى الأول ... « وكاملو الأهلية » يتمتعون بحق المواطنة بكافة ، بما يتضمنه ذلك من حق الزواج من الاغريقيات وامتلاك الأراضى فى اقليم المدينة فضلا عن التمتع بالحقوق السياسية . ومن بينهم كان يخرج الكهنة . وكان كاملو الاهلية مقيدين فى سجلات المدينة فى قبائل أو احياء أو وحدات .

٢ — طبقة المواطنين الأغريق « ناقصى الاهلية » وهم ممن لم يستكمل قيده فى الحى ، وان كان الحى قد ذكر امام اسمه .

٣ — السكندريون ممن لم يسجل فى حى بعد ، وهؤلاء لا يستطيعون التعامل فى الأمور المدنية أمام القانون .

كانت الاسكندرية مدينة متعددة الاجناس عندما كانت عاصمة الدولة البطلمية ، وبعد أن أصبحت مجرد عاصمة لولاية مصر الرومانية أصبحت اكثر تعددا ، ويمكن ان نحدد هذه الأجناس والجاليات على النحو التالى :

١ — الرومان . ٢ — الأغريق . ٣ — اليهود .

٤ — المصريون . ٥ — الاثيوبيون . ٦ — الفرس (١) .

٧ — العرب . ٨ — الهنود .

---

(١) لعلهم من بقايا الفرس الذين فتحوا مصر قبل العهد البطلمى .

كانت أغلبيــة السكان من الثلاثة الأول (الرومان والأغــريق واليهــود) ، وكان يطلــق على الاغريق فى المدينــة « الســكندريون » (١) ، وكانوا موضــع تقدير الادارة الرومانية . وكان الأغريق معتزين بانفســهم وبحضــارتهم ، حقيقــة كان الرومان يقدرون تماما ما كان لدى الأغريق من دراية بأمور ادارة مصر ، وكلهم — اى الرومان — ما كانوا ليتركوا للأغريق مؤســساتهم السياسية .

كان مجلس الشــيوخ (٢) أهم مظهر من مظــاهر الحيــاة السياســية فى المدينة الأغريقية ، ولذلك الغى اكتافيوس هــذا المجلس . وخــلال معظم التاريخ الرومانى فى مصــــر كان الأغريق يعملون على عودة هذا المجلس . اما بقيــة المؤسســـات الأخرى فقد ظلت قائمة ، فكــان ذلك من العوامل الرئيســية التى حفظت للأغـــريق كيانهم ومكــانتهم . بــل لقــد كانت المؤســســات الاجتماعية والرياضة الاغريقية أمل الجاليات الأخرى للانضمام اليها ، الا ان الاغريق — وان تساهلوا فى ذلك أحيانا — فقد عملوا على قصرها على انفسهم وخاصة أن اليهود عملوا على الافادة من هذه المؤسسات لصالح جاليتهم الكبيرة المنافســة بشــــدة للأغـــريق .

كان اليهــود جاليــة كبيرة فى مصــر وفى الاســكندرية وفى الارياف ، وكانت تتمتع بكيان خاص ، بامتيازات منحت لهم ســواء فى العهــد البطلمى أو العهــد الرومانى ، وكانوا على نشاط اقتصادى أدى الى ثرائهم ، والى اتساع ممارســتهم للأعمال المالية وخاصة اقراض كبار الملاك ، كما عمل بعضهم فى الادارة العليــا الرومانية بــل تولوا كذلكمناصب قيادية فى الجيش .

وكان ظهور اليهود فى فلســطين على شــرق مصــر وفى برقة على غربيها كقوة لها مكانتها من العوامل التى جعلت يهود مصر يشــعرون انهم حين يتحدثون عن انفسهم وحين يتطلعون الى مكانة أرقى فانما يفعلون ذلك من مركز قوة .

كانت للجــالية اليهودية فى الاسكندرية محاكمها الخاصــة بهم . واحتفظ لهم الرومان بمجلس الشيوخ (٢) ، وكان ذلك من أسباب حقد الاغريق عليهم ، ولكن من ناحية أخرى كانت ضريبة الراس مفروضــة على اليهود وليس على الأغريق ،

---

(١) كان لهذه التسمية مشكلة بين الأغريق واليهود تناولها الأســتاذ الدكتــور مصطفى كمال عبد العليم فى كتابة مصر فى عصر الرومان .

(٢) Gerousia وكان اكتافيوس قد الغى مجلس الشيوخ للأغريق .

وليست المشكلة فى قيمة ضريبة الرأس هذه من الناحية المادية فقط وانما من حيث أنها تضع اليهود فى مرتبة أدنى من الاغريق وخاصة أن هذه الضريبة كانت مفروضة على المصريين ، وكان اليهود — مثل الأغريق — ينظرون بعين الاستعلاء الى المصريين . ولقد أصيب الأغريق بطعنة نجلاء عندما فرض أحد الأباطرة هذه الضريبة على الاغريق (*) . فكيف يتساوى الاغريق مع اليهود الأقل حضارة منهم ؟ .

وظل المصرى فى الاسكندرية متعلقا بـ « راقوده » أى (رع كوت) ، وكان يقوم بالأعمال اليدوية والصناعية ، وكانت هذه الأعمال من المستويات الدنيا . واحتفظ الرومان للمصريين بهذا الوضع ، ولكنهم حرموا هجرة الفلاحين الى الاسكندرية (*) . فلم تكن الادارة تمنحهم تراخيص اقامة بل كانت تطردهم منها ان وفدوا عليها لسبب أو لآخر (*) .

ومن مبررات هذه السياسة الرومانية أن البلاد كانت فى حاجة الى الأيدى العاملة فى الريف المصرى ، والى جانب ذلك كانت الفلسفة الخاصة بالمدن الاغريقية هى أن تظل نقية بعنصرها الاغريقى بعيدا عن اجتياح الأغلبية المصرية الساحقة لها يوما ما (*) .

حقيقة عاشت الاسكندرية وكأنها دولة بجوار مصر ، حتى لقد عبر عن ذلك باللاتينية Alexandria ad Aegeptum ولقد ظلت كذلك لقرون عديدة ، ولكنها ما كانت لتعيش هكذا أبد الدهر فكان لابد أن تجتاحها الأغلبية الساحقة المصرية الغلابة (*)

* * *

امتلأ التاريخ الرومانى فى مصر بالصراع بين الاغريق واليهود سواء فى الاسكندرية أو خارجها من مدن وأرياف البلاد . والحق أن لليهود مع مصر تاريخا حافلا بالأحداث والتطورات يجدر بنا ان نلقى نظرة عليه .

تعتبر البدايات الأولى للوجود اليهودى فى مصر غامضة ، وليس لدينا من معلومات وثيقة عن هذه البدايات الأولى الا ما ورد فى الكتب السماوية . وفى الآثار المصرية القديمة ما يشير الى وجود اسرائيليين فى مصر (*) اصطدموا بالسلطة الحاكمة فيها فطردهم رمسيس الثانى من البلاد ، ونظرا لأن الخبر ورد مقتضبا فيمكن القول ان شأن الاسرائيليين فى مصر حينذاك كان محدودا ،

وحتى الآن لم يتوصل علماء الاثار الى تحديد شخصية فرعون موسى ، ولا متى وقعت حادثة غرق فرعون بجيشه بينما عبر الاسرائيليون الماء سالمين ناجين .

ومن المؤكد ان اعدادا كبيرة من اليهود توافدت على مصر فى العصر الصاوى ، وهو عصر بدأت فيه عوامل الاضمحلال تتضح وتتضاعف . فى ذلك العصر شجع بعض الفراعنة اليهود على القدوم الى مصر لتنشيط التجارة وللانخراط فى سلك الجندية . وكان ذلك جزءا من سياسة عامة حينذاك تبنتها حكومات مصرية تؤكد تفوق الأجنبى على المصرى فى القوات المسلحة . وهى سياسة عامة اضرت كل الضرر بتطور المجتمع المصرى عبر العصور التالية .

وعندما دمر « نبوخذ نصر » — الملك الفارسى — بيت المقدس وتعرض اليهود لموجة من الاضطهاد شديدة ، هاجرت جماعات منهم الى مصر . ولذلك نجد ان اليهود اخذوا جانب الأغريق فى صراعهم ضد الفرس ، وتعاونوا بل ورحبوا بالاسكندر الاكبر فى مصر ، وفى عهده وكذلك فى عهد البطالمة فتحت ابواب مصر امام هجرات يهودية متزايدة ، وانتشروا من بعد فى مختلف اجزاء البلاد سواء فى الدلتا أو الصعيد على ان جاليتهم فى الاسكندرية سيكون لها مع التاريخ شان كبير (*)

اشتغل اليهود فى مصر فى معظم الحرف والاعمال مثل الزراعة وتربية الماشية ، كما تولى بعضهم التزام جمع الضرائب ، واسندت اليهم بعض المناصب الادارية مثل منصب « سكرتير الملك البطلمى » ، وانخرطوا فى سلك القوات المسلحة البطلمية سواء فى الشرطة أو الجيش ، وارتقوا فيهما الى اعلى المناصب اذ اسند الى يهودى منصب رئاسة الشرطة ، كما كان من اليهود من تولى قيادة عسكرية رفيعة فى العهد البطلمى المتأخر وقام بعض اليهود بحراسة النيل فى بعض مواقعه . ولكن بصفة عامة يمكن القول ان التجارة والأعمال المالية كانت من مجالات تفوق اليهود وكانت من مصادر ثرائهم الرئيسية . وكان من اهم الامتيازات التى حصل عليها اليهود على يد البطالمة اعفاؤهم من دفع « ضريبة الرأس » الضريبة التى لم يكن الاغريق يدفعونها فى العهد البطلمى بينما كانت مفروضة على المصريين ، وكان الاعفاء منها يعني انهم طبقة متميزة (*)

وفى ظل الحكم البطلمى فى مصر حظى اليهود برعاية كبيرة ، وتمتعوا بمكانة عالية لدى بعض البطالمة حتى لقد بلغ الأمر بأحد ملوك البطالمة ان وصف بأنه « صديق اليهود » (١) . وكان طبيعيا أن يعتمد الحكم البطلمى — الأجنبى المتغلب على البلاد — على مثل هذه الاقليات . وهذا اسلوب سياسى شائع لدى اى حكم متغلب اجنبى . ولهذا كانت العلاقات وثيقة بين البطالمة واليهود لمواجهة الخطر المشترك : الحركة الوطنية المصرية .

ولقد ساعدت الثورات العديدة التى قام بها الوطنيون المصريون ضد الحكم البطلمى على ان يصبح اليهود أكثر قربا من قلوب البطالمة والادارة البطلمية . بل اصبح اليهود فى النصف الثانى من العهد البطلمى — وهو العهد الملىء بالثورات المصرية — قوة يعتمد عليها الاغريق .

تمتع اليهود بنوع من « الادارة الذاتية » ، وشكلوا مجتمعا يهوديا له كيانه ومواصفاته الخاصة به ، وكان على درجة عالية من الصلابة والتكتل مما كان يحول بينه وبين الذوبان فى المحيط المصرى الذى يعيش فيه ، وتعمقت فى نفوسهم معتقداتهم بأنهم « شعب الله المختار » ، ويحتقرون تلك الآلهة التى يعبدها الاغريق والرومان ، وكان احتقارهم اشد لآلهة المصريين الفرعونية ، فكلها عقائد وثنية اما هم فأصحاب ديانة سماوية ، يعبدون الاله يهوه ، ولا يدخل فى دينهم احد من الخارجين ، ومن يخرج عن معتقد يهوه فقد فقد حياته الدنيا والآخرة .

على ان هذه المقدرة على الحفاظ على « الكيان » اليهودى الخالص فى مختلف الظروف ، وذلك السلوك التقوقعى لهم ، ينم عن انعدام مفهوم الوطنية المصرية لدى اليهودى المقيم فى مصر . فهو متعلق كل التعلق بفلسطين وليس بالوطن الذى يستضيفه الأمر الذى سيجلب على اليهود الكثير من المتاعب والنكبات .

---

(١) قارن ذلك بموقف الرئيس الأمريكى ترومان وكذلك الرئيس جونسون والسياسى الكبير الأوربى تشرشل وغيره من العديد من زعامات دول أوربا الغربية من حيث الانحياز الشديد لليهود وما ترتب عن ذلك من دعم سياسى واقتصادى واسع النطاق لليهود وللحركة الصهيونية .

ومع ذلك يوجد اكثر من دليل تاريخى عن ان اليهود فى مصر تأثروا بالحضارة الاغريقية وبتقاليد المجتمع الاغريقى . فلقد ترجمت التوراة فى العهد البطلمى ، وتزيا بعض اليهود بالملابس الاغريقية ، ومنهم من اتخذ أسماء اغريقية وربما حصل بعضهم على « حق المواطنة » فى الاسكندرية . ولكن هذا كله لا يعنى ان المجتمع اليهودى أصيب بنوع من التفكك ، بل لقد اثبتت التطورات السياسية والاجتماعية ان اليهود ظلوا كتلة صلبة محافظة على معتقداتها وتقاليدها ولغتها وعلى مقابرها .

ومع وجود ذلك التحيز البطلمى نحو اليهود ، فقد تعرضوا خلال حكم البطالمة الأواخر لهزات متفاوتة الشدة ، فلقد حاول بطليموس الرابع أن يفرض عليهم الاله « ديونيسيوس » ، وهى عبادة وثنية مرفوضة من جانب اليهود وادى امتناعهم عن عبادته الى ان ينزل بهم بطليموس الرابع بعض العقوبات وان يسحب منهم بعض الامتيازات التى لم يستردها اليهود الا بعد دفع غرامة مالية .

ثم ان الصراعات التى استشرت بين افراد الأسرة البطلمية الحاكمة كانت تضع الجالية اليهودية فى مواقف حرجة . فقد كان الأخ البطلمى يقاتل اخاه او اخته من اجل الاستحواذ على العرش ، وكان من الطبيعى أن يتطلع المتنافسون الى كسب اية قوة يمكن أن تدعمهم . وكان من المستحيل على اليهود ان يكسبوا كل الأطراف المتنازعة فى مثل هذه الظروف ، فكانوا يدعمون مطالبا بالعرش ضد آخر ، فاذا ما تفوق احد الطرفين فاما ان يكافئوا واما أن ينزل بهم العقاب ، ومن ذلك أن اليهود وقفوا فى وجه بطليموس الثامن خلال صراعه من اجل العرش ضد كليوباترة الثانية فلما رجحت كفته أنزل بهم غضبته .

فى اواخر العهد البطلمى ، وعندما كانت القوات الرومانية تدق ابواب مصر من فترة لأخرى ، وجد الرومان فى اليهود قوة مسلحة تدعم السياسة الرومانية ازاء مشكلة العرش المستعصية فى البلاط البطلمى .

دعم اليهود جهود « جابينيوس » — حاكم سوريا الرومانى — من اجل اعادة بطليموس الزمار الى العرش (٥٥ ق.م) . وعندما قدم « يوليوس

قيصر » الى مصر متدخلا فى شئون مصر البطلمية فاجأته قوات اغريقية معادية له اضطرته الى الاحتماء بالاسكندرية ولكن الاغريق فرضوا عليهما الحصار ، ولم ينقذه الا قوة عسكرية يهودية مكنت يوليوس قيصر من فك الحصار . وكان طبيعيا أن ينحاز قيصر الى جانب اليهود . وبعد الانتصار البحرى الذى احرزه اكتافيوس — المطالب بالعرش الامبراطورى الرومانى ضد منافسه انطونيوس عشيق كليوباتره السابعة ملكة مصر وحليفته — دخل اكتافيوس على راس جيوشه المنتصرة مصر فرحب بمقدمه اليهود الأمر الذى اثار حفيظة الاغريق .

ونظرا لأن اليهود كانوا يمثلون قوة اقتصادية وفكرية — لها وزنها حينذاك — فقد كانوا فى نظر اكتافيوس أداة ليوازن بها قوة الاغريق ، وخاصة أن التنافس الاقتصادى والفكرى بين الاغريق واليهود كان قد بدأ يتحول الى ظاهرة اجتماعية فى مصر ، فطوع الرومان هذه الظاهرة لخدمة حكمهم فى البلاد .

فبعد الفتح الرومانى لمصر اتجهت الأزمة بين الاغريق واليهود الى الانفجار . اذ صاحب تضارب المصالح الاقتصادية صراع حاد بين الوثنية واليهودية فى نفس الوقت الذى كان فيه المصريون ينظرون الى اليهود بعين الريبة .

أما اليهود فكانوا يستشعرون القوة ، ليس فقط بسبب علاقتهم القوية مع الغزاة الجدد (الرومان) وانما لأن دويلات يهودية لها مكانتها قامت فى فلسطين وفى برقة على جانبى مصر . وكانت الاتصالات قوية بين هذه التجمعات اليهودية ، وكانت هذه الدويلات — فى أول الأمر — على علاقات قوية مع السلطات الرومانية الحاكمة — وكانت العداوة بين الاغريق والرومان ، واستخدام هؤلاء لليهود كقوة محلية يوازنون بها قوة الاغريق ، كان كل هذا من العوامل التى ساعدت اليهود على التطلع الى امتيازات جديدة ولكن هذا الوضع ادى الى أن ينظر الاغريق الى اليهود على اعتبار أنهم صنيعة الرومان مما سيعمق الخلافات بين الطرفين .

---

(١) عندما حاصر الاغريق يوليوس قيصر فى الاسكندرية فى أيام كليوباتره السابعة أنقذه اليهود من الورطة .

كانت سياسة اكتافيوس — بعد فتحه مصر — متوازنة ازاء اليهود والاغريق ، فقد الغى مجلس الشيوخ الاغريقى وأبقى لليهود مجلسهم وأعفى الأغريق من ضريبة الرأس بينما فرضها على اليهود . فسعى الأغريق لدى الرومان بكل ما يستطيعون من اجل استعادة مجلسهم ، وكذلك سعى اليهود ولكن من اجل رفع ضريبة الرأس عنهم .

حقيقة سلب الرومان الاسكندرية دورها القيادى على الطريقة الأغريقية ، ولكن احتفظ الأغريق باحتكار حق المواطنة دون اليهود الذين تمتعوا فقط بحق الاقامة فى هذه المدينة على هيئة جالية لها طابعها الخاص .

كان الاغريق يتباهون بمؤسساتهم الاجتماعية والرياضية وبأن حضارتهم هى الاعلى ، وكان اليهود يتمنون الالتحاق بتلك المؤسسات ولكنهم يحتقرون تلك الآلهة الأغريقية والرومانية الوثنية ويفخرون بانهم اتباع دين سماوى .

ورغم ذلك ، فقد تأثر بعض اليهود بالحضارة الأغريقية ، فظهر ما يمكن ان نصفهم باليهود المتحررين وهم الذين تكيفوا مع الحضارة الأغريقية ولكن دون ان يتخلوا عن دينهم السماوى .

افاد الرومان من هؤلاء ومن أولئك ، افادوا من الأغريق فى الادارة لخبرتهم العالية فيها ، وافادوا من اليهود اقتصاديا فقد بلغ من نمو الرأسمالية اليهودية أن تراكمت لدرجة مكنت اليهود من اقراض الملوك والاباطرة .

كان هذا التفوق الاقتصادى اليهودى يثير حسد الأغريق على هؤلاء اليهود الذين كانوا فى نظر الأغريق مجرد صنيعة للغاصب الرومانى .

لقد كانت عوامل الفتنة تتجمع حتى اصبحت لا تنتظر سوى حدث يشعلها .

فقد عمد اليهود الى استعراض عضلاتهم عندما جاءهم ملك يهوذا ، فساروا به فى شوارع الاسكندرية ، ومشى فيها بخيلاء ، وما كانت هذه الحادثة لتمر بسلام ، فالأغريق يرون فى الاسكندرية مدينتهم هم وليس للدخلاء حق فيها ، ثم اهكذا تطأ اقدام اليهود ارضها بصلف وكبرياء ؟ فما كان من الأغريق الا ان سخروا من ذلك الملك ، وحرضوا الادارة الرومانية عليه ، ثم عمد

الأغريق الى احراج اليهود أمام الحكم الرومانى أيما احـراج عندما وجهوا أصابع الاتهام الى اليهود من حيث أن الديانة اليهودية تحتقر العقـائد الدينية الرومانيـة الخاصـة بعبـادة الامبراطور ، وعمـد الأغريق الى وضع ايقونات تحمل صـور الامبراطور فى المعابد اليهودية ، وفى هذا العمـل ما فيه من فرض للعقيدة الوثنية على اليهود ، وكان الأغريق يدركون تماما أن اليهود لن يقبلوا اطلاقا وجود مثل هذه الايقونات فى معابدهم ، ولكن ازالتها منها تعنى انهم يحتقرون الامبراطور وهو أمر يعرضهم لمشكلات معقدة مع السلطات الرومانية .

حدث هذا فى زمن كانت فيه التطورات المحلية والدولية تسير فى غير صـالح اليهود . فمفهوم الحرية الدينية — الذى كان سمة من سمات الحضارة الرومانية — كان قد أخذ يهتز بشـدة أمام نمو الدعوة الى تالية الأباطرة الرومان ، ومن ناحية اخرى كان اليهود قد غادروا زمن عزهم أيام أمجاد داود وسـليمان .

أمـا فى مصر فكانت قد اسـندت ولايتها الى فلاكوس ذلك الرومـانى الذى يرى فى اليهود مجرد غرباء عن الاسكندرية . بينما كان اليهود يستخدمون كل مـا لديهم من حجج ليثبتوا انهم اسكندريون ولا يقلون عن الاغريق فى شىء ، وكان على كل من الطرفين أن يدافع عن وضعه وموقعه ، وكان أن تحول الجدل الى تشابك ففتنة ، فدار الاقتتال ، ولكن عمق الكراهية المتبادلة جعلت التشفى طابعه — فلا قيم انسانية ولا رحمة ، فكل لا يرى للآخر حقا فى البقاء (١) .

كان الأغريق اكثر دربة على اسـتخدام السـلاح ، واسـرع الى الهجـوم به ، فطـاردوا اليهـود وانطلقوا فيهم قتلا ونهبـا وتخريبـا (٣٨ م) ، ولكن الادارة الرومانية لاترغب فى أن يتحول الأغريق الى قوة ضـارية مسـلحة ، وفى نفس الوقت كان لليهـود من يدافع عنهم امـام الامبراطور نفسـه . فقد توسـط لهم لدى الامبراطور ملك اليهود فى فلسـطين ، فكان أن اسـتعاد اليهود كيانهم . ولكنهم كانوا يضمرون فى انفسهم جولة ثانية ، يكونون قد اعدوا لها عدتهم من قبل ، وأن يدعموا رجالهم بمن يأتيهم لنصرتهم من يهـود فلسـطين ، وقـدم اليهم فعـلا

---

(١) قارن ذلك بأحداث لبنـان خلال الحرب الأهلية بين المسلمين والمسيحيين والموارنة المعروفة بحوادث الستين (١٨٦٠) فى لبنـان ، وكذلك خـلال الحـرب الاهلية الثانية اللبنانية (١٩٧٥ — ١٩٨٤) اذ كانت بشاعة التشـفى واضـحة فى الحالتين بسبب عمق الكراهية بين الطوائف المتصارعة .

عدد ليس بالقليل منهم فتهيأت الفرصة للمواجهة من جديد فى (٤١ م) . ولكن الفتنة بين الاغريق واليهود لم تنتشر على نحو ما انتشرت عليه عام (٣٨ م) اذ امكن للرومان السيطرة عليها ، ولكن ظلت النفوس مليئة بالاحقاد وروح الانتقام لتقع فتنة اخرى فى (٦٦ م) ، ولكنها كانت فى ظروف تختلف عن سابقتيها .

فقد حدثت ثورة يهودية على الرومان فى فلسطين ، وامتدت شرارتها الى مصر (٦٦ م) . ومع ان ولاية مصر كانت مسندة الى يهودى الا انه كان قد صبأ ، ونجح فى ان يضرب الثوار اليهود بالقوة العسكرية . لقد كان ميزان القوى يبتعد بسرعة عن اليهود ، اذ ان ثورة اليهود هذه وقعت قبل سنوات اربع من الضربة القاصمة التى وجهها الرومان ليهود فلسطين ودمر فيها الرومان هيكل سليمان (٧٠ م) .

لقد كان تدمير الهيكل نكبة لا تعادلها نكبة فى نظر اليهود ، واعتقدوا ان ربهم لينصرنهم نصرا مؤزرا ليعيدوا بناءه ، حقيقة بدا يهود مصر اعجز من يدفعوا عن انفسهم عادية خصومهم ناهيك عن اعادة بناء الهيكل ، ولكن روح الثورة اليهودية كانت قد انتشرت وبرز يهود برقة كقوة اعلنت عن نفسها انها مسئولة عن انقاذ اليهود من النكبة وان يستعيد اليهود مقومات عقيدتهم : بناء الهيكل . وما كان الرومان ليدعوا اليهود ليحققوا ذلك .

مرت سنوات عدة حتى اعلنها اليهود فى برقة ثورة كبرى (١١٥ م) ، وهناك سالت دماء مئات الألوف من الاغريق بسيوف اليهود ، وزحفت جموع اليهود الى الاسكندرية فحاصروها ولكنهم عجزوا عن فتحها ، وثارت كذلك جموع اليهود فى مصر وانتقل الصراع الى ريفها المتسع (١١٦ — ١١٧ م) وتحول القتال الى ما يشبه المذابح بين الجموع المتقاتلة فى هذا المكان ثم فى ذلك . واذا بريف مصر يصبح فى جهنم من الفوضى الهوجاء التى لا تبقى ولا تذر اينما حلت . وزاد ضرامها انتهاز الخارجين عن القانون والفارين من وجه العدالة والبطالين لهذه الفوضى الدموية فانطلقوا يقتلون مع من يقتل وينهبون ما تطاله أيديهم ويدمرون مع من يدمر حتى ولو كان ذلك من مؤسسات البلاد الانتاجية .

وهناك ما يشير بقوة الى ان اليهود خططوا لتدمير مرافق البلاد ومؤسساتها الزراعية ، واحراق قراها وتدمير طرقها وتحطيم المعابد ، وكم دمر منها ، وكم من رجال مصر المنتجين صرعوا بسيوف اليهود وخربت حقولهم ، ومثل المتقاتلون

بالجثث ، وتطاردوا بين نيران الخراب ومعاول الهدم والتدمير حتى بارت مساحات واسعة من اراضى مصر من بلوزيوم (السويس) الى اتريب (بنها) الى طيبة (الاقصر) فى اقصى جنوب صعيد مصر .

ظلت القوات الرومانية عاجزة عن السيطرة على هذه الفوضى الهوجاء لفترة غير قصيرة ، حتى اعادت تنظيم القوى الكفيلة بالتصدى لهذه الجموع اليهودية الاجتياحية الدموية ، فتشكلت فرق من الأغريق واخرى من المصريين الفلاحين ، واستطاعت هذه القوى — رغم فشل فرق الفلاحين فى التصدى للاجتياح اليهودى — ان تكسر شوكة اليهود ثم طاردتهم حتى وهنت قوتهم وقضى عليهم كقوة ضاربة قضاء مبرما .

ان نظرة عامة على احوال مصر فى أواخر العهد الرومانى الوثنى توحى بسرعة الى ان كافة مقومات الاستمرار لدى الرومان ولدى الاغريق ولدى المصريين على ما كانوا عليه من حضارة كانت تتلاشى لتفسح الطريق امام المسيحية لتكون هذه الديانة عاملا من عوامل تقويض الامبراطورية الرومانية ككل ، ومن عوامل التغيير الجذرى فى مصر اذ لم تلبث أن هجر المصريون الفرعونية الى المسيحية (١) .

---

(١) حقيقة بقيت جاليات يهودية فى مصر ، ولكنها كانت منعزلة فيما يشبه (الجيتو) وبعد انتشار المسيحية فى مصر استولى اسقف الاسكندرية كيرلس على بيع اليهود فيها وطردهم منها فى (٤٢٥ م) ومن أمتع المؤلفات الأكاديمية عن اليهود كتاب (اليهود فى مصر) للأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم .

الفصل الثالث

المسيحية فى مصر

ظهرت دعوة المسيح عيسى بن مريم فى فلسطين ، وحملته مريم الى مصر طفلا ، فكان ذلك من تراث المسيحية فى مصر . واخذت المسيحية فى الانتشار ، وقام مرقص بالتبشير بها فى مصر ، ووجدت دعوته فى بلادنا تربة خصبة واخذ العديد من المصريين يدخلون فى الدين الجديد . وكانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشارها فى مصر :

١ ــ هناك من يرى أن التراث الدينى المصرى الفرعونى كان من العوامل التى جعلت الدعوة الى المسيحية مفهومة بسرعة ومقبولة من المصريين ، وخاصة مفهوم التثليث ، ولكن هناك نقد موجه لهذا العامل من حيث أن المسيحية انتشرت فى بلاد أخرى دون أن يكون لديها مفهوم ما للتثليث (الاب ــ الابن ــ الأم) .

٢ ــ ذلك التسامح وتلك المحبة التى كانت من أسس الدعوة المسيحية . وكان المصرى خلال قرون طويلة عديدة يعانى مر المعاناة من التفرقة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، فكما مر بنا كان المصرى فى الدرك الأسفل بينما كان غيره من الأجانب (الرومان والأغريق واليهود) طبقات متميزة فى كل شىء . اما المسيحية فدعت الى المساواة بين معتنقى هذه العقيدة ، ومن ثم كانت المسيحية فرصة للمصرى للشعور بذاته واملا له فى حريته من الاضطهاد .

٣ ــ كان الانضواء تحت مظلة المسيحية تحديا لجبروت الرومان .

٤ ــ كانت العقيدة الفرعونية الدينية قد تدهورت وفقدت مقوماتها ، ووهنت بشدة مكانة كهنتها ، ومرت قرون طويلة واصحاب المعتقدات الأخرى من فرس واغريق ورومان هم الذين يحكمون البلاد بقوة السيف . وكم من جهود ضخمة بذلها الحكام الأجانب لتوهين العقيدة الفرعونية بطريقة مباشرة . فما أن جاء القرن الأول الميلادى حتى كانت هذه العقيدة الفرعونية قد اهتزت واصبحت فى حالة احتضار وتخلى السبيل امام دعوة دينية جديدة مقبولة .

سرت المسيحية فى البلاد دون ادراك حقيقى لها من جانب السلطات الحاكمة الرومانية ، ومما ساعد على ذلك أن المسيحيين المصريين كانوا يتكتمون معتقدهم ، ولا يبوحون بتحولهم عن الوثنية الى الدين الجديد . وبمرور الوقت وبتكاثر الداخلين فيه أخذت عناصر الخلاف بين الوثنية والمسيحية تطفو على السطح .

وقد كانت المسيحية تنتشر فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة الرومانية تتخلى عن مبدأ حرية العقيدة الى مبدأ تأليه الامبراطور ، وعن تصاعد روح التعصب الرومانى فى هذا الصدد ودفع الشعوب الى ممارسة الشعائر التى تثبت عبادتهم للامبراطور . وكان ذلك متناقضا كل التناقض مع جوهر المسيحية .

ضغطت الادارة الرومانية فى مصر على الشعب كى يؤدى شعائر تلك العبادة التى كانت بغيضة اليه . وفى أول الأمر اخفى المسيحيون حقيقتهم ، ولجأوا الى مداراة الطغاة ، والى التظاهر بممارسة الشعائر الوثنية ، حتى أصبح من غير الممكن الاستمرار فى ذلك فبدأت المواجهة المتوقعة بين الحكم الرومانى ومسيحيى مصر .

لقد كان انتشار المسيحية فى مصر فى نظر حكامها الرومانيين يعنى خروج مصر من ايديهم ان آجلا أو عاجلا . ولجأت الادارة الرومانية الى الأسلوب التقليدى فى مثل هذه الظروف وهو الاضطهاد والقوة الغاشمة لعل ذلك يرعب الآخرين فيرتدوا عن معتقدهم .

ولكن الدعوة كانت قد سرت واصبحت أعداد كبيرة من المصريين فى عداد اتباعها الأمر الذى أزعج الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) مما جعله ينظم حملة اضطهاد واسعة النطاق وعرف عهده « بعصر الشهداء » .

لقد كانت أحوال مصر حينذاك تثير مخاوف الرومان على مستقبل مصر كولاية رومانية :

١ — فى أقصى جنوب الوادى كان الضغط المتواصل أو شبه المتواصل من جانب النوبيين يكشف عن تفوق لهم على الحاميات الرومانية هناك . وكان هناك تعاطف بين المصريين والنوبيين ، وبالتالى كانت مصر تتحول بنوع من السرعة الى ارض معادية للرومان .

٢ ــ اصبحت الاسكندرية بالنسبة للرومان مدينة مشاغبة ، بل أصبحت الاسكندرية تشكل فعلا خطرا مباشرا على الامبراطور الجالس على العرش . ففى ٢٩٥ م حظى ديمتريوس ــ المطالب بالعرش الامبراطورى ــ على تأييد كبير من الاسكندرية ، فانزعج الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) ، فارسل حملة ضده وضد الاسكندرية ، ودارت حولها وفيها معارك مدمرة استمرت ثمانية اشهر سقطت المدينة فى نهايتها بعد أن أصابها من التخريب الشيء الكثير .

٣ ــ تصاعدت حدة المقاومة السلبية المصرية المسيحية ضد الطغيان والاستبداد الرومانى الأجنبى ، ولجأ الأباطرة الرومان الى السلاح والى الارهاب الدموى فى عهد « نيرون » و « تراجان » و (ديسيوس) ، ومع ذلك ظلت المسيحية تنتشر فى البلاد حتى لجأ الامبراطور دقلديانوس الى تكثيف الاضطهاد ضد مسيحيى مصر .

كان دقلديانوس وادارته فى مصر تعتقد ان اسالة دماء مسيحيى مصر وانزال اشد الوان التعذيب بهم قد يؤدى الى استئصال شأفتهم من البلاد . ولكن الشيء الذى لم يدركه الامبراطور وادارته أن المصرى كانت لديه قدرة هذه على الصبر على المكاره الصادرة عن عجز عن أدراك مفاهيم حضارته . فشتان بين دين سماوى وتلك الآلهة التى أصبحت شيئا عجيبا فى نظر المفكرين بل وكذلك البسطاء . لقد مضى وانقضى عهد الآلهة المتعددة المتصارعة المتنافسة وجاءت دعوة سماوية اكثر قبولا واقناعا للعقلية حينذاك .

لقد اصبحت المواجهة بين الامبراطور دقلديانوس وادارته من جهة والمسيحيين فى مصر لابد منها ، ومصيرية . الأمر الذى يفسر لنا صلابة الصمود المصرى وبشاعة ودموية الاضطهاد الدقلديانوسى ، حتى لقد اتخذت الكنيسة المصرية من هذا العهد بداية لتقويمها (٢٨٤ م) ولا زال معمولا به حتى الآن فى الكنيسة القبطية .

استمر انتشار المسيحية فى مصر مثلما كانت تنتشر فى الكثير من ولايات الامبراطورية الرومانية حتى وجد الامبراطور قسطنطين ان الأجدى له الاعتراف بها وتم ذلك فى ٣١٣ م . فكان تطورا جوهريا فى التاريخ . واعطى ذلك دفعة قوية للمسيحيين فى مصر ، واتجه رجال الدين منهم الى اتباع طرق

أسرع لتوصيل مبادىء هذه العقيدة الى مختلف ابناء مصر . ولذلك ترجموا الكتاب المقدس الى اللغة المصرية القديمة التى كانت سائدة حينذاك ، واستخدموا في عملية الترجمة هذه حروفا يونانية أضيفت اليها حروف « ديموطيقية » فكان ذلك نواة « اللغة القبطية » . واندثرت اللغة المصرية القديمة ، واندثرت كذلك تلك العقائد الوثنية ، وذبلت العناصر الرومانية والاغريقية في خضم المجموع المصرى الغلاب .

اصبحت لمصر كنيستها المعبرة عن شعبها المسيحى ، وسرعان ما انطلق الفكر المصرى من عقاله ، وافرزت مصر من الاحبار من كانت لهم شهرة مدوية في مصر وخارجها . فقد نظمت الكنيسة المصرية نفسها فكريا واداريا ، وارتبط بها مسيحيو مصر برباط وثيق لحمته العقيدة وسداه الوطنية ، واثرت الكنيسة بما تدفق عليها من أموال رعيتها ، واوقفت لخدمتها مساحات شاسعة من الأراضى كانت معفاة من الضرائب .

ولا يمر وقت طويل حتى تحولت الامبراطورية البيزنطية — التي كانت مصر احدى ولاياتها — الى المسيحية حتى اخذت تظهر تيارات فلسفية ومذاهب مسيحية اختلفت فيما بينها حول قضية شغلت العالم ولا تزال تشغله : هل المسيح عيسى بن مريم « طبيعة واحدة » ام له « طبيعتان » احداهما الهية والأخرى ناسوتية ؟ ومع اتساع الخرق ، وتعمق الخلافات بين الزعامات الدينية فيما بينها وبين بعض تلك الزعامات الدينية والقيادات السياسية ، اتجه الرأى الى عقد حوار بين الاطراف المختلفة للتوصل الى صيغة مقبولة . فانعقدت المجامع المسكونية ، ابتداء من ٣٢٥ م .

وفي هذه المجامع المسكونية تجلى دور رجال كنيسة الاسكندرية . وهو دور له دلالته ، اذ وقفت مدرسة الاسكندرية المسيحية بكنيستها الوطنية ندا بل أقوى من ند المدرسة القسطنطينية ، واتضح خلال ذلك أن بيزنطة المسيحية الأغريقية تحاول ان تفرض سلطانها على مصر وعلى اكليروسها الذى كانت له كلمة مسموعة فى العالم المسيحى ، ومن ثم كان هذا الخلاف اقرب ما يكون الى جولة جديدة يخوضها شعب مصر للحفاظ على شخصيته المصرية .

ومرة أخرى وقفت الصلابة المصرية امام جبروت (الامبراطورية) . ولجأ الامبراطور الى قوته الغاشمة لعله يرغم الشعب على التخلى عن « المونوفيزيقية » عقيدة الكنيسة المصرية (القبطية) . بل لجأت السلطات البيزنطية أيضا الى

اسلوب الاضرار بالمصالح الاقتصادية المصرية ، فضيقت المجال الاقتصادى على الشعب ، وحمى جند بيزنطة (القسطنطينية) التجار اليهود وحالوا دون اعطاء المصريين فرصا متكافئة مع غيرهم الأمر الذى جعل صورة الحكم البيزنطى فى أعين المصريين قاتمة تماما .

لجأ المصرى المسيحى الى أسلوبه التقليدى فى مقاومة الطغاة (المقاومة السلبية) فقد هجر كثرة من المصريين مدنهم وقراهم ، وفروا الى الصحراء ، والى المعابد المصرية الفرعونية المهجورة والى أديرة الرهبان حتى لا تنالهم قبضة بيزنطة الحديدية .

ولعل تمرس المصرى — منذ قرون طويلة — على المقاومة السلبية كان وراء تزعم مصر وريادتها فى مجال الرهبنة . فمنذ القرن الرابع الميلادى . وعلى يد الراهب انطونيوس والراهب باخوميوس وضعت أسس الرهبنة فى مصر ، ومنها انتشرت الرهبانية الى مختلف أجزاء العالم .

وهكذا لم يؤد تحول الشعب المصرى الى المسيحية الى تجنيبه ويلات الاضطهاد على يد الاباطرة الجالسين على العرش .. سواء أكانوا اباطرة وثنيين أم أباطرة مسيحيين . وأصبحت مصر — مرة أخرى ولاية ثقيلة على كاهل الامبراطورية البيزنطية فى وقت كان فيه الصراع على أشده بين هذه الامبراطورية البيزنطية من جهة والامبراطورية الفارسية — الساسانية من جهة أخرى .

وقد تطور هذا الصراع فى فترة من الفترات لصالح الامبراطورية الساسانية اذ استطاعت أن تغلب الروم وأن تضرب بعمق فى الامبراطورية البيزنطية حتى لقد سقطت مصر فى يد الفرس الذين حكموها لمدة عشر سنوات .

ومع ما كان عليه الفرس من وثنية فقد اتبعوا مع مسيحيى مصر مبدأ الحرية الدينية ، اذ تركوا الشعب يمارس شعائر دينه دون اعتراض . ولقد أثر ذلك كثيرا فى نفسية الشعب المصرى .

أليس من سخرية القدر ان يحظى المصرى بحرية العقيدة وبحق ممارسة شعائره المسيحية فى ظل حكم وثنى فارسى بينما كان يعانى من الاضطهاد على يد اخوة له فى الدين ؟

ولم يكن المصريون حينذاك يدركون ان آية نزلت على خاتم النبيين :

« الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء » .

كانت كلمة الله هى الحق ، اذ لم تلبث جيوش الامبراطورية البيزنطية (امبراطورية الروم) أن انزلت الهزيمة بالفرس ، وعادت مصر مرة أخرى الى الامبراطورية البيزنطية ، ولكن دون أن ترجع عن اضطهاد الكنيسة القبطية ورعيتها .

توحدت الجزيرة العربية فى ظل الاسلام ، وانطلقت جيوش المسلمين فيما وراءها ، ودق المسلمون أبواب مصر ليقابلوا الروم فيها ، ومنيت القوات البيزنطية بالهزائم ، ولم يقف الشعب المسيحى المصرى الى جانبها ، بل رأى فى الفتح الاسلامى انقاذا له من مضطهديه ، وليجد نفسه تحت حكم اسلامى من مبادئه أنه « لا اكراه فى الدين » وليجدوا فى الدين الاسلامى مبادىء الانسانية الرفيعة فضلا عن وعد بجنات للمؤمنين خالدين فيها . فانتشر الاسلام وأصبحت مصر الاسلامية درة العالم الاسلامى ، وبدخول المسلمين مصر ينقضى عهد قديم وبدأ تاريخ مصر الاسلامى الوسيط .

وفى ختام تناولنا لتاريخ مصر منذ فجر التاريخ حتى مطلع تاريخها الاسلامى الوسيط يجدر بنا أن نلقى نظرة على المرأة وأحوالها فهى تمثل نصف المجتمع .

* * *

الفصل السابع

المرأة فى التاريخ القديم

للمرأة منذ فجر التاريخ المصرى مكانة متميزة ، فايزيس وما بذلته من اجل زوجها حبيبها ومن أجل ابنها فلذة كبدها حورس ليعتبر آية من آيات الوفاء . وحق لها أن تكون معبودة الجماهير فى مصر ، وأن تعمر عبادتها اطول فترة فى التاريخ ، حتى لقد عبدها بعض الرومان قبل انتشار المسيحية فى الامبراطورية بوقت قصير .

ومن طريق المرأة فى مصر كانت تتم عملية توريث العرش فى مصر القديمة ، وارتبط ذلك بتقليد فرعونى بزواج الأخ باخته ، ولم يكن هناك ادراك لدى المصريين بخطورة مثل هذا الزواج على مستقبل الأبناء والأسرات . وكان اذا تعرضت اسرة ملكية حاكمة للانقراض اصهر الزعيم المرشح للعرش الى وريثته من الأسرة المتداعية ليصبح له الحق الشرعى فى أن يكون فرعونا الها معبودا . وقد ظل هذا التقليد موجودا فى مصر حتى حوالى القرن الخامس الميلادى ، ولكن كان بمعدلات متناقصة ، حتى انقرض تماما من البلاد . ولا شك أن انتشار المسيحية لعب دورا رئيسيا فى ذلك .

كانت الملكة — زوجة فرعون — تلتزم باخلاقيات القدوة ، وكانت تنعت بصاحبة الفضل وحامية الفضيلة . ومنهن من قمن بتوجيه أمور البلاد ، ودعم السياسة التى ينتهجها زوجها فرعون مصر . ومن ذلك زوجة رمسيس الثانى ، فقد كانت تكاتب أم ملك الحيثيين فى ظروف عقد معاهدة التحالف بين الدولتين المصرية والحيثية .

وتعتبر حتشبسوت أشهر ملكات تاريخنا القديم ، ولكن اقترن حكمها بالتقصير فى الحفاظ على الامبراطورية المصرية وبمحاولة لحجب الحكم عن ابن زوجها فلعبت الدور التقليدى لزوجة الأب .

ان زيارة لوادى الملكات فى الجانب الغربى من الأقصر (طيبة) ، وروائع التماثيل التى خلدتهن عبر العصور ، وادوات الزينة وقطع الحلى

الرائعة ، ومكانة الأخت الزوجة فى الثالوث المقدس ليؤكد لنا كم كانت مكانتها عالية فى المجتمع (*).

كان فرعون أحيانا يتزوج من غير الأسرة الحاكمة ومن غير أخته ، كان يتزوج أحيانا من بنات الشعب ، واذا ما ولدت له وليا للعهد ارتفع مقامها ، وكان طبيعيا ان يثير ذلك حسد الملكة وربما نقمتها ان استطاعت .

وكان لفرعون محظيات ، سواء من المصريات أو من فاتنات أتى بهن أو أرسلن اليه من البلاد المجاورة . فلقد هبطت مصر — فى صحبة الأميرة جيلو خيبيا — اكثر من ثلاثمائة من جميلات ميتانى ، كان لوصولهن فرحة عيد لدى فرعون الذى خلد هذه الذكرى الفريدة على آثاره . ومن المحظيات من عامة الشعب من استطعن النهى والأمر فى البلاد (*).

اما المرأة المصرية العادية فكانت — بصفة عامة — على نشاط جم ، ولود ، تشارك فى الارتفاع بمستوى أسرتها الاقتصادى سواء بالعمل فى الحقل أو فى التجارة أو بالنسيج . بل هناك ما يشير الى اشتغال المرأة ببعض الحرف الصعبة مثل قيادة السفن .

وكما هو متبع حتى الآن فى المجتمع المصرى ، كانت الفتاة والفتى الراغبان فى الزواج يسعيان الى التعارف أولا بطريقة أو بأخرى . كان يتأمل الفتى فتاته فى طريق أو فى بيت أسرة صديقة أو حفل عام ، وكثيرا ما كان يقام حفل خصيص لذلك التعارف لينتهى الأمر بطلب يد العروس من أهلها ، بل هناك حالات كانت الفتاة فيها تسعى بنفسها الى اختيار شريك حياتها . فلقد كان من تقاليد مجتمع مصر القديمة أن توافق الفتاة على الرجل الذى سيتعيش فى كنفه وله . وفوق هذا وذاك كان احترام رأى الوالدين والأهل من القواعد العامة فى هذا المقام . فقد كان للوالدين دور رئيسى فى اختيار زوج الابن أو الابنة (*).

كان تعدد الزوجات معروفا فى مصر القديمة ، وخاصة بين الأسرات الارستقراطية ، الا أن القاعدة العامة هى الاكتفاء بزوجة واحدة . وكان تعدد الزوجات محظورا على الكهنة .

وفى عهد البطالمة والحكم الرومانى انتشر تعدد الزوجات بين الاغريق والرومان . الا أن ذلك كان أمرا غير مرغوب فيه .

ومن النقوش والآثار ما يؤكد لنا كم كانت الخادمات مكرمات فى مصر القديمة ، وخاصة فى عهد الدولة الحديثة . فقد صورها لنا الفنان وهى ممشوقة القوام فتية جميلة نضرة ، وقد ارتدت من الثياب جميلها ، وازينت كما تزين السيدات ، وتخطر فى مشيتها حاملة سلتها فى رقة ورشاقة . واغلب الظن انه كان من مفاهيم مجتمع ذلك العصر أن مكانة الأسرة وثروتها يجب أن تنعكس على من يخدمها ، فضلا عما فى ذلك من مفهوم انسانى حضارى متقدم .

ولكن هناك من الكتاب والمؤرخين من يولع بتشويه مصر فيما يكتبه ، ومن ينتقى نقائص المجتمع فيجعلها خلقه وتقاليده ، ومن هؤلاء المؤرخ العالمى هيرودوت اذ كتب عن المراة المصرية ما يشينها ، بل وصفها بما يتنافى تماما مع طبيعتها وتكوينها الجسدى كامرأة . فلعله اخذ بما قاله مغرض أو انه زار مواخير تعف عنها اية نفس طبيعية . لقد الصق بها حتى ما لا يلصق بالفواحش من ساقطات جيله .

ولما وقعت مصر فى يد الاغريق وحكموا البلاد ، كانوا يترفعون عن الزواج من مصريات وكانوا يستقدمون بنات جنسهم من بلاد اليونان ، او ينتظرون فرصة للعودة الى الدولة الأم (اليونان) ولكن لم تلبث الأحداث والتطورات أن قطعت السبل بين اغريق مصر واغريق اليونان ، فاتجه بعض الاغريق فى مصر الى الاقتران بمصريات . وكان ذلك فى نطاق محدود فى النصف الأول من العهد البطلمى فى مصر ، ولكن تزايدت هذه الحالات فى النصف الثانى منه ، وهو فترة تدهور الحكم البطلمى فى البلاد .

وتسربت بعض التقاليد الاجتماعية المصرية الخاصة بالزواج الى الاغريق فى العهد البطلمى ، فقد حدثت حالات عديدة من زواج الأخ بأخته الشقيقة ، كما اقترن العم بابنة أخيه . ولعل من الأسباب التى أدت الى ذلك الحفاظ على ميراث الأسرة أو الأسباب سياسية .

وفى العهد الرومانى سمح أيام الامبراطور هادريان بزواج مواطنى مدينة انتينوبوليس (١) بالمصريات (٢) ، ولكن — من ناحية اخرى — منعت القوانين

---

(١) Antinopolis

(٢) عرف ذلك بـ Epigamis

الرومانيــة زواج ذوى القــربى من الدرجة الأولى حتى الرابعــة . وبينمــا اباحت هذه القوانين زواج ابنــة الأخ بعمهــا الا انهــا اعتبرته زواجــا غــير شرعى ، ويرجح المؤرخون ان مثل هذا الزواج كان قاصرا على الرومانيين .

وكان الرومــان يعتبرون ذرية الزواج المختلط فى مرتبــة اجتماعيــة أدنى وغير شرعى ولعل ذلك لأن الرومان والاغريق كانوا يعتبرون المصريين فى مرتبــة أقل منهم . ولكن التقاليــد كانت تبيح للرومانى — المجنــد فى الجيش — ان يعيش حياته الأسرية حتى يسرح فيصبح زواجه شرعيا والأبناء شرعيين .

حتى اذا ما جاءت المســيحية وانتشرت فى البلاد خضــع الأقباط للقوانين المنظمة للأسرة وللمجتمــع فلا زواج اخــوة ، ولا زواج العــم لابنــة اخيه . ثم بانتشــار الاســلام فى البلاد طبقت الشريعة الاســلامية على المسلمين واعطيت الحــرية الدينية للأقباط وأهل الذمة .

الباب الثالث

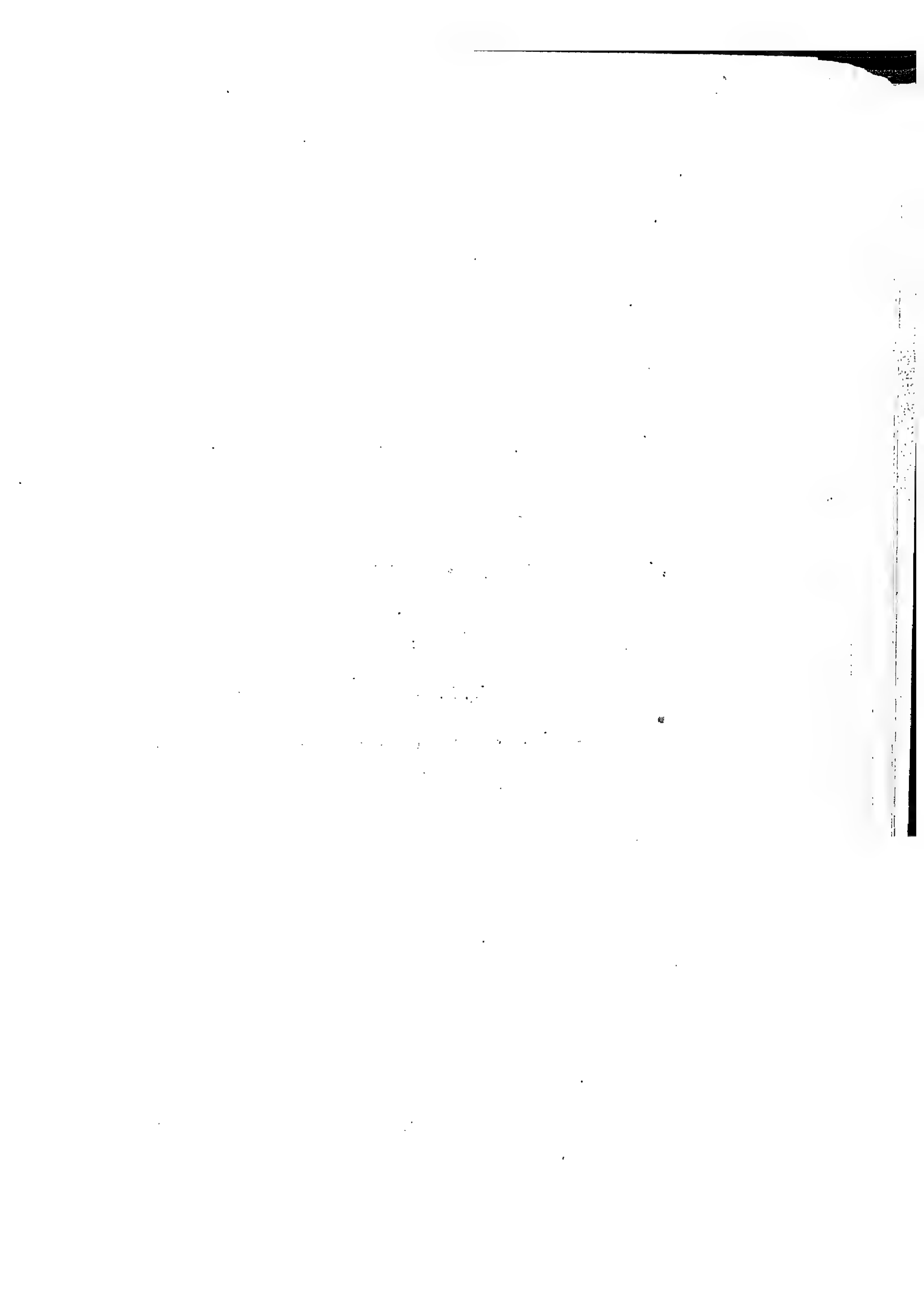
مصر فى العصر الإسلامى والوسيط

الفصل الأول : مصر منذ الفتح العربى الاسلامى حتى الفتح الفاطمى .

الفصل الثانى : الدولة الفاطمية .

الفصل الثالث : مصر والحروب الصليبية .

الفصل الرابع : مصر فى العهدين الأيوبى والمملوكى .



الفصل الأول

مصر منذ الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح الفاطمي

بينما كانت مصر المسيحية تعانى من الاضطهادات البيزنطية كانت الدعوة الاسلامية قد انتقلت الى مرحلة نشر الاسلام فيما وراء الجزيرة العربية . وكانت مصر معروفة للعرب قبل أن يدخلوها فاتحين ، بل كان من بين رجالات العرب — ثم عظماء المسلمين — من كان له علاقات ومعرفة قوية بمصر وبأحوالها قبل الفتح الاسلامى ، فلقد زارها عثمان بن عفان (ثالث الخلفاء الراشدين) وعمرو بن العاص .

ولقد ترددت نبوءة تقول ان عمرو بن العاص سيتولى حكم مصر ، وأغلب الظن أنها نبوءة أطلقت لأهداف خاصة ، على أن قيمتها تكمن فى أنها تؤكد مجىء عمرو بن العاص الى مصر . ولا شك ان تلك الخبرة بأمور مصر ساعدت عمرو بن العاص على فتح مصر عندما تولى هذه المسئولية فى عهد خلافة عمر بن الخطاب .

ادرك المسئولون عن الدعوة الاسلامية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ان العدو البيزنطى يستطيع ان يضرب ما تحت يد المسلمين من بلاد فتحوها حديثا ، بل وانه يستطيع أن يضرب بعنف ما دامت مصر تحت يده . وبينما كان لدى عمر بن الخطاب نوع من التردد والتحفظ ازاء الاندفاع نحو فتح مصر كان لدى عمرو بن العاص اصرار راسخ بضرورة فتحها . وفعلا أسندت قيادة المهمة اليه وتقدم بجيشه العربى الى داخل مصر ، وضرب الحصار على حصن بابليون (١) حتى اضطر المدافعون عنه من القوات البيزنطية الى التفاوض ، وادى ذلك الى عقد معاهدة بابليون الأولى (٢٠ هـ / ٦٤١ م) .

ولكن مصر كانت ولاية عزيزة على الامبراطور البيزنطى ، وصمم هرقل على ان تستمر المقاومة ، وحث قواته — التى تحصنت فى آخر معاقلها فى

---

(١) سقط الحصن فى يد العرب فى ٩ ابريل ٦٤١ ، وكان قائما فى موقع مدينة قديمة عرفت بـ « بابليون » فنسب اليها . وكان الرومان قد شيدوا هذا الحصن ولا تزال بعض بقاياه موجودة حتى الآن فى قصر الشمع .

الاسـكندرية — على أن تبذل أقصى ما لديهـا فى الدفـاع عنهـا ، ولكن ضـيق المسـلمون الخنـاق على القـوات الرومانيـة ، ولم تفـدها حصـانة المدينـة ولا ما حولهـا من مسـتنقعات ، فاضطروا الى فتح باب المفاوضات . وعقـدت معـاهدة بابليون الثانية فى نفس السـنة ورحل الـروم عن الاسـكندرية وعن مصر نهائيـا .

ونصت معاهدة بابليـون الأولى على اعتبار أقباط مصر « أهـل ذمـة » ، ومنحتهم حـق الاحتفـاظ بأملاكهـم آمنين على أنفسـهم ، ويدفعـون للادارة الاسـلامية ضريبـة تقـدر وفقـا لحالة فيضـان النيـل . أما المعاهدة الثانية فقد نصت على جلاء الروم نهائيا عن البـلاد وأن تترك للمسـيحيين كنائسـهم ، وأن يمنح اليهـود حق الاقامة متمتعين بحرية العبـادة .

وهكذا بدأ تطبيق مفهوم « التسـامح وحرية العبـادة » مع الفتح الاسلامى فالتسـامح من مبادىء الدين الاسـلامى اذ لا اكراه فى الـدين . وبالتالى قـدم المسـلمون الى أقباط مصر ما افتقدوه طوال قـرون عـديدة ، الأمر الذى جعـل الاسـلام والمسلمين محـل تقدير كبير من جانب الاقبـاط نظـرا للطمأنينة التى تمعـوا بهـا بعد الفتح ، وأبلغ دليل على ذلك عودة البطريرك « بنيـامين » — بطرك الاقبـاط الارثوذكس — الى ممارسـة مهـام منصبة الدينى بعـد غيبـة بلغت ثلاثة عشر عـاما ، كان خلالهـا هـاربا بعيـدا عن متنـاول يـد الادارة البيزنطية الغاشـمة .

واذا كان مبدأ التسـامح الدينى يعطى كلّ صـاحب دين أو عقيـدة الراحة النفسـية والطمأنينـة ، فان القـدوة الحسـنة — التى توفرت لدى المسـلمين حينـذاك — كانت كفيلة بأن تجعل كل صـاحب دين آخـر أو عقيـدة يعيد النظر فيما هو عليه من معتقـد وسـلوك . ولقد كانت أخلاقيـات العـرب وقتـذاك تكسب الأفئدة وتستميل الآخرين وتستحثهم على تفهم حقائق الدين الاسلامى . ومما سـاعد على ذلك أن الخلفاء المسـلمين شجعوا توافد القبـائل العربيـة على مصر ، فانتشر العـرب فى مدن مصر وأريافهـا وأقاموا بين أفـراد الشـعب وجمـوعة .

وهناك فى القرية أدرك العـربى قيمـة العمـل الزراعى ، وما يوفـره لـه من مال وغـذاء ، فاندمج فى عمـل الفـلاح ، وحاز الأرض ، وتعلم من المصرى كيف يمهدها ويخصبها ويزرعها ويجنى محاصيلها .

ولا شك ان المفاهيم التى غرسها الاسلام فى قلوب المؤمنين — وخاصة من حيث حسن معاملة اهل الذمة — كانت المعبر الرئيسى المؤدى الى سرعة تعايش الطرفين ، والى انصهار العرب مع الشعب ، والى ان يتمصر العرب ، وان يتعرب المصريون ، حتى غدت اللغة العربية هى لغة التخاطب بين الخاصة والعامة ، وتراجعت امامها بسرعة اللغة القبطية مع تزايد عدد الداخلين فى الاسلام حتى اصبحت الغالبية العظمى من الشعب المصرى على الاسلام ، ولتفاخر مصر — من بعد — بانها معقل الاسلام واهم مركز حضارى اسلامى عالمى .

على ان هذا التحول لا يجب ان نتصوره قد تم دون وقوع مقاومة ، فلقد تمسكت مجموعات كبيرة — فى اول الأمر — ليس فقط بعقيدتها المسيحية ، بل وبرفض المفهوم الجديد للادارة الاسلامية . اذ استكثر عدد ليس بالقليل من الاقباط ما فرض عليهم من جزية ، واخذتهم العزة بانفسهم فقرروا التخلص منها . ولقد اتخذت هذه المقاومة شكل ثورة تارة ، وتارة اخر لجأ المصرى القبطى الى الاسلوب التقليدى الذى درج عليه فى مقاومة الحكم والحكام ، وهو « المقاومة السلبية » اذ فرت اعداد ليست بالقليلة منهم الى الاديرة والى الرهبنة (**)

ومن بين الفترات التى اشتدت فيها المقاومة المسلحة الفترة بين ٧٢٥م و ٨٣١ م ، ولكن لم تلبث ان هدأت الأمور ، واصبح الطريق امام الاسلام والتعريب مفتوحا .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان طبيعيا ان ينتهز الاقباط الارثوذكس فرصة هزيمة الامبراطورية البيزنطية — وهى فى نفس الوقت هزيمة المسيحيين الملكانيين — فقام بعض الاقباط بالاستيلاء على كنائس الملكانيين وتطلعوا الى اذاقتهم من نفس الكاس الذى شرب منه لفترة طويلة اقباط مصر على يد بيزنطه ورجالها .

ولقد كانت هذه التجاوزات من انفعالات الساعة ، وادركت الحكومة الاسلامية ان مثل هذه التجاوزات تضر بقضية حق الذمى فى ممارسة الحرية الدينية التى كفلها الاسلام لأهل الكتاب . ولذلك هيأت الادارة الاسلامية الفرصة لعودة البطريرك الملكانى فى عهد هشام بن عبد الملك ومارس البطريرك مسئولياته مستظلا بالتسامح الاسلامى .

وخلال عهـد الولاة الامويين فى مصر حظى الاقبـاط بحرية دينيـة سـمحت لهم ـ فيما سـمحت به ـ ببنـاء العديد من الكنائس . ويلاحظ انه فى هذا العهد ايضـا حصـل اهل الذمـة على مراكز عاليـة فى الادارة ، اذ كانت المناصـب العاليـة فى الشـئون المالية والادارية تسـند فى كثير من الاحيـان الى الاقبـاط واليهـود ، وذلك لما كانوا عليه من دراية وخبرة بتلك الشـئون .

وهكذا ، خلال القرون الاربعة الهجرية الاولى كانت عمليـات التحـول الى الدين الاسـلامى والاخذ باللغة العربية والتعايش بين المصريين المسـلمين ومن بقى على معتقـده المسـيحى تسـير كلهـا جنبـا الى جنب حتى اصبحت مصر ليسـت مجرد ولاية اسـلامية تتبع الخلافة الاموية ثم العباسـية وانما واحـدة من اقـدر بقـاع الارض على متابعـة المسـئولية الـكبرى : نشر الاسـلام والدفاع عن حظيرته .

وخلال فترة قصيرة نسـبيا تم تعريب الادارة فى مصر ، وفقدت الاسـكندرية تماما ذلك التقسـيم الذى عرفته من قبل ، ونعنى به التقسيم الذى يقـوم على اسـاس من الدين او العنصر او المذهب ، اذ لـم تلبث الاسـكندرية ان اصبحت مدينة اسـلامية قلبـا وقالبـا . ولكن اقتضى مرور بعض الوقت للوصـول الى هذه النتيجـة .

وهناك من يقول ان السـبب الرئيسى فى تحـول مصر من المسـيحية الى الاسـلام هو توافد القبائل العربيـة الاسـلامية على مصر . ولا شـك ان اعدادا ليسـت بالقليلة من القبائل العربية هاجرت الى مصر . ولكن من ناحيـة اخـرى كان تحول المصرى من المسـيحية الى الاسـلام هو الذى اعطى لمصر طابعهـا الاسـلامى الذى لا يزال غالبا حتى الآن .

وفى عهـد الدولة العباسـية ـ وخاصة فى النصف الثانى من تاريخهـا ـ اخذت الاطراف تقـوى على حسـاب الحكومة المركزية فى بغـداد ، فظهـرت فى مصر عـدة دول مسـتقلة وان كانت تتبـع الخـلافة العباسـية اسـميا وعلى راس هذه الدول : الدولة الطولونيـة وتلتهـا الاخشـيدية فالخـلافة الفاطمية ثم الدولة الايوبيـة وخلفهم فى حكم مصر المماليك الذين كانوا آخـر الحكـام المسـتقلين ـ او شـبه المسـتقلين ـ فى مصر حيث اصبحت مصر ـ بعد الفتح العثمانى لهـا فى ١٥١٧ ـ مجرد ولاية تتبع الدولة الاسـلامية العثمانية .

فقد كانت تبعيتها للخليفة العباسى اسمية ، وكانت لأحمد بن طولون
بتولى أحمد بن طولون حكم مصر استعادت كيانها السياسى الخاص
سياسته الخاصة به وبمصر حتى ولو تعارضت مع سياسة الخليفة العباسى
او مع أصحاب الحكم فى بغداد . ومن أبرز مظاهر هذه الاستقلالية فى الحكم
والادارة أن مصر فى عهد الأسرة الحاكمة الطولونية عادت مرة اخرى تمارس
السياسة المصرية التقليدية التى تقول بأن تكون كلمة مصر هى العليا
فى الشام .

وعلى نحو ما اعتادته مصر خلال اى اسرة حاكمة ، كان المؤسس ينجح
فى اطلاق قدرات مصر الانتاجية والفكرية والعسكرية ، وان تتفجر مظاهر
الثروة والحضارة فى عهد خليفته أو بعد ذلك بقليل .

ولقد كان الأمر كذلك فى عهد أحمد بن طولون ، وفى عهد خليفته
خمارويه الذى ورث ثروة طائلة ، تجلت ذروتها فى زفاف ابنته (١) الى الخليفة
العباسى (٢) ، يحفها جهاز باهظ التكاليف هو — فى رأينا — أقرب الى
السفه من اى شىء آخر ولعل الهدف كان اثبات تفوق البلاد على غيرها ،
وهو اسراف كان من العوامل التى أدت الى ضعف الأسرة الطولونية لتخلفها
اسرة أخرى قصيرة العمر هى الأسرة الاخشيدية ، التى اهتزت أمورها
اهتزازا شديدا بعد وفاة مؤسسها كافور الأخشيدى ، وأصبح فتح مصر أمام
القوة الفتية الناهضة فى المغرب امرا يسيرا فلم تلبث أن دخلتها جيوش
المعز لدين الله الفاطمى .

يجدر بنا عند هذه الوقفة ان نلقى نظرة على بعض أحوال مصر الاجتماعية
والاقتصادية منذ الفتح الاسلامى حتى سقوط الدولة الاخشيدية نظرا لأن مصر
من بعدها ستدخل فى مراحل جديدة سواء فى المجالات السياسية او الاقتصادية
فضلا عن الاجتماعية .

كانت الضرائب المفروضة على الشعب ينفق منها لسد حاجات البلاد ،
وجزء منها يرسل الى خزانة الخلافة الاموية ثم العباسية مشاركة فى المسئوليات

---

(١) كانت تدعى قطر الندى .
(٢) بعد حروب طويلة امكن التوصل الى صلح بين الخلافة العباسية والحكومة
الطولونية فى مصر .

العامة للخلافة . وكان لأموال مصر دور رئيسى فى سد حاجات الدولة الاسلامية العامة وتمكينها من القيام بمسئولياتها علما بأن هذه المسئوليات العامة للخلافة اخذت فى الانحراف فى النصف الثانى من تاريخ الدولة العباسية .

ومن ناحية اخرى كانت ثروة مصر واخلاص الفلاح المصرى فى الانتاج واتساع نطاق الملكية الخاصة — التى تعتبر من المبادىء العامة للفكر الاسلامى حينذاك — كان كل هذا من العوامل التى أدت الى تكالب المسئولين فى حكومة الخلافة ذوى الحظوة والمكانة على الحصول على منصب والى مصر .

فكانت مصر تمنح فى كثير من الأحيان كاقطاع للوالى ، وذلك قبل قيام الدولة الطولونية ، وكان الوالى مسئولا عن ادارة أمور البلاد وجمع الأموال المقررة عليها ليرسلها دفعة واحدة أو على دفعات كبيرة الى خزانة الخليفة .

وبطبيعة الحال كان الولاة يجمعون لانفسهم مبالغ ضخمة كانت تعود عليهم بالثراء الكبير .

كانت أرض مصر فى ذلك العهد موزعة على النحو التالى :

(أ) اراضى تملكها الحكومة :

١ — وهى الأراضى التى كانت ملكا خاصا للاباطرة ثم صادرتها الادارة الاسلامية لصالح الخلافة .

٢ — املاك لحكام مصر السابقين الذين طردوا منها وصودرت لصالح الحكومة .

٣ — الأرض الموات أو المهجورة .

٤ — اراضى آلت الى الحكومة نظرا لوفاة اصحابها دون وارث أو اراضى موظفين فصلوا من وظائفهم .

(ب) اراضى الاقطاع :

١ — اراضى تمنح لموظفين كبار .

٢ — اراضى تمنح مقابل خدمات لها قيمتها عند الخليفة أو من كان الأمر بيده .

٣ — اقطاع هبة يستغل لفترة وكان يتحول الى ملك .

٤ — اقطاع حربى وقد توسع الايوبيون من بعد كثيرا فى هذا النوع من الاقطاع .

كانت الضرائب الشرعية مفروضة على شعب مصر وأرضها (١) ولكن فرضت ضرائب اخرى مباشرة وغير مباشرة ، وامتدت الى معظم اوجه النشاط الاقتصادى من رعى وصيد الى غير ذلك ، كما ظهر « التزام » الأرض وكان ذلك يتضمن ارهاق الملتزم للفلاحين أو التجارة والتجار واصحاب العلاقة .

وكانت وطأة الضرائب احيانا من الفداحة لدرجة انها دفعت جموعا من الفلاحين الى الثورة فى أيام احمد بن طولون ، مما جعله يلغى الضرائب غير الشرعية . كذلك لجأ الفلاح المصرى الى أسلوبه التقليدى فى « المقاومة السلبية » بالفرار من القرية حتى شغلت الحكومة بالعمل على اعادة الفلاحين الى قراهم .

شهد هذا العهد — الممتد من الفتح الاسلامى لمصر حتى الفتح الفاطمى لها ، حركة بناء العواصم والمدن والمساجد والجوامع التى لا تزال شاهدة على تقدم فن تخطيط المدن والفن المعمارى الاسلامى . فبالفتح الاسلامى فقدت الاسكندرية دورها كعاصمة خلقت لتولى وجهها نحو الامبراطورية الأروبية المهيمنة على مصر ، وحل محلها عدد من العواصم الجديدة التى انشاها الحكام المسلمون :

الفسطاط ، والقطائع ، والعسكر . وبذلك تكون هذه العواصم الاسلامية قد عادت — الى حد كبير الى الموقع الوسط القديم (منف) .



(١) هى الخراج والزكاة اما الجزية فكانت مفروضة على أهل الذمة .

الفصل الثانى

الدولة الفاطمية

٩٦٩ — ١١٧١ م

اصبحت مصر فى أواخر الأسرة الأخشيدية هدفا رئيسيا للدول الكبرى فى منطقة الشرق الاوسط واوربا (*)

فقد كانت الدولة العباسية تتفكك الى العديد من الدول والدويلات المستقلة وشبه المستقلة حتى أصبحت الفرصة أمام الامبراطورية البيزنطية أوسع لتحقيق اهدافها فى البلاد الاسلامية وخاصة الاستيلاء على مصر .

وهناك فى اقصى الغرب من العالم الاسلامى نجحت الدعوة الشيعية فى اقامة (الدولة الفاطمية) وكان على رأسها خليفة شيعى اثنى عشرى آل على نفسه — معتمدا على القوة الضاربة المغربية — أن يفرض المذهب الشيعى على العالم الاسلامى ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولذلك أخذت الحملات الفاطمية تدق أبواب مصر حتى تمكن جوهر الصقلى من أن يفتحها .

واقام فى مصر عاصمة جديدة (القاهرة) انتقلت اليها الخلافة الفاطمية وأصبحت مصر لأول مرة مقرا لخلافة اسلامية وان كانت شيعية .

وتكون مصر بذلك قد انتقلت عبر المراحل التالية فى العهد الاسلامى حتى الحكم الفاطمى :

١ — مجرد ولاية تابعة للحكومة المركزية فى المدينة المنورة أو الكوفة أو دمشق أو بغداد ، وهى مقار الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموى والعهد العباسى الأول .

٢ — فى العهد العباسى الثانى اصبحت مصر دولة اسلامية مستقلة تابعة للدولة الاسلامية العامة (الخلافة العباسية) تبعية اسمية .

٣ — أصبحت مصر مقرا لخلافة فاطمية تنادد الخلافة العباسية فى الشرق والخلافة الأموية فى الأندلس (*)

يفسر بعض المؤرخين السهولة التى فتح بها جوهر الصقلى مصر بأن ذلك يرجع الى نجاح الدعاة الشيعة الذين أرسلتهم الدولة الفاطمية من شمال افريقية لنشر الدعوة فى مصر . ومع أن هذه الجهود لم تكلل الا بنجاح محدود جدا ، فقد كان للمصريين الذين تحولوا الى المذهب الشيعى دور هام فى فتح الطريق أمام جيش جوهر الصقلى .

عندما كان الفاطميون يدقون أبواب مصر وبعد أن استولوا عليها ، كانت لدى الشعب المصرى (السنى) مخاوف قوية من أن يفرض عليهم الفواطم بالقوة مذهبهم الشيعى ، ولقد كان جوهر الصقلى واعيا جدا لهذه المخاوف . ولذلك نلاحظ انه ضمن فى عهد الأمان — الذى أصدره لطمأنة المصريين — المبادىء الرئيسية التالية :

١ — أن يظل المصريون على مذهبهم فلا يلزمون بالدخول فى المذهب الرسمى للدولة الفاطمية (المذهب الشيعى) .

٢ — ان تجرى الشعائر الاسلامية على ما ورد فى كتاب الله ورسوله .

٣ — تأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وممتلكاتهم .

٤ — استتباب الأمن وتوفير الاقوات واصلاح العملة ونشر العدل .

وقد انعكست هذه المبادىء على سياسة جوهر الصقلى فى مصر ، فقد ترك الجوامع الكبرى فى مصر على ما كانت علية من حيث استمرار ممارسة الشعائر الدينية على المذهب السنى ، وانما بنى الجامع الأزهر لتقام فيه الشعائر الدينية على المذهب الشيعى . وكان هذا الاتجاه من العوامل التى ساعدت على ابقاء الأرضية السنية الواسعة فى مصر صلبة وقوية أمام التيار الشيعى الحاكم ، وانه مهلا لنوع من الحرية المذهبية ذلك الذى طبقه الفواطم فى مصر بعد فتحهم لها ، مع أن المذاهب والتيارات الشيعية كانت تتعرض لاضطهادات السنة فى كثير من الأحيان (*)

لقد عمل الفاطميون على نشر مذهبهم والدعاية له فى كل فرصة وفى كل مناسبة ، ومن ذلك انهم اهتموا اهتماما كبيرا بالمواسم والأعياد والاحتفالات ، وليس فقط تلك المواسم والأعياد الشيعية وانما أيضا تلك التى اعتادها المصريون حتى ولو كانت أعيادا ذات أصول قديمة . ومن ذلك مشاركتهم فى

الاحتفال بـ (الغطاس) و (وفاء النيل) وكذلك بخميس العهد . وبالاضافة الى ذلك فقد شاركوا فى الاحتفال بعيد (النوروز) الذى يقع فى ١١ سبتمبر .

وهناك من يرى ان الفاطميين لم يتوسعوا فى الاحتفالات الدينية الاسلامية ، وانما اقتصروا على الرئيسى منها مثل :

— عيد الفطر — عيد الأضحى
— مولد النبى — مولد الحسين
— مولد السيدة زينب — ليلة الاسراء والمعراج
— ليلة النصف من شهر شعبان

وكان الاحتفال بعاشوراء من اكثر الاحتفالات التى عنى بها الفاطميون ، فهو لديهم ذكرى يوم استشهاد الحسين ، فهو يوم الحزن والآلام وهو يوم النحيب وطلب العفو عما بدر من المسلمين يومذاك من تقاعس عن نجدة القتيل المعطشان (الحسين بن على) .

فكانت المواكب تخرج الى الشوارع وتسير معذبة نفسها مثيرة الأشجان فى النفوس مذكرة بتلك المأساة التى كان بطلها وضحيتها حفيد النبى صلى الله عليه وسلم .

كذلك كانت تقام المعازى وفيها تلقى المراثى والاناشيد المبكيات ، وتخرج النسوة مولولات نائحات باكيات ، صرخاتهن تقطع القلوب .

وعلى مسافة ليست بالبعيدة تقترف الفاحشة ويندس من يندس فى هذه المواكب بغية سرقة أو فتنة . متناقضات ملأت الاحتفالات الدينية حينذاك ولا يزال بعضها قائما فى الموالد التى تقام هنا وهناك فى الديار المصرية ، وفى كثير من غيرها من بلاد المسلمين ، حتى الآن .

وهناك مقولة عامة عن أن الفاطميين مارسوا خلال حكمهم نوعا من المساواة فى المعاملة بين مختلف أصحاب الديانات . ان ذلك التسامح الدينى كان واضحا فى تولى عدد بارز من أهل الذمة للمناصب العليا الادارية وعلى رأسهم :

— منشا اليهودى .
— عيسى بن نسطوروس .

وربما كان هذا التسامح الدينى هو السبب الرئيسى الذى ادى الى فتح ابواب الترقى أمام اليهودى العراقى يعقوب ابن كلس حتى اعتنق الاسلام وأصبح علما من أعلام الحضارة الاسلامية فى مصر .

وهناك ملاحظة هامة توصل اليها الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور عن سياسة الخلافة الشيعية الفاطمية ، وهى أن الفاطميين وقد ايقنوا انه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين فى مصر من انصار الدعوة العباسية قربوا اليهم اهل الذمة واظهروا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة :

حقيقة عدل الفاطميون عن هذه السياسة من وقت لآخر ولكنها دامت الى أن استاء المصريون المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة .

واتبع الحاكم بأمر الله سياسة غير تلك التى كانت فى عهد العزيز ابن المعز . فقد « اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهود » بينما تقلد الوزارة « منصور بن عبدون النصرانى » .

ومن الأمور الهامة التى حدثت فى عهد هذا الوزير اشارته الى الخليفة الفاطمى (الحاكم) بهدم كنيسة القيامة او القبر المقدس ، فأصدر مرسوما بهدمها . وكان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير فى اذكاء روح الدعوة الصليبية التى اعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس :

وتعدلت سياسة الظاهر بن الحاكم بأمر الله المذهبية الى الأخذ بالمبدأ السامى الاسلامى : لا اكراه فى الدين .

ان سياسة الفاطميين المذهبية كانت تتذبذب بين ممالأة الطوائف المسيحية واليهودية تارة وتنقلب عليهما تارة أخرى . وهذا الاضطراب — فى اعتقادنا يرجع الى ان الحكم الفاطمى قام من اساسه على الفكر الطائفى الشيعى فى الوقت الذى كانت فيه القاعدة العامة فى مصر على المذهب السنى .

واذا اعتبرنا المعز لدين الله من اشهر خلفاء الدولة الفاطمية من الناحية السياسية ، فان الحاكم بأمر الله هو اشهر الخلفاء الفاطميين من ناحية المسائل الاجتماعية التى ظهرت فى عهده واثارت جدلا لا يزال محتدما حتى الآن بين مختلف المؤرخين والباحثين .

كان الحاكم بأمر الله رجلا محيرا ، فلم يحسم المؤرخون بعد اسباب تلك القوانين والأوامر الغريبة فى رأى الجمهرة ولكنها اجراءات عادية فى رأى عدد من الباحثين ، اذ يرى البعض أن الحاكم بأمر الله كان يواجه تسيبا اجتماعيا ، كانتشار شرب الخمر والفسوق ، فما كان منه الا أن اصدر سلسلة من القرارات التى بدت أقرب الى العشوائية والعفوية والاضطراب الذهنى منها الى التعقل والتفكير الناضج .

ولقد كان الحاكم بأمر الله مغاليا فعلا فى الأوامر الخاصة بالتضييق على نشاط المرأة الاجتماعية خارج منزلها ، ولكن من ناحية أخرى يجدر بنا أن ننظر اليها من هذه الزاوية فقط وليس من زاوية (جنون) الحاكم بأمر الله .

فهناك من ذهب فى أيامنا هذه الى فهم وتفسير السفور بطريقته الخاصة ومن ذلك أنهم وضعوا على وجه بعض الفتيات والسيدات نقابا فلا ترى الا من نقبين أمام العينين ومن فتحة للتنفس عند فتحتى الأنف ووضع فى كفيها (قفاز) . وأغلب الظن أن هذه التيارات تنشأ غالبا عندما يموج المجتمع بالفساد والانطلاق غير المقنن .

ولكن مما لا شك فيه أن العديد من أوامر الحاكم بأمر الله المتعلقة بتحريم بعض المأكولات لا تزال تثير جدلا : هل كان ذلك نتيجة اختلال ذهنى أو عقدة نفسية أم كان ذلك مجرد أسلوب خاطىء لتحقيق هدف معين ؟

ويلاحظ أنه فى عهد الحاكم بأمر الله ظهرت عدة دعوات الى رفعه الى مرتبة الألوهية . وهذه الدعوات ليست بجديدة على العالم الاسلامى ، فلقد ظهرت فى أكثر من مكان ولاكثر من زعامة اسلامية . ولكن الذى يهمنا هنا هو أن المذهب الشيعى نفسه ظل عقيدة الحكومة وليس مذهب اهل البلاد المصريين ، وأن الدعوات المتطرفة الى تأليه الحاكم بأمر الله ، مثل تلك الدعوة التى قال بها كل من الاخرم و (الدرزى) ، لم تجد لها تربة صالحة فى مصر وانما لفظها المجتمع المصرى ووجدت الدعوة (الدرزية) مكانا لها فى الشام ولا تزال ذات شأن فى كل من لبنان وسوريا حتى الآن .

نسوق هذا للقول بأن طبيعة مصر وطبيعة المجتمع المصرى لا تقبل الا النظريات البسيطة المباشرة المعبرة غير المعقدة . فاذا ما اخذ بها الشعب المصرى أصبح من العسير على أية ضغوط أن تغيره . والمذهب السنى فى حقيقة الأمر

بسيط ومعبر عن أهدافه ، فآمن به المصريون ، ولم يأخذوا بالمذهب الشيعى ولا بالدعوات المتطرفة ولم يعط لمثل هذه الدعوات مكانا فى البلاد لأنها تتنافى مع الفكر المباشر البسيط المصرى . ومن هنا يمكن تفسير طبيعة هذا الشعب بانه من قبيل (السهل الممتنع) .

ولقد ادت تلك الاتجاهات الشيعية الحكومية الى أن يتحمل الشعب المصرى كثيرا من الويلات . فقد نظر العالم السنى الى مصر على اعتبار انها اصبحت شيعية بل وانها خرجت عن جادة الاسلام ، وخاصة عندما تناقلت الالسن انباء (ادعاء) الحاكم بأمر الله الالوهية ، وما دعا هو الى ذلك وانما فعلها المتطرفون ، فانطلقت من مشارق الأرض ومغاربها الدعوات الى انقاذ العالم الاسلامى من هذا المارق عن الدين . وهى دعوة تزعمها الخليفة العباسى ، كما تزعمها أبو ركوة الذى كان من سلالة (أموية) آل على نفسه ليقاتلن هذا (الكافر الحاكم بأمر الله) حتى يعيد الاسلام الحق الى مكانته .

لقد فشلت المحاولتان وصمدت مصر الفاطمية للضغط ولم تستقر الدعوات المتطرفة الشيعية فى البلاد ولكن عهد (الحاكم) كان نذير اضطراب يحتمل فى البلاد لينفجر فى عهد خلفائه .

❋ ❋ ❋

نظرا لأن القوة الضاربة الفاطمية كانت تتكون — من البداية — من المغاربة ، كان من الطبيعى أن يحصل هؤلاء على مناصب وامتيازات مكافأة لهم على الفتح وعلى دعم الحكم الفاطمى فى هذه البلاد ، وخاصة ان القاعدة الشعبية المصرية كانت سنية ، وكان من المتوقع أن تظل سنية لفترة غير معروفة .

ولكن مثل هذا الوضع لا يستمر الا لفترة محدودة ، اذ لن تلبث المخاوف من هذه القوة العسكرية أن تظهر أمام اعين المسئولين عن الحكم فيصبحون على حذر متصاعد من تحول تلك القوة العسكرية الى قوة سياسية طامعة فى الحكم والادارة وفى المزيد من المناصب والاكراميات .

ومن ناحية اخرى ، كانت مكافاة مثل هذه القوة العسكرية بالمناصب قد تؤدى الى افسادها وانشغالها عن مسئولياتها الرئيسية (المسئولية الدفاعية) .

الى جانب ذلك فهناك عوامل التدهور التى تعمل عملها بفعل الزمن فى مثل

هذه الصفوة العسكرية الحاكمة المميزة . فيتجه الحاكم الى اصطناع قوة جديدة من غير تلك المصادر القديمة ، ولذلك نلاحظ أن الخليفة الفاطمى (المعز) كان يتجنب المغاربة ويشكل قوة عسكرية جديدة من الترك ، ولم يلبث الخليفة (الحاكم) أن خشى سيطرة (الترك) فاصطنع قوة من (السودانيين) .

ولقد وقع الصراع بين المغاربة والاتراك أولا ، ثم وقع بين هؤلاء من جهة والسودانيين من جهة اخرى . فكل يحاول ان يستأثر بالمناصب العليا والارزاق الوفيرة . وادت تلك الصراعات الى فساد الأمور ايما فساد حتى اضطر الخليفة الفاطمى (المستنصر) الى الاستنجاد ببدر الجمالى — حاكم دمشق — الذى كان جنده من الأرمن ، فدخل بهم مصر وسيطر على القاهرة واضاف بذلك الى ما كان موجودا طائفة عسكرية جديدة وان كانت مسيحية .

كان الخلفاء الفاطميون فى نفس الوقت يفكرون فى أن تكون لهم قوة يعتمدون عليها فى الدفاع عنهم ولذلك اتجهوا الى قوة خاصة من (المماليك) يتولون تربيتهم وهم لا يزالون صغارا صبيانا . وربما يكون بعض المصريين قد انضموا الى هذه الفرقة ولكن سرعان ما تخلص منهم بدر الجمالى لعدم كفاءتهم فى قتال الصليبيين على ما ترويه بعض المراجع (١) .

ان ذلك التعدد فى القوى المتميزة المتتالية ليذكرنا بما حدث فى التاريخ القديم عندما كان الرومان يحكمون والباقى فى مراتب ادنى : اغريق ويهود واخيرا المصريون . كذلك عندما حكم المغاربة اصبحوا هم يمثلون الفئة العليا ، ثم حل محلهم الاتراك لفترة ، وسعى السودانيون الى نفس الهدف ولكن لم يتمكنوا ثم جاء الارمن وسيطروا . نخلص من هذا أن الصفوة العسكرية التى تحصل على مميزات نتيجة اعتماد على القوة لتحكم وتسيطر دون ما التفات الى دور ما لأهل البلاد ، أن مثل هذا الحكم العسكرى يؤدى الى استبعاد الشعب عن دوره الحقيقى فى المشاركة فى التوجيه السياسى ، ويصبح الشعب مقتصرا على الانتاج الزراعى التقليدى دون رغبة فى التطور ناهيك عن التطوير . وهذا يؤدى الى نتائج فى منتهى الخطورة على مفاهيم الشعب المتعلقة بالحكم والحكام والرعية والدولة والانتماء .

---

(١) مختار العبادى : فى التاريخ العباسى ، ص ٢٧٠ .

ولقد زاد من تدهور الأمور وضياع المصالح الحقيقية للشعب المصرى ذلك الجدل المتطاول الذى ملأ صالونات الفكر فى الدولة الفاطمية .

وابرز مظاهر الصراع تلك الاختلافات حول المبادىء التى تحكم تعيين خليفة على نحو ما حدث بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر ، اذ تنازع نزار والمستعلى وتوزع أصحاب الراى بين الرجلين وهزمت النزارية ففر رجالها الى الشام واقاموا لانفسهم كيانا سياسيا ناصب الفاطميين فى مصر اشد العداء .

دارت الخلافات بين الزعامات السياسية والفكرية والدينية حول وراثة الخلافة الفاطمية ، ودار الجدل وتبعه المؤامرات التى أضرت بمصالح البلاد ، والشعب لا يعنى كثيرا بتلك المحاولات ، ولم يدر أصحاب هذا الراى أو ذاك أن لا حاجة حقيقية الى هذا الحوار المرير (النظرى) غير المؤثر فى حقيقة تطور البلاد أو فى انقاذها مما الم بها من ضعف . بل لقد كانت تلك المحاورات عامل اجهاز على الدولة الفاطمية فى مصر ، فعندما تبدلت الأحوال وعاد المذهب السنى مذهبا رسميا للبلاد ضاعت تلك المحاورات لتصبح مجرد احداث ذات نتائج سلبية .

لقد ادت كل الاحداث الى اضعاف الحكم الفاطمى فاخذ يتراجع ، فبينما كان الفاطميون قد وصلوا بنفوذهم — وهم فى ذروة مجدهم من أطراف المغرب الى المشرق — وكانت الخطبة باسم الخليفة الفاطمى فى بغداد (١) وحلب ودمشق فضلا عن الحجاز وشمال أفريقية ، اخذت الدولة الفاطمية تتقلص فخرج المغرب عليهم وكذلك العراق ثم الشام وانحصر الفواطم فى مصر حتى انهى حكمهم صلاح الدين الأيوبى .

وانه لأمر جد دقيق أن يكون تطور ومصير الحركة الشيعية فى البلاد العربية الاسلامية مقاربا الى حد ما لمصير الحركة الاشتراكية فى البلاد العربية . فلقد انطلقت الحركة الفاطمية من أقصى الغرب وتوسعت شرقا وسيطرت على شمال افريقية وعلى مصر والشام وشرق الجزيرة العربية. وكادت بغداد والعراق أن تقع فى يد الحركة أو فى يد أعوانها (حركة البساسيرى) وكاد المشرق كله أن يصطبغ بالصبغة الشيعية ولكن لم يلبث أن سقطت الحركة الشيعية الفاطمية سواء على يد القوى الخارجية

---

(١) كان ذلك لفترة محدودة .

(الصليبيين) او على يد القوى المناهضة لها فى البلاد الاسلامية نفسها أو بسبب اخطاء الحكم والادارة الفاطمية .

ذلك ما حدث ايضا للحركة الاشتراكية فى النصف الثانى من القرن العشرين عندما انطلقت هذه الحركة واصبحت تغطى – بطريقة أو بأخرى – بلاد المشرق والمغرب العربى بدرجات متفاوتة حتى ضربت هذه الحركة سواء على يد قوى خارجية (الصهيونية) او على يد القوى الاجتماعية والاقتصادية من الداخل .

فهل هناك قاسم مشترك اعظم وعناصر واحدة او متشابهة أدت الى انتشار واسع اظهرت عوامل وعناصر متشابهة او متقاربة أدت الى تدهور تلك الفكرة ؟ هناك فعلا قاسم مشترك اعظم ادى الى سرعة الانتشار وهو التعاطف مع الفكرة (الفكرة الشيعية ومحبة آل البيت والاشتراكية) ولكن دون ان يمارس الشعب المصرى هذه الفكرة كعقيدة راسخة او كايديولوجية محركة .

لقد احب الشعب المصرى وتعاطف مع الفكرة الشيعية حبا فى آل البيت ولكن ليس دفعا لدعاتها الى المناصب والى كراسي الحكم ، واحب الشعب المصرى الاشتراكية وتعاطف معها حبا فى المساواة ولكن ليس تحويلا لها الى نظام حكم معين .

ان هذه القاعدة العامة المصرية من فلاحى البلاد لم تتأثر بالدعوات الفاطمية . حقيقة كان حب (على) و (الحسين) من الأمور التى كانت – ولا تزال – قائمة ومنتشرة بين عامة الشعب ، الا ان هناك فارقا كبيرا بين هذا الحب الروحى وتحويل هذا الى فكر سياسى .

تدهورت الحكومة الفاطمية فى عهد المستنصر ، وخاصة خلال واعقاب (الشدة المستنصرية) التى وقعت بسبب انخفاض مياه النيل ، وهى شدة استمرت سبع سنوات اكل فيها الشعب الميتة واطفالا فى المهد ، وبينما كانت قبائل لواتة المغربية المحاربة تدمر بعض نظم الرى فى الوجه البحرى والجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى . فاستنجد (المستنصر) بوالى عكا (بدر الجمالى) فجاء من الشام الى مصر مدعما بقوة كبيرة من الارمن واستطاع أن يفرض الأمن فى البلاد ، وادت اجراءاته

الأمنيـة والضرائبيـة الى أن يعـود الفلاحون الى الأرض يزرعونهـا بعـد أن « تحسـنت احوالهم وبعد أن رفع عن كواهلهم بعض الأعبـاء المالية » (١) .

ان العهـد الفـاطمى فى مصر شـهد حيوية واضـحة فى الفـكر والأدب وفى العلوم واشـهر المؤسسـات العلمية ظهرت فى مصر فى عهـد الفواطم : دار العلم ، الأزهـر ، المستشـفيات .

اسس الحـاكم بأمـر الله دار العلـم لتكون مركزا علميـا عالميـا يجتمـع فيه عباقرة كل علم من ادب ولغة وفقـه وفكر الى طب وفلك . وقـد وفر فيهـا المراجـع والنسـاخين . فكانت واحـدة من أشـهر المجتمعـات العلميـة فى العـالم .

اما الأزهـر فهو اعـرق وأعظم ما خلفـه الفـاطميون ، حتى لقد أصـبح الأزهر علمـا على مصر وليس القـاهرة فقط . ولكنه كان فى العهـد الفـاطمى مسـجدا للصلاة ، ومقرا للاحتفـالات الشـعبية ومركزا للتقاضى وللمحتسـب وجامعة للدرس والبحث . فكان له من وراء ذلك صيت مدو فى العـالم الاسـلامى ومنتا وراءه .

وفى أواخر الدولة الفاطمية اضطربت أمور الحكم والرعية بسـبب التدهور الاقتصادى والمشـكلات السياسـية والعسـكرية الخطيرة التى فرضت نفسـها الفـاطمى ، والحملة الصليبية على بلاد الشـام . ولقد فتحت الحـروب الصـليبية على هذه الدولة وهى فى فتـرة ضـعفها ، ونعنى بذلك الصراع السـلجوقى - صفحة جديدة فى تاريخ مصر .

***

---

(١) انظر د. سرور : المصدر السابق ص ١٠٩ ، ادى هذا الى زيادة خراج مصر فى ايام بدر الجمالى من مليونى دينار الى ٣ر١ مليون دينار .

الفصل الثالث

مصر والحروب الصليبية

كان المشرق فى حالة صراع بين القوى الاسلامية ويعانى من فوضى الاقتتال بين الوحدات السياسية المتعددة فيه ، بينما كانت التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تهيىء اوربا للتطلع الى السيطرة على بلاد الشام باسم العقيدة المسيحية .

فقد نمت فى الشرق الاسلامى قوة السلاجقة (١)، وتطلعوا الى الشام الذى كان تحت يد الفاطميين وطردوا الفاطميين من بيت المقدس ١٠٧١ م ولكن هذه الدولة السلجوقية الكبيرة لم تلبث ان تحللت ، وظهرت على انقاضها فى الشام مجموعة من « الاتابكيات المتناحرة » .

وفى هذه الظروف تحولت الدعوة الى شن حرب عامة صليبية على الشرق الى مرحلة التنفيذ ، وتشكلت الحملة الصليبية الأولى ، وشقت طريقها الى الشام . واستولت على انطاكيا واخذت تتابع تقدمها فى البلاد الشامية دون أن تواجه مقاومة على نفس المسئولية ، بل لقد كانت زعامات عديدة اسلامية فى المنطقة تنظر فى حسرة الى نكبة ماثلة امام اعينهم وكان ايديهم قد غلت الى اعناقهم ، او زعامات رات فى مقدم هؤلاء الصليبيين واستقرارهم فى البلاد الشامية قوة يمكن أن يفيدوا منها لتحقيق اهداف خاصة أو للثأر من زعيم اسلامى مناهض .

كان حاكم مصر الفاطمى لا ينسى الضربات الناجحة التى وجهها السلاجقة الى الوجود الفاطمى فى الشام ، ورأى فى الظروف الجديدة فرصة لاسترداد ما يمكن ان يسترده من ارض هناك . ولقد انتهزها فعلا ، واسترد الأفضل بيت المقدس فى اغسطس ١٠٩٨ م ، ومد سلطة الحكم الفاطمى حتى نهر الكلب .

واغلب الظن ان الأفضل لم يكن يقيم الحملة الصليبية التقييم الحقيقى لها ،

---

(١) قوة فتية انطلقت من « وراء النهر » الى العراق فاستعان بها الخليفة العباسى المهيض الجناح للقضاء على الحكم البويهى الشيعى فنجح السلاجقة فى ذلك واتسعت دولتهم حتى اصبحت تغطى كذلك الشام وتركيا .

ولم يكن على مستوى الخطـر الاعظم الزاحف على البـلاد من الشـمال . اذ كان تقدمه الى تلك المنطقة الوسطى من الشام يمنى شيئا واحدا لدى الصليبيين هو أن الوجود الفاطمى فى الشام يحول دونهم وبيت المقدس .

لقـد أصـبح الصـليبيون فى مواجهـة القـوات الفاطمية فانزلوا بها بعض الضربات الأولية حتى بلغوا بيت المقدس وضربوا الحصار على المدينة اربعين يوما حتى اقتحموها وراحت سيوفهم فى نشـوة النصر تطيـح بالرءوس ، اى رءوس ، وتبقر البطون ، حتى توقفت أنات آخر مسـلم أو مسلمة فى المدينة (منتصف يوليو ١٠٩٩) ، وجمعوا اليهود فى كنيسة ثم احرقوهم عن بكرة ابيهم فخلصت لهم المدينة المقدسة ، واهتزت أوربا طربا لهذه الأنباء المروعة .

لقد فشلت المقاومة الفاطمية فى انقـاذ الشـام من هذه الموجـه الصـليبية الغاشمة ، وتمكن الصليبيون من البلاد ، ولم يكن لدى عرب فلسـطين المقدرة على مواجهة هذا الاجتياح ، أو تنظيم مقاومة فعالة ضد قوى الاحتلال ، بل لقد عقـد الصليبيون مع بعض عرب فلسطين اتفاقيات سياسية واقتصادية بعـد استقرارهم فى بيت المقـدس (١) .

افاق الحكم الفاطمى الى نفسه ، وادرك ان الخطب أعظم بكثير جـدا ممـا ظنوه ، وهب رجال الحكم يجمعون مـا يستطيعونه من قوة علهم ينقذون الموقف . ولقد بذل الحـكم الفاطمى فى مصر من الجهـد والمال والدماء ما يفوق بكثير قدراته المرهقة حينذاك ، ولا شـك أن الحماس الدينى كان وراء تفجير تلك الطاقات من جسـد كان يترنـح .

حمـلات عديدة بعث بها حكام مصر ضـد الصليبيين فى الشـام ، حملة فى ١١٠١ م ، وثانية فى ١١٠٢ وثالثة فى ١١٠٥ م .. حملات خاضت المعركة بعد المعركة، ونكبت فى كل مرة بالهزيمة المرة ، حتى افتقد حكام القـاهرة القدرة على متابعـة القتال ، وركنوا الى مصر لعل الله يبدل الأحوال .

وكان الوضـع فى الشـام اكثر سـوءا وعلى حـد قول مؤرخ الحـركة الصـليبية (٢) :

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ص ٢٦٩ .
(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

« فى الفترة الواقعة بين الحملة الفاطمية الأخيرة على الصليبيين فى ١١٠٥ م وحملة السلاجقة عليهم فى ١١١٥ م كان أمراء الشام لا يقدرون المصلحة العليا للعالم الاسلامى ، ورفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام مما دفعم الى محالفة الصليبيين للاحتفاظ باماراتهم خوفا من ان تلتهمهما سلطنة السلاجقة فى فارس واحدة بعد أخرى » .

لقد قدم تقاعس القوى الاسلامية الفرص الواسعة للصليبيين للاستقرار فى الشام . وهناك من يرى ان الصليبيين عملوا على تفرقة صفوف المسلمين ، وضرب العرب بالأتراك ، والشيعة بالسنة لاضعاف الجميع .

واقولها صريحة ان الصليبيين فى ذلك لم يفرقوا بين المسلمين بمثل ما قطع المسلمون بانفسهم حبال المودة والتعاضد فيما بينهم . وانه لمن الخطر حقا ان نعلق مشاكلنا على شماعة الاطماع الأجنبية .

بل اقولها صريحة ، انه لمن قصور النظر — فى عرف السياسة حينذاك — ان لا يفعل الصليبيون بالمسلمين ما فعلوه من ضرب قوة اسلامية بأخرى ، لما كانت عليه تلك القوى الاسلامية من عداء لا يقل عن عدائهم فى بعض الأحيان للصليبيين .

واذا كانت مصر فى عهد الأفضل قد بذلت تلك الجهود المضنية — ولكن الفاشلة فى محاولاتها لانقاذ نفسها وانقاذ الشام من النكبة الصليبية — فانها فى نفس الوقت استنفدت طاقاتها القتالية فى ظروف نظام الحكم القائم حينذاك . وكانت تلك الهزائم المتتالية بمثابة بداية النهاية للحكم الفاطمى فى مصر(١)، بل اصبحت مصر من بعد هدفا يسعى الصليبيون الى تحقيقه ، فاذا ما وضعوا ايديهم على الشام ومصر قبضوا على ناصية العالم الاسلامى ، وبدا لهم — فى بعض الأوقات — كأن الهدف أصبح قاب قوسين او ادنى ، وخاصة بعد تتويج عمورى الأول ملكا على بيت المقدس فى ١٨ ديسمبر ١١٦٢ م .

واذا كان عمورى على هذا المستوى من الفكر الاستراتيجى ، فقد قيض الله للمسلمين زعامتين على جانب كبير من الصلابة فضلا عن الايمان بالمسئولية العامة : عماد الدين زنكى اتابك الموصل وخليفته نور الدين محمود .

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

فلقد آثر الأول الا يورط نفسه في مستنقع الخلافة العباسية في بغداد وركز قوته ضد الصليبيين في الشمال فانزل بهم أول هزيمة كبيرة باستيلائه على الرها .

فاوقف بذلك الصليبيين عند حد . لتبدأ من بعده خطوات الحصر والتطويق . وكان ذلك على يد نور الدين محمود عندما سيطر على حلب وحماه وحمص ودمشق .

في هذه الظروف الأخيرة اصبحت مصر — وكانت الادارة الفاطمية فيها تحتضر — في نظر عموري الأول ثمرة اينع قطافها ، وما كان نور الدين محمود ليتركه أو يترك له مصر ، وما كان شعب مصر — رغم ما كان يعانيه — ليتقاعس عن دفع الخطر عليه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وما اعظم هذا الشعب حين تتجمع عليه كافة اسباب الاستسلام ، فما وقع لمصر على يد حكام لا يتورعون عن التحالف مع الصليبيين ، وما تعرض له من غزوات وغزوات مضادة ، كان مجرد محن لابد أن تزول ، ومجرد ضربات قاسيات لابد لها من ان تتكسر على صخرة صلابته ان عاجلا أو آجلا .

فشاور الذى تولى الوزارة في مصر (يناير ١١٦٣ م) كان عاصفة شر على البلاد لا يماثله في ذلك الا خصمه ومنافسه ضرغام ، وفي خضم فوضى الصراع بين الشرين تقدم عموري بجيوشه حتى بلبيس (خريف ١١٦٣ م) ولم يرده عنها الا صمود المدافعين واطلاق مياه الفيضان عليه وضغط نور الدين على الصليبيين في الشام .

وكان (شاور) الذى فر من وجه خصمه ضرغام قد لجأ الى نور الدين ، وكان يضمر اغراءه بمصر ، ولكن نور الدين كان يريد مصر ليس نتيجة لاغراءات (شاور) ولكن بسبب متطلبات استراتيجية الصراع ضد الصليبيين . وبعث نور الدين أحد قواده ، شيركوه ، على رأس جيش الى مصر وسيطر عليها ولقى (ضرغام) مصرعه ، وتطلع (شاور) الى الانفراد بمصر ففعل مثل سلفه وتحالف مع عموري ضد شيركوه . ودارت رحى قتال دموى مخرب على أرض مصر ، من بلبيس الى الاسكندرية تجلت خلالها روعة المقاومة المصرية المحلية ، ولكنه كان صراعا بين أطراف غير قادرة على الحسم فكان أن

اتفق على خروج الصليبيين وشيركوه من مصر ، وكان ذلك كسبا للجانب الاسلامى لأنه اعادة للأوضاع فى مصر الى ما كانت عليه قبل غزوة عمورى للبلاد .

وعاد عمورى ليدبر حملة جديدة على مصر ، ودخلها واذل البلاد التى وقعت فى قبضته ، وصمدت بلبيس حتى وهنت فاستسلمت فاستباحها الصليبيون ودمروها (نوفمبر ١١٦٨) ، وزحفوا الى القاهرة فآلى أهلها على انفسهم أن يموتوا وسيوفهم فى أيديهم لا ان تحصدهم — وهم مستأمنون — سيوف عمورى فكانت مقاومة رهيبة بينما كان (شاور) يحرق الفسطاط على اهلها ففروا الى القاهرة ليضيفوا الى حاميتها المقاتلة قوة الى قوة ، فاضاعوا الفرصة على عمورى حتى وجد نفسه بين نارين قوى الدفاع من البلاد فى داخلها وجيش جديد بقيادة شيركوه يستحث الخطى الى مصر لانقاذها فاسرع عمورى الى الانسحاب .

وفى هذه المرة لا شاور ولا أمثاله يسند اليهم حكم مصر ، بل أسند الى شيركوه، بتقليد من العاضد الخليفة الفاطمى فى ١١٦٩ م ولكن لم يلبث أن توفاه الله فاسندت الوزارة الى صلاح الدين . الذى كان قد تردد أكثر من مرة عندما عرضت عليه مصر .

وانه لموقف فى المنطقة يثير التردد لدى اكثر السياسيين أو العسكريين طموحا . عصر تعددت فيه القوى المتطاحنة ، المستعدة للتحالف والتعادى بين ليلة وضحاها . وزعامات قوية صديقة ومعادية ، وشعوب عيونها مترددة فى الانحياز لهذا أو لذلك ، والايديولوجيات متعددة لا ترى فى الاخرى الا المروق او الخيانة . والخطر الاعظم جاثم على أرض يمكن أن يضرب منها فى أكثر من اتجاه ، ومن ورائه جبهة أوربية مسيحية عريضة تدعمه بالمال والرجال والعتاد .

ومصر نفسها فيها وحدها ما فيها من تناقضات . حكم فاطمى شيعى يحتضر ، وارضية شعبية سنية ارهقتها المجاعات والصراعات بين التكتلات المتنافسة . سودانيون : مسيطرون على البلاط الفاطمى لا يتورعون عن الاقدام على اية خطوة للحفاظ على مكانتهم ومكاسبهم ، وارمن : كانت لهم سطوة منذ أن جاءوا مع بدر الجمالى ، واحتفظوا بمكانة من منطلق عملهم كحراس للخليفة الفاطمى .

تحمل صلاح الدين مسئولية هذا الموقف المعقد ، وعكف على ترتيب البيت المصرى من الداخل أولا ، وكانت اوضاع هذا البيت معقدة ، وكان من الطبيعى أن يواجه حركات داخلية معادية له ، وهو القادم اليهم من الخارج . وكان من اول

الاخطار التى هددت استقرار صلاح الدين فى مصر ثورة السودانيين عليه ، ومؤامرات الخلافة الفاطمية لما كانت تدركه هذه الخلافة من ان صلاح الدين (السنى الشافعى) ان يتقاعس عن القضاء على نظام الحكم الشيعى عندما تحين له الفرصة . وكان صلاح الدين فى نفس الوقت يخشى من أن يقوم بتصفية الحكم الشيعى فيواجه بثورة وربما بثورات أكبر من قدراته ، وخاصة أن صلاح الدين لم يكن قد تبين بعد حقيقة مشاعر المصريين نحوه .

لقد تحرك السودانيون فعلا ، وكان تحركهم لا يتورع عن طلب مساعدة الصليبيين ضد صلاح الدين ، لقد تفوقت المصالح الخاصة على المصلحة العامة ليس فقط لدى هؤلاء السودانيين ، وانما لدى الخليفة نفسه اذ أيد حركة السودانيين ، ولم يثنه عن متابعة ذلك الا خوفه بطش صلاح الدين به .

اما صلاح الدين فقد قرر ان يصفى هذا الوجود السودانى الخطر على مستقبل مصر والأمة ، فوجه اليهم ضربة قضت على مكانتهم القيادية فى البلاط الفاطمى . وبعد أن قتل « مؤتمن الخلافة » — المسئول السودانى عن البلاط — وضع مكانه بهاء الدين قراقوش الذى جعل كل صغيرة وكبيرة فى القصر تجرى بأمره ، فضرب به المثل عبر العصور التالية ، وانقض صلاح الدين على محلة السودانيين فى الفسطاط فأحرقها ، وطاردهم حتى « أبادهم بالسيف » .

ثم انقض صلاح الدين على الأرمن ، فأحرق ثكناتهم حتى لا يعطيهم اية فرصة للقيام بثورة ما على نحو ما فعل السودانيون .

وبدا صلاح الدين من بعد القوة الاعظم فى مصر . وأصبح قادرا على الاقدام على خطوة جريئة كانت تلح عليه وعلى نور الدين محمود ، وهى الغاء الخلافة الفاطمية ، وعودة مصر الى الخلافة العباسية السنية والغاء المذهب الشيعى كمذهب رسمى للبلاد ، والعودة الى المذاهب السنية . وقد « تم الانقلاب فدعى فى القاهرة فى أول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١ م) للخليفة العباسى . وجرى ذلك فى هدوء فى أول الأمر . ولكن لم تلبث القوى المضادة أن أحدث ثورة مضادة (١) .

---

(١) عاشور ، جـ ٢ ، ص ٦٩٨ — ٦٩٩ .

كانت عناصر الثورة متمثلة فى :

١ — المخلصين للمذهب الشيعى .

٢ — اتباع النظام القديم وعلى راسهم :

(أ) عمارة اليمنى (الشافعى) لما كان يحظى به من كرم الفاطميين .

(ب) كنز الدولة احد القادة الفاطميين .

(جـ) الجند السودانى المتبقى بعد تلك الضربة .

وكانت ثورة مضادة لا تتورع عن الاستنجاد باعداء الاسلام والمسلمين ، استعانوا بعمورى الأول — ملك بيت المقدس — واستعانوا بالاسطول النورماندى. وبينما كان لاقباط مصر دور فى كشف مؤامرة الشيعة ضد صلاح الدين (١) ، استخدم الثوار « الحشاشين » (٢) لاغتيال صلاح الدين ولكن باءت محاولتهم بالفشل (١١٧٣ م) وتمكن صلاح الدين من القضاء على الثورة المضادة (١١٧٤ م) .

وانه لامر ذو مغزى ان تظهر طائفة الحشاشين — التى نظمت فرقا لاغتيال الزعماء المسلمين المخالفين لهم — فى فترة كان فيها العالم الاسلامى ينحدر نحو التفكك بسرعة كبيرة ، وان يقطوا معظم ارجاء العالم الاسلامى من فارس حتى مصر ، ولفترة طويلة من القرن العاشر حتى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر ، وان تظهر فرق الاغتيال السياسى فى الوطن العربى فى العقدين الاخيرين لتنال بالقتل خصومهم ومخالفيهم فى التوصل الى مواجهة منا لخطر التوسع الاسرائيلى .

ان مثل هذه الفترات من التفكك والشعور بالضياع كفيلة بأن تفرز مثل هذه الجماعات ، وخاصة عندما يكون كل زعيم حاملا شعارا اخاذا بينما اعداؤه فى المنطقة يحرزون النصر بعد النصر .

---

(١) عاشور ، جـ ٢ ، ص ٧٠٦ .

(٢) جماعة ذات مبادىء خاصة اتخذت من مدينة « الموت » معقلا لها ، ونشرت الرعب فى معظم البلاد الاسلامية . وهى جماعة ذات اصول شيعية ولكن مبادئها غامضة . وقد قضى عليهم بعد استيلاء المغول على معقلهم ومطاردة الحكام المسلمين لهم فى أكثر من مكان .

بعد ان وطد صلاح الدين نفسه فى مصر ، ونجح فى الغاء الخلافة الفاطمية ، والمذهب الشيعى عمل على استعادة المذهب السنى لمكانته ، وكان الشعب المصرى سعيدا بذلك . فاكثر صلاح الدين من اقامة المدارس الشافعية ، ونشر القضاة الشافعية فى اماكن القضاة الشيعة .

ان هذا التحول الذى جرى دون ما ثورة شعبية مصرية شيعية يدل بجلاء على ان الشعب المصرى ظل محتفظا بسنيته رغم الجهود المضنية التى بذلها الفاطميون من اجل غرس المذهب الشيعى فى نفوس المصريين . ولكن فى نفس الوقت ظل المصريون محبين مخلصين لعلى ولآل بيته كل الحب الذى يصل فى بعض الأحيان الى مراتب أعلى بكثير مما تسمح به المذاهب السنية الأصولية .

كان صلاح الدين فى حاجة الى الأموال ، وكانت أحوال الشعب متردية ، ووجد كبار الملاك ان صلاح الدين لن يجد من جهة غيرهم لتمويل مشروعاته وادارته ، وخشى هؤلاء على ممتلكاتهم واموالهم منه ، فقاوموا مطالبه ، فضربهم صلاح الدين .

ولكن نلاحظ انه اقدم على خطوة تجعله فى محل النقد وهى انه حين وجه ضربته الى كبار الملاك ، لم يلبث أن احل محلهم رجاله من أهل الشام . وكأن ادارة الاملاك الكبيرة والاقطاع من حق من ليس مصريا ، وان المصرى هو الذى يفلح الأرض ويقدم انتاجه للأداة الادارية والعسكرية . وكم فى ذلك من نتائج سيئة على المدى الطويل .

ويبدو أن صلاح الدين لم يكن ينوى تكوين جيش من المصريين . وربما كان لديه بعض الحذر فى الفترة المبكرة من حكمه ، الفترة التى لم يكن يدري فيها الا القليل عن حقيقة مشاعر المصريين نحوه . حتى اذا ما اثبت المصريون مقدرتهم العسكرية فى الذود عن حياضهم عدل صلاح الدين من فكرته واتجه الى تجنيد المصريين . وفى ذلك يقول أحد المؤرخين :

« لم يكن فى طاقة صلاح الدين أن يبادر الى تكوين جيش من ابناء مصر الذين لم يكن قد تبين فى الفترة الأولى مدى ارتياحهم اليه واطمئنانهم الى حسن سياسته . والواقع ان معركة دمياط كانت محكا لهذا الاختيار ، اذ انه خشى أن يغادر القاهرة ليواجه المهاجمين خوفا من انقلاب مصر من الداخل ضده فيقع بين عدوين داخلى وخارجى . وعندما قام أهل دمياط بدفع المعتدين

بجهودهم الذاتية بدأ صلاح الدين فى تكوين نواة جيش مصرى لحما ودما يعتمد عليه ويزيد به القوة العسكرية الضاربة فى مصر (١) .

ان هذا الموقف من تجنيد المصريين يحتاج الى وقفة ودراسة مقارنة بين صلاح الدين وبعض من حكموا مصر قبله ، وبعض من حكموها من بعده .

فالبطالمة جاءوا من خارج البلاد ، وفرضوا انفسهم عليها واعتمدوا على الاغريق فى الدفاع عن ملكهم ، حتى نضب معين الاغريق ، وحتى نكبوا بالهزيمة ، فاتجهوا الى ابناء مصر بعد موقعة رفح (٢١٧ ق.م) .واثبت المصرى كفاءته فى ميدان القتال .

وصلاح الدين جاء على رأس قوة اسلامية كردية وحكم البلاد ، ولم يجند أهلها الا بعد أن اثبتوا بأنفسهم انهم مقاتلون اشداء عن ديارهم .

ومحمد على باشا من بعد ذلك بعدة قرون تجنب تجنيد المصريين حتى اثبتوا مقدرة عسكرية (ضد حملة فريزر فى رشيد) وحتى اضطر هو الى ذلك .

فهل نستطيع القول ان تجنيد المصريين امر مستبعد من حاكم يأتى الى مصر من الخارج حتى يضطر الى ذلك سواء أكان متسلطا أوربيا (بطلميا) أو كان منقذا اسلاميا مجددا . واذا ما أخذنا فى الاعتبار ان المصرى استبعد من الجندية لفترات طويلة جدا من التاريخ الأدركنا أن هناك ظروفا معينة ادت الى فرض هذا المفهوم على عقلية الحاكم واستكان له المواطن لفترة حتى سنحت الفرصة لتغيير هذا المفهوم .

ان الدفاع المجيد للشعب المصرى عن دمياط كان نوعا من الانطلاقة الذاتية لمواجهة هجوم مفاجىء شنه الأسطول البيزنطى فى ١١٦٩ . كانت المدينة الميناء بلا أسطول ، وجيش صلاح الدين متحصن فى بلبيس والقاهرة والاسكندرية . ومع ذلك دبر أهل دمياط حيلة ذكية استخدموا فيها الأوانى الفخارية المشتعلة التى منعت الأسطول المعادى من تحقيق اهدافه .

ومن بعد ذلك استخدم صلاح الدين قدرات مصر الاقتصادية والبشرية

---

(١) د. محمد حلمى محمد احمد : مصر والشام والصليبيون ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م ، ص ١١٢ — ١١٤ .

من اجل انقاذ العالم الاسلامى من الخطر الصليبى حتى حقق الانتصار الكبير فى حطين (١١٨٧) واسترد بيت المقدس . ولكنه لم يلبث ان واجه الحملة الصليبية الثالثة . وناشد صلاح الدين حكام المشرق الاسلامى وحكام المغرب الاسلامى ان يدعموه كما تدعم أوربا الصليبيين اذ طلب منهم :

« ان يمد غرب الاسلام المسلمين باكثر مما امد غرب الكفار الكافرين ... (وان) يقطع عنهم مادتهم من جهة البحر » .

ولكن ضاعت صيحات ونداءات صلاح ولم يستمع اليه أحد من ذوى السلطان ، وكان العذر اقبح من الذنب اذ أن سلطان المغرب رفض امداده بالدعم العسكرى لأن صلاح الدين لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين .

ويواجه صلاح الدين اوربا ممثلة فى كبار ملوكها ويضطر الى عقد صلح الرملة (١١٩٢ م) ثم توفى هذا المجاهد الاسلامى بعد عام . واذا بالمنطقة تعود الى دواماتها المروعة :

— البيت الأيوبى الحاكم ينقسم على نفسه ولن يلبث ان يتصارع الاخوة فيما بينهم ولا يتورع بعضهم عن التحالف مع الصليبيين .

— اصبحت مصر هى العقبة الحقيقية أمام الوجود المستقر الصليبى فى الشام فاتجهت ضدها الحملات الصليبية الوحشية . وأبرز مثال على ذلك ما وقع لدمياط على يد الصليبيين عندما استولوا عليها فى ايام الملك الكامل . اذ تعرضت الى جانب حصار الصليبيين لها للأوبئة والمجاعة ولما سقطت بقروا بطون الحوامل وأخذوا يفجرون بالنساء وجعلوا مسجدها كنيسة ، والملك الكامل يحاول أن يقنع القوى الاسلامية بضرورة دعمه دون جدوى .

واخيرا عقد الملك الكامل صلحا مع فردريك الثانى على أساس انقاذ مصر من الصليبيين وترك بيت المقدس لهم .

ان هذه الخطوة لتدل على أن الملك الكامل كان قد ضجر من طول تحمل مصر للأعباء التى تفوق طاقتها فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يتقاعسون عن نجدته .

ولم تلبث المنطقة أن تعرضت للفوضى لا تدرى مع من ضد من . حتى اقبلت جحافل المغول على المشرق الاسلامى ولكن فى الوقت الذى كانت فيه القوى الصليبية تتدهور فى أعقاب المحاولة الأخيرة التى قام بها لويس التاسع .

هاجم لويس التاسع مصر ليقضى على القوة الحقيقية القادرة على تصفية الوجود الصليبى فى الشام ، واستولى على دمياط ، ففر منها أهلها بعد تدمير المدينة فعمل لويس التاسع على تحويلها الى مدينة كاثوليكية وجعل جامعها كنيسة باسم نوتردام .

الا أن المقاومة الشعبية وكذلك القوات المملوكية استطاعت أن توقع بجيش لويس التاسع وأرغمته على الاستسلام . وقصته معروفة حتى فديته ورحيله الى عكا ، وأمضى فيها أربع سنوات يعيد تنظيم القوى الصليبية . بينما كان الأيوبيون والمماليك المتنازعون يسعون الى الاستعانة بلويس التاسع ، الا أن عصر الصليبيين فى الشام كان على وشك الانتهاء وكذلك كانت أيام الأيوبيين قليلة اذ لم يلبث المماليك البحرية أن خلفوا الأيوبيين ، وصدوا المغول ، ومضي المماليك بنجاح فى تصفية الوجود الصليبى فى الشام حتى حققوا ذلك تماما فى ١٢٩١ .

ونخرج من كل هذا بالحقائق التالية :

١ — ان المسلمين فى الشام عجزوا عن الدفاع عن ديارهم وعن تنظيم مقاومة فعالة مستمرة للوجود الصليبى . وكانت القوى الحاكمة فيه متصارعة فأعطت الفرص الواسعة لتوطيد أقدام الصليبيين هناك .

٢ — ان مصر والشام عانتا بمرارة من الصراعات بين الطامعين فى حكمهما الذين كانوا لا يتورعون فى بعض الأحيان عن التحالف مع الصليبيين .

٣ — ان العالم الاسلامي ترك العبء الأكبر على مصر لكى تنقذه من الخطر الصليبى .

٤ — ان الشعب المصري شارك بقدراته الذاتية فى الصراع ضد الصليبيين ولم يعطه الأيوبيون ولا المماليك الفرصة الحقيقية لتشكيل جيش كبير لخوض معارك تحرير الشام .

٥ — ان مصر ردت عن العالم الاسلامى الخطرين الصليبى والمغولى . ولكن نجاح مصر ضد المغول يرجع الى ان المغول لم يلقوا بكل ثقلهم ضد مماليك مصر لاسباب كثيرة .

٦ — ان المماليك احتكروا الحكم فى مصر والشام . وخرجوا من التجربة الصليبية بنظرية استراتيجية خطيرة تقول ان الأجدى هو اغلاق موانى الشام فى وجه الغرب الصليبى بردم بعض موانيه (مثل عسقلان) ، وان الأجدى لحكم مصر ان يظل الشعب المصرى فى الفلاحة دون الجندية فعزلوا الشعب عن مجريات الأحداث والتطورات .

وسنتناول فيما يلى تطور المجتمع المصرى وتاريخه فى عهد دولة المماليك بقسميها (البحرية) و (البرجية) .

الفصل الرابع

مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي

فى أواخر العهد الأيوبى تصارعت زعامات الأسرة الأيوبية على الحكم واخذ الاتجاه فى نفس الوقت ينحو نحو تجنب استخدام القوات الكردية وغيرها ، من ادوات الصراع على السلطة ، الى استخدام المماليك . واخذ نجم هؤلاء يصعد لعدة اعتبارات اهمها انهم كانوا يعدون اعدادا فكريا وعسكريا جيدا بدرجة مكنتهم من التفوق على غيرهم ، واثبتت انتصاراتهم فى المعارك الحربية الحاسمة ذلك التفوق .

فلقد كان لفرسان المماليك الدور الرئيسى فى احراز الانتصار الكبير فى معركة المنصورة حتى اعطيت الفرصة لكى يجهز المتطوعة المصريون على مقاومة لويس التاسع وجيشه الى ان استسلم (١٢٥٠ م) .

ولا تكاد تمر عشر سنوات حتى احرز المماليك نصرا حاسما آخر واعلى به انتصارهم على المغول فى موقعة عين جالوت ، فحق لهم أن يتباهوا بأنهم منقذو البلاد الاسلامية (١) ، وان يدعوا انهم احق الناس بحكم ما تحت يدهم من بلاد . ولكن كانت هناك أوضاع تجعلهم يشعرون بالحرج وعلى راسها مطالبة البيت الأيوبى بحقه فى حكم مصر .

كان البيت الأيوبى — الذى ركز وجوده فى الشام مناهضا لمماليك مصر وحكمهم — يرى أن الشرعية لهم وان الافتيات من عبيد سابقين (المماليك) على الحكم واصحابه امر لا يقبله الأيوبيون ولا الشعب . ولكن قبضة المماليك على الشعب كانت قوية ، وسمعتهم — بعد تلك الانتصارات — كانت مدوية . وكان المماليك بعيدى النظر عندما عمدوا الى سحب ورقة الشرعية من يد الأيوبيين ، عن طريق جعل القاهرة مقرا للخلافة العباسية .

---

(١) كما هو معروف فى التاريخ ظل الضغط المملوكى على الجيوب الصليبية فى الشام حتى استطاع المماليك أن يصفوا الوجود الصليبى فى الشام فى أواخر القرن الثالث عشر ، الأمر الذى أعطاهم مكانة عالية فى نفوس المسلمين .

فبعد سقوط الخلافة فى بغداد على يد المغول (١٢٥٠ م) اقام المماليك امتدادا لها فى القاهرة ، واصبح السلطان المملوكى يعين بواسطة الخليفة العباسى فى القاهرة ، وما كان هذا الخليفة ليستطيع — فى الغالبية العظمى من الاحوال — اكثر من أن يوقع على الأوراق التى تقدم اليه . وهكذا انتصر المماليك سياسيا على الأيوبيين كما انتصروا عليهم عسكريا . فخلصت مصر والشام لحكمهم فيما عدا جيوب صليبية لم تلبث ان صفيت على يد المماليك فى أواخر القرن الثالث . واستمر الحكم المملوكى للبلاد حتى الفتح العثمانى للشام (١٥١٦) ولمصر (١٥١٧) .

يعتبر عهد المماليك فى مصر — لدى جمهرة المؤرخين — مقسما الى :

١ — عهد المماليك البحرية .

٢ — عهد المماليك البرجية .

وهو تقسيم له دلالته ، حيث انه يمكن القول بصفة عامة ان العهد الاول كان عهد الازدهار ، وكان الثانى عهد تدهور استمر حتى الفتح العثمانى لمصر .

فى العهد المملوكى الأول كانت القاهرة كثيفة السكان نسبيا ، وكانت قبلة الذين يعانون من ضيق الحياة فى البلاد العراقية والشامية وفى شبه الجزيرة العربية والديار الأندلسية . وكانت القاهرة مزدهرة باسواقها ومراكز العلم بها وعلى راسها الأزهر والمدارس الدينية ، وبالحركة الدائبة فى مختلف شوارعها ومطاعمها واماكن النزهة الصاخبة فى أعياد المسلمين والمسيحيين (الاقباط) . والتجارة الداخلية والخارجية نشطة والحجاج يفدون على مصر — فى طريقهم الى الأراضى الحجازية — باعداد كبيرة .

كانت دولة المماليك فى العهد الأول فتية وقوية ، بينما كانت حكومات الشرق الاسلامى تعانى من مرارة الاجتياح المغولى ونتائجه .

كان المماليك — رغم ما كان بينهم من صراعات حول الحكم — قوة ضاربة سيطرت على البلاد . وشكلوا ما يمكن وصفه بالأوليجاركية الحاكمة المستاثرة بالمناصب القيادية فى الجيش والادارة ، ومستاثرة الى جانب ذلك بأرض مصر التي وزعت فيما بينهم وعلي الجند علي هيئة اقطاعات .

كان مماليك السلطان يعرفون بالمماليك السلطانية ويشكلون الجيش الاول ، وقوات الأمراء من المماليك تشكل الجيش الثانى الذى كان يضم كذلك (أولاد الناس) . وأولاد الناس هؤلاء هم ابناء المماليك . فالمماليك كانوا يشترون من التوقاز بصفة خاصة ومن اماكن عديدة أخرى . فكانوا عبيدا فى أول الأمر ثم يعتقون . أما أولاد الناس فكانوا يولدون احرارا . وكانت مكانتهم اقل من اولئك . بل وتدهورت فيما بعد .

وتميز المماليك — فى العهد الاول — بترابطهم فيما بينهم ، وبولائهم لسلطانهم ولأمرائهم ، ويرى احد مؤرخى هذه الفترة أن ذلك الترابط بين السلطان ومماليكه وبين الأمير ومماليكه يرجع الى أن السلطان أو الأمير كان يشترى المملوك صغيرا صبيا ويربيه حتى يشب فيعتقه ، فيرتبط المملوك بسيده برباط الأستاذية ، وترابط المماليك فيما بينهم برباط أشبه بالأخوة ، وكان هذا الترابط والولاء من العوامل التى جعلت السيطرة لهؤلاء المماليك .

كان ذلك فى العهد الأول حتى اذا ما اضطر السلاطين والأمراء الى شراء المماليك فى سن الشباب تغير الحال ، فضعفت روابط الأستاذية وضعفت روابط الأخوة ، وانطلقت الفوضى من بعد نتيجة لذلك الانحلال فى الروابط .(١) وكانت المطالب المتتالية بزيادة الجوامك أو الرواتب وتأخر الحكومة المملوكية فى دفعها هي الأسباب الرئيسية لشغب المماليك وخاصة المعروفين باسم الجلبان .

فقد كان المماليك يحصلون على الاقطاعات ، حسب رتبهم ، وكانت تدر عليهم دخلا وفيرا ، ولذلك لم تكن لهم رواتب فى الغالبية العظمى من الأحوال . حتى اذا ما تدهورت أحوالهم وأصبحت الاقطاعات لا تقدم الدخل المطلوب لجأت الادارة المملوكية الى منح الرواتب للمماليك . وكانت تدفع لهم تلك الرواتب من الخزانة السلطانية . فاذا ما تعرضت الخزانة للافلاس وتوقف السلطان عن الدفع تحول المماليك الى أعمال شغب رهيبة حتى اصبح الشغب ظاهرة من ظواهر العهد المملوكي الثانى .

فمتى بدأت هذه الظاهرة ؟ قد يكون من الصعب تحديد هذه البداية ، كما يصعب كذلك تتبع تصاعدها بدقة ، ولكن يمكن الاعتماد على رواية

---

(١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى ، عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف .

احد كبار المؤرخين - وهو ابن اياس - لأحداث « المماليك الجلبان » فى تحديد بداية ولو تقريبية لتلك الظاهرة ، كما يزودنا هذا المؤرخ بتطور هذه الظاهرة حتى اصبحت واحدة من نكبات مصر خلال العهد الثانى من حكم المماليك ، وكانت فى نفس الوقت عاملا جوهريا فى سقوط دولة المماليك فى نهاية الأمر على يد العثمانيين .

فمن البدايات الأولى لحوادث شغب الجلبان يقول المؤرخ ابن اياس :

« اول حوادث الجلبان فى الفتك » وقعت فى شعبان ٨٧٧ هـ ، و ذلك عندما « ثارت جماعة من المماليك الجلبان » ضد أحد كبار رجال الادارة ، فانطلقوا ضده حتى هاجموا داره (١) .

وفى الأعوام التالية تصاعدت شدة وعنف فتن المماليك ، ففى عام ٨٧٩ هـ :

« ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك وهو فى داره ، فلما بلغ ذلك السلطان بعث ... للأمراء بأن يلبسوا آلة السلاح وأن يثبوا على المماليك الجلبان ، فاضطربت الأحوال وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة فاشار بعض الأمراء على السلطان بخمود الفتنة » (٢) .

وامكن اقناع الأطراف المتنازعة بعقد الصلح ، وهدأت الأمور ، ولكن الى حين .

وفى فتن اخرى نلاحظ تطورا خطيرا يتمثل فى توالى ضعف شديد من جانب السلطان ازاء الجلبان وفتنهم ، على النحو التالى :

« ثارت فتنة كبيرة فى القلعة بين المماليك الجلبان حتى تنازعوا بالسيوف

---

(١) محمد بن أحمد بن اياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى الجزء الثالث من سنة ٨٧٢ الى سنة ٩٠٦هـ (١٤٦٨ - ١٥٠١) القاهرة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م. ص ٨٢.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٩٦ .

فحتق منهم السلطان ... ورمى الترس من يده ، ونزل من القلعة ، وتوجه نحو شطنوفة » (١) .

ومعنى هذا أن السلطان لم يعمد الى استخدام القوة ، ولا حتى التهديد باستخدامها ، وانما عبر فقط عن غضبه ، وترك مقر حكمه معتكفا معتزلا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا (٨٨٣) .

ويتصاعد شغب الجلبان ويصل الى أن يشعر السلطان انهم يريدون اغتياله ويحدثهم معاتبا على هذه الطوية عتاب من لا يملك القدرة على الوعيد ، فعلى حد تعبير المؤرخ ابن اياس عن ذلك وعن الرعب الذى كان يجتاح العاصمة من فتن الجلبان :

« قويت الاشاعات بثوران فتنة المماليك الجلبان وكثر القال والقيل فى ذلك ، ونقل أرباب الدولة امتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة ، فلما تزايد الكلام فى ذلك صلى السلطان الجمعة ، فلما فرغ من الصلاة دخل الى الحوش وجلس على الدكة ، ثم احضر (الأغوات) ، واعيان المماليك الجلبان وكلمهم بكلمات كثيرة ، ووبخهم بالكلام ، حتى قال : ان كان قصدكم قتلى فدونكم ذلك ، فاستغفروا له ثم آل الأمر الى صلحهم مع السلطان وسكون الفتنة قليلا ، فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة حتى اشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ، ولا يعلم اين سيتوجه ، وقد تزايد القول فى ذلك ، فكان كما يقال :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن اخلاق الرجال تضيق (٢)

هكذا تجلى عجز السلطان عن مواجهة مطالب الجلبان بكل وضوح الى درجة اعتزامه ترك كرسى الحكم ، عندما ضاق به الحال وقال للجلبان :

« انا انزل لكم عن السلطنة وامضى الى مكة » ولم يستطع السيطرة

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٤٧ (٨٨٣ هـ) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٤٥ — ٢٤٦ (٨٩٣ هـ) .

عليهم الا بدفع الأموال لهم قبل رحيلهم فى مهمة عسكرية للدفاع عن حدود البلاد الشامية ضد الضغط العثمانى عليها (١) .

فالجلبان حين كانوا يكلفون بمهمة عسكرية يطالبون السلطان بأموال زائدة عن الحد ويعمدون الى نهب الاسواق ، وكانت الظروف تضطره الى استرضائهم حتى يحشدوا قوات كفيلة بصد هجوم العثمانيين الذين كانوا يضغطون على الحدود الشامية .

كانت هذه الانتهازية تحرج السلطان المملوكى ايما احراج . وكان ذلك يدفعه الى الحصول على الأموال من الرعية بكافة السبل التى يمكن أن يسلكها ، من ذلك انه عندما :

« أرسل (ازدجر) نائب حلب (٢) يستحث السلطان (٣) بخروج تجريدة (٤) ثقيلة او يخرج السلطان بنفسه ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض (٥) ثم عرض الجند بحضرة الاتابكى ازبك (٦) ، وكان هو المشار اليه فى تعيين الجند بما يختاره منهم ، ثم عرض القرانصة (٧) واولاد الناس ، وصار الذى لا يطيق السفر منهم يقدم له بديلا كاملا بفرس ولبس وغير ذلك ، او يورد مائة دينار من له اقطاع وجامكية ، ثم ان المماليك المعينة للسفر اطلقوا فى الناس النار ، وصاروا ياخذون ابغال الناس وخيولهم غصبا ، حتى أخذوا ابغال الطواحين والاكاديش التى بها ، وتعطلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحط الخبز من الدكاكين ، وكادت ان تكون غلوة كبيرة ، حتى وبخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان » (٨) .

وكان المماليك اذا احرزوا نصرا او شبه نصر عادوا الى مصر منفوخى الأوداج فى كبرياء لا حدود له ، ملوحين باسلحتهم مطالبين بالأموال بل باكثر

---

(١) ابن اياس : ج ٣ ، ص ٢٦٩ (٨٩٥ هـ) .
(٢) اى نائب السلطان المملوكى فى حكم ولاية حلب .
(٣) اى السلطان المملوكى الحاكم فى القاهرة .
(٤) اى حملة . (٥) اى التجمع والحشد .
(٦) احد أعيان المماليك . (٧) نوع من الجند المملوكى .
(٨) ابن اياس : بدائع الزهور ـ ج ٣ . ص ٢١٩ ، (٨٩٠ هـ) و ص ٢٥٢ (٨٩٣ هـ) .

مما يتوقعه منتبئون ، ولكن هذا امر لا يدخل فى اعتبار المماليك ، الم يعرضوا انفسهم للموت ، وهل للموت ثمن .. واذا كانت هناك مكافاة تعطى لمن حمل راسه على كفيه فلتكن عظيمة القدر ولا شأن له عن طريقة تدبير الاموال المطلوبة ، فكل هذه امور لا تقارن بما قدمه من تضحيات ، حتى ولو كانت تضحيات صورية :

« ففى ذى الحجة (١) تكاثر دخول العسكر الى القاهرة من غير تستتر ، وقد جاءوا طالبين وتنوع فتنة وصرحوا بذلك ، ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريدة يصعد الى القلعة ، فامتنع المماليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة .... وفى ربيع الآخر (٢) ثارت المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم ، فلما رأى منهم عين الجد نفق (٣) عليهم كالعادة (٤) .

ويلاحظ هنا ان المماليك اصبحوا يعتمدون على الرواتب ، ولا يعتمدون على الاقطاعات التى كانت توزع عليهم . وذلك لأن تدهور الانتاج الزراعى جعل الاقطاعات لا تدر عليهم الدخل المناسب لهم ، الأمر الذى جعل المماليك وجها لوجه مع الادارة وعلى راسها السلطان .

كيف واجه السلطان هذه المطالب الزائدة عن الحد ؟ لقد كانت خزينته خاوية ، ونفقات ارسال الحملة تلو الحملة باهظة ، وشر الفتنة مستطير ، وعيون الجلبان مفتوحة على كل موقع فيه مال أو يظن أن به مالا .. لجأ السلطان الى اساليب اثارت ضجة بين العلماء المشايخ لانها كانت غير شرعية ، فقد طالب بأن تدفع الايجارات مقدما لعدة اشهر من السنة ، وكذلك قطع رواتب الايتام والضعفاء و « سائر

---

(١) من عام ٨٩٥ هـ .
(٢) من عام ٨٩٦ هـ .
(٣) اى انفق ووزع الأموال عليهم .
(٤) ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

أوقات الجوامع والمدارس والترب (١) ، وقطع معلوم (٢) الصوفية والصدقات الجارية » (٣) وعمل على فرض الأموال على « الأوقاف والاملاك التى بمصر القاهرة من أماكن وغيطان وحمامات وطواحين ومراكب وغير ذلك » (٤) .

و « رسم السلطان لكسباى المحتسب (٥) بأن يجمع له من أعيان التجار الذين بالاسواق ، فلما عرضوا عليه قال لهم : ساعدونى بشىء من المال على خروج التجريدة ثم افرض (٦) عليهم اربعين الف دينار ، فضجوا من ذلك ، وقالوا : ما نقدر على هذا القدر كله ، فلا زال يخفض .

ولقد قسم السلطان البلاد بين جباة غلاظ القلوب ووقع منهم من العسف والقسوة ما كان نادرة زمانه ومن ذلك « ان بعض الرسل توجه الى ... امرأة ساكنة فى حوش ، ولم يجد عندها شيئا من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك الرسول بأجرة الحوش ... فجاء عليها من الأجرة عشرين نصفا (٧) من مدة خمسة اشهر ، فلم تجد شيئا تعطيه ... فقالت له : اقطع هذه الشجرة (التى بالحوش) وبعها وخذ ثمنها .. (فقطعها) .. وقد حصل للمراة غاية الضرر لقطع شجرتها التى كانت تستظل تحتها فى أيام الصيف » (٨) .

ولما انفلت الأمر من يد السلاطين ، وتصارع المماليك ، وتشاغبوا محطمين الأسواق ناهبين للأرزاق ، وتدهورت انتاجية اقطاعات الجند ، بدل الحال ، وارتفعت الاسعار وأصبحت حياة الشعب هى الظاهرة المستائدة .

ولقد عبر ابن اياس — المؤرخ المعروف — عن نقمة على المماليك

(١) أى المقابر .
(٢) أى المبالغ المقررة .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ (٨٩٦ هـ) .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٨ (٨٩٦ هـ) .
(٥) المحتسب مسئول كبير فى الحكومة عن مراقبة الأسواق والأسعار والآداب وغيرها .
(٦) أى فرض عليهم .
(٧) عملة فى ذلك الوقت .
(٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ (٨٩٦ هـ) .

باساليب كثيرة وكان من اطرفها انه حشد فى احدى صفحاته عدة اسماء بغيضة لبعض المماليك على النحو التالى :

« قبض السلطان على جماعة من الامراء منهم قانصوه الفاجر ... وتانى بك الابح واسناد الأصم » (١) ولكن اشد هجوم وجهه للمماليك ذكره لبيت الشعر التالى :

ما كنت احسب ان يمتد بى زمنى
حتى ارى دولة الاوغاد والسفل (٢)

هكذا كان المماليك عنصر شغب فى المدن الكبرى المصرية وخاصة فى العاصمة فضلا عن اضطهادهم المتواصل للفلاح .

وكان هناك عناصر شغب أخرى يضرب كثيرا على أطراف الوادى ، وأحيانا يضرب فى عمق الوادى ، وهو العربان .

وكان المماليك اقدر على ضرب عناصر المعارضة والشغب بقوة فى عهدهم الأول . ولكن فى العهد الثانى بدا واضحا أن حوادث اجتياح العربان للقرى ، وحوادث عصابات السرقة (المناسر) (٣) كانت اكثر ونتائجها اشد عن ذى قبل .

ومن ذلك انه فى ٨٧٩ هـ .

« هجم طائفة من العربان المفسدين على جماعة من الناس ... واستمروا يعرون الناس ... وسلبوا ... الأمراء (٤) ... واضطربت احوال الشرقية فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل (٥) ... » .

وتزايد شر عربان « لبيد » ونشر « الهوارة » الفوضى فى الصعيد (٦) ،

---

(١) بدائع الزهور . جـ ٤ ، ص ٢١ (٩٠٦ هـ) .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
(٣) مفردها منسر .
(٤) المصدر السابق ص ١٠٢ (٨٧٩ هـ) .
(٥) ابن اياس : جـ ٣ ، ص ١١٩ ، ١٤٣ .
(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص .

وكان للهوارة شأن كبير فى جنوب مصر وسيظل لهم هذا الشأن حتى عهد على بك الكبير فى الثلث الثانى من القرن الثامن عشر .

وعندما بعث السلطان المملوكى حملاته المتعددة ضد الضغط العثمانى على الحدود الشمالية الشامية قل عدد القوات المملوكية فى مصر الأمر الذى أعطى للعربان فرصة لاستعراض عضلاتهم : وزاد طمعهم فى خق الترك » .

ويمكن الاستنتاج من ذلك ان العربان كانوا لا يرون اى حق للمماليك فى حكم مصر . وهذا صحيح . ولكن من ناحية أخرى فانه من المعروف أن العربان لا ولاء لهم للحكومة المركزية ، وان الولاء لديهم انما يكون للعشيرة .

ان ذلك الخلاف الجوهرى فى مفهوم الولاء جعل العربان يستبيحون ما تصل اليه ايديهم اذا ما وهنت الحكومة المركزية . وجعلت السلطة المركزية تنزل بهم من الضربات ما يخرج عن حد الشريعة الاسلامية . ومن ذلك ما فعله المماليك « بالعرب الاحامدة » فى وجه قبلى :

« انتصر (الامير آقبردى الدوادار) على العرب الاحامدة ، وكان توجه الى الوجه القبلى بسبب ذلك ، فقتل منهم ما لا يحصى . واسر نساءهم ، وأولادهم ، وبعث بهم إلى مصر ، فأباعوهم كما باع الرقيق من الزنج . ووقع لآقبردى مع الأحامدة أمور غريبة ، يطول الشرح فى ذكرها ، وعذب منهم جماعة بالنار ، وطم منهم جماعة بالتراب وهم أحياء . وتفنن فى عذابهم تفننا » (١) .

ومع ذلك فقد لعب البدو فى مصر دورا له أهميته فى مواجهة الاخطار التى كانت تهددها . فقد كانوا قوة عسكرية غير نظامية مستعدة لدعم الحكومة بفرسيانها .

وكانت ازمة النقد والعملة من ابرز مظاهر التدهور الاقتصادى فى العهد المملوكى الثانى . وكانت معاناة الشعب بصفة عامة والتجار بصفة خاصة ناتجه عن تدهور قيمة العملة وسك العملة النحاسية بدلا من العملة الفضية ، بل وسك العملات المغشوشة . وكان ذلك يؤدى

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ (٨٩٢ هـ) .

الى رفض الرعية استخدام تلك العملات فضلا عما كان يصيب السوق من حالة توقف وارتفاع فى الاسعار يهوى بحجم التجارة الى مستويات شديدة التدنى :

فقد ضج « الناس » قاطبة ... بسبب الفلوس (١) الجدد وغلو البضائع ... وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم السلطان . وقصد أن يخرجها بأغلى من الفلوس العتق فلما تكلموا فى أمر الفلوس العتق أخذ ناظر الخاص يعارض فى ذلك لاجل غرضه ، فلما سمع العوام بذلك ثاروا عليه فى وسط المدرسة الصالحية ورجموه » (٢) .....

صاحب ذلك التدهور الاقتصادى تعرض شعب مصر لأوبئة اجتياحية عديدة ، اعنفها الطاعون الذى انقض على البلاد فى فترات ، ولكن بعض الطواعين كان اشبه بذلك الطاعون المروع الذى اجتاح أوربا فى منتصف القرن الرابع عشر ، وعرف باسم « الموت الأسود » .

ويحدثنا احد المؤرخين من طاعون ٨٨١ هـ ، وطاعون ٨٩٧ هـ فيقول :

« فشى أمر الطاعون بالقاهرة ، وهذا الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ... وفى شوال (٨٨١ هـ) تزايد أمر الطاعون بالقاهرة ، وفتك المماليك والأطفال والعبيد والجوار والغرباء فتكا ذريعا ، وكان طاعونا مهلبا يموت منه الانسان فى يومه .. وفى ذى الحجة تحشى الطاعون جدا ومات من مماليك السلطان نحو من الفى مملوك وزيادة ، خارجا عن المماليك السيفية والقرانصة ، ... حتى قيل أن السلطان حمل (الطعام) بنفسه ... الى دور الحرم لقلة الطواشية (٣) .

« وفى أواخر هذا الشهر (رجب) تناقص أمر الطاعون وخفة .... بعد ما جرف الناس جرفا واخلا الدور من أهلها ... قيل احصى من مات فى هذا الطاعون بمصر ، وورد اسمه لديوان المواريث ، خارجا عن الطرحاء ، ومن لم يرد اسمه » الى الديوان ، فكانوا نحو مائتى الف انسان وزيادة .

---

(١) العملة النحاسية التى ضربت حينذاك .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٩ (٨٨٦ هـ) .
(٣) ابن اياس ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ (٨٨١ هـ) .

وهنـاك محاولات عديدة لتحديد عدد ضحايا الطاعون . وذهب البعض الى ان مصر فقدت حوالى ٣٥ ٪ الى ٥٠ ٪ من سكانها . ويرى ابن اياس ان القاهرة وحدها فقدت على الاقل ٢٠٠ الف من أهلها . فاذا اخذنا فى الاعتبار ان تعداد القطر المصرى كله حوالى ٦ — ٧ ملايين نسمة فتكون مصر قد فقدت حوالى ٣ الى ٣٫٥ مليون نسمة فى فترة وجيزة جدا . واذا كان تعداد القاهرة حوالى نصف مليون نسمة فانها تكون كذلك قد فقدت نصف أهلها . وانهـا لنسب مروعة كل الروع .

كيف برر بعض المفكرين اجتياح الطاعون لسكان مصر على تلك الصورة البشعة ؟ .

يرى ابن اياس :

« كان مدة انقطاع الطاعون من مصر كثر بهـا الزنـا واللواط وشرب الخمر وأكل الربـاء وجور المماليك فى حق النـاس ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : مـا من قوم يظهر فيهم الزنـا الا اخذوا بالفناء ، قال العلامة شهاب الدين ابن حجر : والحكمة فى ذلك أن الزنا حده ازهاق الروح فى المحصن ، فاذا لم يتم فيه الحد فيسلط الله تعالى عليهم الجن يقتلونهم ، ولمـا كان الزنا يقع من بنى آدم سرا سلط عليهم الجن يقتلونهم سرا من حيث لا يرونهم ، وقاعدة العذاب انه اذا نزل يعم المستحق له وغيره ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : اذا بخس المكيال حبس القطر ، واذا كثر الزنـا وقع الطاعون ، واذا كثر الكذب وقع الهرج » (١) .

ولدينـا عدة ملاحظات واستنتاجات من تلك النصوص التاريخية :

١ — كانت درجة وسرعة تفشى الطاعون فى المماليك وغير المصريين اعظم بكثير جدا بالقياس باصابات المصريين (الفلاحين وأهل البلاد الاصليين) . وهذا يرجع الى أسباب عديدة من اهمها أن المناخ فى مصر غير ذلك الذى نشأ فيه المماليك والغرباء ، وبذلك يكون استعدادهم لتلقى العدوى اكثر واسرع . وهذا يفسر فناء أعداد كبيرة من المماليك رغم ما كانوا يتمتعون به من مستوى معيشة عالية . ونظرا لتلك النسبة العالية من الضحايا المماليك ، فقد كان ذلك يعنى أن

---

(١) ابن اياس . بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ — ٢٨٩ (٨٩٧ هـ) .

قوة المماليك قد اهتزت ، فضلا عن ان قدرة السلاطين والامراء على شراء مماليك جدد كانت قد اصبحت اكثر ضعفا عن ذى قبل بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية . ولكن الاحياء منهم سرعان ما عملوا على الافادة من خلو كثير من الاقطاعات من اصحابها ، بل لقد تقاتلوا فيما بينهم على الحصول على تلك الاقطاعات الشاغرة (١) .

٢ — ان الغرباء ربما كانوا يعيشون حياة متواضعة فى اماكن غير صحية ، الأمر الذى يجعلهم عرضة اكثر من غيرهم .

٣ — ان قسوة الطاعون فى المدينة كانت اشد من قسوته فى الريف وذلك بسبب تلوث البيئة المدنية وضيق المتنفس ، وازدحام الحارات والمنازل وتراكم القاذورات ، بينما تكون الشمس عامل تطهير مستمر فى الارياف بفعالية اكثر بكثير مما نجده فى المدن .

٤ — ليست هناك اشارة واضحة عن تفشى الطاعون بين العربان ، وذلك أن كثافتهم السكانية فى المناطق المفتوحة على جانبى الدلتا وفى الصحراء تحول دون تفشى المرض بينهم .

٥ — ان هناك اشارات واضحة عن عناية مماليك العهد الأول بنظافة الشوارع واضاءتها ، وفى العهد المملوكى الثانى كانت العناية بالنظافة العامة أقل ، حقيقة امتدت عناية المماليك فى العهد الثانى الى المستشفيات ، ولكن الاحتياجات اليها كانت اكثر واكثر .

٦ — ان التدهور الاقتصادى الذى ساد الفترة الأخيرة من عهد المماليك ادى الى تفشى الفقر ، والفقر يعنى ضعف المناعة وبالتالى يصبح الفقراء اكثر عرضة للمرض .

لقد بلغت اعمال التعسف والقسوة درجات غير انسانية بمعنى الكلمة ، وتفاقمت الازمة ، حتى تحرك العامة ضد هذا الطغيان ، وكان تحركا له مغزاه ، ولكن غير قادر على كسر شوكة الطغاة أصحاب الحكم والسيف ، وكان الشعب فى ثورته هذه يلقى بغضبه ضد المشايخ الذين يبررون للسلطان اعماله . ومن ذلك

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ (٨٩٧ هـ) .

حركة « العوام على الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشينى الذى ولى قضاء الحنابلة فيما بعد وكادوا أن يقتلوه .... وسبب ذلك أنه نقل عنه انه افتى السلطان بحل ما يجى اليه من أجرة الاملاك » (١) .

ان العامة هنا يقصد بهم أهل القاهرة من المصريين من سكان المدينة من اصحاب الحرف والتجار وملاك العقارات الصغار . وكان هؤلاء الذين تنزل بهم انواع العنت والارهاق . وكانوا هدف الحكومة المملوكية كلما احتاجوا الى فرض ضرائب شرعية أو غير شرعية .

اما الفلاح المصرى فلم تكن أرضه له ، وانما لاقطاعى مملوكى ، يأخذ منه كل ما ينتج . ويترك له ما قد يسد رمقه ، على أدنى مستوى للرمق . كيانه فى نفس قنوعة صبورة ، مع أسرة على طبعه ، فلسفته فى الحياة حياة بلا فلسفة ، صباحة بايمان ، ويومه عمل رتيب ، وزوجه سكن له فى عش من طين وبوص ، ونار من بقايا حطب اقطاع الملوك ، غذاؤه محدود التنوع جدا ، ولكن مشقة العمل تطلق منه طاقات وتشكل مفتول العضلات .

كان الفلاحون قد حظوا بقدر من الرعاية والعناية المحدودة فى ظل الدولة الأيوبية ، ولكن نصيبهم فى المجتمع المملوكى لم يكن سوى الاهمال والاحتقار ، وقد ذكر العلامة ابن خلدون — وهو الذى قضى فترة من انشط مراحل حياته فى ظل سلطنة المماليك — ان الفلاحة معاش المستضعفين ، ويختص أهلها بالذلة ، وهذا الحكم الذى أصدره ابن خلدون على الفلاحين ، انما يعبر فى الواقع عن نظرة معاصريهم اليهم . فالفلاح فى جميع المؤلفات المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر ، بل أن بعض المؤلفين المعاصرين كتب القصص الطويلة لتثبت أن الصفات السابقة متأصلة فى الفلاح وليحاول أن يلصق به كل نقص ورذيلة » (٢) . فاذا صادف وارتقى رجل من الأرياف الى بعض وظائف الدولة الكبيرة غضب المماليك وصاحوا : أما كان فى مماليك السلطان من يعتمد عليه الا هذا الفلاح ؟ .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ . ص ٢٦٣ (٨٩٤ هـ) .

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : المثال السابق من كتاب الأرض والفلاح ص ٢٢١ .

وقد انعكست هذه الظاهرة على المجتمع ، ومن ذلك أن أحد علماء الأزهر فى القرن العاشر تزوج قاهرية ، فلما قدمت أمه من الريف لزيارته تنكر لها لئلا تعرف زوجته ان أمه فلاحة ، وهددها بالضرب ان علم أحد انها أمه » (١) .

وقد قال عنه المقريزى :

« وزاد الفلاح القليل من خبز وشعير وجبن القريش والبصل والغلال لأهل الدولة ... الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم ، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد »(٢) .

وحيث كانت حالة الفلاح على هذا النحو المتردى ، فقد لجأ الى اسلوبه التقليدى فى التخلص من الارهاق ، وهو الفرار من القرى ، والأراضى الزراعية الى المدن وخاصة الى القاهرة حتى لقد كانت الحكومة من حين لآخر — تعمل على اخراج أهل الريف من العاصمة واعادتهم الى قراهم (٣) .

ومع ذلك احتفظ المصرى عبر العصور بطريقته فى نقده للحكم الظالم بالتشنيع المثير عليه . ولقد عبر المؤرخ ابن اياس عن ذلك بقوله « أهل مصر ما يطاقون من السنتهم اذا اطلقوها فى حق الناس » .

وهنا نتساءل : لماذا لم يتحرك الفلاح ضد أولئك الحكام الذين أفرطوا كل الافراط فى ظلمه ؟ .

فى اعتقادنا ان الاسباب الرئيسية وراء ذلك هى :

١ — ان النظام الاقطاعى الذى ساد مصر فى العصر المملوكى لا يعطى فرصة لتجمع شعبى ضد المستبدين المستغلين به . فكل قرية او اكثر تتبع اقطاعا أو أكثر ، وبالتالى لا علاقات بين مختلف أجزاء البلاد تسمح بايجاد رأى عام شعبى قادر على خلق زعامة للدفاع عن جموع الفلاحين والعامة والمطحونين .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .
(٢) بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص (٩٠٨ هـ) .
(٣) انظر د. سعيد عاشور : مصر فى عهد المماليك البحرية .

٢ ـ الجهل الشديد المنتشر بين صفوف الفلاحين .

٣ ـ لم يعط الفلاح المصرى فرصة لكى يحمل سلاحا اذ كان محتقرا من جانب حكامه المماليك . بينما كان هؤلاء المماليك يملكون القوة الضاربة القادرة على النيل من اى تحرك اذا وقع ، واذا ما وقع مثل هذا التحرك يكون محليا وليس عاما .

وكان المشايخ والعلماء ـ وهم الذين أطلق عليهم حينذاك مصطلح المتعممين ـ ذوى مكانة قيادية ، ولكن محدودة . كانت الحكومة المملوكية تعمل من وقت لآخر على استصدار الفتاوى التى تبرر لها الحصول على الأموال وكانت كثيرا ما تنجح حكومة المماليك فى ذلك . ولكن من وقت لآخر كانت تواجه بمعارضة بعض هؤلاء المتعممين وخاصة فى القضايا المتعلقة بالأوقاف (١) .

وفى عهد المماليك انتشرت الطرق الصوفية ، وتسمى المنتسبون اليها بالفقراء ، وظهرت طائفة المجاذيب والدراويش بشكل أكبر من ذى قبل ، كما انتشر البهاليل والمعتوهون من مدعى الشفافية والالهية ، وكان فسادهم فى الموالد لا حد له ، حتى قال عنهم المؤرخ المقريزى :

« لا ينسبون الى علم ولا ديانة والى الله المشتكى » (٢) .

ورغم ما كانت عليه البلاد من تدهور فقد كانت هناك مظاهر بذخ واسراف . وكانت عمليات التعمير وتوسيع الطرق تجرى من حين لآخر ، والاحتفالات والمواكب كانت تجرى فى شوارع القاهرة وتنفق عليها الوف الدنانير وكانت الأسواق مليئة بالحركة فى الأرياف ، وكذلك القاهرة الا اذا نالتها سيوف وجبروت المماليك .

ففى عهد المماليك البحرية كانت المدن كثيفة السكان تموج بالحركة بيعا وشراء ودواوين حكم نشط ومساجد عامرة واسواق المواد الغذائية عديدة على رأسها دار التفاح أى سوق الفاكهة . وكانت أسواق الملابس والأجواخ مزدهرة ، وهنا وهناك تجد الصيرفى الذى يبدل لك العملة ،

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٠١ (٨٧٩ هـ) .
(٢) انظر د. سعيد عاشور : مصر فى عهد المماليك البحرية .

وفى مكان يقف (عريف) السوق لينقل الى المحتسب انباء اى خلل او غش .

والمحتسب يراقب الاسعار والنظافة ، والآداب العامة ، وخاصة ان الاسواق — مثل اسواق الحلاويين والدجاج — تكون مليئة بالنساء بل غالبا ما تكون اغلبية المتعاملين منهن .

وفى عهد المماليك — وخاصة عهد المماليك البحرية — كانت الاحتفالات تأخذ طابعا ترفيهيا رائعا بالقياس الى العهود التالية . ومن امتع الاحتفالات (الرؤية) لتحديد بداية شهر الصوم (رمضان) فكان الأهالى يطوفون بالشموع الكبار والصغار فى موجات فرح عارمة .

واكتسب عيد (وفاء النيل) عظمة خاصة فى عهد المماليك فكانت له تقاليده ورسومه وشعبيته الضخمة .

اما (عيد الشهيد) فكان مليئا بالمباهج ولكن يبدو انها زادت الى حد اصبح مثلا للخلاعة والفسوق .

ومن صور الاحتفالات التى وقعت بالقاهرة ما جرى بعد شفاء السلطان المملوكى . فيحدثنا ابن اياس عن ذلك قائلا :

« حصل للسلطان الشفاء ودخل الحمام فلما دخل يوم الجمعة ... توجه الى الجامع وصلى الجمعة ... وتخلق الخدام بالزعفران ، وفرقت ... على الناس البنود الحرير الأصفر ، فوضعوهم فى اواسطهم جماعة من الخدام ... ومقدم المماليك ، وغلمان السلطان قاطبة ، واعيان الناس من الحجاب ... ولما رجع السلطان من الجامع لاقته المغانى ... ونثرت على راسه خفائف الذهب والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه ... واخلع على الأطباء والمزينين الخلع السنية ودقت البشائر بالقلعة ، ونودى بالزينة فى القاهرة » (١) .

وفى مناسبة اخرى وهى عودة السلطان من الحج يروى ابن اياس : « أوكب السلطان (٢) .. وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم بالشاش

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٢٢٩ .
(٢) اى اقام موكبا .

والقماش ، وسارت القضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة وقد زينت له زينة حافلة ... ولعبوا قدامه بالفراشى الذهب ... ولاقاه .. الشعراء الشبانية (١) السلطانية ، وابن رحاب المغنى ... واصطفت له جوق المغانى من النساء على الدكاكين ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من التبانة الى القلعة وفرشت له .. عدة شقق من باب القلعة الى الحوش ، ونثرت على راسه خفائف الذهب والفضة .. ثم ان السلطان اخلع على من كان معه من أرباب الوظائف .... ودخل عليه (٢) جملة من التقادم (٣) من مال وتحف ما يعادل مائتى الف دينار من أمير مكة وقضاتها ومن أعيان التجار الذين بها وكذلك من أمير المدينة الشريفة وقضاتها ومن أمير الينبع وغير ذلك » (٤) .

وكان الاحتفال بختان ابن السلطان على نحو من البهجة لا يتناسب مع مسئوليات السلطان المالية نحو تغطية نفقات الحملات العسكرية التى كان يوجهها الى الحدود الشامية ، ولا يتناسب مع التدهور الشديد للرصيد المالى للدولة .

« ففى رجب (٨٩٥ هـ) كان ختان ولد السلطان المقر الناصرى محمد ، الذى تسلطن بعده ، وكان عمره يومئذ نحوا من سبع سنين واشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان بان تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق مثل : سوق الشرب ، والجواهرة ، والوراقين ، وسوق الفاضلة ، والباسطية ، وسوق الحاجب ، والصاغة ، وغير ذلك من الأسواق ، وخرج الناس فى القصد والفرجة عن الحد ، وكان العسكر غائبا فى التجريدة والناس فى أمن من اذى المماليك ، فكانت تلك الأيام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم ما لا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر واغنام وابقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين الف دينار ، ومن جملة ما اهداه المقر الشهابى احمد بن العينى طشت وابريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان واشياء كثيرة غير ذلك » (٥) .

---

(١) اشبه بالشرطة .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٧١ (٨٩٥ هـ) .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ١٦٢ (٨٨٥ هـ) .
(٤) أى الهدايا .
(٥) أى على السلطان .

كذلك كان حفل ختان ابنـاء الأثرياء على نوع كبير من الفخـامة عـلى النحـو التـالي :

« فى هذا الشـهر (١) كان ختـان أولاد القـاضى كاتب السر ابن مزهـر ببركة الرطلى ، فكان له مهم حافـل جـدا ، وحضر عنـده جمـاعة من الأمـراء المقـدمين والعشرات ، وحضر جمجـه بن عثمـان (٢) عنـده ، وكان النيـل فى أواخـره ، فأمـر كاتب السر سـكان البركة بأن يوقدوا فى البيـوت وقدة حافلة ، وشرع يرسـل لكل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت وطبلية فيهـا أكل فاخر ... حتى كانت البركة تضىء بالنور .... واحرق حرقة نفط حافلة لم يسـمع بمثلهـا ، حتى خرجت البنت من خـدرها بسـبب الفرجـة على ذلك ، وبلغ كرى (٣) كل مركب أربعة أشرفيـة (٤) ، واسـتمرت هذه الوقـدة وحراقة النفط ثلاث ليـال متواليـة .. واجتمع بالبركة نحـو اربعمـائة مركب موسـوقة بالخلايق ، وصار ابن رحاب المغنى عمـال فى كل ليلة ، وسـائر مغانى البلد من رجال ونسـاء ، وانطلقت ألسـن النسـاء بالزغـاريت ، وأنفـق فى تلك الليـالى من الأمـوال ما لا يحصى » (٥) .

وكانت حفـلات الزفاف المملوكيـة تتسـم هى الأخرى بالاسراف وبالتقاليد الاجتماعية حينـذاك ومن ذلك افراح زفة احـد كبـار رجـال المماليك وهو قانصـوه :

« جمـل الجهـاز من الأزبكية الى دار قنصـوه ... لتناطـر السـباع ، .... فكان به من الحمـالين التى عليهـا الأمتعة زيادة عـلى اربعمـائة حمال ، فدهش الناس لرؤيتـه ، ورجت له القـاهرة .... قيـل كل ما صرف عليه نحو

---

(١) شعبان ٨٨٦ هـ .

(٢) اسمه الحقيقى جم وكان من الأسرة الحاكمة العثمانية فى اسـتانبول فر منها بسبب صراعه من أجل الجلوس على العرش الى مصر لعله يحقق هدفه فى تولى السلطة العثمانية بمساعدة المماليك .

(٣) أجـرة .

(٤) عملة ، ومعنى هذا ارتفاع اجرة المراكب بسـبب الطلب عليهـا للنزهة فى تلك الليـلة .

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

مائتين الف دينار ، ولما كان ليلة العرس .... بالأزبكية وكان حافلا ، ومدت هناك الأسمطة الحافلة ، ثم ان قانصوه ... ركب بعد العشاء من باب السلسلة ، ومشت قدامه الأمراء المقدمين ، وهم بالشاش والقماش ، ومشت الخاصكية قدامه وبايديهم الشموع الموقدة ، فشق من القاهرة حتى وصل الى الأزبكية ... ولكن حصل تلك الليلة غاية الضرر من المماليك الجلبان ، خطفوا العمائم ، وضربوا جماعة من الأمراء المقدمين ، وخطفوا الشمع من أيدى الخاصكية .... » (١) .

وصور لنا احد المؤرخين منشأ حديقة الأزبكية قائلا :

« ومن الحوادث اللطيفة ان فى اثناء هذه السنة كان ابتداء منشأ الأزبكية على يدى ... الاتابكى ازبك ... الذى نسبت الأزبكية اليه ، اقول : وكانت هذه البقعة ارض ساحة خراب ، ذات كيمان فى ارض سباخ ، وبهما اشجار اثل وسنط ، وبهما مزار سيدى عنتر وسيدى وزير وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم ، وكان فى هذه الأرض جامع خراب يسمى جامع الجاكى ، وهو باق الى الآن ، وكانت هذه الأرض قديما عامرة بهما المناظر بالبساتين ، وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل ، ثم ان بعض الملوك حفر بهما خليجا ، واجرى اليهما الماء من فم الخور ... وبقى من جملة متنزهات القاهرة ، وبنى على هذا الخليج قنطرة وفوقهما تكة للمتفرجين ، يجلسون عليهما للفرجة ، ... واستمرت هذه البقعة على ما ذكرناه الى سنة خمس وخمسين وستمائة ، فلما تلاشى امرها ، وضعف جريان الماء فى (الخليج)وحفر الملك الناصر قلاوون خليجه المسمى بالخليج الناصرى وذلك فى سنة اربع وعشرين وسبعمائة فطمع (الخليج) وخربت مناظر اللوق التى كانت هناك ، وصارت هذه البقعة خربة مقطع طريق ، واستمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت اليها احد من الناس ، حتى اعاد احد المهتمين اليها الماء ليزرعها محاصيل تقليدية ، واستمرت على ذلك مدة الى سنة ثمانين وثمانمائة فى دولة الملك الأشرف قايتباى ، فحسن ببال الأتابكى ازبك أن يعمر هناك مناخا لجماله ، وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة ، فلما أن عمر المناخ حلا له هناك العمارة ، فبنى القاعات الجليلة ، ثم الدوار والمقعد والمبيتات والحواصل وغير ذلك ... وجرف الكيمان التى كانت هناك ومهدها ، ثم حفر بها

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ (٨٩٢ هـ) .

هذه البركة الموجودة الآن ، وجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، وجدد عمارة قنطرة (الخليج) التى كانت قديمة ، ثم بنى على هذه البركة رصيفا محاطا بها ... واصرف على ذلك ... ما يزيد على مائتى الف دينار ... (١) وشرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة والاماكن الجليلة ، ولا زالت تتزايد فى العمارة الى سنة احدى وتسعمائة ، وقد رغب الكثير من الناس فى سكنى الأزبكية ، وصارت مدينة على أفرادها ، ثم انشأ بها الجامع الكبير وجعل به خطبة ، وانشأ به المئذنة العظيمة ... ثم انشأ حول هذا الجامع الربوع والحمامات والقياسر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع » (١) .

وقد علق المؤرخ ابن اياس على إتمام هذا العمل الجليل بقوله :
« وكان ذلك فى غير طاعة الله تعالى ولا به نفع للمسلمين » (٢) .

كان بعض مفكرى ذلك العصر ينظرون الى مثل تلك المنشآت الترويحية نظرة غير جمالية . ولعله انتقد هذا العمل لأن حديقة الأزبكية اصبحت فيما بعد ملتقى اللاهين خلال الأعياد ونزهة للشباب وما يصاحب ذلك من أمور مخلة بالآداب .

وانه لما يلفت النظر قول المؤرخ ابن اياس ان الشعب المصرى — خلال احد تلك الاحتفالات — لم يكن مبتهجا فقط بتلك الأفراح ولكن مغتبطا بغياب المماليك رغم ان هؤلاء المماليك كانوا قد تركوا القاهرة الى الحدود الشمالية الشامية للدفاع عنها .

فى أعتقادنا ان الارهاق والعسف — الذى حل بالشعب المصرى على يد المماليك — جعل مشاعر المصرى حينذاك لا تتعلق بمصير الشام ومصر ، بقدر ما تتعلق برغبته فى ان « يرتاح » من هؤلاء المماليك ولو لفترة محدودة .

ويعكس ذلك ايضا الحقيقة القائمة حينذاك وهى ان الهوة اصبحت كبيرة بين الاوليجاركية الحاكمة المملوكية والشعب المصرى ، وان المماليك كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، وكان الشعب هو الطبقة المحكومة .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ١١٦ — ١١٧ (٨٨٠ هـ) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ص ١١٨ (٨٨٠ هـ) .

كما تكشف تلك الصورة التاريخية عن وجــود فئــة أخرى من الشعب ممثلة فى اثريائه ولكنهم اثرياء لا يحكمون ، وكانوا على ثراء فاحش بالقياس الى فقـــر الشعب . ومن ثم نســـتطيع القول ان هناك نوعا من الفئة الوسطى كانت تتكون اســاســا من :

١ ــ التجار على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية .

٢ ــ المتعممين وخاصة اولئك الذين يتولون الاوقاف والمدارس وشئون المساجد باوقافها ومقامات الاولياء بما يقدم اليها من نذور .

وليس لدينـــا ما يدل على ان أيا من ابنـــاء الشـــعب المصرى كان يتطلع الى الحكم ، اذ كان هناك نوع من الاعتراف باحتكار هؤلاء المماليك للحكم ، واغلق هؤلاء المماليك على انفسهم فئتهم فلم يعطوا فرصة لمشاركة وطنى مصرى لهم فى الحكم . ولا شك ان المفهوم الاسلامى لنظام الحكم ــ الذى كان شائعا حينذاك ــ كان من عوامل ابعاد المصرى عن التطلع الى الحــكم فمادام الحاكم مســلما فان ذلك كان يرضيه بغض النظر عن جنسه أو اصله .



الباب الرابع

المجتمع المصرى فى العهد العثمانى

الفصل الأول

المجتمع المصرى فى العهد العثمانى حتى الحملة الفرنسية ١٥١٧ - ١٧٩٨

فى مطلع القرن السادس عشر كانت فى منطقة الشرق الاوسط أكثر من قوة تتصارع على السيطرة عليه . كانت الدولة العثمانية التركية السنية قد اتخذت من الاناضول قاعدة لها وانطلقت مجاهدة أوربا حتى أخذت تدق أبواب فيينا عاصمة الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، وفى الشرق كانت قد قامت الدولة الصفوية الشيعية فى ايران (فارس) وكانت تركز أكثر على التوسع على حساب البلاد الاسلامية وعلى نشر مذهبها الشيعى وكانت مستعدة للتعاون مع الدول الأوربية سواء المعادية للدولة العثمانية أو الطامعة فى مصر .

وبينما كانت الدولتان العثمانية والفارسية فتيتين ناهضتين كانت دولة المماليك فى مصر قد شاخت وفقدت مقومات استمرارها ، فى الوقت الذى وجدت فيه هذه الدولة المملوكية ــ الممتدة من وادى النيل حتى جبال طوروس وحتى أطراف اليمن ــ نفسها مسئولة عن دور أكبر من قدرتها ألا وهو مواجهة أخطر عدوان كان يهدد العالم الاسلامى وهو العدوان البرتغالى ، اذ تمركز البرتغاليون عند مداخل البحر الأحمر والخليج العربى وشرعوا فى وضع خطة واسعة النطاق لضرب الأراضى المقدسة والسويس ، ولكن محاولة المماليك لكسر شوكة هذا الخطر باءت بالفشل وتفوق البرتغاليون فى المياه الاسلامية الجنوبية لأنهم لم يجدوا جبهة اسلامية موحدة تناوءهم هناك .

فقد دار صراع مرير بين الدولتين الفارسية والعثمانية أدى الى أن توجه الأخيرة ضربة عنيفة للفرس جعلتهم يتبعون طويلا وراء حدودهم ، ثم التفت العثمانيون الى دولة المماليك فهزموهم فى موقعة مرج دابق ١٥١٦ ، ومن بعدها تابع العثمانيون الزحف واستولوا على الشام ومصر وخضع لهم الحجاز وبعثوا بقواتهم من بعد الى العراق واليمن وشمال افريقية ، وأصبحت مصر ولاية من ولايات الدولة العثمانية واصبحت القسطنطينية (الأستانة) عاصمة الشرق الاسلامى وفقدت القاهرة مكانتها القيادية التى اشتهرت بها خلال القرون الاسلامية السابقة .

عاشت مصر تحت الحكم العثمانى فترة من أشد فترات تاريخها ضعفا وعزلة عن العالم . وهذه السنوات الفاصلة بين الفتح العثمانى (١٥١٧) والحملة الفرنسية (١٧٩٨) كانت بالنسبة لأوروبا بداية لتطور النهضة ، تلك النهضة التى تصاعدت فيها قدرات أوربا الاقتصادية والعسكرية والثقافية والاجتماعية فضلا عن السياسية . ومن هنا أخذ التخلف فى مصر بالقياس بتقدم أوروبا يزداد حدة سنة بعد أخرى حتى اذا ما عاد انفتاح مصر على أوروبا وجدت مصر نفسها أمام أوربا الحديثة فى القرن التاسع عشر بينما مصر لا تزال تعيش فى مستويات القرن السادس عشر أو اقل .

فمن خصائص الحكم العثمانى فى مصر وفى الغالبية العظمى من ولايات الدولة العثمانية أنه كان حكما سلطيا بعيدا عن مفهوم الدولة الحديثة مع أن هذا التوسع العثمانى فى مصر والبلاد العربية جاء مع العقود الأولى من عصر النهضة الأوروبية . وبدات منذ ذلك التاريخ الفجوة الحضارية تتسع بين مدى التقدم الحضارى فى الشرق الاسلامى ومداه فى أوربا .

فلقد القى عبء الخدمات العامة على الشعب ولم يكن فى مقدور الشعب أن يتحمل هذه المسئولية ، فكان أن أهملت هذه الخدمات — فضلا عن المرافق العامة — اهمالا شديدا استمر لمدة قرون .

فسلطية الحكم العثمانى تعنى أن العثمانيين كانوا مسئولين عن الأمور الرئيسية التالية :

١ — حماية البلاد من العدوان الخارجى .

٢ — استتباب الأمن الداخلى .

٣ — نشر العدل .

٤ — جمع الضرائب المفروضة على البلاد وعلى الأهالى وعلى الأرض والعقارات والحرف وارسالها الى خزانة السلطان .

٥ — وجود نظام يضمن ادارة البلاد وولاء أهلها للسلطان ممثلا فى الوالى الذى يبعث به السلطان لفترة محدودة والحامية المتعددة الفرق ، والديوان الذى يقدم المشورة المقبولة للوالى أو المفروضة عليه فرضا من قبل القيادات العسكرية عندما ضعفت الادارة العثمانية .

اما بقية الأعباء المنوطة بالدولة فلم تكن من مسئوليات السلطات العثمانية ، ومن ذلك ما كان يتعلق بالخدمات التعليمية والثقافية والاجتماعية والاصلاحات الاقتصادية على مختلف أوجهها . وأن تمت مشروعات فى تلك المجالات فكان ذلك يتم بطريقة اقرب الى العشوائية منها الى التخطيط الهادف البعيد المدى .

كان الحكم فى أول الأمر فى قبضة العثمانيين ، ولكن نظرا لأن المماليك كانوا قد انخرطوا فى خدمة العثمانيين وكان المماليك مسئولين عن ادارة البلاد لمعرفتهم بهـا فقد سيطروا على البلاد من دون العثمانيين ابتداء من حوالى منتصف القرن الثامن عشر حيث أصبح زعيمهم — وكان يلقب بشيخ البلد — هو صاحب الكلمة العليا فى البلاد .

وكان المماليك عصبة عسكرية حاكمة عسكرية أوليجركية الشكل ، احتكرت أمور السياسة والحرب والادارة ، وتركت — هى الأخرى — الخدمات العامة دون رعاية على اعتبار انها من وجهة نظرهم من مسئوليات الرعية ، فظل التعليم قاصرا على اساليبه التقليدية : الكتاب والأزهر وبعض المدارس ذات الطابع الدينى التى لا تعنى بالعلوم ولا تدرى بتطورها السريع فى بعض دول أوربا ، وتخلف الانتاج الادبى فى مصر عما كان عليه فى القرون الاسلامية السابقة . وظل المستوى الثقافى على هذا النحو حتى مجىء الحملة الفرنسية وعهد محمد على .

ونتيجة لهذه السطحية فى الحكم المملوكى كان الاقتصاد المصرى قد تحول الى الاكتفاء الذاتى . على أسوأ ما يوصف به ذلك الاكتفاء الذاتى القائم على سد الرمق اليومى .

كان المماليك يعنون اساسا بالحصول على اكبر قدر من الدخل السنوى من الفلاح المنتج الوحيد تقريبا فى مصر حينذاك ، وكانت الضرائب تجمع من الفلاح فى أول العهد العثمانى بواسطة احدى فرق الجيش العثمانى (الحامية العثمانية) ثم انحلت هذه الحامية وتسلط المماليك على البلاد .

فلقد نمت قوة العسكر والمماليك ، وضاعت هيبة الوالى العثمانى ، فكان اقصى ما يستطيعه هو أن يوقع ما يقدم اليه من أوراق . واصبح عزله رهن تحرك الزعامات العسكرية ضده . وقدم لنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى صورة حية لمثل هذه الأحداث :

اجتمع العساكر بمنزل قائمقام بالأسلحة وآلات الحرب .. واحاطوا بالقلعة.. وضربوا مدافع على الباشا ورموا بنادق ، فنصب الباشا بيرقا ابيض يطلب الأمان ، وفر من كان داخل القلعة من العسكر ، فبعضهم نزل بالحبال من السور ، وبعضهم خرج من باب المطبخ ، فعند ذلك هجمت العساكر الخارجية ونقيب الاشراف والقاضى يأخذان له أمانا من الصناجق والعسكر ، فتلقوهما واكرموهما وسألوهما عن مقصدهما فقالا لهم :

ان الباشا يقرئكم السلام ويقول لكم انا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين ، وقد فروا . والمراد أن تعلمونا بمطلوبكم فلا نخالفكم . فقالوا لهما :

« اعلموا أن الصناجق والأمراء والاغوات والعسكر قد اتفقوا على عزله ، وان فانسوه بيك قائمقام (١) وأما الباشا فانه ينزل ويسكن فى المدينة الى ان نعرض الأمر على الدولة ويأتينا جوابهم » فأرسل القاضى نائبه الى الباشا يعرفه عن ذلك فاجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله واتباعه ، وركب من ساعته فى خواصه ونزل من باب الميدان وشق من (الرميلة) الى الصليبة والعامة قد اصطفت يشافهونه بالسب واللعن الى ان دخل بيت على اغا الخازندار . وهجم العسكر على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا بعض اسباب حسين اغا مستحفظان .

وخرج حسين اغا من باب المطبخ ، فلما رآه يوسف بك اشار الى العسكر فقطعوه ، وقطعوا اسماعيل افندى بالمحجر .. (اما) ذو الفقار (فقد) وقع فى عرض بلديه على خازندار وحسن كتخدا الجلفى فحماه من القتل » .

تلك صورة من الصور المتكررة لعزل وال وتنصيب قائمقام حتى يأتى الوالى الجديد الذى لا حول له ولا قوة ، ويلتف حول هذا الوالى نوع من المرتزقة ، يتركون اماكنهم بطريقة او باخرى لأمثال لهم التفوا حول الوالى الجديد . وهى عملية انتقال مليئة بالقتل والنهب والفزع من الاضطراب .

ومن الأمور التى ساعدت على استمرار هذه الأوضاع لفترة طويلة أن مصر لم تتعرض لهزة قوية تقدح الأذهان وتجعلها قادرة على اعادة النظر فى امورها . حقيقة قام على بك الكبير فى ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر بمحاولة لاخراج

---

(١) اى يتولى الباشوية لحين تولية وال جديد .

مصر من عزلتها ولكن عندما سعى الى ضم الشام لم يفكر فى رفع مستوى شعب مصر الى مستوى هذه المسئولية التى قصرها على القوات المملوكية ، وبعد ان انهارت محاولة على بك الكبير فى سنة ١٧٧٢ م — بسبب قصور النظام المملوكى نفسه — عادت الأمور الى ما كانت عليه قبله من حيث تسلط الاوليجركية المملوكية على البلاد ممثلة فى محمد أبو الذهب ثم مراد بك وابراهيم وهما اللذان كانا يحكمان مصر حكما ثنائيا عندما نزلت الحملة الاستعمارية الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت الى أرض مصر فى صيف ١٧٩٨ / ١٢١٣ هـ .

كانت الأوليجركية المملوكية متناحرة فيما بينها ، منقسمة الى قسمين متقاتلين : فقارية وقاسمية ، وكثيرا ما وقع القتال بين المماليك وانتشرت الفوضى فى البلاد بسبب ذلك . وكانت النكبات تحل بالبلاد نتيجة لما وقع من صراع بين الزعامات المملوكية .

كانت للمدن مكانتها وخاصة القاهرة والاسكندرية وطنطا وأسيوط ، وكانت القاهرة — عاصمة ولاية مصر — تضم الجهاز الحاكم والادارى والمركزى المتميز المتمتع بكثير من الميزات والحياة الرغدة نسبيا ، والقوات العثمانية والعسكرية الأخرى تعيش على ما تحصل عليه من أموال من الريف . وتضم القاهرة الصناعات الحرفية المحدودة ولكن كانت تضم — ومثلها فى ذلك كبريات المدن الاخرى — جماعات من التجار والملتزمين الذين كانوا أحسن حالا بكثير من الفلاحين ، وجماعات العلماء الذين عاشوا كذلك حياة أكثر سعادة من حياة أهل الريف .

ولكن هذه الطوائف لم تكن تفكر فى الوصول الى الحكم ونعنى بذلك رجال الدين وطوائف الحرف والتجار والملتزمين . وسنتكلم عن رجال الدين فيما بعد ، أما طوائف الحرف فكانوا يعيشون كل فى حى خاص بهم ، ولكل طائفة شيخها الذى يعتبر مسئولا عن أفراد طائفته وتطبيق العرف المتبع بينها . وكانت الطائفة ذات تقاليد محترمة ، فهناك (المعلم) الذى يكون مسئولا عن « العمال » والصبية الذين يعملون معه فى دكانه ، وكان الترقى من « صبى » الى « عامل » ومن « عامل » الى « معلم » لا يتم عشوائيا ، وانما بعد اختبار المقدرة الفنية حتى لا تتدهور الحرفة وتقل جودة الانتاج . وغالبا ما كان « العامل » يتزوج ابنة « المعلم » وهكذا كانت العلاقات داخل الحرفة أبوية فى العمل وأبوية فى الحياة الاجتماعية .

وكانت هناك معايير تحمى الصبى من قسوة (المعلم) سواء أكانت القسوة بدنية أو مادية ، كأن يدفع للصبى أجرا ضئيلا ، أو ينهال عليه ضربا مبرحا .

ولكن من ناحية اخرى كان (المعلم) يشارك العمال والصبية افراحهم والمناسبات والاجتماعية وكان يرعاهم اذا مرضوا .

لقد كان ذلك نوعا من التكافل الاجتماعى بين صاحب العمل والعمال ، وكان له دور هام فى غياب المسئولية الاجتماعية الحكومية .

كانت الادارة العثمانية ثم المملوكية تعامل المصرى معاملة غير كريمة ، ولعل فترة الحكم العثمانى ـ المملوكى تعتبر أسوأ فترات بالنسبة للشعب المصرى وان كانت الأحكام المقارنة هذه يعوزها كثير من الدقة ولعل قرب العهد بالحكم العثمانى المملوكى ؛ ولأنه تدهور وقامت على أنقاضه دولة مصر الحديثة كان من العوامل التى جعلت الأمثلة عن سوء معاملة الادارة للشعب مرصودة فى المصادر باقية فى الأذهان .

وقد عبر احد المؤرخين عما كان يقترفه رجال الادارة من صنوف القسوة والمباذل وخاصة من جانب المماليك والكشاف ومن معهم من الجند . بقوله انه كان يصدر منهم : « من الأمور الشنيعة والأفعال المنكرة الفظيعة من الزنا واللواط جهارا وافتضاض الابكار نهارا .. وصارت لهم اسمطة واطعمة غالية المقدار تحمل الى خيامهم اثناء الليل وأطراف النهار ، وتهديد الكشاف بما فيه القتل ان قصروا عن ذلك ، بل ويسلكون بهم أسوأ المسالك ، وصار المسلمون معهم فى أمر مريع ليس لهم منه خلاص .. صار أرزل الجند واقلهم مقلدا بالسيوف المسقطية والسروج بالذهب المنقطعة ، .. والمرد الجميلة المزينة بأنواع الزينة المكملة ، راكبين خلفهم اجود الخيول ، فى لهو ومرح لا يزول .. مع الفسق بنساء الفلاحين وافتضاض ابكار بنات المسلمين وغير ذلك من القبايح المنكرة » .

كانت ضريبة الميرى (الأموال الاميرية المقررة على الأرض الزراعية) تتزايد قيمتها سنة بعد اخرى ، وحدثنا احد رجالات القرن الثامن عشر عن وقع هذه الضريبة على الفلاح بقوله :

« فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة ، او يأخذ على زراعة الى اوان طلوعه بناقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو يبيع بهيمته التى تحلب على عياله او يأخذ مصاغ زوجته .. ولو قهرا عليها ويدفع الثمن للنصرانى (الصراف) او لمن هو متولى قبض المال وان لم يجد شيئا ولا يرى من يعطيه وخشى الملتزم أو المشد من

قرآره من البلد اخذ ولده رهينة حتى يغلق (١) المال .. ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليلة ، فلا يعود الى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه » .

وهذا يفسر لنا المثل الذى كان شائعا حين ذاك « مال السلطان خرج من بين الظفر واللحم » .

ومن أشد الضرائب قسوة على الفلاح تلك التى كانت لا تتمتع بالشرعية ، وكانت من وضع وفرض المسئولين فى الادارة ، ونخص بالذكر ، « ضريبة الفرد » ، وكانت الفردة ثقيلة جدا على كاهل الفلاح واصبحت ظلما مرعبا حتى صارت مثلا الى وقتنا هذا ، وهذه الفردة لم تصب الفلاح فقط بل اصابت بشدة كذلك « الملتزم » (٢) .

هذا الى جانب اخذ البلص ... وطلب الكلف الخارجة عن المعقول ، وكان لا يفوق « نزلة الصراف » سوى « نزلة الكاشف » .

وكان الكاشف مسئولا عن وحدة ادارية واسعة فى مصر ، وكان يتولى ادارتها ، وكان يحصل فى مقابل ذلك على أموال تفرض على الأرياف (٣) .

لقد كانت الضرائب المربوطة على الفلاحين لصالح كاشف الاقليم مرهقة ، وكان اذا ما نزل الكاشف قرية ارتجت واضطربت لما كان يصحبه من جند ، ولما كان يطلبه من مواد غذائية وهدايا (٤) .

ومن الضرائب التى لا سند لها اطلاقا ضريبة (حق الطريق) . وكان يستوفيها من يبعثه الملتزم للتحقيق فى شكوى تقدم بها فلاح ضد آخر . وفى حالة عدم دفع المشكو فى حقه هذه الضريبة ربما تعرض لدفع اضعاف ما كان سيدفعه فى أول الأمر (٥) .

---

(١) أى يقوم بتسوية حساباته .
(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٢ ، ص ١٥٤ حوادث ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ .
(٣) يوسف الشربينى : هز القحوف ، جـ ١ ، ص ٦ ، د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٩ .
(٤) محمد أبو السرور البكرى المنح الرحمانية ، نقلا عن د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى ، ص ٥٧ .
(٥) الجبرتى : عجائب الآثار ، ٢٢١ — ٢٢٢ .

كان الفلاح يقوم على زراعة ارضه ، وقليل منهم كان يملك أرضه ملكا ، ومعظم الريف كان موزعا على نظام الالتزام ، وهو نظام قام على أساس التزام الملتزم دفع الضرائب للحكومة ويقوم هو بجبايتها ، كما كان يحصل على قطعة أرض (الوسية) يعمل فيها الفلاح دون أجر . وأما ما عرف (بالعونة) فهو تسخير الفلاح فى ارض الملتزم . وبذلك يكون الفلاح مسخرا للعمل لدية ومسخرا للعمل فيما تكلفه به الحكومة من مراقبة فيضان النيل وحماية الجسور ، وتطهير القنوات وتوسيعها وغير ذلك من الاعمال العامة التى فضلت الحكومة أن يكون دورها فى تنفيذها قاصرا على التوجيه دون أن تكلف نفسها اعباء مالية تذكر .

والالتزام — عندما استقر كنظام — هو تحمل احد اصحاب رؤوس الأموال مسئولية دفع الضرائب الاميرية مقدما عن منطقة التزامه وقد يضم الالتزام قرية بزمامها أو اكثر من قرية ، وكانت القرية تنقسم الى « ٢٤ قيراطا قد يصل القيراط الى عشرات الأفدنة » (١) وحيث ان الملتزم كان لا يقيم طويلا فى التزامه كان له « قائمقام » غالبا ما كان من الفلاحين من أصحاب الاملاك و « مباشر » يسجل حسابات الفلاحين و « الخولى » المسئول عن ادارة « الوسية » .

كان الملتزم بصفة عامة لا يعنى عادة الا بجمع الأموال ، ومن هنا كانت صورته كئيبة ، وكانت له مجموعة من المسئولين الذين يعينونه على ذلك . ومن ابرز هؤلاء : مشايخ القرى والصراف والمشد والخفراء وكانوا يتصفون بالقسوة البشعة .

واذا كانت صورة الملتزم غالبا بغيضة فان صورة الصراف كانت اشد بغضا ، وكثرة من الصرافين كانوا من النصارى لمهارتهم فى علم الحساب ، وكانت أساليب القسوة بالفلاح وأخذ الرشوة منه وابتزازه والاختلاس مضرب الامثال حتى لقد اصبحت « نزلة الصراف » مثلا شائعا ، لأنها كانت كنزول البلاء .

وعن حالة الفلاحين تحت نظام الالتزام قال المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » :

« .. كانوا مع الملتزمين اقل من العبد المشترى ، فربما كان العبد يهرب من سيده أن كلفه فوق طاقته أو اهانه أو ضربه ، أما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به

---

(١) ابراهيم المويلحى : الأرض والفلاح فى العصر العثمانى ، محاضرة ألقيت فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى ١٩٧١/١/١٨ ونشرت فى كتاب « الأرض والفلاح فى مصر عبر العصور ، ص ٢٣٦ » .

ان يترك وطنه واولاده وعياله ويهرب . واذا هرب الى بلد اخرى واستعلم استاذه مكانه احضره قهرا وزاده ذلا ومقتا واهانة » .

وكان اذا تخلف فلاح عن تقديم خدماته ومسئولياته نحو الملتزم أصيب بالويلات على النحو التالى :

« .. فمن تخلف لعذر ، احضره الغفير ... وسحبه من شنبة واشبعه سبا وشتما وضربا » (١) .

هذا خلاف ما يلقونه من الاذلال والتحكم من مشايخهم والشاهد والنصرانى والصراف والعمدة والعهدة خصوصا عند قبض المال يغالطهم ويناكرهم وهم له أطوع من استاذهم وأمره نافذ فيهم فيأمر قائمقام بحبس من شاء أو ضربه محتجا عليهم ببواقى لا يدفعها (٢) .

ويصور لنا عبد الرحمن الجبرتى حال الفلاحين بعد أن ينصرف عنهم الملتزمون والكشاف والصرافون وغيرهم من أتى ديارهم ليجمع أموالهم فى عهد المماليك (فيقول) :

« ان من عادة الفلاحين وأهل القرى اذا انقضت ايام الحصاد والدرارى وشطبوا ما عليهم من مال الخراج لملتزميهم ويكون ذلك فى بادىء زيادة النيل ، وارتفع عنهم الطلب ، وانحلت كشاف النواحى وقائمقام الملتزمين والصيارف والمعينون ، وقلت النواحى منهم .. فعند ذلك ترتاح ملبوساتهم ويزوجون بناتهم ويختنون صبيانهم ، ويشيدون بنيانهم ويصلحون جسورهم وحبوسهم » .

وللجبرتى رأى خطير فيما رسبته تلك المعاملات القاسية التى تعرض لها الفلاح ، فيقول :

« واذا التزم بهم (ملتزم) ذو رحمة ، ازدروه فى أعينهم واستهانوا به وبخدمه ، وماطلوا وسموه بأسماء النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم ، ولينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم

---

(١) الجبرتى : عجائب ج ٤ ، ص ٢٢١ .
(٢) الجبرتى : ج ٤ ، ص ٢٢١ .

وكذلك اشياخهم اذا لم يكن الملتزم ظالما يتمسكنون هم ايضا من ظلم فلاحيهم وربما وزعوا خراج اطياتهم وزراعاتهم على الفلاحين » .

هكذا بينما كانت الأرض هى مصدر ثراء المماليك كان الفلاح يحصل على النزر اليسير ويذهب عنه غالبية ما ينتجه نتيجة لضريبة الميرى التى ترسل الى السلطان وضريبة الكشوفية التى تذهب الى جيب المملوك المسئول عن الكشوفية (المديرية) وفائض الالتزام الذى يذهب الى جيب الملتزم .

تنبه الملتزمون والحكام الى جوهر المشكلة وهى أن ظلم الفلاح وابتزاز امواله قد يؤدى الى دخل مؤقت مناسب للحكومة والملتزم ، ولكن الى حين ، وانه لابد من اعادة النظر فى اسلوب التعامل مع الفلاح بما يضمن استمراره فى القيام بعملة دون أن يفكر فى الفرار من أرضه وقريته . فكان طبيعيا أن يكون اول خطوة فى هذا الصدد هى تخليصه من الضرائب غير الشرعية وغير القانونية ، وكانت هذه الضرائب كثيرة حقا ، وهى المسئولة الأولى من ارهاق الفلاح ولذلك نلاحظ أن عددا من الملتزمين اكتفوا بجمع ضريبة « الميرى » و « فائض الالتزام » دون غيرها . وفى هذا يحدثنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى عن أحد الملتزمين الذين التزموا جانب العدل فى معاملة الفلاحين (١) .

وادى ذلك الى ان اصبح نظام « الالتزام » و « الملتزم » فى موقف دقيق حيث تهدد الملتزم بخسائر مادية شديدة تجعله غير قادر على تغطية ما سبق ان دفعه للحكومة ، هذا فضلا من التزامه أمام الحكومة عن استمرار الانتاج بمعدلاته المعتمدة فى الدفاتر .

ويسجل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى صورة من صور التعديات على الفلاح فيقول :

« وقف الارنؤدى لخطف (البضائع) من الفلاحين ، فكانوا يأتون بذلك فى أواخر الليل وقت الغفلة ويبيعونه باعلى الاثمان ... الأرنؤود .. وقع منهم القتل فى كثر من الناس ، حتى فى بعضهم البعض ... اباحية أسهل

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٢ ، حوادث ١٢٠٥ هـ — ١٧٩٠ م ، ص ٢١٣ .

ما عليهم قتل النفس واخذ مال الغير وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم وهم اخبث منهم ، فقطع الله دابر الجميع » (١) .

ونظرا لغياب القيادة التي تتولى الدفاع عن مصالح الفلاح وحقوقه وعدم قدرة الفلاحين على تكوين رادع ضد القوى الضاغطة عليه المضطهدة له عاد الى الاسلوب التقليدى السلبى فى مقاومة الظلم ، وهو الفرار من القرية . وفعلا ، وبتوالى السنين ، تحولت مجموعة غير قليلة من القرى الى خراب وتوقفت فى زمامها الاعمال الزراعية .

وكان نهب المصرى يتم على كافة المستويات حتى من كانوا فى أعلى المناصب . ويكشف الجبرتى لنا ذلك فى رواية عن حادثة وقعت لأحد كبار المماليك وهو حسين بك .

فقد هاجم — حسين بك — حى الحسينية (١٧٨٦ م) ونهبته دون وجه حق على الاطلاق ، فقرر الشيخ الدرديز ان يعامل المماليك بنفس المعاملة وقال للأهالى الذين وفدوا عليه :

« فى الغد نجمع اهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة واركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » .

فاضطرب المماليك وعملوا على تسوية الموضوع واستدعى ابراهيم بك الى مجلسه حسين بك هذا وعنفه على فعلته ، فما كان من حسين بك الا ان رد عليه :

« كلنا نهابون ، وانت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وانا انهب كذلك ؟ » .

وانه لمن اشد صور التدهور الأخلاقى ما صوره لنا الجبرتى عن حادثة انفجار (البارود) فجاة فى حانوت فى السوق فقد تهدمت الدور والمحلات على من فيها . فجاء (الوالى) و (المحتسب) برجالهم لانقاذ

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٣ ص ١١٦ (١٢١٤ هـ — ١٨٠٠ م)
(م ١١ — تاريخ مصر الاجتماعى)

من لا يزال حيا واستخرج الجثث . ولكن تحولت المسالة الى نهب واستيلاء على ما يعثرون عليه . وفى ذلك يقول الجبرتى :

« .. اخذوا ما فى داخل الحوانيت .. حتى الحوانيت التى لم يصبها الهدم فتحوها واخذوا ما فيها /واصحابها ينظرون ، ومن طلب شيئا من متاعه يقال له : هو عندنا حتى تثبته ... وقيامه قايمة ومن يقرأ ومن يسمع ... ووقفت أتباعهم بالنبابيت من كل جهة يطردون الناس ولا يمكنون أحدا من اخذ شىء .. أما القتلى .. ان كانت امراة جردوها ، واخذوا حليها ومصاغها ... ثم لا يمكنون أقاربهم من أخذهم الا بدراهم يأخذونها ، وكأنما فتح لهم باب الغنيمة على حد قول الشاعر (مصائب قوم عند قوم فوائد) ».

ومن النكبات التى تعرض لها الفلاح تسلط العربان على كثير من الأرياف بسبب ضعف القوة العسكرية والمركزية واستخدام الحكومة للعربان كقوة عسكرية مساعدة وفى هذا يقول الجبرتى :

« وقفت العرب وقطاع الطريق بجميع الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والدقهلية وسائر النواحى ... وتسلطوا على القرى والفلاحين .. بالعرى والخطف .. وافساد المزارع ورعيها حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج ببهائمهم الى خارج القرية للرعى أو للسقى لترنص العرب لذلك ووثب أهل القرى على بعضهم بالضرب .. وضربوا (أى العرب) على (الفلاحين) الضرائب وطمعت الصورة فى البلاد وطالبوهم بالثارات والعوائد القديمة الكاذبة ، وآن وقت الحصاد فاضطر (الفلاحون) لمساعدتهم (١) .

كانت مظالم الحكام تتكاتف مع نوازل الطبيعة ضد الفلاح فتزيد من بؤس حاله . فقد كان انخفاض الفيضان يرغم الفلاحين على الفرار من القرى بحثا عما يسد أودهم ويصور لنا الجبرتى باسلوب مؤثر واحدة من تلك النكبات التى وقعت بالفلاح فى عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م : (٢) .

---

(١) عجائب الآثار ، ص ٨٨ — ٨٩ (١١٩٨ هـ / ١٧٨٤ م) .
(٢) أى الإدارة والملتزمون .

ومع ان عبد الرحمن الجبرتى لم يكن من أكثر المراقبين للاحوال الاجتماعية فى مصر قدرة على تحديد مشكلات الفلاح الا انه استطاع أن يبين من اين تأتى الى الفلاح المظالم مبديا فى نفس الوقت بأسلوب العصر المه وتعجبه من هذه الأحوال فيقول بصدد خراب اقليم القليوبية فى ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م :

« لم يبق به الا خمسة وعشرون قرية فيها بعض سكان والباقى خراب وليس فيها ديار ولا نافخ نار » .

وقعت كذلك الشدائد بمصر بشكل متوال ، فيضانات مغرقة وقحط وجفاف وانخفاض النيل وطاعون وامراض وكوليرا ، كانت تنقض على المدن والأرياف . وكانت تفنى بيوتا بأسرها .. وخاصة بيوت المماليك الذين كانوا لا يتحملون مثل تلك الأوبئة فى مناخ غير بيئتهم الأولى التى ولدوا فيها .

وفى ذلك يقول الجبرتى عن مجاعة من تلك المجاعات وقعت فى عام ١٧٨٤ فصور تلك المجاعة مثلما صور تدهور المجتمع المصرى حينذاك فيقول :

« انقضت هذه السنة ، كالتى قبلها ، فى الشدة والغلاء ، وقصور النيل ، والفتن المستمرة ، وتواتر المصادمات والمظالم من الأمراء ، وانتشار اتباعهم فى النواحى لجبى الأموال من القرى والبلدان واحداث أنواع المظالم ... ودفع المظالم والفردة .. حتى اهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم ، واشتد كربهم ، وطفشوا من بلادهم .. احتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم .. (وتتبع أصحاب السلطة) (١) من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب اضعاف ما يقدر عليه ، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة ، ولما تحقق التجار عدم الرد استعوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار .. ثم مدوا (١) أيديهم الى المواريث .. فاذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أولا .

وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه فى كل شهر .. ولا يعارض فيما يفعل فى الجزئيات وأما الكليات فيختص بها الأمير .

---

(١) الادارة .

فحل بالناس مالا يوصف من انواع البلاء الا من تداركه الله برحمته ، او اختلس شيئا من حقه ، فان اشتهروا عليه عوقب على استخراجه وفسدت النيات وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض .. فيتتبع الشخص عورات اخيه ، ويدلى به الى المظالم .. حتى خرب الاقليم ، وانقطعت الطرق — وعربدت اولاد الحرام ، وفقد الأمن ومنعت السبل الا بالخفارة ..

وجلا الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم ، وانتشروا فى المدينة بنسائهم واولادهم يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره .. فلا يجد الزبال شيئا يكنسه .. واشتد بهم الحال حتى اكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال ، فاذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه واخذوه ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع . ومات الكثير من الفقراء بالجوع .. وقل التعامل الا فيما يؤكل .. وصار الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل ..

وعن فتك الطاعون بالناس حدثنا الجبرتى :

« زاد أمر الطاعون ، وقوى عمله بطول شهرى رجب وشعبان ، وخرج عن حد الكثرة ، ومات به ما لا يحصى من الأطفال ، والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشاف والأمراء ، ومن الأمراء الألوف ، والصناجق نحو اثنى عشر صنجقا .. وعسكر القليونجية (١) والارنؤود .. حتى كانوا يحفرون حفرا لهم بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها ، وكان يخرج من بيت الأمير فى المشهد (٢) الواحد الخمسة والستة والعشرة ، وازدحموا على الحوانيت فى طلب العدد والمغسلين والحمالين ، ويقف فى انتظار المغسل او المغسلة الخمسة والعشرة ، يتضاربون على ذلك ، ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الا مريضا أو ميتا او عائدا او معزيا او مشيعا او راجعا من صلاة جنازة او دفن او مشغولا فى تجهيز ميت و باكيا على نفسه موهوما ، ولا تبطل صلاة الجنائز من المساجد والمصليات ، ولا يصلى الا على اربعة أو خمسة او ثلاثة . وندر جدا من يشتكى ولا يموت » .

فى خضم هذا التدهور الشديد فى اوضاع المصرى ، كان هناك نفر

---

(١) رجال البحرية .
(٢) الجنازة .

قليل جدا من الفلاحين استطاع أن يشق طريقه وأن يصل الى مرتبة موازية لمرتبة الأمراء المماليك ليعيش من بعد على نسقهم .

وقد قدم لنا عبد الرحمن الجبرتي صورة لهذا (الحدث) النادر في زمانه ، وهي ليست مجرد صورة وانما هي — من وجهة نظري — تحفة من التحف التي يقدمها لنا المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتي . حدثنا هذا المؤرخ عن هذه النادرة من « نوادر الزمن » فيقول « الحاج صالح الفلاح .. وهو أستاذ الأمراء المعروفين بمصر المشهورين بجماعة الفلاح .. كان متمولا ذا ثروة عظيمة وأصله غلام يتيم فلاح من قرية من قرى المنوفية .. يقال لها الراهب ، كان خادما لبعض أولاد شيخ البلد فانكسر عليه المال فرهن ولده عند الملتزم .. حتى غلق أبوه ما عليه من المال ... وكان نبيها خفيف الروح والحركة ولم يزل يتنقل في الأطوار حتى صار من أرباب الأموال واشترى المماليك والعبيد والجواري ويزوجهم من بعضهم ويشتري لهم الدور ... ويدخلهم في الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لأرباب الحل والعقد والمتكلمين وتنقلوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة ، واختيارية وأمراء طبلخانات وجاويشية أوده باشيه وغير ذلك حتى صار من مماليكه ومماليكهم .. شهرة عظيمة بمصر وكلمة نافذة وعزوة كبيرة ... » (١) .

وفي خضم المآسي التي كان يعاني منها الفلاحون ، كانت هناك فترات في العهد المملوكي العثماني يشع فيها وميض الفرحة والسرور ، فرحة يشارك فيها الجميع بدرجات متفاوتة . فمع أن الأفراح كانت أفراح الحكام والأعيان والأثرياء ، الا أن الشعب الفقير الكادح كان يفرج بها عن نفسه وعما كان يعانيه من شظف العيش ، ويصور لنا عبد الرحمن الجبرتي عرسا مملوكيا جاءه الشعب من مختلف أجزاء البلاد القريبة من القاهرة ، وقد اقيم هذا الحفل في منطقة بركة الفيل وكانت من أهم مناطق القاهرة حينذاك فيقول :

« فعملوا على معظم البركة أخشابا مركبة على وجه الماء يمشي عليها الناس للفرجة ، واجتمع بها أرباب الملاهي والملاعب وبهلوان الخيل وغيره

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، (١١٢٥ هـ / ١٧١١ م) .

من سائر الأصناف والفرج ، والمتفرجون والبياعون من سائر الأصناف والأنواع ، وعلقوا القناديل والوقدات على جميع البيوت المحيطة بالبركة — وغالبها سكن الأمراء والأعيان ، وفي كل بيت (من بيوت المماليك) ولائم وعزائم وضيافات وسماعات وآلات .. واستمر هذا الفرح .. مدة شهر كامل والبلد مفتوحة والناس تفد ليلا ونهارا للحظ والفرجة من جميع النواحي « .. وردت الهدايا والصلات (الى على بك الكبير) من اخوانه الأمراء والأعيان والاختيارية والوجاقلية والتجار والمباشرين والاقباط والافرنج والأروام واليهود والمدينة عامرة وحضرت مشايخ البلدان واكابر العربان ومقادم البنادر بالهدايا والأغنام والجواميس والسمن والعسل .. » (١)

كان وفاء النيل والاحتفال بكسر الخليج وتدفق مياه النيل فيه احتفالا عاما . ولكن اتخذ في عهد الفوضى في عام ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م شكلا آخر فيقول الجبرتي :

« .. اوفى النيل المبارك سبعة عشر ذراعا وكسر سد الخليج في صبح يوم السبت بحضرة الباشا والقاضي ومحمد على وباقي كبار العسكر وكان جمعا مهولا وضرب الجميع بنادقهم وجرى الماء بالخير ، وركبوا القوارب والمراكب ودخلوا فيه وهم يضربون بالبنادق وكذلك من كان منهم بالبيوت وكان الموسم خاصا بهم دون أولاد البلد ... وكذلك سكنوا بيوت الخليج مع (الساقطات) من النساء » .

وفي هذا الاحتفال قتل عدد ليس بالقليل من الناس برصاصات طائشة . وكان من يسقط صريعا لا يسلم الى ذويه الا بعد أن يدفعوا مبلغا من المال .

ومن وقت لآخر كانت تقع في مثل هذه الأعياد والاحتفالات مباذل ومهازل فريدة . ومن ذلك ما صوره لنا عبد الرحمن الجبرتي عما حدث في أحد اعياد شم النسيم .

فعيد شم النسيم يعتبر واحدا من الأعياد الشعبية التي يحتفل بها المسلمون والاقباط على حد سواء ، ومن ثم فهو اقرب ما يكون الى العيد

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ، ج ١ ص ٧١ .

(التـــومى) . وكان يخـــرج فيـــه النـــاس ـ عـــلى مختلف مســـتوياتهم ـ الى الحدائق والحقول ومعهم أطعمتهم ، ويقضون يوما جميـــلا فى يوم ربيـــع . ولكن مثل هذه الأعياد ومثل هذا الاســـتمتاع بالطبيعة وخاصة بواســـطة الســـيدات والفتيـــات كان يثير الرجـــال لتصـــاعد الرغبـــة فى الاســـتمتاع بهن دون القدرة على الوصـــول اليهن ، فينقلب هؤلاء الى معتـــدين ، ويتحول شـــم النســـيم الى يوم نكد وانتهـــاك الحـــرمات .

وقد صور لنـــا المؤرخ الجبرتى احـــدى هذه الحوادث المؤســـفة التى وقعت خلال (شـــم النســـيم) عام ١٧٣٢ م .

يقـــول عبد الرحمـــن الجبـــرتى فى حـــوادث عـــام ١١٣٥ هـ ـ « فى أول الخماســـين طلع الناس على جرى العـــادة فى ذلك ، لاستنشـــاق النســـيم فى نواحى الخـــلاء ، وخرج سرب من النســـاء الى ناحيـــة الأزبكية ، وذهب منهـــن طائفـــة الى غيط الأعجـــام تجـــاه قنطـــرة الدكـــة ... فحضر اليهـــن جمـــاعة سراجون (١) وبأيديهم الســـيوف من جهة الخليج ـ وهم بســـكارى ـ وهجمـــوا عليهن واخـــذوا ثيابهن ، وما عليهن من الحلى والحلل .. وجميـــع من كان هناك من النســـاء الأكابر ، ومن جملة ما ضـــاع حـــزام جوهـــر ، وبشـــت جوهر ، قالوا أن الحزام قيمته تسعة أكياس (٢) والبشـــت خمســـة أكياس . ومن جملـــة من كان هناك آمنـــة الجنكية ، فعروها ، وأخـــذوا ما عليهـــا ، وكان لهـــا ولد صغير ، وعلى رأســـه طاقية عليهـــا جواهر وبنادقـــة وزوج أســـاور جوهـــر وخلخـــال ذهب بنـــدقى (٣) قـــديم وأربعمـــائة مثقـــال . ومن جملة ما أخـــذوا لباس شـــبيكة من الحرير الأصفر ، وفى كل عين من الشـــبيكة لؤلؤة فى كل لؤلؤة شريط مخيش ، والدكـــة كذلك ، وأخـــذوا أزرهن ودرجيـــاتهن ، وأرســـلن الى بيوتهـــن فأتين بثيـــاب يســـتترن بها ، وذهبن .. وكانت هـــذه الحـــادثة مـــن أشـــنع الحوادث » .

---

(١) حرفيـــو السروج .

(٢) الكيس كان يســـاوى ٥٠٠ قرش ، وكان للقرش قوة شرائيـــة بالقيـــاس الى قيمته التافهة الحالية حتى أنه يمكن القول أن القرش حينـــذاك يعادل عشرة جنيهـــات حاليـــة .

(٣) نســـبة الى البندقية .

ان هذه الصورة التى قدمها لنا عبد الرحمن الجبرتى تكشف لنا عن جوانب هامة :

١ — ذلك الثراء الفاحش الذى كانت عليه بعض المخدرات حتى كان ما تحمله أو يحمله احد الأولاد يعتبر ثروة طائلة ، والواقع أن احد أساليب تجميع المدخرات كان شراء مثل هذه الملابس الغالية الثمن المرصعة .

٢ — أن من « المشغولات » كان متقدما حينذاك وأن أنواعا معينة من الملابس كانت ذات قيمة عالية جدا .

٣ — ان النساء كن يخرجن الى المتنزهات دون الرجال ويبدو أن ذلك كان من الأمور المتفق عليها عرفيا حتى لا تفرض القيود على التجمعات النسائية فى الحقول والمتنزهات العامة .

على أن ما حدث فى ذلك اليوم من هجوم دبره السكارى ، ليس بمختلف عما حدث فى مثل هذه الأعياد فى وقتنا هذا وخاصة فى الحقول والمتنزهات العامة . ولكن خروج الأسرات بكاملها بعضها مع بعض فى الاحتفالات والأعياد الآن قلل الى حد كبير من وقوع مثل تلك الأحداث « الشنيعة » .

لقد كانت الخرافات تملأ المجتمع المصرى ، وليس بوسعنا أن نسجل مظاهر ذلك بالتفصيل ولكن نسوق مثلا أو مثلين عن الشعوذة فى الدين . ومن انتشار بعض الأفكار والخرافات بشكل سريع فى المجتمع دون تمحيص أو مناقشة .

ومن أبرز الأمثلة التى تكشف عن الاستعداد الكبير لدى الشعب للاستهواء وتقبل بعض الأفكار غير الواقعية سريان اشاعة عن أن القيامة ستقوم يوم (جمعة) حددوه فيقول الجبرتى :

« اشيع فى الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرين الحجة ، ومشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والريف ، وودع الناس بعضهم بعضا ، ويقول الانسان لرفيقه ، بقى من عمرنا يومان ، وخرج الكثير من الناس والمخاليع الى الغيطان والمتنزهات ، ويقول بعضهم لبعض : دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة . وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا ، وصاروا يغتسلون فى البحر ، ومن الناس

من علاه الحزن وداخله الوهم ، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ، ويدعو ويبتهل ويصلى ، واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه فى نفوسهم ومن قال لهم خلاف ذلك أو قال هذا كذب لا يلتفتون لقوله ، ويقولون هذا صحيح ، وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى ، وهما يعرفان فى الجفور وفى الزايرجات ولا يكذبان فى شىء يقولانه .. ومضى يوم الجمعة واصبح يوم السبت فانتقلوا يقولون : فلان العالم قال ان سيدى احمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر ، اللهم انفعنا بهم فاننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حظ ، ونحو ذلك من الهذيانات » .

ومن امثلة الخرافات التى ذكرها الجبرتى عن المجاذيب :

« تعلقت (امراة) برجل من المجاذيب يقال له الشيخ البكرى ، مشهور ومعتقد عند العوام . وهو رجل طويل حليق اللحية يمشى عريان ، واحيانا يلبس قميصا وطاقية ويمشى حافيا .. فصارت هذه المراة تمشى خلفه اينما توجه ، وهى بازارها ، وتخلط فى الفاظها ، وتدخل معه الى البيوت وتطلع الحريمات . واعتقدها الناس وهادوها بالدراهم والملابس واشاعوا ان الشيخ لحظها وجذبها وصارت من الأولياء ، ثم ارتقت فى درجات الجذب وثقلت عليها (الشربة) ، فكشفت وجهها ولبست ملابس كالرجال ، ولازمته اينما توجه ، ويتبعها الأطفال والصغار ، وهوام العوام . ومنهم من اقتدى بها أيضا ، ونزع ثيابه وتحنجل فى مشيته وقالوا انه اعترض على الشيخ والمراة فجذبه الشيخ ايضا ، أو أن الشيخ لمسه فصار من الأولياء . وزاد الحال ، وكثر خلفهم أوباش الناس والصغار وصاروا يخطفون أشياء من الأسواق ، ويصير لهم فى مرورهم ضجة عظيمة . واذا جلس الشيخ فى مكان وقف الجميع ، وازدحم الناس للفرجة عليه ، وتصعد المراة على دكان أو علوة ، وتتكلم بفاحش القول ، ساعة بالعربى ومرة بالتركى .. والناس تنصت لها . ويقبلون يدها ، ويتبركون بها ، وبعضهم يضحك ، ومنهم من يقول : دستور يا أسيادى ... وبعضهم يقول لا تعترض بشىء ... فمر الشيخ فى بعض الأوقات — على مثل هذه الصورة والضجة — ودخلوا من باب بيت القاضى الذى من ناحية بين القصرين ، وبتلك العطفة سكن احد الأجناد يقال له جعفر كاشف ، فقبض على الشيخ ، وادخله الى داره ، ومعه المراة وباقى

المجاذيب فاجلسه واحضر له شيئا يأكله وطرد الناس عنه ، وادخل المراة والمجاذيب فضربهم ،وعزرهم ، ثم أرسل المراة الى المارستان وربطها عند المجانين واطلق باقى المجاذيب بعد أن استغاثوا وتابوا ولبسوا ثيابهم .. ودارت الشربة من رؤوسهم .. واستمرت المراة محبوسة بالمارستان حتى حدثت الحوادث فخرجت وصارت شيخة على انفرادها ويعتقدها الناس والنساء ، وجمعت عليها الجمعيات وموالد وأشباه ذلك » .

هكذا كانت البدع منتشرة بشكل متطرف ، ومثل هذا الانتشار كفيل بأن يثير انتباه بعض المعتدلين ، فضلا عن انتباه من يفد من المفكرين الاصلاحيين على البلاد . ويقدم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورة تاريخية عن دعوة مبكرة الى القضاء على البدع والانحرافات خاصة من حيث المبالغة فى اسناد الكرامات الى أولياء الله الصالحين . فلقد وفد (واعظ) من الأتراك الى القاهرة وأخذ يحث الناس على ترك البدع والخرافات وأنكر على الناس « بناء القباب على ضرائح الأولياء والتكايا ، ويجب هدم ذلك » .

واستطاع الرجل أن يجمع حوله جبهة شعبية وقفت الى جانبه بقوة ضد رجال الأزهر وضد رجال الادارة ، ولكن القوة العسكرية استطاعت أن توجه ضربة الى تلك الجبهة الشعبية .

ونلاحظ ان عبد الرحمن الجبرتى يكشف لنا عن عامل هام دفع الادارة الى توجيه ضربة الى هذه الجبهة الشعبية الاصلاحية . فقد ذكر أن رجال الادارة خشوا على انفسهم وعلى هيبتهم من هذه الحركة فقرروا ضربها حتى لا تكون سابقة لتحرك ضد الادارة . وليكون ضربها عبرة لمن يفكر فى ذلك حتى ولو كانت اهدافه اصلاحية .

فيقول عبد الرحمن الجبرتى : (١٧١١ م) .

« أما الباشا فانه .. أرسل بيورلديا الى ابراهيم بك وقيطاس بك يعرفهم ما حصل وما فعلة العامة من سوء الأدب وقصدهم تحريك الفتن وتحقيرنا نحن والقاضى . وقد عزمت انا والقاضى على السفر من البلد . فلما قرأ الأمراء ذلك لم يقر لهم قرار ، وجمعوا الصناجق والأغوات ببيت الدفتردار وأجمعوا رايهم على ان ينظروا هذه العصبة من أى وجاق ويخرجوا من حقهم وينفى ذلك الواعظ من البلد » .

وفعلا نفذوا ما اتفقوا عليه بالقوة .

وانه ان الجدير بالذكر ان دعـوة الى منـع التدخين ظهـرت ١٧٤٣ ، أى قبل ان تظهر هذه الدعوة فى أى مكان آخر فيقول عبد الرحمن الجبرتى ان الادارة العليـا العثمانيـة نفسـها هى التى سـعت الى ذلك وأصدرت « فرمانا بابطال شرب الدخان فى الشـوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت » .

وكان الهدف من ذلك هو منع العلانيـة وبالتـالى منـع (الدعـاية) غـير المقصـودة لمثل هذه المـادة الضـارة ، وهـذا يذكرنا بالأوامر الاداريـة التى صدرت اخيرا فى اكثر من دولة بمنع التدخين فى الأماكن العـامة .

حقيقة دعـا محمـد بن عبد الوهـاب الى القضـاء عـلى البـدع ودعـا الوهابيون كذلك الى ابطـال التدخين ، ولكن الدعـوة الى تجنب هـذه البـدع قـد ظهرت فى مصر قبـل ان تظهـر فى الجـزيرة العربيـة . وهذا أمر طبيعى لمـا كانت عليـه مصر — مهما كانت احوالهـا — من تقـدم كبير للغاية بالقياس الى ما كانت عليـة قبـائل الجـزيرة العربيـة من تخلف يعود بهـا الى مستوى الحيـاة البدائيـة البدوية لولا بقيـة من الفـكر الاسـلامى ظلت لديهم ، الأمر الذى تطلب حركة اصلاحيـة شـديدة القـوة فى الجـزيرة العربيـة (الحـركة الوهابيـة) وفيما وراءها ، وهذه هى قيمة هذه الحركة الوهابية .

ولدينـا بعض الملاحظـات على الأمثلة سـالفة الذكر :

١ — ان الشـعب كان مسـتعدا للترحيب بمثـل هـذه الدعـوات الدينية ومسـتعدا كذلك للدفـاع عنهـا قدر اسـتطاعته . ولقـد حدثنـا عبد الرحمن الجبرتى عن أن الشـعب حمل (العصى والنبابيت) دفاعا عن الرجـل ودعوته . وذلك هو اقصى ما كان يتسـلح به المصرى حينذاك .

٢ — ان بعض علمـاء الأزهـر لم يكونوا على المسـتوى المناسـب وكان بعض منهم يصـدر فتـاوى تـدل على سـطحية فهم الدين الاسـلامى . ومن ذلك قول بعض علماء الأزهر حينذاك بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت .

٣ — أن الفكر الادارى العسكرى حينذاك مسـئول عن اجهـاض الاتجاهات الاصلاحية ، فلم يكن رجال الادارة من اتراك وشراكسـة على مسـتوى مثل هذه الدعوة . ومن ثم كانوا يتقبلون فتـاوى بعض رجـال الأزهر وخاصـة اذا كانت تتمشى مع مصـالحهم .

ومن أبرز مظاهر الفوضى خلال القرن الثامن عشر أن العديد من الطوائف وأصحاب الحرف اخذت تقوم بنفسها للحصول على حقوقها أو للدفاع عن مصالح احد افرادها . ومن ذلك تحركات الاشراف ضد اعتداءات الترك عليهم ، وهى تحركات لم يقض عليها الا بالقوة المسلحة .

ومن تلك التحركات والاضرابات والاضطرابات ما كان يحدث بين المنتسبين لأروقة الأزهر وكانت مصادمات ذات نطاق واسع .

ومن الملاحظ ان المغاربة كانوا يشكلون جماعة قوية سواء من حيث التماسك او من حيث القدرة على انزال قوة مسلحة للدفاع من مصالحهم او للمشاركة فى قوة امن الدولة .

فلقد استبعد المماليك المصريين من الاشتراك فى القوات المسلحة سواء المدافعة عن أرض مصر أو عن أرض الاسلام ، بل استبعدوهم حتى عن حراسة قافلة الحج . اذ كان يتولى هذه المهمة المماليك والمغاربة والأتراك والهنود واليمانية والمتاولة » (١) .

وبينما كانت حكومة المماليك لاهية عما تطورت اليه أوربا ، وبينما كان الشعب يعانى من المظالم والتخلف الشديد ، كانت الدول الأوربية قد أخذت فى الاهتمام بأمور مصر اكثر من ذى قبل . اذ أصبحت لدى هذه الدول الأوربية رؤية امبريالية استعمارية جديدة للمنطقة باسرها .. فنلاحظ أنه فى سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر توالى عقد سلسلة من المعاهدات بين مماليك مصر والدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا الدولتين المتنافستين حينذاك على ثروات الشرق .

لقد أدى ذلك الصراع بين انجلترا وفرنسا الى أن تركز فرنسا على مصر اكثر من انجلترا ، وخاصة من حيث مشاريع احياء الطريق القصير بين الشرق والغرب عبر مصر ، وانتهى الأمر بأن نفذ نابليون بونابرت خطته فى ضرب الامبراطورية البريطانية بأن يبدأ بالسيطرة على مصر . وعندما هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر فى ١٧٩٨ فوجىء المصريون حكومة وشعبا بحضارة جديدة تنقض عليهم لم يكونوا يتوقعونها .

---

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ، حوادث عام ١١٨٥ هـ .
والمتاولة هم شيعة فى الشام .

الفصل الثانى

مصر فى أيام الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على ١٧٩٨-١٨٠٥

فى يوليو ١٧٩٨ هبطت الحملة الفرنسية ارض مصر لتستعمرها ، وكانت لدى الفرنسيين تقارير عن احوال مصر السياسية والاقتصادية وبعض الصور من اوضاعها الاجتماعية ، ولكن ماذا كان لدى الجانب المصرى من حيث حجم وقيمة المعلومات عن الفرنسيين الذين فرضوا على بلادنا منذ ذلك التاريخ مواجهة عسكرية حضارية ومن نوع جديد .

وبادىء ذى بدء ، كان نزول الحماة الفرنسية الى ارض مصر يعنى مواجهة بين حضارتين عميقتى الجذور مختلفتى المناحى ، ولكن واحدة منها متطورة والثانية متخلفة من حيث التقدم العلمى . ومع أن المبادىء النظرية للتقدم الغربى موجودة فى جوف الفكر الاسلامى فانها كانت غير ممارسة فى المجال العملى وغير مقننة .

ورغم ما كان يعانيه المواطن الشرقى من استبداد حكامه واضطراب احوال البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية فان المشرق لم يتعرض الى هزة توقظه وتجعل أهله يدركون حقيقة ما اصبحت عليه احوالهم بالمقارنة بما اصبحت عليه دول العالم الغربى بصفة خاصة ، وكان هبوط الحماة الفرنسية واستيلاؤها على مصر هزة حقيقية وضربة قوية وجهت الى النظام التقليدى الذى كان سائدا فى مصر . وحق للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتى أن يستهل عام ١٢١٣ هـ — ١٧٩٨ م بقوله :

« وهى اولى سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك يهلك القرى بظلم أهلها مصلحون » .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر مفاجأة مروعة ، رآها المصرى نكبة من أعظم النكبات التى نزلت به وبوطنه . حقيقة استهان بأمرها فى أول الأمر ، ولكن لم يلبث أن أدرك أنه فى مواجهــة عصر وقــوى لم يكن يتوقعها أو يتصــور مــدى قدراتهـــا .

فما هى تلك العوامل التى جعلت المصرى على جهل كبير جدا بالتطورات التى وقعت فى أوربا الغربية حتى بعدت المسافة بين الشرق والغرب بعداً شاسعا ، مع أن الحضارة الاسلامية حتى القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل كانت متفوقة ، وكان الغرب ينهل منهــا ؟ .

وانه لسؤال هام حقا ، حيث أن من مســئوليات المفكرين فى أى مجتمع أن يكونوا على بينة من تطور المجتمعات الأخرى الصــديقة منها أو المعــادية لهــا أو المتفاهمة معها ، ومن حيث أن من مسئولياتهم اكتشاف الســلبيات والايجابيات فى حضارتهم ومقارنتها بمثيلاتها لدى الحضــارات الأخــرى ، وذلك حتى يمكن ســد الثغرات الحضارية فى الوقت المناسب .

كان الاحتكاك بين المجتمع المصرى ومجتمع أوربا الغربية محدودا للغاية فقد كانت التجارة الخارجية والملاحة بين موانى مصر وموانى حوض البحر المتوســـط الغربية لا تعتمد على أيــد مصرية ، فقد كان الحكم العثمــانى - المملوكى لا يولى التجارة الخارجية الأهمية اللازمة لها ، بل تركوا مسئولية النقل البحرى للأجانب فلم يكن لمصر اســطول بحرى أو حربى ، وبالتالى كانت مجــالات الاحتكــاك التجارى محدودة جدا . وكانت البيــوت التجارية الأوربية تعتمد على تجــار لها فى المــدن الكبرى المصرية ، بينما لم يكن فى الموانى الأوربية تجار مصريون ، وبالتالى كان فى استطاعة تجار الدول الأوربية فى مصر أن يرسموا صورة عن أحوال مصر بينما لم تكن هناك معلومات عن أوربا تصل الى المصريين الا النزر اليســير ، وخاصــة أن التمثيل السياسى فى البلاد الأجنبية كان من مسئوليات الحكومة العثمانية فى الأستانة (القسطنطينية) . ومن ثم كانت العلاقات التجــارية بين مصر وأوربا الغربيــة من جانب واحد تقريبا ، الأمر الذى أضعف فرص تعرف الشعب المصرى على المجتمعات الأوربيــة الغربيــة .

وفى الوقت الذى كانت فيه العلاقات الاقتصـــادية على هذا النحو من التأثير السلبى الخطير على قدرات الشعب المصرى فى التعرف على مجتمعات غرب أوربا ،

كانت العلاقات العسكرية التصادمية أو التحالفية معدومة تقريبا بين مصر وغرب اوروبا . فقد كان الجيش العثمانى هو المسئول عن الدفاع عن بلاد المسلمين بصفة عامة ، وكان المماليك — فضلا عن الجيش العثمانى — مسئولين عن الدفاع عن مصر . ولم يكن المصرى يجند او يدعى للتجنيد .

ومن المعروف أن الحاميات العثمانية فى مصر انحلت ، وباع الجند العثمانى تذاكر المرتبات والتموين الخاصة بهم الى افراد من الشعب المصرى فى مقابل مبالغ معينة ، حتى لقد سجل فى قوائم الجند العثمانى فى مصر تجار واصحاب حرف ونساء وهم لا يدركون من فنون الحرب شيئا . وكل ما فى الأمر انهم اصبحوا أصحاب تذاكر الجند العثمانى وحلوا محلهم فى استلام الرواتب .

وتولى المماليك أمر الحكم والحرب ، ولكن مفهوم الحرب لدى المماليك كان الدفاع عن مصر والاسلام باللسان والتصارع فيما بينهم على خيرات مصر . واذا حدث وانتدبتهم الدولة العثمانية لحرب فيما وراء مصر تهربوا ، وحتى اذا ذهب بعضهم الى حرب فانها غالبا ما تكون ضد فارس أو ضد روسيا او فى البلقان وهى مناطق لا تقدم حينذاك حضارة حديثة على نحو ما كانت تقدمه اوربا الغربية .

ولهذا لا نجد اثرا واضحا لمفهوم الحضارة الغربية لدى المماليك الذين كانوا الطبقة المرشحة حينذاك لتفهم التطورات التقدمية التى حدثت فى أوروبا الغربية . وهكذا كان عدم الاحتكاك المباشر بين المجتمع المصرى — على اختلاف مستوياته — والمجتمع فى غرب اوروبا من العوامل الرئيسية التى جعلت مستوى المعرفة المصرية بالحضارة الأوروبية الغربية لا يرتفع عن الصفر الا قليلا .

وحتى عندما كانت هناك فرصة للتعرف على بعض جوانب الحضارة الأوروبية الغربية ، فان انتهازها كان محدودا للغاية . فقد كانت فى الموانى المصرية الرئيسية (الأسكندرية ودمياط ورشيد) جاليات أوربية محدودة العدد ، وكان اكبرها فى الاسكندرية الجالية الفرنسية لما كانت علية غرفة تجارة مرسيليا من نشاط تجارى مع مصر . فلم يؤد وجود هؤلاء التجار الأوربيين فى المدن الكبرى المصرية الى اى تعريف معقول بحضارة اوربا ، فالاوربيون لم يكونوا مستعدين لأن يقدموا عناصر حضارتهم الى الشرق الاسلامى ، ولا المسلمون كانوا مستعدين للتعرف على الحضارة الحديثة من تلك الثلة القليلة من الأوربيين فى مصر . وهذا الرفض من جانب المصرى كان يرجع الى نوع من التنافر الشديد بين الحضارتين ، والى اقتناع تقليدي غرس في اذهان المصريين عدم جدوي ما لدي الافرنج من مظاهر حضارية ،

فقد كان المسلمون بصفة عامة يرون انه مهما كانت ميزات الأوربى المتحضر فسيلقى الاوربيون عقاب الله لما كانوا عليه من عقائد دينية ، فلا يليق بمسلم أن يتخذهم مثلا اعلى او ان ياخذ من حضارتهم حفاظا على صدق اسلامه من الزيغ .

لقد عاشت مصر زهاء ثلاثة قرون دون أن تخوض حربا أو تواجه غزوة خارجية . ومع ما لهذا العامل من اهمية فى تحديث الحضارات فان هذا العامل لم يكن له الدور المحسوس فى مجتمعات اسلامية كانت فى صراع عسكرى وعلى علاقات واسعة مع دول غرب اوربا . ونعنى بذلك « الجزائر والمغرب » ، فرغم قربهما الشديد من أوروبا الغربية وتعرضهما لهجماتها ورغم سيطرة اسبانيا على (سبته) و (مليله) ورغم الصراع العسكرى والدينى بين اسبانيا والمغرب والجزائر ، فان ذلك كله لم يؤد الى تطوير جوهرى فى مجتمع المغرب الاسلامى . حقيقة كانت اسبانيا متخلفة حضاريا بالقياس بانجلترا وفرنسا الا اننا نعتقد أن المسلمين بصفة عامة تجنبوا الى اقصى درجة ممكنة « تفهم الحضارة الغربية » مهما كانت الظروف المواتية او غير المواتية . وكان الأوروبيون من جانبهم غير مستعدين لتقديم حضارتهم الى المسلمين .

تلك هى العوامل الرئيسية التى جعلت المصرى جاهلا بطبيعة المجتمع الأوربى وتطوره حتى أصبحت مصر مجالا للتنافس الفرنسى الانجليزى والاستعمارى . فقبيل مجىء الحملة الفرنسية الى مصر ، كان هناك صراع دبلوماسى تجارى بين فرنسا وبريطانيا ، فكانت فرنسا عندما تعقد معاهدة تجارية مع مماليك مصر تسارع حكومة انجلترا الى عقد معاهدة مماثلة او احسن منها — ان امكن — مع هؤلاء المماليك . حتى مال ميزان المماليك ضد التجار الفرنسيين فاخذوا منهم ضرائب أكثر واكثر ، بينما كان المماليك فى نظر القنصل الفرنسى فى مصر قوة عسكرية تافهة يمكن للجيش الفرنسى ان يوجه اليها ضربة قاضية تؤدى الى وضع مصر فى يد فرنسا لتتمتع هى بخيراتها .

ولم يدر المسئولون المماليك ولا الشعب المصرى بما يدبر للبلاد فى العاصمة الفرنسية بعد ان اجتاحت القوات الفرنسية ايطاليا واطلت على الطريق الى مصر من قرب ، وتبين لنابليون بونابرت أن قدرات فرنسا الثورة ستكون أكثر تفوقا فى صراعها مع انجلترا اذا ما اصبحت مصر قاعدة لتكوين امبراطورية شرقية فرنسية . واستطاع بونابرت أن يقنع حكومة فرنسا حينذاك بقيمة حملة فرنسية على مصر لن تجد الا مقاومة محدودة من المماليك ثم يصبح شعب مصر اداة للفرنسيين فى

الانتاج ويحصل الشعب المصرى – من وجهة نظر نابليون بونابرت – من وراء ذلك على بعض جوانب الحضارة الفرنسية ».

كان سكان المدن يعيشون فى أحياء قذرة الا اذا تشدد حاكم فى النظافة ، والشوارع مظلمة الا اذا صدرت الأوامر بالانارة حفاوة بمقدم عيد أو تولية وال جديد ، ولولا المدارس والجوامع والأعياد وبعض ايمان بالنظافة ، ولولا بعض الاحياء التى كان يسكنها الاثرياء وعلية القوم مثل الازبكية ببركتها الجميلة والقوارب السابحة فيها ونسيمها وظلال اشجارها الباسقة وقصور المماليك المتناثره والسهرات حولها لكانت حالة القاهرة لا تطاق .

اما الفلاحون فكانوا يعيشون فى بيوت من طين مع ماشيتهم وفى نهارهم فى اوحال حقولهم ، يتقوتون بجبن وخبز وبعض خضراوات ولحم فى المواسم المتباعدة ولكنهم فى معظمهم فى قوة بدنية لا بسبب الغذاء ولكن بسبب الممارسة الشاقة فى الحقل تحت وهج الشمس الذى يقتل حشراتهم وجراثيم لا يدركونها ، وحصل جسدهم على مناعة طبيعية من العديد من الأمراض الا أن كثيرا منهم فقد بصر احدى عينيه او كلتيهما أو تشوه وجهه بالجدرى أو اعوجت قدماه منذ صغره . ومع ذلك فهو يعيش يومه مثل غده ويخشى مجيء مسئول لتفريمة وطلب الأموال منه او ملتزم يحصل الأموال والمحاصيل حتى آخر بارة أو آخر أردب .

ويجد الفلاح فى كثرة الأولاد عزوة ، وكانت زوجته الولود قادرة فى اغلب الاحيان أن تغطى نسبة الوفيات العالية فى الأطفال وهى سعيدة بشقائها فى بيتها وحقلها وهى المتعة الحلال الوحيدة ، وامور الجنس عندها وعنده مكشوفة ، وقد لا تعرف ولا يعرف غير المجتمع القروى ولكن الأسواق كانت تجارة ومتعة وكذلك زيارة اولياء الله الصالحين ، واما من حج وزار من الفلاحين فهم قلة نادرة ومن تمكن من ذلك فهو فى مكانة عالية .

وما كان الفلاح يعرف من النقود الا النزر اليسير جدا منه ، وزوجته لا تمتلك من المصاغ الا التافه منه ، واثاث بيته حصير وصندوق و « كانون » و « فرن » وحطب ، واثمن من هذا كله ما يمتلكه من ماشية هى عدته وعتادة وثروته واداة انتاجه .

والتعاون كان تلقائيا فى عمليات الزرع والحصد والرى ، وما اجمل التعاون لولا انه كان بين من لا يجد الا قوت يومه .

كان أفراد الشعب المصرى فى نظر الاولجاركية المملوكية مجموعة من الصعاليك والاوباش والحرافيش والحشرات . وقد اكثر عبد الرحمن الجبرتى وصف (العامة) فى المجتمع المصرى القاهرى بهذه الصفات ، مع ان الجبرتى كان من العلماء . او بمعنى آخر كان بعض العلماء – فضلا عن المماليك – ينظرون نظرة استعلاء الى (العامة) وبالتالى كان الاوليجاركية المملوكية والطبقة الوسطى لا ترى فى (العامة) الا انها قاعدة غير محترمة .

وقد تقتصر صفة الاوباش والحرافيش على ما يمكن ان نسميه (الدهماء) وهم قاع المجتمع المصرى الفقير ولكن يشتغلون بالاعمال البسيطة وهم غير متعلمين وعندهم سرعة للاستجابة لحالات الفوضى والاضطراب لتصعيد الاضطرابات والقيام باعمال النهب والتعرض للناس .

ولا شك ان العامة كانوا يكنون كراهية للحكام حيث أن لا علاقة بينهم وبين الحكام الا علاقة السيد بالمسود ، والحكام يأخذون ولا يقدمون ، و (العامة) تكدح دون ان تجد من الحكام عطفا أو مشروعات عامة لخدمة مصالحهم . ونظرا لأن الأوليجاركية المملوكية قد بلغت حدا متطرفا فى ارهاق العامة بالضرائب والتكاليف فقد كانوا دائما على استعداد للانضمام الى المتظاهرين ضد الحكم وتحول التظاهرات الى عنف ومصادمات .

والقيادة المقبولة للعامة هى العلماء ومن هو ملتحق برجال الدين والشريعة ، وكان هؤلاء اذا فاض بهم الأمر يحركون (العامة) ضد المماليك . ولكن لم تكن هناك قيادة قادرة على تجميع (العامة) فى حركة عامة ضد الحكم المملوكى ولذلك لم تقع ثورة شعبية ضد المماليك ، وانما حدثت تظاهرات ونوع من العصيان المدنى ضدهم .

وكان المماليك منذ ان استبدوا بالحكم فى مصر قد احتكروا الادارة العليا والمناصب العسكرية ، دون أن يتجهوا الى الانفصال عن الدولة العثمانية ، حقيقة كان الوالى العثمانى الذى يصدر له فرمان السلطان بتولية مصر قد جرده المماليك من سلطاته ، الا ان المماليك اعتبروا وجود هذا الوالى جزءا من عقيدتهم السياسية وهى الاعتراف بالسلطان العثمانى خليفة وسيدا للبلاد دون ان يسمحوا له او لنائبه فى مصر (الوالى) ان يوجه أمور البلاد .

وكان ابرز الفترات فى تاريخ مماليك مصر فى عهد على بك الكبير خلال ستينيات القرن الثامن عشر ، ومن بعده استشرت الخلافات بين المماليك حتى لقد انتهى الأمر قبيل مجىء الحملة الفرنسية الى مصر الى أن تقوم حكومة ثنائية من (ابراهيم بك) و (مراد بك) وهذا يعنى أن التفكك فى داخل المؤسسة المملوكية كان قد اصبح الظاهرة المميزة لهذا النظام المملوكى فى مصر .

وكان هؤلاء المماليك رجالا افسدتهم الصراعات المتتالية والتنافس على جمع الأموال والأتباع بأحسن الأساليب المتوفرة لهم حينذاك وكانوا يقربون العلماء منهم ولا يعكفون على العلم والدرس ، الأمر الذى جعلهم متخلفين تخلفا شديدا جدا اذا قيسوا بالحكام فى أوربا فى زمانهم ، ولكنهم كانوا على حال احسن بكثير جدا من قوات السلطان العثمانى نفسه . اذ كانت تجمع رجالا ابتعدوا بعدا شديدا عن السلوكيات الحضارية الاسلامية الواضحة .

لم يكونوا على دراية بما حدث ويحدث فى أوربا من تطورات ونهضة عظيمة ، وكانوا يعملون على ابتزاز ما يمكن ابتزازه من الأوروبيين المتعاملين اقتصاديا مع مصر . ومع ذلك فقد تيقن معظم حكام اوربا ان حماية النشاط الاقتصادى الأوربى مع مصر لم تعد بيد السلطان وانما اصبحت بيد مماليكها ، وان الاجدى التوجه اليهم مباشرة لعقد الاتفاقيات المنظمة للعلاقات المصرية مع دول أوربا . وهذا يفسر المعاهدات التى عقدتها انجلترا وفرنسا مع مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .

***

من المعروف ان الحملة الفرنسية قامت من الموانى الفرنسية والموانى التابعة سرا حتى تتجنب الاسطول الانجليزى بقيادة نلسون . وعلم نلسون بخبر ابحار الحملة ولكن دون ان يعرف وجهتها فأخذ يجوب البحر المتوسط باحثا عنها حتى وصل الى الاسكندرية ، وكان محمد كريم هو الرجل الذى يمكن أن يتحادث مع الانجليز حينذاك عندما بعث اليه نلسون رجاله ليعرفه بمقصده ويحذره من مخططات الفرنسيين .

وقد عرض لنا المؤرخ الجبرتى ما حدث حينذاك قائلا :

حضر الى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانجليز ، ووقفت على البعد بحيث يراها اهل الثغر ، وبعد قليل حضرت خمسة عشر مركبا ايضا ... واذا بقايق (قارب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة انفار ، فوصلوا الى البر واجتمعوا

بكبار البلد والرئيس اذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرام والنقض السيد محمد كريم ، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروهم انهم انجليز حضروا للتفتيش على الفرنسيين لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى أين تصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد عمر مكرم منهم هذا القول ، وظن انها مكيدة ، وجاوبوهم بكلام خشن . فقالت رسل الانجليزى « نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم الا الامداد بالماء والزاد بثمنه ، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا : هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيين ، ولا لغيرهم عليها سبيل ... فاذهبوا عنا » .

وبعد أيام معدودات بعد مغادرة نلسون للشواطىء المصرية وصلت سفن الحملة الفرنسية وانزلت قواتها واستعدت لمهاجمة الاسكندرية ، فطير محمد كريم الخبر الى السلطات الحاكمة فى القاهرة ، واخذ محمد كريم يعد المدينة للدفاع عن نفسها بما تحت يده من رجال غير مدربين وسلاح تافه .

اسرع محمد كريم الى دعوة الرجال الى الجهاد فى سبيل الله فانها لديه حرب مقدسة ضد الصليبيين الجدد . وكان طبيعيا ان ينعكس التركيب الاجتماعى والمستوى الحضارى على الطريقة التى جمعت بها القوات المدافعة . فقد كان (العربان) هم القوة الضاربة التى يمكن اعدادها حينذاك ، اما اهل المدينة فلم يكن لديهم خبرة سابقة بالحرب الشعبية ، ولم تكن بالمدينة حامية عسكرية الا النزر اليسير منها . وكان هؤلاء (العربان) لا يعرفون من العسكرية الا فن الكر والفر الأهوج على طريقة داحس والغبراء . عيونهم على ما يمكن أن يكون غنيمة وليست على القناة . وخط الرجعة لديهم أهم من اقتحام خطوط الاعداء .

تجمع المشاة والفرسان المسلمون للقتال فى نظام بدائى وبلا خطة واضحة ، وانطلق فرسان العرب فقتلوا بعض الجند ممن كان بعيدا عن المعسكرات الفرنسية، فاذا بهم زرق العيون بيض الوجوه ، اجمل من نسائهم ، فاستنتجوا — على الطريقة الشرقية — ان الفرنجة أهل لهو ومتعة ، وليسوا اهل حرب وقتال ، وانها لساعة نزال يفر بعدها ذوو الشعور المسدلة والقد المياس امام صناديد العرب أو يتهاوون طالبين الرحمة من تحت اقدام الصافنات حاملات الكماة . وعندما وقعت المعركة ضاعوا فيها وسقطت الاسكندرية بسهولة فى يد الفرنسيين .

ولما وصلت انباء نزول الحملة الفرنسية الى ارض مصر الى اسماع كبار المسئولين فى القاهرة استهانوا فى أول الأمر بالخطر ، وتذكروا نكبة الفرنسيين فى

١٢٥٠ عند المنصورة وتشدقوا بأن نفس المصير ينتظر الغزاة الجدد ، وبأن بيت ابن لقمان لا يزال شاهدا وقائما ليستضيف قائد (الفرنجة) مكبلا ذليلا . واشار الوالى العثمانى — المهيض الجناح — على كبار القوم أن يبعث برسالة الى السلطان ليرسل الى مصر على الفور جيشا عرمرما يرد الجيش الفرنسى من حيث أتى وهى اشارة اثارت سخرية مؤرخنا الكبير الجبرتى اذ كان ذلك فى نظره كمن يطلب الترياق من العراق فلا يصل الا بعد أن يكون المريض قد فارق الحياة .

واتفق مراد بك وابراهيم بك على اعداد جيش بقيادة الأول ، فسار بكتائبه من الفرسان والمشاة برا واتخذت سفنه القديمة طريقها هابطة فى النيل حتى التقى المماليك بالفرنسيين على مقربة من شبراخيت .

و « التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس : فلم تكن الا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح ، وانما هى مناوشة من طلائع العسكرين لم يقتل الا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية واحترق بها رئيس الطبجية ..... فلما عاين ذلك مراد داخله الرعب وولى منهزما وترك الاثقال والمدافع وتبعه عساكره .... ووصلت الأخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس » (١) .

لقد تقررت المعركة الحاسمة عند مشارف القاهرة ، وهناك امتدت القوات الفرنسية من بشتيل الى امبابة ، وفى مواجهتهم احتشد المماليك ومن عبر الى البر الغربى من المقاتلين المتطوعين . ولكن « الاجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم ..... [و] شرعوا فى نقل امتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد ... ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم وارسلوا البعض منها الى بلاد الارياف واخذوا ايضا فى تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأدوات الارتحال، فلما رأى اهل البلدة منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهروب ولولا ان الأمراء منعوهم من ذلك وزجروهم وهددوا من اراد النقلة لما بقى بمصر منهم احد » (٢) . واتفق الرأى حينذاك على « عمل متاريس من

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٦ .

بولاق الى شبرا ويتولى الاقامة ببولاق ابراهيم بك وكشافه ومماليكه ... وقد كانت المشايخ تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرءون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ الاحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وارباب الأشاير ويعملون لهم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء (١) .... [و] ونادوا بالنفير العام وخروج المتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم ، فاغلق الناس الدكاكين والاسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما او يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون عليهم فيما يصرف عليهم له من الدراهم ... وبعض الناس يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والاكل وغيره ، ..... وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون باذكار مختلفة ... وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى القلعة فانزل منها بيرقا كبيرا اسمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وامامه وحوله الوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك ... وعلا سعر البارود والرصاص ... وارسل ابراهيم بك الى العربان .... ورسم لهم ان يكونوا فى المقدمة ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والتيعان وأولاد على والحضارى وغيرهم ... وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم ، واما بلاد الارياف فانها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضا وينهب بعضهم بعضا ، وكذلك العرب غارت على الاطراف والنواحى وصار قطر مصر من أوله الى آخره فى قتل ونهب ... وافساد المزارع » (٢) .

انها لفرصة سنحت لكل صاحب غرض فى نفسه ، فقد اقتربت (الهوجه) يضيع فى خضمها كل اثم أو جريمة ، وما ذلك الا لغياب نظام ادارى للدولة على مستوى العصر ، ولغياب الاخلاقيات مما أفقد الناس الرؤية ، ومن اعجزته الحيل تطلع الى السماء منتظرا نزول الكرامات .

واطلت الطائفية برأسها ، فقد كان طبيعيا ان تؤدى الرؤية المصرية للحملة الفرنسية من زاوية الصراع الصليبى الى ان تتصاعد الريب والشكوك بموقف الاقباط وبالشوام النصارى وبالعدد القليل جدا من الفرنجة (الأجانب) ، فكان

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٦ .
(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٦ — ٧ .

ان « طلب امراء مصر التجار من الافرنج بمصر فحبسوا بعضهم فى القلعة وصاروا يفتشون بيوت النصارى الشوام والاقباط والاروام والكنائس والأديرة على الاسلحة » .

استعد الطرفان المصرى والفرنسى للمعركة وعندما التقى الجمعان فتكت المدفعية ورصاص البنادق بالمماليك ، وتطايرت اجسادهم وسرعان ما دبت الفوضى فى الجانب المملوكى بعد اقل من ساعة اذ فروا من الميدان وفرق كثرة منهم فى النيل وانسحب مراد بك بما لديه من قوات الى الجيزة ثم اوغل من بعد جنوبا فى صعيد مصر ، بينما اصيب ابراهيم بك — المعسكر على البر الشرقى — بالذهول فانسحب بقواته نحو الصالحية فى الشرقية :.

اما العامة فهرولت عائدة الى قلب المدينة واحيائها مذعورة رجالها ، مولولة نساؤهم ، والاشاعات تلاحق الجميع ان الفرنسيين قد عبروا النيل وانهم يقتحمون المدينة هاتكين سافكين مدمرين . وما كانوا كذلك .

اجتاح الذعر المدينة ، ولا امل لكل قادر الا ان يغادرها قبل أن يقتحمها عليهم العدو (الكافر الفاجر) . ويصور لنا الجبرتى هذه المأساه فيقول « فالامراء اركبوا النساء ، بعضهم على الخيول وبعضهم على البغال والبعض على الحمير والجمال ، والبعض ماش كالجوارى والخدم ، واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ... كل واحد مشغول بنفسه عن ابيه وابنه ، فخرج تلك الليلة معظم اهل مصر .... البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لجهة الشرق وهو الأكثر ، واقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ... والحال ان الجميع لا يدرون اى جهة يسلكون واى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الاعرج او البغل الضعيف باضعاف ثمنه ، وخرج اكثرهم ماشيا او حاملا متاعه على رأسه ، وزوجته حاملة طفلها .... وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات واطفالهن على اكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، ومـا كانوا يدرون ان شرا مستطيرا ينتظرهم خارج اسوار المدينة .

فيروى الجبرتى :

« فلما خرجوا من ابواب البلد ، وتوسطوا الفلاة ، تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم واحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته او يسد جوعته ، فكان ما اخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر » .

لقد كان من المعروف أن العربان لا يتورعون عن انتهاز مثل هذه الفرصة للنهب والسلب ، ولكن الملاحظ هنا ان الفلاحين شاركوا فى هذه النكبة ولعل سبب ذلك هو ما كان ينزل بالفلاح من غبن وارهاق فظيع على يد الحكام ، وخاصة على يد الادارة التى كان مقرها فى القاهرة فجاء يوم التشفى فى هؤلاء .. ثم اليس من الأمور التى تسقط هيبة الانسان ان يدعى مسئوليته عن حماية الديار فاذا جاء الامتحان سقط سقوطا مروعا .. اهكذا يتخلى الكبار عن مصر فى يوم محنتها .. اهكذا يكون الفرار ليتركوا الشعب لمصير مجهول ؟

ليذق الهاربون عذاب ما اثموا وما غفلوا عنه من واجب مقدس كانوا به يفتخرون وهم عنه لاهون ، ثم ان قرون الظلم الطويلة التى مرت بالفلاح جعلته يشعر أن هؤلاء الحكام وسكان الحضر من الاثرياء لاهم لهم الا الظلم والقهر للمتعة دون أى تقدير للفلاح الذى يرهق نفسه من اجلهم ..

مأساة شعب عاش معزولا متخلفا عن عصره فحلت عليه نقمة واطماع الآخرين ..

* * *

قبل ان يصل بونابرت بحملته الى ارض مصر كان قد أعد منشورا طبعه باللغة العربية والفرنسية ، ليوزع النسخة العربية على المصريين ليبين لهم نياته واسباب غزوه لمصر ونظرا لأهمية هذا المنشور سنورد نصه ثم نحلله .

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه .. من طرف الفرنساوية المبنى على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرته ..

يعرف اهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها .

فأما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم .

يا أيها المصريون قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم

فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن ، فيها الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من الأهالى فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

وسابقا كان فى الأرض المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك .

أيها المشايخ القضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فان المماليك امتنعوا عن اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما اطاعوا أصلا لطمع أنفسهم .

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم .

طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

المـــادة الأولى :

جميـــع القرى الواقعـــة فى دائرة قريبـــة بثلاث ســـاعات عن المواضـــع التى يمر بهـــا عســـكر الفرنســـاوية فواجب عليهـــاً ان ترســـل للسر عســـكر من عندها وكلاء كيمـــا يعـــرف المشـــار اليـــه انهم اطاعـــوا وانهم نصـــبوا علـــم الفرنســـاوية الذى هو ابيض وكحلى واحمر .

المـــادة الثانيـــة :

كل قرية تقوم على المعســـكر الفرنســـاوى تحـــرق بالنار .

المـــادة الثالثـــة :

كل قرية تطيع العســـكر الفرنســـاوية ايضـــا تنصـــب صنجاق الســـلطان العثمـــانى محبنـــا دام بقـــاؤه .

المـــادة الرابعـــة :

المشـــايخ فى كل بلد يختمون حالاً جميـــع الأرزاق والبيـــوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهـــاد التام لئلا يضيع ادنى شىء منهـــا .

المـــادة الخامســـة :

الواجب على المشـــايخ والعلماء والقضـــاة والائمـــة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل احـــد من اهـــالى البلدان ان يبقى فى مسكنه مطمئنا .

وكذلك تكون الصـــلاة فى الجوامـــع على العـــادة والمصريون باجمعهم ينبغى ان يشـــكروا الله ســـبحانه وتعالى لانقضـــاء دولة المماليك قائلين بصـــوت عال ادام الله اجـــلال الســـلطان العثمـــانى ادام الله اجـــلال العســـكر الفرنســـاوى لعن الله المماليك واصلح حـــال الأمة المصرية . تحريرا بمعســـكر اســـكندرية فى ١٣ شـــهر مســـيدور (١) من اقامة جمهور الفرنســـاوى يعنى آخـــر شـــهر محرم ســـنة هجرية ١٢١٣ (٢) » .

يبدأ المنشـــور بالبســـملة (بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم) ، وليس الدولة

---

(١) مسيدور : احد اشهر السنة الفرنسية حينذاك .

(٢) انظر الجبرتى حوادث عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .

الفرنسية ، وانما اتبع البسملة بشعار الثورة الفرنسية (الحرية والمساواة) ونلاحظ هنا ان مصطلح Egalité ترجم الى العربية بـ (التسوية) وهى ترجمة غير دقيقة ، واطلق نابليون بونابرت رتبة السرعسكر وكلمة سر (الفارسية) تعنى راس اى قائد القوات العسكرية ، كما اضاف صفة (الأمير) الى نفسه اتباعا لما كان مستخدما فى الدوائر الاسلامية (أمير الجيوش) ، وبذلك يحاول بونابرت أن يضفى على نفسه شيئا من الفكر الاسلامى وخاصة القول بأنه موحد بالله (لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه) حتى يستبعد المصريون انه انما جاء باسم الصليب وباسم العقيدة المسيحية التى تقول بالأب والابن والروح القدس .

والمنشور موجه الى « أهالى مصر » ، وهو يهدف الى التفرقة بين الحكام والشعب ، وهذا اسلوب اتبعته الغالبية العظمى من الدول التوسعية لعلها تعزل الشعب عن الحكومة وبذلك تضعف المقاومة التى تنتظرها . ومثل هذه الدعاية تصادف نجاحا فى المجتمعات التى يعانى فيها الشعب من ظلم حكامه ، مثلما كان عليه الحال فى مصر المملوكية . وفى نفس الوقت اكد المنشور أن الحملة — وهى موجهة ضد المماليك — غير موجهة الى السلطان العثمانى ، بل اشار الى أن الفرنسيين « فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى » وان الفرنسيين « أعداء أعدائه » .

فقد كان الفرنسيون يدركون حقيقة عمق الولاء المصرى للسلطان العثمانى خليفة المسلمين وانهم حين يثورون على وال أو حاكم ظالم — حتى ولو كان السلطان نفسه هو الذى عينه — انما يثورون ضد الطاغية وليس ضد السلطان العثمانى . ومن ثم كان بونابرت حصيفا حين ركز على انه انما جاء ليضرب المماليك الذين خرجوا عن طاعة السلطان ، فحل عليهم العقاب وها هم الفرنسيون قد قدموا لانزال العقاب بهم ، ولينقذ المصريين منهم .

واثار منشور بونابرت قضية قانونية وهى حق المماليك فى احتكار حكم مصر ، وتساءل اين حجة هذا الحق الذى يدعية المماليك . والحقيقة ان اثارة هذه القضية كانت نتيجة التكوين الفكرى القانونى لنابوليون بونابرت ولا يقابله فى الشرق أمر مشابه ، حيث ان تولية مسلم حكم مسلم امر مفروغ منه وان المقياس الشرعى هو سلامة العقل والبدن واتباع الشريعة الاسلامية وعدم ظلم الرعية ، وانما الأمر المرفوض رفضا باتا لدى المسلم المصرى حينذاك ،

وبعد ذاك ، هو أن يحكمه ذمي ومن ثم لم تلفت تلك القضية نظر المصريين وراوا في تلك العبارات القرآنيــة والايحــاءات الاســلامية ، وفي التفرقة بين المماليك — على علاتهم — والشــعب ، وجدوا أن الأمر يهدف الى فتح كافة القنوات التي تســهل وقوع مصر في قبضة فرنســا .

وأثار المنشــور قضية أخرى وهي ان المماليك ليســوا من أهل البلاد وانما هم مجلوبون من بلاد « الأبازة والجراكســة » وهو أيضا فكر اوربي ينطلق من مفهوم (القوميــة) أراد به بونابرت أن يثير المصريين على المــاليك من هــذا المنطلــق القومي ، واضــاف الى ذلك ان « العلمــاء والفضــلاء والعقــلاء بينهم سيدبرون الأمور » أو بمعنى آخر ان الفئات المثقفة ســيتولون توجيه أمور البلاد . هــذا الفكر الذي كان لدي بونابرت لم يكن لدى المثقفين حينــذاك مفهــوم القوميــة في مصر لم يظهر الا فيما بعد ، وانما الراســخ في الأذهــان مفهوم الدولة الاســلامية العــامة .

ومع أن نابوليون بونابرت كان ابنــا للثورة الفرنســية وكان (علمــاني) الفكر والســلوك فقد ظهر أمام المصريين بأنه يؤمن بالقــدر ، وذلك حين قال في منشورة : « فأما رب العالمين القــادر على كل شيء فانه قد حــكم على انقضــاء دولتهم » والقدرية كانت من أكثر النظريات رســوخا في ذهن الشرقيين حينذاك .

وصرح بونابرت في منشــوره ان الفرنســيين « مســلمون مخلصون » وقدم اثبــاتا لذلك وهو ان الفرنســيين عنــدما اســتولوا على رومــا « خربوا كرسي البــابا » ، وهو عمــل فعــلا يعتبر ضربة للقدســية البابوية المسيحية . ولقد كان بونابرت فعلا لا يقــدر البابوية الا من الناحيــة السياســية ، وكان الفــكر الديني قد تراجــع بفعل الثورة الفرنســية فعلا . وعلل بونابرت ضرب البابوية وكذلك فرســان القديس يوحنــا في مالطــة بأنهم كانوا يحثــون على « مقــاتلة المســلمين » وهو تعليــل أن كان صــحيحا في نظر بونابرت فهو ليس الســبب الحقيقي وراء ضربه للبابوية وفرســان القديس يوحنــا . وانما أراد نابوليــون بونابرت من وراء ذلك الادعاء كســب قلوب المســلمين المصريين واثبات أنه يقدر الاســلام والمســلمين . لقد اتخذ بونابرت من أحداث أوربا ما يحاول به كســب ثقــة المســلمين عن طريق لوى رقبة التاريخ والأحداث .

لقد كان اتهام الفرنسيين بأنهم صليبيون هو اقوى سلاح لتحريك الشعب ضدهم ، ومثل هذا الاتهام سريع التصديق بين المسلمين . حقيقة كان من مبادىء الثورة الفرنسية حرية الاعتقاد والحرية الدينية . ولكن لم يكن هذا معروفا فى الشرق ، ثم ، كيف يصدق مسلم ان مسيحيا أوربيا لا يتورع عن تدمير بلاد المسلمين مع ان التراث التاريخى ملىء بعدوان الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى ؟ فتاريخ الحروب الصليبية راسخ فى أذهان المسلمين بصفة عامة وفى اذهان المصريين بصفة خاصة . وما كان المصرى لينسى الدماء الغزيرة التى سالت على ارض مصر دفاعا عنها ضد الغزاة الصليبيين ولا المدن والقرى التى احرقوها .

فلا غرو ، انه لم يكن لهذا القول صدى فى نفوس المصريين اذ كانوا على يقين ان الهدف الصليبى وراء الحملة الفرنسية . والحق انها صليبية من نوع جديد (امبريالية) ولا يوجد فارق كبير بين الاستعمار باسم الدين (الحروب الصليبية) والاستعمار باسم (المصالح الاقتصادية والاستراتيجية) فكلها تهدف الى استبعاد الشعوب ووضعها فى خدمة مصالح دولة اجنبية معتدية .

وقال بونابرت ان المساواة بين الناس مبدأ الهى ، وان ما يفرق بين الفرد والآخر هو العقل والفضائل والعلوم . وهنا يختلف عن الشائع بين المسلمين وهو ان الفرق انما بالتقوى والتقوى كلمة فضفاضة يمكن أن تشمل فيما تشمل العلم والفضيلة ، ولكن ما كان يهدف اليه بونابرت هو التركيز على دور العقل والعلم فى العصر الحديث وكذلك الفضيلة وهى فى نظر الانسانيين الأخلاقيات الانسانية .

ثم كشر بونابرت عن انيابه حين طلب من الشعب المصرى أن يقف ساكنا ساكتا خلال القتال بين الفرنسيين والمماليك وهدد القرية ــ التى تقاوم الجيش الفرنسى ــ بأن (تحرق بالنار) ، ومعنى هذا أن نابليون بونابرت لا يطبق القانونية الدولية التى تحرم المسئولية الجماعية ، فضلا عن أن أسلوب الحرق هذا يتنافى مع اخلاقيات الحضارة الحديثة ومع ذلك فان اسرائيل حاليا تطرد الاهالى من بيوتهم بعيدا فيما وراء الحدود ثم تهدم منازلهم مع أن القوانين الدولية كلها تحرم ذلك .

ومن ثم يمكن القول :

١ — ان بونابرت استخدم اساليب دعاية لاقناع المصريين ان غزوته لا علاقة لها بنظرية الحروب الصليبية وكان الشعب المصرى — رغم هذا — يرى انها حملة صليبية ولم تؤثر فيه الأساليب والحجج التى قدمها بونابرت .

٢ — ان المصريين كانوا غير مستعدين اطلاقا لتفهم شعارات الثورة الفرنسية ، فمهما كانت مبادئها سامية فلا قيمة لسموها ازاء خطة لاستعمار البلاد بالقوة .

٣ — هدف بونابرت الى ايقاع الفرقة بين الشعب والمماليك على اعتبار ان المماليك يمثلون القوة العسكرية التى ستتصدى للحملة ، ولكن رغم ما كان الشعب يعانيه من ظلم المماليك فان ذلك لا يؤخذ فى الاعتبار عند تعرض البلاد لغزو أجنبى .

وكان أول خطأ أقدم عليه بونابرت هو تعيين برطلمين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان ، وهو المسئول عن حفظ الأمن فى القاهرة ، ولم يسبق ان تولى نصرانى هذا المنصب من قبل . واغلب الظن ان بونابرت كان لا يثق فى اى مصرى مسلم يتولى هذا المنصب .

لقد كان الرجل قبطيا مصريا وانما كان يونانيا ، فكان بلا جذور محلية ، وانما كان مصيره مرتبطا بمصير الحملة الفرنسية فى مصر . فالأجنبى المستعمر حين ينتقى معاونيه فانه يفضل فى كثير من الأحيان من يرتبطون به ارتباطا مصيريا ، واكثر هؤلاء يكونون من غير القاعدة الشعبية المصرية ولا من الانتلجنسيا الوطنية .

اثارت الحملة الفرنسية لأول مرة فى تاريخ مصر الأزمة بين الأقباط والمسلمين . ولكن نلاحظ ان هذه الأزمة كانت مقصورة على القاهرة اما القسم الأكبر من الأقباط فكان يقيم فى الصعيد ، ولم نسمع عن اية ازمة بين المسلمين والأقباط هناك . ثم ان الاقباط كانوا يشكلون جزءا من الادارة المملوكية ، ولم يكونوا يشكلون اقلية منفصلة عن بقية الشعب المصرى . بل لقد كان الاقباط على حذر من الحملة الفرنسية لما كانت تحمله من مبادىء الثورة الفرنسية التى لا تعطى للدين المسيحى مكانته . هذا الى ان

الاقبــاط الارثوذكس كانوا ينظرون بعين الحــذر الشــديد الى الكنائس الأوربيــة الغربية ، وكانت هذه الكنائس الأوربيــة لا تضع اقبــاط مصر والكنيســة القبطية فى مكانة لائقــة .

ما هى القوى التى تصــدت للفرنســيين او تعاونت معهم ؟

لنحدد هذه القوى التى تصدت للوجود الفرنسى فى مصر :

١ ــ القاعدة الشــعبية كلها دون تحفظ لم تقبل وجــود الفرنجة الصليبيين على ارض مصر . ولا قيمة لأى مبرر يســاق اليهم لقبولهم وما كان تعاملهم معهم الا امر مســايرة الى حين .

٢ ــ القيــادات الدينية ويمكن أن نقســمها الى الفئات التاليــة :

(أ) اغلبية عظمى على مســتوى البلاد رافضة رفضــا تاما التعــاون مع الفرنســيين وهى تمثل القاعدة الشــعبية من رجال الدين الموجــودة فى كل قرية وكل مدينة . ومستوياتها الثقافية محدودة .

(ب) رجال الدين ممن اطلق عليهم الجبرتى اســم (المتعممين) فى القاهرة وهم يمثلون القاعدة الشــعبية من رجال الدين فى القاهرة . وهم على اتصال مباشر اكثر بالأحيــاء والقاعدة الشــعبية .

(جـ) كبار رجال الدين والمشايخ من ذوى المناصب او المصــالح الاقتصادية ، وهؤلاء كانوا يمثلون (الصفوة) ، وهذه الصفوة تفضــل ما يســمى بـ « التعقل » عند مواجهة الأزمات وهؤلاء كانوا يلعبون دور المدافع عن مصالح الشــعب فى ايام المــاليك ، فامتد دورهم هــذا الى ايام الوجود الفرنسى فى مصر ، وهو الدفاع عن مصالح الشــعب والبلاد امام الفرنســيين ، وهذا الدور لا يعنى قبولا للوجود الفرنسى وانمــا يعنى قبــول الأمر الواقع المفروض حتى يفرج الله كربة المسـلمين . ونظرا لأن مســـتواهم الفكرى كان عاليا ــ بالقياس الى غيرهم ــ فقــد كانوا قادرين على تحــديد مواطن القوة والضــعف فى المجتمع الفرنسى الممثل فى رجال الحملة الفرنســية ، واكتشــفوا انهم أمــام حضــارة متقدمة ، وان المجتمــع المصرى الاســلامى فى حاجــة الى التطوير ، ويمثل هؤلاء الشــيخ الشرقاوى وحسن العطار وعبدالرحمن الجبرتى .

(د) عدد محدود جدا لا نعرف منه الا الشيخ خليل البكرى واسرته التى تعاونت مع الفرنسيين تعاونا زاد عن الحد وليس هناك من تفسير الا من حيث تغلب الأغراض الخاصة على المصلحة الوطنية. والغريب أن الرجل كان من الأشراف ، واسندت اليه نقابة الاشراف فى أيام الحملة الفرنسية . وان سلوكه هذا انعكس على اسرته فخرجت ابنته عن المقبول فى علاقاتها مع الفرنسيين .

وهنا نتساءل : لماذا من بيت الاشراف خرجت هذه الحالة التى وضعت نفسها واسرتها فى خدمة الفرنسيين حتى لقد كادت ابنته أن تتفرنس ؟ فهل هى حالة خاصة ؟ المعروف أن الاشراف لهم كيان خاص بمقتضى عراقة المحتد حيث انهم من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم فهم يستمدون مكانتهم من منطلق أوتوقراطى وليس من منطلق وطنى مصرى . وهم يضعون أنفسهم فى مكانة فوق مكانة اهل البلد ، ورزقهم من الحكام ومن تبرعات الأهالى تبركا بهم . ومع ذلك فالصفوة من رجال الدين المصريين اكثر عمقا وارتباطا بالقاعدة الشعبية منهم . واصبحت (الشرافة) ذات أهداف سياسية فى اكثر من ولاية عثمانية . ففى الشام كونوا قوة ضاربة محلية تتحدى السلطات الأخرى .

وفى الحجاز كان الاشراف يحكمون من مكة ، وكانوا يمثلون أصحاب الحق فى الحكم وفى أسرة أو اسرتين محددتين تتوارثان الحكم هناك . أما فى مصر فلم يكن لهم مجال قوى وان كانوا محترمين احتراما زائدا .

٣ — العامة : خلال الفترة الواقعة بين هزيمة المماليك فى معركة امبابة ودخول الفرنسيين القاهرة تحركت العامة لأول مرة فى التاريخ ضد حكامهم المماليك تحركا ثوريا حيث انتض « الجعيدية واوباش الناس ونهبوا بيت ابراهيم بك ومراد بيك فى القاهرة واحرقوهما ونهبوا عدة بيوت من بيوت الأمراء » .

وبذلك عبر هؤلاء « الاوباش » عما كان يجيش فى قلوب أهل القاهرة من ظلم المماليك وجبروتهم وخيبة املهم فيهم فى الدفاع عن الديار . ولكن لماذا تحركت فقط « اوباش الناس » . والجعيدية والحرافيش والحشرات ، قد توحى هذه الاوصاف بأن أصحابها ممن لا خلاق لهم من الفئات الدنيا الفقيرة ولكن فى الحقيقة هم رجال يكتسبون قوتهم ببعض الاعمال الحرفية ، ولكن بينهم نوع من التضامن ضد العناصر

القيادية الاستغلالية . وهم القادرون على تحويل التحركات الشعبية الى عنف ونهب .

وهؤلاء هم الذين كانوا القوة الشعبية المستعدة لقتال الفرنسيين ، وكانوا هم الاقدر على تجميع العامة فى حركة شعبية ، ولا شك انهم — رغم مساوئهم — كانوا عنصر مقاومة خطير ضد الفرنسيين ، وضد الأجانب الاستعماريين وضد الطغاة .

فلكل منهم عزوة محددة او غير محددة فى حيه . وقد يكون على ثروة بسيطة ولكن متجددة بفعل عمله أو سطوته ، وينظر اليه العامة بنوع من الفخر ويحتقرهم الخاصة والعلماء . واغلبهم يستطيع ان يستخدم السلاح وعلى الأقل السلاح الأبيض البلدى وتعوزهم الاخلاقيات خارج حيهم اما عن اهل الحى فهم عنه مدافعون ولهم تعصب فى الدين حتى ولو كانت ممارساتهم فى بعض الأحيان غير شرعية . واتهمهم الجبرتى فى ثورة القاهرة الأولى انهم خرجوا عن الحد اذ « امتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب . ونهبوا دور النصارى والشوام والاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، واخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » .

٤ — البدو العرب : كانوا فى الصحراء الشرقية والغربية وفى البحيرة عنصرا من عناصر الفوضى ، والغالبية العظمى يضعون مصالحهم الخاصة فوق اية مصلحة اخرى ، وعندهم نوع من الاتفاق على نهب الفلاحين وسكان المدن وقوافل التجارة ومواكب الحجاج مادام فى استطاعتهم ذلك . ومن ثم فان المفهوم الوطنى أو الاسلامى كان ظاهريا فقط ، ولم يكن هناك ولاء سوى الولاء للعشيرة . فهم يمثلون البدائية العشائرية المتخلفة . وليس معنى هذا ان كل العشائر العربية اتخذت هذا الموقف الخطير من الشعب فى وقت الأزمة فالهوارة لعبت دورا فى مقاومة الفرنسيين .

٥ — المغاربة : وقد نشط فريق منهم فى التحريض على قتال الفرنسيين ، ونشط بعض آخر فى التعاون مع الفرنسيين فعملوا فى خدمتهم .

٦ — الاقباط ونصارى الشوام : وقد ربط بينهم الجبرتى باستمرار مع ان الاقباط مصريون منتشرون فى طول البلاد وعرضها ، اما نصارى الشام فهم فى المدن الكبرى فقط ، بل يمكن القول انهم مركزون فى القاهرة والاسكندرية . وهؤلاء

النصارى الشوام غالبا ما يكونون على المذهب الارثوذكسى ، والاعمال الرئيسية للاقباط هى التجارة والحرف وما يسند اليوم من اعمال ادارية فى مجال الحسابات والضرائب وهى مجالات مهروا فيها عبر العصور . وقد تحدث الجبرتى عن الاقباط فى موضوعية حيث انتقد بشدة تطرف العامة عندما اتجهوا الى نهب دورهم عند اقتراب الحملة الفرنسية من القاهرة ، وانتقد الجبرتى بعد ذلك اى اعتداء عليهم ، كما انتقد المتعاونين من الاقباط مع الفرنسيين .

٧ — الدولة العثمانية : كانت تؤمن بأنها مسئولة عن الدفاع عن مصر وتحريرها من الاستعمار الفرنسى . وكانت سلطات الدولة العثمانية ترى أن المماليك مسئولون عن نكبة الفرنسيين لمصر . وكان علاجها للمشكلة فى أول الأمر عن طريق تحرير مصر بقدراتها الذاتية ، ولما فشلت اعتمدت على الحملات المشتركة العثمانية الفرنسية فى ١٨٠١ ، تلك الحملات التى انهت الوجود الفرنسى فى مصر ، ولكنها اوجدت للانجليز دورا لهم،او على الاقل سمح ضعفها الى اعطاء هذا الدور للانجليز، ذلك الدور الذى سيتصاعد ويستمر حتى ينهار تماما على يد الحكم الوطنى الثورى فى خمسينيات القرن العشرين .

٨ — تعاون اشراف مكة وحكام طرابلس الغرب مع الفرنسيين فى مصر . حيث وضع شريف مكة علاقاته الاقتصادية بمصر فوق مفهوم الجهاد الاسلامى ضد الغزاة،وكذلك فعل يوسف القرمنلى والى طرابلس . ومن ثم يمكن القول ان العوامل الوطنية كانت اقوى من العوامل الاسلامية لدى حكام الحجاز وحكام طرابلس (الغرب) . حقيقة قدمت حملة محدودة العدد من الجزيرة العربية الى صعيد مصر للجهاد ضد الفرنسيين . وكانت هذه الحملة بقيادة الكيلانى . ولكنها حركة محدودة وليست حركة عامة .

ومن ثم يمكن القول ان القاعدة الشعبية والقيادة الدينية الاسلامية كانت اعمق القوى الاجتماعية فى مصر ايمانا وولاء لمصر ، ومعها على نفس المستوى الاوليجاركية المملوكية ، وتليها الطائفة القبطية ، اما نصارى الشام فأقلها ولاء ، واخيرا العرب او البدو الذين يرفضون سيطرة حكومية ايا كانت هذه السيطرة ، ويضعون انفسهم على هامش الدولة . فمفهوم الولاء للدولة هامشى ويلى بكثير مفهوم الولاء للتركيب العشائرى الذى ينتمون اليه .

ثورة القاهرة الأولى :

واذا كان المماليك يحاربون فى معركة امبابة وعيونهم معلقة ببيوتهم وحريمهم فى القاهرة ، فقد اصبحوا بعد هزيمتهم وتمركزهم فى الشرقية يحاربون الفرنسيين هناك وعيونهم معلقة بالعرب الذين يتربصون بالمماليك لنهب معسكراتهم . وابرز مثال على ذلك ان ابراهيم بك اودع حريمه ومتاعه عند بعض العرب قرب (القرين) فما كان من العرب الا ان اخبروا الفرنسيين بمكانهم فزحفوا ضدهم وتصدى ابراهيم بك للحملة الفرنسية ولكن بينما هو فى المعركة سمع بأن العرب هجمت على معسكره فترك المعركة لينقذ اهله ومتاعه . وفعلا قاتل العرب واجلاهم عن معسكره .

هكذا كانت الأوضاع مترديه من كافة جوانبهـا فى المعسكر المملوكى وكانوا بعيدين كل البعد عن ادارة الحرب الحديثة ، وكان التركيب الاجتماعى يلعب دورا كبيرا فى شل المقاومة بعد الهزيمة . فقد كان العرب والعربان عنصر فوضى مريعا فى البلاد .

لم ييأس المصرى للفرنسى ابدا ، وكان يدعو الله ان ينقذ البلاد من هذه النكبة، وكانت مخاوف المصرى من غدر الفرنسيين به لا تهدأ وكل عمل صالح لا يفهمه المصرى الا من زاوية خبث وغدر الاجنبى المستعمر ، وابرز مثال على ذلك انه ما ان سمع المصريون بنكبة الاسطول الفرنسى الذى اغرقه الانجليز فى معركة ابى قير البحرية حتى عمت الفرحة قلوب المصريين . ولم يصدر عن الديوان اى بيان يندد بما حدث بل صدرت الأوامر بمعاقبة كل من يتحدث عن هذه النكبة . بل لقد تشفع الشيخ الصاوى — عضو الديوان — لانقاذ تاجر مصرى واحد النصارى من امر بقطع لسانهما لانهما تحدثا عن اغراق الاسطول الفرنسى . فقد قرر عليهما غرامة مالية فى مقابل عدم قطع لسانيهما . فابدى الشيخ الصاوى استعداده لدفع المبلغ ودفعه ، ولكن المسئول الفرنسى طلب توزيع هـذا المبلغ على الفقـراء ولكنـه لم يوزع على الفقراء وانما رد المبلغ من حيث جاء .

واصبحت عيون المصريين معلقة بما سيقوم به السلطان العثمانى لطرد الفرنسيين من مصر ، وكانت تأتيهم المكاتبات من وقت لآخر بان السلطان يستعد لتحمل مسئولياته ، وكان المماليك يبعثون بمثل هذه الوسائل الى المشايخ . وكان المصرى ينتظر بادرة أمل فى تحرك السلطان العثمانى . ومن ذلك انهم عندما رأوا رجلا روميا على هيئة خاصة ظنوه مبعوث السلطان الى الفرنسيين لأمرهم بأن يغادروا البلاد فورا .

والمعروف ان اجراءات الفرنسيين الادارية كانت من الاسباب الرئيسية التى ادت الى ثورة القاهرة الأولى وبصفة خاصة موضوع تسجيل العقارات حيث ان التصرفات العقارية كانت معظمها عرفية بينما اصر الفرنسيون على ان يتقدم كل صاحب عقار بمستند ملكيته . وقد ادى هذا الأمر الى بلبلة عامة واضطراب واعد الناس للتحرك عند الوقت المناسب .

كذلك ادى هدم ابواب الحارات الى اعتقاد المصريين ان الغرض هو فتح الطريق أمام الفرنسيين ليفعلوا بالسكان ما يشاءون وقت ما يشاءون لأن تلك الأبواب كانت تغلق ليلا تحمى من بداخلها .

وكان أول احتجاج على افعال الفرنسيين واتباعهم خروج الرجال والنساء — والنساء بكثرة — من احياء فى قلب القاهرة فى تظاهرة كبيرة وصلت الى بيت بونابرت وذلك بسببه هدم « التراكيب المبنية على المقابر بتربة الازبكية وتمهيدها بالأرض » واضطر بونابرت الى وقف الهدم .

على ان ثورة القاهرة الأولى على الفرنسيين هى التعبير الشعبى العام الذى كان كامنا فى النفوس حتى تهيأت الظروف لانطلاقة قويا عنيفا عاما . وتجمعت الأسباب وانتظرت الشرارة ، وهى غالبا ما تكون مسألة اقتصادية متعلقة بالضرائب . فقد حددت الضرائب على العقارات والوكالات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت ، وبذلك يكون الفرنسيون قد اغضبوا كافة الفئات ، فتحركت العامة « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين » وحدد لنا الجبرتى القيادات الشعبية التى حركت الثورة ، وهى ليست قيادات عامة ، وانما هى مجموعة من القيادات الشعبية تفاهمت على الثورة وقامت كل منها بدوره فى محلته ويتعاون عشوائيا مع الآخرين من أمثاله وهذه القيادات الشعبية هى على حد تحديد الجبرتى :

١ — حشرات الحسينية .

٢ — زعر الحارات البرانية .

٣ — بعض المتعممين .

القاسم المشترك الاعظم بين هؤلاء هو أنهم يفتقرون الى العقار الثابت ، ومن ثم ليس لديهم ما يخشون على ضياعه ، باستثناء (المتعممين) الذين ربما كانت لهم ارزاق مخصصة معرضة للضياع ، ولكن وازع الدين اقوى ، ولأن مكانتهم كانت

اقل من العلماء والمشايخ فقد كانوا أقرب الى العامة من غيرهم من رجال الدين (•)

وقد حاولوا تحريك القاضى فرفض فرجموا بيته بالحجارة ثم اقاموا المتاريس وخرجت كافة الناس للقتال والمدافعة . ولكن بدون قيادة أو تخطيط وانما حسبما يمليه الموقف وما يفرضه الصياح (•) لقد كانت الثورة تعبيرا شعبيا عن رفض التسلط الفرنسى ولكنها لم تستمر طويلا (•)

ثورة القاهرة الثانية :

وما ان شاع بين افراد الشعب ان اتفاقية فى ١٨٠٠ وقعت تقضى بجلاء الفرنسيين عن البلاد حتى عمت الفرحة ، واخذ المصريون يبدون حقيقة مشاعرهم ، فاذا ما قدم مسئول عثمانى الى القاهرة ليتباحث فى بعض أمور الجلاء استقبلهم الأهالى بكل ترحيب ، وعندما طلبت الأموال من الأهالى لتغطية بعض نفقات رحيل الفرنسيين عن البلاد تسابق كل مقتدر على التبرع . وعلى حد قول الجبرتى :

« لعلمه ان ذلك لرحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة » (•)

وكلما مر بهم فرنسى غمزوه بكلمات السخرية والاستهزاء .

واصبح موقف القبط ونصارى الشام حرجا بعد توقيع اتفاقية العريش (١٨٠٠) ، فقد بدا فى عيون الشعب ان ساعة القصاص ممن تعاون مع الفرنسيين قد حانت . والهب المماليك العائدون الى القاهرة المشاعر الشعبية ضد القبط ونصارى الشام حيث يقول الجبرتى ان المماليك كانوا يرددون لعن « النصارى البلدية » وهم الاقباط ونصارى الشام الذين تعاونوا مع الفرنسيين . وعندما نشبت ثورة القاهرة الثانية اطلق العثمانيون النداءات بأن « اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم » فما كان من العامة الا أن شنت الهجمات على النصارى . فكانوا يقتلون « من يصادفونه من النصارى القبط والشوام » (•)

لقد كانت التجربة مريرة خلال ثورة القاهرة الثانية فقد كان بونابرت خلال ثورة القاهرة الأولى لا يزال يتمنى البقاء فى مصر واقامة مستعمرة فرنسية فى الشرق ومن ثم فهو فى حاجة الى تعاون الشعب معه ، ولذلك كانت ضرباته للثوار فى حدود مقتضيات ومتطلبات اخماد ثورة . اما خلال ثورة القاهرة الثانية فقد كان الفرنسيون اشبه ما يكونون بأسد جريح ، فقد مقومات البقاء وهاجمته كل القوى التى كانت

تخشى بأسه ، فانطلق هائجا يضرب بكل قسوة دون رحمة . فبقاء الفرنسيين بعد نقض اتفاقية العريش وبعد ثورة القاهرة الثانية أصبح محفوفا بمخاطر لا نهاية لهـا .

لقد كانت تجربة المصريين خلال ثورة القاهرة الثانية مريرة مدمرة ، وكانت خيبة املهم فى العثمانيين والمماليك كبيرة ، حيث هزمهم كليبر ليتفرغ بعد ذلك لانزال غضبه التدميرى بأحياء القاهرة المقاتلة .

وقد افاد مينو من ذلك عندما نزلت الحملة الانجليزية الى مصر فى ١٨٠١ وتقدمت القوات العثمانية نحو القاهرة حيث اصدر مينو أوامره الى المصريين بأن يلزموا الهدوء والا يفتروا بمقدم القوات العثمانية والانجليزية وذكرهم بما حدث فى أعقاب اتفاقية العريش وما نزل بالقاهرة خلال ثورتها الثانية من دمار وتقتيل واسع النطاق .

ونلاحظ فعلا أن القاهرة لم تتحرك عندما اقتربت القوات العثمانية والانجليزية وظلت الأمور هادئة فيها الى حد كبير حتى استسلم الفرنسيون .

السياسة الدينية لنابليون وخلفائه فى مصر :

كان بونابرت يعمل على كسب القاعدة الشعبية الى جانبه ، وكان محقا حين اتخذ من الدين والتقاليد الدينية وسائل للتقرب من القاعدة الشعبية العريضة . ولذلك عنى بأن يستمر الشعب فى ممارسة هذه التقاليد . وكان القاهريون قد توقفوا فعلا عن القيام بكثير من الاحتفالات الدينية ، وهناك أمثلة عديدة على هذه الأساليب التى تشكلت منها سياسة بونابرت الدينية التى امتدت حتى نهاية الحملة الفرنسية .

ويمكن أن نحدد المراحل الرئيسية للسياسة الدينية للحملة الفرنسية :

١ — فترة التقرب والمشاركة فى الاحتفالات الدينية وتبدأ منذ صدور منشور بونابرت حتى ثورة القاهرة الأولى .

٢ — الاتجاه الى الافادة من العناصر المذهبية المسيحية وتصاعد ذلك بعد ثورة القاهرة الثانية ومصرع كليبر .

٣ ـ محاولة مينو أن يكون حاكما اسلاميا على الطريقة الفرنسية وهى بداية النهاية للسياسة الدينية .

عندما وقعت مصر فى قبضة بونابرت توقف الشعب المصرى عن عقد الاحتفالات الدينية لعدة أسباب :

١ ـ لأن اقامة مثل هذه الاحتفالات فى وجود الاستعمار الفرنسى لا يتناسب مع طبيعة هذه الاحتفالات ، فهى تقام بكل تلقائية ، فى الظروف العادية ، أما فى مثل هذه الحالة فانها تجعل الشعب غير مستعد نفسيا لاقامتها .

٢ ـ ان الشعب المصرى كان يعتقد أن الفرنسيين ضد الدين الاسلامى ، وانهم قد يهاجمون المسلمين اذا عقدوا مثل تلك الاحتفالات .

وقد علم بونابرت بتوقف الشعب المصرى عن عقد احتفالاته التقليدية الاسلامية ، ولذلك دعا الى اقامة تلك الحفلات مثل الاحتفال بارسال الكسوة الشريفة الى مكة المكرمة ، واقامة المولد النبوى الشريف ، ودعوة الناس الى اقامة شعائر الدين الاسلامى بنفس الأساليب المعتادة ودعوة الأعيان والمشايخ والتجار لحفلات افطار وسحور رمضانية « وطاف كبار الفرنسيين على الأعيان يهنئونهم بالعيد (١) » ، وأقيمت الموالد على النسق الصاخب الذى كانت تقام به من قبل .

وعنى الفرنسيون بالاحتفال بارسال الكسوة الشريفة الى مكة المكرمة ولذلك « اجتمع الناس فى الأسواق وطريق المرور وجلسوا للفرجة ، فمروا (بالكسوة) وامامهم الوالى والمحتسب وعليهم القفاطين والبنشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ثم برطلمين كتخدا مستحفظان وأمامه نفر الينكرجية المسلمين نحو المائتين واكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع » .

وعلق الجبرتى على مشاركة النصارى فى موكب الكسوة بأنها « أغرب المواكب وأعجب العجائب ، ولما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال وتنوع الأمثال واجتماع الملل وارتفاع السفل وكثرة الحشرات وعجائب المخلوقات واجتماع الأضداد ومخالفة الوضع المعتاد » (٢) .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٨ .
(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

ولقد كانت الاحتفالات الدينية تحت الاحتلال الفرنسى ذات طبيعة مختلفة فعلا ، ليس فقط من حيث الحالة النفسية التى كان عليها الشعب ، وانما لأن الاحتفالات تضمنت مظاهر لم تكن معتادة من قبل . فالفرنسيون غير المسلمين هم الذين يسمحون بها ، والنصارى يشاركون فى بعضها وهذا ما لم يكن يحدث من قبل مطلقا .

وقد أدرك عبد الرحمن الجبرتى — وعلى الأغلب ادركت الصفوة المثقفة — أن الفرنسيين حين شجعوا المصريين على اقامة الاحتفالات الدينية وخاصة (الموالد) لم يكن ذلك الا لالهاء المصريين . لقد شجع بونابرت ذلك ، أما كليبر فقد شجع بتطرف اقامة تلك الموالد لأن الفرنسيين — على حد قول الجبرتى :

« رأوا فيها من الخروج على الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات » ما يشغل الشعب عن مقاومة الفرنسيين .

وكان الجبرتى ناقدا لاذعا لما كان يجرى فى تلك الاحتفالات فيقول :

« ركب [المحتسب] ... وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير ، والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رءوسهم وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشع مهول » (١) .

والى حد قريب كانت الموالد موبوءة بتلك المظاهر اللا أخلاقية . وكانت أكثر العلاقات الجنسية غير السوية تقع خلال تلك الموالد ، التى يؤمها المحترفون والمنحرفون ، وكذلك الوافدون من الأرياف ويقيمون فى الخيام أو فى الخلاء رجالا ونسوة ولعدة أيام .

ولقد انتقد الجبرتى بشدة هذه المظاهر غير الأخلاقية ، وان لم ينتقد اقامة الموالد نفسها ، ورأى فيها عارا وسبة فى جبين المجتمع ، وانتقد كبار رجال المشايخ لأنهم كانوا يحضرون تلك الموالد ويغضون الطرف عما يجرى فيها من آثام .

وقد أبدى بونابرت ميلا الى تولية النصارى بعض المناصب الادارية التنفيذية بالاضافة الى ما سبق أن قام به فى هذا الصدد . فقد احتفل بونابرت

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

بتنصيب بعض النصارى على نحو ما يرويه الجبرتى :

« ... واجتمعت عساكرهم ... ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام .. ولبس المعلم جرجس الجوهرى كركه بطرز قصب على اكتافها الى اكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بازرار وكذلك فلتيوس ... وتعمموا بالعمائم الكشميرى .. وركبوا البغال الفارهة ، واظهروا البشر والسرور » .

حقيقة هناك مصريون تعاونوا مع الادارة الفرنسية ولكن هذا فى نظر الشعب المصرى المسلم مداراة أما بالنسبة للقبط والنصارى فالمسلم كان يرى ذلك اتفاقا ضد المسلمين .

حقيقة رفع الفرنسيون من مكانة القبط ونصارى الشام الاجتماعية الا انهم لم يسمحوا لهم بأن يتجاوزوا الحد الذى يثير حفيظة القاعدة الشعبية الاسلامية العريضة . وفى هذا يقول الجبرتى :

« ان نصارى الشوام رجعوا الى عاداتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق ، وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك ، ونبهوا (اى الفرنسيين) ايضا بالمناداة فى اول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شىء من ذلك بمرأى منهم كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » (١) .

كان طبيعيا أن يتغير موقف بعض القبط والنصارى الشوام من المسلمين بعد ان تعرضت بيوت نصارى القاهرة للنهب والسلب . وكان طبيعيا أن يتصاعد اعتماد الفرنسيين على القبط والنصارى الشوام للأسباب التالية :

١ — ان المستعمر يجد انه من اللازم له أن يتعاون مع أقلية أو طائفة كانت لا تتمتع بكافة حقوق المواطنة . فالأغلبية عند المستعمر للاستغلال والأقلية أو الطائفة للتعاون وتبادل المنفعة . وهذه قاعدة عامة .

٢ — حاجة المستعمر الى طائفة يثق فيها لتقوم بدور هام فى الادارة

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٤٤ — ٤٥ .

وتنفيذ أهداف المستعمر ، ولا يستطيع الا أن يعتمد على طائفة معينة او اقلية .

٣ — ان رابطة الدين تسهل اختيار الطائفة . وقد كان القبطى لا يتمتع بالمواطنة كاملة طبقا للشريعة الاسلامية التى الزمته بالجزية فى مقابل حمايته ، أما مفهوم المواطنة عند الغرب وفى فرنسا بالذات فهو ان الجميع سواسية أمام القانون ، ولذلك حصل البروتستنتات واليهود على حقوق المواطنة كاملة بعد الثورة الفرنسية . فطبق بونابرت هذا المبدأ فى مصر ، فجأة دون تمهيد . فقد قضت فرنسا حوالى ثلاثة قرون حتى وصلت الى تلك النتيجة . بينما فرضها الفرنسيون بين ليلة وضحاها .

وزادت أواصر العلاقة بين الفرنسيين من جهة والأقباط ونصارى الشام من جهة أخرى ، وكان هذا واضحا خلال الأعياد العامة مثل شم النسيم فيقول الجبرتى : ان القبطة والشوام والأروام اسرفوا فى الخلاعة والشرب والاستهزاء بأمر مصر ، فكانوا يقلدونهم فى الكلام والملبس ، الأمر الذى كان يوغر صدور المسلمين حتى اذا ما وقعت اتفاقية العريش ١٨٠٠ أصبح موقف النصارى والقبط المتعاونين مع الفرنسيين دقيقا . ولم يلبث ان وقعت ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين فكان من بين النداءات التى انطلقت خلال هذه الثورة « اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم » ، وعندما تسامع العامة بذلك اخذ العامة يقتلون من يصادفهم من الأقباط والنصارى ، بل امتد القتل الى من جاورهم من المسلمين (*)

وكان الأقباط والنصارى يتوقعون هذا التطور واستعدوا لمواجهته بجمع الرجال والسلاح والذخيرة وتحصنوا فى دورهم يرمون بالبنادق من اعلى وجماعات المسلمين تحاول اقتحام بيوتهم من أسفل . حتى اذا ما انتهت الثورة وسيطر الفرنسيون على القاهرة مرة أخرى ، خرج الأقباط ونصارى الشوام ليصفوا حساباتهم مع المسلمين ، وقاموا بعمليات اذلال لهم .

فيقول الجبرتى : « وتطاولت النصارى من القبط والنصارى من الشام على المسلمين بالسب والضرب » (*)

وكان من المعتاد انه اذا مر مسلم من ذوى المكانة على قبطى وقف الأخير

احتراما له ، وبعد ثورة القاهرة الثانية كان الأقباط والنصارى يرغمون المسلم على الوقوف عند مرورهم .

وعلى اى حال ، عندما استعاد العثمانيون مصر بعد طرد الفرنسيين (١٨٠١) استاءوا مما وقع بين المسلمين والأقباط من فتنة كان سببها الحقيقى وقوع مصر فى يد المستعمر الفرنسى ولذلك عملوا على تسوية القضية . فاصدروا تعليماتهم بعدم التعرض لأهل الذمة . وبرر العثمانيون تورط الاقباط فى بعض الأفعال بقولهم « ان الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية هو صيانة اعراضهم وأموالهم » .

وهناك رواية للفارس الفرنسى لاسكارس عن المعلم يعقوب وهو من اعيان الاقباط ، الذى شكل تحت امرته قوة عسكرية قبطية محدودة وضعت فى خدمة الفرنسيين والأقباط .

فلأول مرة فى تاريخ مصر تشكلت قوة عسكرية أو على الأقل شبه عسكرية ، وأقام عين قبطى بتحصين بيته على هيئة قلعة .

ولأول مرة يفكر عين قبطى فى الرحيل على رأس مجموعته من مصر الى دولة أجنبية أوربية . فقد غادر المعلم يعقوب مصر مع بعض من رجاله مع الفرنسيين . وقد مات الرجل ولم نسمع عنه الا من الفارس لاسكارس الذى قال ان مشروعا لاستقلال مصر كان لدى المعلم يعقوب . ويكون بذلك أول من فكر — اذا كان ذلك صحيحا — من منطلق طائفى ذى صبغة قومية فى استقلال مصر .

وجذور هذه الفكرة — ان وجدت — هى أن بعض الأقباط اعتقدوا أنهم هم سلالة المصريين الفراعنة ، وأن المسلمين فى مصر من العرب أو ممن ضحى بمصر فى سبيل مفهوم الدولة الاسلامية العامة .

واذا كان لهذه الفكرة اساس فان ذهاب بعض الباحثين الى القول بأنها أول دعوة قومية تظهر فى مصر الحديثة يعتبر افتياتا على المفهوم الوطنى القومى ، حيث لا يمكن ان يكون هناك انسجام بين المفهوم الوطنى القومى مع هذا المفهوم الطائفى .

زواج الفرنسيين من مصريات مسلمات :

من المعروف أن الدين الاسلامى يحرم زواج مسلمة من ذمى ، مهما كانت الظروف . وعندما جاء الفرنسيون الى مصر كانت بعض زوجات الضباط معهم . وظهر النموذج النسائى الأوربى أمام المجتمع المصرى . من حيث السلوك الاجتماعى والملبس ، وشاهد المجتمع المصرى ما كانت عليه المرأة الفرنسية من حرية وانطلاق ، وكان طبيعيا أن تسعى بعضهن الى التعرف على نساء بعض البيوت الاسلامية ، وكان من بينها بيت الشيخ خليل البكرى ، وكانت ابنته على نوع من التحرر والاستعداد للخروج على التقاليد الاجتماعية المصرية الاسلامية . وشجعتهن على ذلك بعض النسوة اللاتى لهن معارف واسعة مريبة مع رجال عصرها وامثالهن هن اللاتى يبدأن بتخطى التقاليد و (سحب) أو التغرير بفتيات ونسوة اخريات يكن على استعداد لذلك .

ونظرا لفرار المماليك من القاهرة وتركهم للجاريات دون عائل ، فقد أصبحن — خاصة تحت الحكم الفرنسى — يتمتعن بحريتهن ولا يستطيع احد أن يسيطر عليهن . ولذلك كن مستعدات لأن يلقين بأنفسهن تحت اقدام الفرنسيين حتى « نطلن الحيطان » اليهم ، على حد قول عبد الرحمن الجبرتى .

وبعد تولية مينو ، واشتهار زواجه من زبيدة واعلان اسلامه رسميا ، شجع مينو اقتران الفرنسى بالفتيات المسلمات بعد اعلان الاسلام بنطق الشهادتين فقط ، أو بمعنى آخر اعلان اسلامه رسميا دون أن يكون ذلك فعليا . وحدثت فعلا زيجات عديدة بين الجنود الفرنسيين والفتيات المصريات المسلمات فى أيام حكم مينو .

والمعروف لدينا أن مينو اصطحب معه زوجته زبيدة ، ولا نعرف ما حدث لبقية المصريات المتزوجات من الفرنسيين وأغلب الظن أن الغالبية العظمى منهن بقين بعد رحيل الحملة ، وبعضهن قتلتهن السلطات العثمانية بعد خروج الحملة الفرنسية . وأغلب الظن أن معظمهن أردن أن يلعبن نفس اللعبة مع رجال القوات العثمانية التى استقرت فى مصر بعد رحيل الحملة الفرنسية .

فيحدثنا الجبرتى عن ذلك فيقول ان بعض هذه النسوة استطعن الزواج من العسكر العثمانى وقال ان العسكر :

« أمهروهن المهور الغاليــة وأنزلوهن المناصب العاليــة » (١) .

وتعليل ذلك أن الجنـد عنـدما ينزلون بلدا يكون احتكاكهم — فى مجـالات العلاقات النسـائية — مع السـيدات (البطالات) ، وهن على معرفة واسـعة بالنســاء ممن غادرهـم أزواجهن الفرنسـيون فكانت المهمـة سـهلة امامهـن لتزويجهن من العثمانيين . وأما تفسـير تقـديم المهور الغاليـة واسـناد المناصب العالية لهن ، فأغلب الظن أن ذلك يرجـع الى ما أصبحن عليه من خبرة بأمـور الحيـاة ، اكتسـبتها تلك النسـوة خلال معاشرتهن للفرنسـيين . فهن نسـاء لـكل غـاز .

على أنه يجب أن نحذر باسـتمرار أن هذه الأمور كانت تقـع فى القـاهرة ولا تقع فى المدن الأخرى الا فى النادر ، أمـا فى الريف المصرى فلا يمكن أن تقـع . ومن هنا تأتى أصالة الريف وقدرته على الحفاظ على تقاليده وشـخصيته وصلابته فى مواجهة الضغط الأجنبى الاجتماعى باتباع الريف لأسـلوبه المفضل فى مقـاومة الأجنبى الا وهو (المقـاومة السلبية) .

والملاحظ أن الجبرتى لـم يشر الى حالـة ولـو واحـدة تزوج فيها فرنسى بمسـيحية قبطية ، رغم ما كان بين العديد من الأقبـاط والفرنسـيين من تبادل ثقة وقوة ارتباط . وربما يمكن القول أن الفرنسـيين كانوا فى حاجة الى استمالة القـاعدة الشـعبية الاسـلامية بينما لم تكن هنـاك حاجـة الى ذلك بالنسـبة للأقباط خاصة وقد أخلص العديد منهم للفرنسيين .

وربما تكون هذه الزيجـات قد تمت ولـم يذكرها الجبرتى لأنهـا زيجـات طبيعية ، وانما ركز الجبرتى على الحالات الشـاذة اللافتة للنظر .

وقد بلغ غلو المصريات المتفرنسـات ذروته فى أيام مينو وصور ذلك الجبرتى بقوله ان الفتيات والنسـوة جذبهن الزى الفرنسى ومرح الفرنسـيات ، حتى لقد بلغ الأمر ببعضـهن أن شـاركن فى بعض المسـئوليات الادارية وكن اذا ذهبن فى نزهة يقلدن الفرنسيين فى أغانيهم .

وقد عزا عبد الرحمن الجبرتى هـذا التطور الى أن خـراب بولاق كان من

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ص ١٤ ربيع ثانى ١٨٠١/٨/٢٤ .

أسباب ذلك . وهو لم يزد عن ذلك . فلماذا اقتصر على ذكر خراب بولاق مع أن أحياء أخرى عديدة أصيبت بالدمار خلال ثورة القاهرة الثانية ؟.

مما لا شك فيه أن بولاق أصيبت بخراب أشد مما أصيب به أى حى آخر . فقد كانت المقاومة فيه عنيفة وطويلة الأمد بالنسبة لغيره من الأحياء . ومن ناحية أخرى فقد كان حى بولاق منفصلا عن القاهرة (القديمة) ، وكان مجاورا أكثر من غيره لمعسكرات القوات الفرنسية . لذلك كانت أعداد الأسر التى وقع أفرادها ضحية القتال أكثر . فاذا أضفنا الى ذلك التدهور الاقتصادى والفقر الذى زادت حدته خلال وأعقاب ثورة القاهرة الثانية فان هذا التردى فى الأوضاع يفتح أبوابا أوسع أمام الانحراف الفكرى والاجتماعى .

الديوان :

وتشكل الديوان من عدد من مشايخ وعلماء القاهرة ومعهم بعض الفرنسيين ، وكان أول عمل للديوان هو شغل الوظائف الرئيسية الشاغرة وعلى رأسها منصب أغات مستحفظان (أى قائد قوات الشرطة) ووالى الشرطة ومنصب المحتسب . وأسندت هذه المناصب الى غير المماليك ، ولكن واضح من أسماء من تولى هذه المناصب أنهم كانوا من أصول غير مصرية . ويقول فى ذلك الجبرتى أن تعيينهم كان : « باشارة أرباب الديوان فانهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب للمماليك لمعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون الا من الاتراك ولا يحكمهم سواهم » ، ولذلك شغل تلك المناصب رجال من « بقايا البيوت القديمة » وهم من أصول تركية ووصفهم الجبرتى بأنهم « لا يتجاسرون على الظلم لغيرهم » .

ويمكن القول أن الديوان كان بمثابة مجلس شورى تحت رقابة وتوجيه الفرنسيين ، وان السلطات التنفيذية وضعت فى يد عناصر من الاتراك الذين اقامت أسراتهم فى مصر فترة طويلة ، وكانوا من المشاركين فى الادارة أيام المماليك . ومن ثم كانوا على نوع من الخبرة ، وعلى كراهية للمماليك .

أما المشايخ والعلماء فقد قبلوا المشاركة فى الديوان للأسباب التالية :

١ — ان تاريخ المشايخ والعلماء يؤكد أنهم كانوا الواسطة بين الشعب

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ص   مايو ١٨٠١ .

والحاكم ، وانهم كانوا المدافعين عن حقوق الشعب امام الادارة المملوكية . ويلتف حولهم الشعب وقت الشدة ، ومن ثم فان قبولهم عضوية الديوان هو من قبيل الاستمرار فى لعب هذا الدور : حماية الشعب من الظلم والتعدى عليه .

٢ — ان المشايخ والعلماء كانوا يعلنون من وقت لآخر ان المماليك ظلمة ، وكانوا لا يقدرون فى المماليك الا قوتهم العسكرية ، ولكن من الناحية الاجتماعية كانوا لا يرون فيهم اية مميزات بل كانوا يسبونهم لكونهم كانوا عبيدا ارقاء ولأنهم كانوا يقترفون الموبقات والتعديات ويطبقون شريعتهم وليس الشريعة الاسلامية فى المعاملات . وهو أمر كان مثار خلاف شديد بين المماليك من جهة والعلماء والمشايخ والشعب من جهة اخرى .

كان هدف نابليون بونابرت من اقامة الديوان هو أن تحصل قراراته على نوع من الشرعية على اعتبار انها صادرة عن هيئة مصرية ، ولكن هذا المفهوم كان فى ذهن بونابرت فقط حيث أن المشايخ والعلماء كانوا لا يرون أية شرعية لأى قرار يصدر تحت حد السيف الفرنسى . ومن ثم فهم مكرهون مضطرون وليس عن رغبة وايمان بما يفعلونه وانما هى مسايرة الحاكم المتسلط حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

واغلب الظن أن بونابرت لم يدرك هذه الحقيقة ، وان ادركها فقد تجاهلها حيث انه كان يرمى الى تحقيق اهدافه المرسومة بأية طريقة .

ومن ناحية اخرى كانت معلومات السلطات الفرنسية عن الشعب المصرى واحواله الاجتماعية والاقتصادية محدودة ، ومن ثم كان فى حاجة الى من يتداول معهم فى مثل تلك الأمور . وهؤلاء المشايخ والعلماء أعرف الناس بطبائع الشعب .

وفوق هذا وذاك كان المشايخ والعلماء يمثلون الانتلجنسيا المصرية حينذاك ، والمستعمر فى حاجة ماسة الى هذه الانتلجنسيا لادارة أموره .

وخلال السنوات الثلاث التى أقامها الفرنسيون فى مصر ، كانوا يعيشون على أرض معادية وخاصة فى الصعيد الذى يمكن أن نقول انه لم يخضع للفرنسيين رغم تعدد انتصاراتهم على القوات الوطنية . فقد تحول المصريون الى حرب عصابات تميزت فيها كل من المنيا وأبو جرج وبنى عدى وطهطا وجهينة

وسوهاج وجرجا وقنا وقفط واسوان بمقاومة طويلة وفعالة ضد الفرنسيين (٠)

* * *

يتحدث كثير من المؤرخين — وخاصة الفرنسيين منهم — عن الدور الحضارى الضخم الذى اسدته الحملة الفرنسية لمصر (٠) ويذهب هؤلاء المؤرخون الى القول بأن مصر الحديثة الناهضة ما هى الا من صنع تلك الحملة ، والمتواضعون منهم يقولون أن الحملة الفرنسية هى التى وضعت اساس النهضة المصرية الحديثة (٠)

ومع اعترافنا بأن الحملة الفرنسية كسرت الحواجز التى كانت بين مصر والعالم الغربى المتقدم ووضعت أمام الشعب المصرى صورة من صور المجتمعات الأوربية المتقدمة ، وجعلت الشعب قادرا على عقد المقارنات بين أوضاعهم وأوضاع هؤلاء الغزاة ، مع اعترافنا بهذا فان التحول الحضارى فى مصر خلال وأعقاب الحملة الفرنسية تام على اكتاف المصريين ونظام الحكم فى أيام محمد على .

أن قيمة الحملة الفرنسية هى انها اصابت المجتمع المصرى بهزة عنيفة وانها بذلك أيقظت فيه روح المقارنة والتغيير وتقبل التغير (٠) اذ اصبح الناس أقدر على اعادة النظر فى أحوالهم الاجتماعية ، واعادة النظر هذه هى المفتاح الحقيقى للتحول التقدمى الاجتماعى (٠)

ولنضرب أمثلة على تعمد رجال الحملة الفرنسية عدم اطلاع المصريين على أدوات النهضة الأوربية (٠) فقد كانت أعمال الطباعة على الماكينات الجديدة قاصرة على الفرنسيين ، وأصدر الجنرال مينو امرا بمنع المصريين من التعرف على عمل هذه الماكينات او استخدامها فكانت توضع فى غرفة مغلقة فيستحيل على احد أن يصل الى المطبعة ولم يكن المصريون يرون الا الأوراق بعد طباعتها (٠)

ان هذا الأسلوب هو فى الحقيقة ابشع مظاهر الاستغلال الاستعمارى لشعب مصر ، وينفى عن الحملة الأهداف الانسانية التى وردت فى منشور بونابرت .

وأيا كانت نتائج الحملة الفرنسية على مصر فانها تركت بصماتها على

تاريخ مصر الحديث من الناحية السياسية اكثر من الناحية الاقتصادية أما اثرها الاجتماعي — وأن كنا نؤكد أنه على جانب من الأهمية — فانه أقرب الى الاستنتاج استنادا الى ما حدث لمصر من بعد ذلك من تطور وتحديث .

— ما هى اهم النتائج الاجتماعية للحملة الفرنسية وما هى اهم آثارها الاجتماعية ؟

١ — لقد وجهت الحملة الفرنسية ضربة حاسمة للطائفة الحاكمة المملوكية بل لقد أصبح النظام المملوكى فى حالة احتضار ينتظر من يجهز عليه ، وفقد المماليك ثقة الشعب المصرى فيهم لأنهم اهملوا فى الدفاع عن سواحل مصر فهبطت الحملة واستسلمت الاسكندرية قبل أن يرسل اليها المماليك قوة مناسبة . وخلال معارك شبراخيت وامبابة كان التفكك والانهزامية والاختلافات واضحة تماما بين صفوف المماليك ، بينما كان الفرنسيون ثابتى الجنان منظمى الحركة حديثى التسليح يعرفون ما يفعلون . والواقع أن المماليك اصبحوا هدف السلطات العثمانية التى سعت الى التخلص منهم بأية وسيلة وكادت السلطات العثمانية تقضى عليهم غدرا لولا تدخل الانجليز . ولقد وجد عدد ليس بالقليل من المماليك أنهم فى حاجة الى تأييد انجلترا ، وكانت انجلترا فى نفس الوقت فى حاجة الى قوة فى داخل مصر تتحالف معها ، وكان هذا واحدا من الأسباب التى أطالت عمر المماليك الى حين ، حتى جاء محمد على ووجه الضربة القاضية الى المماليك فيما عرف باسم « مذبحة القلعة ١٨١١ » .

٢ — لقد شككت الحملة الفرنسية منذ صدور منشور بونابرت فى حق المماليك فى الحكم فهل اغتصبوا الحكم من العثمانيين ؟ حقيقة كان مماليك ما قبل السلطان سليم يحكمون ولكن ما هو السند الذى على اساسه يحكم هؤلاء ليفيدوا وحدهم من خيرات مصر ، وعلى حد قول المنشور : أين « الحجة التى كتبها الله لهم » ليتولوا أمر مصر دون أبنائها ، والواقع أن المماليك فرضوا فرضا فى حكم مصر وابعدوا رجال السلطان العثمانى عن المناصب الادارية او شلوا حركتهم .

٣ — لقد كان واضحا أن الفرنسيين وجهوا نداءهم الى العلماء والأعيان وابناء شعب مصر على اعتبار أنهم هم الذين يجب أن يتمتعوا بخيرات بلادهم ولا شك أن هزيمة المماليك على ذلك النحو المخزى جعل صورة المماليك لدى

المشايخ والأعيان والشعب مهزوزة جدا واصبحوا وكانهم يتطلعون من بعد الى نظام جديد ينقذ البلاد من التدهور ويحفظها من غزوة أوربية جديدة .

ولقد قدم الفرنسيون للعلماء والأعيان نوعا من نظام للحكم كانوا قد اعتادوه وهو الديوان . فقد كان هناك ديوان فى العهد العثمانى ، ولكنه كان لا يقدم خيرا للبلاد ولا يمثل فيها أعيان وشيوخ مصر على نحو ما فعل بونابرت فى الديوان الذى انشاه ، ولقد كانت التجربة هامة حقا . وراى فيها بعض الكتاب المحدثين انها برلمان مصر الأول . والحقيقة ان مثل هذا النوع من الدواوين لا يمت الى الديمقراطية بصلة حيث انه كان ينفذ اوامر الحاكم العسكرى الاستعمارى الاجنبى .

حقيقة يمكن أن نقول ان هذا الأسلوب من الدواوين غرس فى اذهان الأعيان والمشايخ رغبة فى ان يظهر حكم يتولى فيه ابناء الشعب المصرى حكم أنفسهم بأنفسهم ، ولكن الظروف التى أتت بعد ذلك اثبتت أن المشايخ كانوا يقتصرون على القيام بدور الوساطة بين الحاكم والرعية . فلم يفكر أى منهم فى أن يتولى الحكم بل بحثوا عن (تركى) ليحكم وذلك لانهم ليسوا أهل سياسة حيث أن السياسة والحكم كانت من الأمور البغيضة الى قلوب المشايخ بصفة خاصة من حيث ارتباطها بالتآمر والدم .

ومفهوم المواطنة كان لا يزال لديهم مفهوما اسلاميا فهم رعية السلطان العثمانى خليفة المسلمين وهو المسئول عن اسناد الحكم لمن يراه كفئا ... ولكن كان المشايخ والأعيان فى نفس الوقت قد شرعوا يمارسون حقا هاما وهو حق عزل الوالى الذى لا يقوم بواجبه نحو الشعب . وهذا فى حد ذاته خطوة هامة فى تاريخ مصر السياسى تجلت خلال الأزمة التى نشأت عن محاولات الوالى العثمانى خورشيد باشا التمسك بولايته ضد مرشح العلماء للولاية « محمد على » .

٤ — أن نظم تسجيل المواليد والوفيات وحجج الأرض والعقوبات والاجراءات الأمنية والصحية جديدة على المصرى ذات اثر فى اعادة النظر فيما بعد فى الأنظمة القديمة التى كانت تتبع فى هذا الصدد .

٥ — تبين المصرى بالمشاهدة المباشرة نظام الجيش الفرنسى الدقيق ، وعاين كيف أن خروج الفرنسيين من مصر لم يتم على يد المماليك ولا على يد

الشـعب ولا على يـد العثمانيين ، وانما بعـد تلك الحملة الكبيرة التى قدمهـا الانجليز لمعاونة الجيش العثمانى فى اخراج الحملة نهائيـا فى ١٨٠١ ثم شـاهدوا استمرار الانجليـز فى مصر ثلاثة أعوام اخـرى ليخرجوا منهـا فى ١٨٠٣ . انه لخطر عظيم ولم يمكن رده الا باسـتخدام دولة حديثة أوربيـة (انجلترا) .

٦ ــ ان المظـالم التى نزلت بالشـعب خلال ذلك الصراع بين العثمانيين والمماليك والانجليز من جهـة والقوات الفرنسـية من جهة اخرى جعلت الشـعب يعيـد النظر فى حق هؤلاء العثمانيين فى حكم مصر بعد خروج الفرنسـيين . ومن مظاهر النكبات التى حلت بالاسـكندرية واقليم البحـيرة فترة الحـرب لطـرد الفرنسـيين من الاسـكندرية (١٨٠١) ان المـاليك والعثمانيين والانجليز غلبوا مصـالحهم عنـدما كسروا السـد الذى يمنع انسـياب ميـاه البحـر المالحـة صـوب اقليم البحـيرة والأرياف هنـاك ، وادى ذلك الى تحطيم طرق المواصلات الى الاسـكندرية وطغيـان المياه الملحـة عـلى مسـاحات واسـعة من أراضى البحيرة . الأمر الذى ادى الى نتائج قاسية وصفها الجبرتى بقوله :

« اما اهل الاسـكندرية فانهم جلـوا عنهـا .. الى ازمير وبعضـهم الى قبرص ورودس .. ولم يبق بالبلدة الا الفقراء والعواجز » .

ومع هذا فقد فرضت الادارة على الاسكندرية « فـرد » الأمـر الذى يؤكد ان الادارة فى ذلك الوقت (١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م) لم تكن تقـدر تدهـور أحـوال العـامة الاجتماعيـة والاقتصـادية على الاطلاق .

تعتبر الفترة الواقعـة بين خروج الحملة الفرنسـية من مصر ١٨٠١ وحركة (الجمهـور) المصرى ضـد الوالى العثمـانى خورشـيد لاسـناد الحـكم لمن اختاروه مصلحا (محمد على) (١٨٠٥) ، تعتبر هذه الفترة (١٨٠١ ــ ١٨٠٥) فترة انتقالية من اشد الفترات فوضى واضطرابا .

فهى فترة صراع مريرة بين مراكز القوى العـديدة ، عثمانيـة ومملوكية . وهى فترة ظهرت فيهـا الزعامة المصرية الشـعبية بمظهر ايجـابى ، اذ تحـرك الجمهور ــ على حـد تعبير الجبرتى ــ وارغم خورشـيد باشـا ــ الوالى المعين من قبل السـلطان العثمانى ــ على مغـادرة البلاد ، واعلنوا محمـد على واليـا على مصر . فكان ذلك نهـاية عهـد وبداية عهـد .

الفصل الثالث

مصر فى عهد العثمانية العائدة

كان المصريون يرحبون كل الترحيب بتحرير مصر من الاستعمار الفرنسى ، واستقبلوا عودة العثمانيين استقبالا عظيما . ولكن سرعان ما خاب ظنهم ، فيقول الجبرتى ان عسكر العثمانيين كانوا يعتبرون المصريين « كفرة ... وفرنسيس » (١) وذهب قاضى العسكر العثمانى الى القول بأن مصر « كلها ملكا للسلطان لأن مصر قد ملكها الحربيون .. فيحتاج أن أربابها يشتروها من الميرى ثانيا » (٢) ومعنى هذا ان قاضى العسكر العثمانى اعتبر أن مصر فتحت عنوة ، وبذلك ليس من حق المصريين ان يمتلكوا فيها عقارا الا بشرائه من خليفة المسلمين السلطان العثمانى .

اما العسكر فكانوا على نفس المعتقد بل واكثر تطرفا فى هذا الصدد . فقد كان بعض العسكر العثمانى يعتبر المصريين « كفرة ... وفرنسيس » (٢).

وعلى هذا الأساس قرروا على الأقل مشاركة المصريين فى أرزاقهم فدخلوا ميدان التجارة بائعين شارين ، وفرضوا الاتاوات ، واقتحموا المساكن للسكنى فيها رغم أنف أصحابها ، وأخذوا يضايقون النساء فى الطرقات مضايقة توحى بأن للعسكر حقا فيهن (٣) .

حقيقة نهى الوالى العثمانى عن تلك الأعمال ، ولكن دون جدوى ، وخاصة ان المرتبات لم تكن تدفع للقوات العثمانية بانتظام .

عادت السلطات العثمانية الى مصر ولديها بصيص من الرؤية نحو اعادة تنظيم الولاية ، ولكن رؤية من منطلق تقليدى وليست ابداعية ، وابرز مثال على ذلك محاولة تنظيم دفاتر الأراضى والعقارات واثبات الملكيات والتصرفات . ولابد لنا

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص   ١٨ أغسطس ١٨٠١ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ص   ٨ اكتوبر ١٨٠١ .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص   أغسطس ١٨٠١ .

عبد الرحمن الجبرتي صورة تفصيلية عن البيروقراطية العثمانية العائدة فيقول :

« كل من كان تحت يده شيء ... (من الرزق الاحباسية) (١) يكتب له مرضحال ويذهب به الى ديوان الدفتردار فيعلم عليه علامته ، وهي قوله ، (قيد) بمعنى انه يطلب قيوده من محله التي تثبت دعواه . ثم يذهب بذلك العرضحال الى كاتب الرزق ، فيكشف عليها في الدفاتر المختصة بالاقليم الذي فيه الأرصاد بموجب الاذن بتلك العلامة ، فيكتب له ذلك تحتها ، بعد أن يأخذ منه دراهم ويطيب خاطره بحسب كثرة الطين (٢) وقلته وحال الطالب ، ويكتب تحته علامته فيرجع به الى الدفتردار فيكتب تحته علامة غير الأولى فيذهب به الى كاتب الميرى فيطالبه حينئذ بسنداته وحجج تصرفه ومن أين وصل اليه فان سهلت علية الدنيا ودفع له ما أرضاه .. كتب له تحت ذلك عبارة بالتركي لثبوت ذلك والا تعنت على الطالب بضروب من العلل ، وكلفه بثبوت كل دقيقة يراها في سنداته وعطل شغله ، فما يسع ذلك الشخص الا بذل همته في تميم غرضه بأي وجه كان اما أن يستدين أو يبيع ثيابه ويدفع ما لزمه فان ترك ذلك واهمله بعد اطلاعهم عليه حلوه (٣) عنه ورفعوه ، وكتبوا لمن يدفع حلوانه ثلاث سنوات أو أكثر ، وكتبوا له سندا جديدا يكون هو المعول عليه بعد ، ويقيد بالدفاتر ويبطل اسم الأول وما بيده من الوقفيات والحجج والافراجات القديمة ولو كانت عن أسلافه . ثم يرجع كذلك الى الدفتردار فيكتب له علامة لكتابة الاعلام فيذهب به الى الاعلامجي ، فيكتب له عبارة في معنى ما تقدم ، ويختم تحتها بختم كبير فيه اسم الدفتردار ، ويأخذ على ذلك دراهم أيضا ، وبعد ذلك يرجع الى الدفتردار فيقرر ما يقرره عليها من المال الذي يقال له مال الحماية ثم يذهب بها الى بيت الباشا ليصحح عليها بعلامته ويطول عند ذلك انتظاره لذلك ويتفق اهمالها الشهرين والثلاثة عند الفرمانجي (٤) ، وصاحبها يغدو ويروح في كل يوم حتى تحفى قدماه ولا يسهل بها تركها بعدما قاساه من التعب وصرفه من الدراهم ، فاذا تمت علامتها دفع أيضا المعتاد الذي على ذلك ، ورجع بها الى بيت الدفتردار ، فعند ذلك

---

(١) الرزق الاحباسية هي عقارات وأراضي خصص الصرف منها على أوجه الخير والمساجد .

(٢) الأرض الزراعية .

(٣) حلوه عنه بمعنى رفعوا يده عنه أي أصبح لا حق له فيه .

(٤) الموظف المسئول عن كتابة (المرسوم الوزاري) .

يطلبون منه ما تقرر عليها فيدفعه فى تلك السنة ، ثم يكتبون له سندا جديدا ويطالب بمصروفه أيضا وهو شيء له صورة أيضا ، فلا يجد بدا من دفعه ، ولا يزال كذلك يغدو ويروح مدة أيام حتى يتم له المراد (١) .

اتهم عبد الرحمن الجبرتى العسكر العثمانى بالفساد والعبث بأموال وأرواح الناس ، وقدم لنا صورا عديدة عن ذلك ، منها قوله :

« يبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهرا أو يلاقشون النساء فى مجامع الأسواق من غير احتشام ولا حياء ... وانتشروا فى القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح » .

فقد كانوا يزورون أوراقا ويقدمونها للمسئولين فى القرى يدعون انهم جاءوا فى مهام رسمية ويطلبون « حق طريقهم مبلغا عظيما ويقبضون على مشايخ القرية ويلزموهم بالكلف الفاحشة ، ويخطفون الأغنام ، ويهجمون على النساء ... فطفش الفلاحون ، وحضر اكثرهم الى المدينة حتى امتلأت الطرق والأزقة منهم » (٢) .

لقد كانت القوات العثمانية على أسوأ حال فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت تجمع من مختلف الملل وكان تدريبها العسكرى تافها ، وتنظيمها المالى مضطربا ، بحيث لم تكن الرواتب والمؤن تدفع بانتظام بل تتأخر لمدد تطول الى حد يدفع العسكر الى الاقدام على عمليات النهب . وكان السلطان سليم الثالث قد أدرك — وخاصة بعد الحملة الفرنسية — ضرورة تحديث القوات المسلحة ، ولكن لم يشرع فى ذلك الا بعد فترة ، ودفع حياته ثمنا لمحاولته هذه .

وزاد من الطين بلة أن السلطة العثمانية العائدة كانت قد وجدت نفسها واحدة من القوى المتحكمة فى مقدرات البلاد فالى جانبهم كان يوجد المماليك والانجليز . وكان العثمانيون يعملون على أن تخلص لهم مصر ، وكان المماليك يخططون لاستعادة سلطتهم المطلقة ، وكان الانجليز يريدون حكما فى مصر يدور فى فلكهم .

---

(١) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٢١١ — ٢١٢ ، ذى القعدة ١٢١٦/١٨٠٢ .
(٢) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ جمادى الأولى ١٢١٦ .

اما الشعب فلم يوضع الا فى اعتبار ثانوى ، فلا ديوان للمشايخ ، ولا محاولة للافادة من تجربة المصريين خلال كفاحهم ضد الوجود الفرنسى . الأمر الذى أوجد مقارنة بين الحكم العثمانى العائد والحكم الاستعمارى البائد .

فى محاولة لوضع حد للصراع الدموى المرير بين المماليك والعثمانيين عرض المماليك على الباشا العثمانى أن يقسم القطر المصرى الى قسمين : الوجه البحرى للعثمانيين والوجه القبلى لهم مع استمرار خضوعهم للسلطان العثمانى ، وأراد الوالى العثمانى أن يصفى المشكلة بأن يوافق على ما عرضه المماليك ولكن بأن يكون لهم اقليم اسنا وما وراءه جنوبا (١) اى اقل من ١/٨ ما طلبه المماليك ، حيث أن المنطقة الممتدة من آسيا الى حدود مصر الجنوبية فقيرة جدا اذ يضيق الوادى الزراعى بشدة بعد اسنا حتى الشلالات . ومعنى هذا كسر شوكة المماليك لو قبلوا هذا العرض ، وعزلهم عزلا قد يقضى عليهم .

ان المماليك بعد أن ضربوا ضربات شديدة على يد الفرنسيين قنعوا فى عهد الاحتلال الفرنسى بحكم (الصعيد) ، ومن ثم فقد كانت هذه السابقة مهيئة للمماليك لأن يقبلوا وضعا مشابها فى الظروف الجديدة .

ان المماليك الذين كانوا يحتكرون الحكم فى مصر ويتمتعون بالحكم الذاتى ، اصبحوا بعد الحملة الفرنسية يحافظون على مكانتهم فى مصر بالاستناد الى الدعم البريطانى ، وأعلنوا لأول مرة انهم يقبلون التمتع بالحكم الذاتى فى الصعيد فقط وهو الأمر الذى رفضه الوالى العثمانى وعرض شريطا من الوادى فقيرا يمتد من اسنا حتى حدود مصر الجنوبية .

وحاول الوالى أن يقنع المشايخ والعلماء أن يكاتبوا المماليك بشأن الاقتراح العثمانى ولكن المشايخ والعلماء رفضوا أن يقوموا بهذه المهمة دون أن يكشف لنا الجبرتى النقاب عن سبب رفضهم ولكن الطريقة التى عرض بها الجبرتى رفض المشايخ والعلماء القيام بهذه المهمة ينم عن استياء هؤلاء المشايخ العلماء من هذا العرض الذى تقدم به الوالى ، وأغلب الظن أنهم رفضوا لأنه عرض غير مقبول من الجانب المملوكى وغير منطقى لأنه يقسم مصر الى قسمين ويؤدى الى تفكيك مصر التى لم تعرف من قبل التجزئة .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

ان رفض المشايخ والعلماء القيام بهذا الدور بين المماليك والعثمانيين يوحى بأن أيا من الطرفين المتقاتلين لم يكن يقدر قيمة وحدة البلاد المصرية عبر العصور ، وان الزعامات المصرية الوطنية كانت على مستوى أعلى من العثمانيين ومن المماليك فى الحرص على مستقبل وحدة البلاد .

ادت الحملة الفرنسية الى أن تتنبه الصفوة المملوكية حقيقة ما كان يدور من صراع فى أوربا بين الفرنسيين والانجليز . ولذلك نلاحظ وجود فريق يميل الى الافادة من هذا الصراع عن طريق التفاهم مع احد طرفى النزاع . وابلغ مثال على ذلك رحيل محمد بك الألفى مع الحملة الانجليزية الى انجلترا واقامته هناك من ١٨٠٣ الى أن عاد مع حملة فريزر الى مصر . ومن هنا يجدر المقارنة بين المعلم يعقوب الذى رحل مع الفرنسيين فى ١٨٠١ ، ومحمد بك الألفى الذى رحل مع الانجليز فى ١٨٠٣ .

المعلم يعقوب كان يهدف الى أن يصبح الحكم والادارة فى يد (الأقباط) ونصارى الشوام بدعم من دولة أجنبية استعمارية (فرنسا) . وكان محمد بك الالفى يهدف الى ان يستعيد المماليك — بقيادته — الحكم بدعم من انجلترا حتى ولو حصلوا على موضع قدم لهم فى البلاد ، رغم ان هذا لم يكن واضحا فى الوثائق وفى كتابات الجبرتى ، ولكن قبوله أن يأتى فى ركاب الانجليز يعنى قبوله بوضع مميز للانجليز فى مصر ، وبالتالى لا يختلف يعقوب كثيرا عن محمد الألفى فى أن مصالح الأقلية وضعت فوق المصلحة العامة .

ان تلك التطورات خلال الفترة بين ١٨٠١ — ١٨٠٥ تكشف عن أن النظام القديم كان يحتضر ، فلا الحكم العثمانى العائد بقادر على أن يمسك بمقاليد الأمور ولا المماليك قادرون ، والانجليز أقاموا فى البلاد حتى ١٨٠٣ وأنقذوا المماليك من مذبحة كان يدبرها لهم العثمانيون . لقد أصبح المجتمع المصرى مستعدا لاحداث تغييرات جوهرية فى بنائه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والعسكرى . وهذا ما حدث خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى شهدت بناء دولة مصر الحديثة .

الباب الخامس

المجتمع المصرى وبناء الدولة الحديثة

الفصل الأول : تصفية النظام الحاكم القديم

الفصل الثانى : الفلاح

الفصل الثالث : العمال والصناعة فى عهد محمد على

الفصل الرابع : التحديث فى الجيش والتعليم والادارة .

الفصل الخامس : طائفة العلماء

الفصل السادس : بعض العناصر عرقية ومذهبية واجنبية فى المجتمع المصرى

الفصل السابع : رؤية فى التركيب الاجتماعى .

الفصل الأول

تصفية النظام الحاكم القديم

أحدثت الحملة الفرنسية فى مصر بصفة خاصة ومعظم بلاد الشرق الاسلامى هزة ، وهى هزة هيأت النفوس لاعادة النظر فى أوضاعها ، وهيأت الظروف لظهور زعامة تستطيع أن تحدث تغييرا لمواجهة ما يحدق بمصر وبالعالم الاسلامى من أخطار .

فى هذه الظروف تولى محمد على الحكم فى ١٨٠٥ . وكان عثمانيا ، أى من النظام القديم . وتولى الحكم ومصر تموج بالقوى التقليدية التى تريد الحفاظ على مكانتها .

فالعثمانيون وقد عادوا الى مصر اخذوا يسعون الى استرداد ما كان لهم من تفرد فى حكم البلاد ، والمماليك — وقد مزقتهم الأحداث — مقتنعون بأنهم امضوا فى حكم البلاد ردحا طويلا ، وبأنهم هم الذين تحملوا اقسى الضربات دفاعا عن مصر ضد المغتصب (الصليبى) الفرنسى . والوالى الجديد معتمد على يرى ان هؤلاء المماليك فقدوا مقومات استمرارهم فى الحكم وان العثمانيين لا تتوفر فيهم امكانيات انقاذ البلاد من سقطتها الحضارية .

وما كان فى استطاعة هذا الوالى الجديد ان ينطلق وراء افكاره وهو يعتمد على قوة عسكرية محدودة مشاغبة ، حتى ولو وقف الى جانبه زعماء الشعب . وما كان ليستطيع كذلك ان يتحدى بتطلعاته السلطان العثمانى لما كان يتمتع به هذا السلطان من نفوذ وقوة حينذاك تفوق قوة ونفوذ محمد على . فيستطيع محمد على ان يفرض نفسه واليا على البلاد ، وأن يضطر السلطان الى ان يعينه واليا ، فهذا أمر كان يتكرر فى اكثر من ولاية عثمانية ، ولكن ان يستطيع محمد على تحدى السلطان تحديا سافرا فهذا ما لم يكن يستطيعه فى ذلك الوقت المبكر من حكمه ، والا تعرض ان آجلا او عاجلا الى ضربة عثمانية قد تكون قاصمة وهو لا يزال فى أول الطريق .

كان طبيعيا والظروف هكذا أن يستخدم محمد على أساليب الملاينة والاسترضاء والانحناء للعاصفة ان هبت عليه على أن يداورها دون أن يفقد مواقعه . واستطاع أن يخرج من أكثر من أزمة ، وأن يتخلص من أكثر من زعامة حتى تمكن فى نهاية الأمر من أن ينفرد بالحكم انفرادا حقيقيا .

فلقد حاول السلطان العثمانى أن يبعده عن مصر ، فظل محمد على وراءه حتى الغى نقله الى سالونيك وجدد له الحكم فى مصر ، ولا شك ان الظروف الدولية خدمت محمد على ، حيث ان عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٦ من العوامل الحاسمة فى التاريخ العالمى ، ففيهما بلغت قوة الامبراطور نابليون ذروتها فى أعقاب انتصاراته الكبرى على قوى البر الأوربية (الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبروسيا وروسيا) ، وانقلبت موازين السياسة العثمانية ، فاذا السلطان العثمانى ينفض يده من انجلترا — عدو فرنسا اللدود — ويسعى الى التقرب من الامبراطور نابوليون لعل الدولة العثمانية تستطيع أن تسترد شيئا مما فقدته على يد روسيا عدوة الدولة العثمانية اللدود .

ولم تلبث مصر — التى جلا عنها الانجليز فى ١٨٠٣ — أن أصبحت هدفا لانجلترا الضغط على الدولة العثمانية حتى تضطر الى فصم عرى الروابط مع فرنسا . فبعثت بحملة محدودة الى مصر بقيادة فريزر ، فعرفت باسمه فى التاريخ المصرى . وكان من بين أهداف هذه الحملة أن يتعاون معها المماليك فى السيطرة على البلاد .

وكان هناك قسم من المماليك أيقن أنه لن يستطيع استرداد ما كان لهم من حكم الا بدعم أجنبى ، وكان على رأس المنفذين لهذه السياسة محمد بك الألفى ، وكان الرجل قد رحل من قبل الى انجلترا ، وشاهد هناك مدى التقدم الحضارى ورأى فى عودة القوة العسكرية الانجليزية الى مصر فرصته فى أن يزيح ذلك الوالى الجديد (محمد على) ويحكم مصر بدلا عنه .

ولم يكن الانجليز يسعون الى احتلال البلاد والاستقرار فيها ، ولكن كانوا يسعون أساسا الى اقامة حكم فى مصر يدور فى فلكهم ولا يخضع — ان أمكن — للسلطان العثمانى . لقد راهن الانجليز على حصان عجوز ، ولكن لم يكن أمامهم حينذاك من يتحالفون معه خير منهم ، من وجهة نظرهم . فقد كان محمد على — فى نظرهم — رجل السلطان فى مصر ، ولا سبيل الى كسبه ، فضلا

عن ان محمد على كان فى صراع دموى مع القوى المملوكية العسكرية المناهضة له . وكان على الانجليز ان يستقروا على حليف فى داخل ارض مصر ، اذ كانت قوتهم — كما سبق أن ذكرت — محدودة لا تهدف الى احتلال كامل البلاد .

كانت الظروف عندما نزلت حملة فريزر على سواحل مصر الشمالية فى ١٨٠٧ تبدو مواتية للانجليز ولمحمد بك الألفى ، اذ كانت لدى محمد على قوة عسكرية محدودة يقاتل بها خصومه المماليك فى الوجه القبلى . فهاجمت الحملة الاسكندرية ، وكانت حينذاك لا تزال تحت ادارة عثمانية .

ونلاحظ ان الاسكندرية فى هذه الحالة لم تبد مقاومة تذكر ، واستسلمت المدينة للغزاة الجدد . ولو قارنا بين مقاومة اهل الاسكندرية — بقيادة محمد كريم — ضد الحملة الفرنسية بقيادة نابوليون بونابرت ، بمقاومتها لحملة فريزر لوجدنا أنه رغم ضعف مقاومة الاسكندرية للحملة الفرنسية فانه شتان بين الحالتين . لقد سلم الحاكم العثمانى المدينة والميناء للانجليز بسهولة وآثر السلامة ، وغادر البلاد من بعد . فكان ذلك آخر مظهر من مظاهر الوجود العثمانى الادارى المباشر فى مصر ، ولم تعد الاسكندرية منذ ذلك التاريخ ذات كيان خاص ولم يعد وجه الاسكندرية الى خارج مصر (١) ، وانما أصبحت بمثابة العاصمة الثانية أو المدينة الثانية للبلاد .

زحفت القوات الانجليزية لاحتلال رشيد ، وتقدمت دون مقاومة تذكر ، واقتربت من مشارف المدينة دون أن تلوح لهم مظاهر الاستعداد للمقاومة ، وبدا لهم أن المدينة ستسقط فى يدهم بنفس السهولة التى سقطت بها الاسكندرية .

وتدفقت القوات الانجليزية على المدينة ، بل واستعدت لأخذ قسط من الراحة ، ولكن لا يكاد يمر وقت قصير حتى انطلق المصريون فى هجوم شامل ، منظم فى نواح ، وانفعالى فى نواح أخرى ، وسرعان ما تحولت رشيد الى حرب شوارع طاحنة .

لقد تجنب الأهالى الاصطدام فى حرب مكشوفة مع قوات منظمة عالية التسليح جدا بالنسبة لهم ، نظرا لما كان يتمتع به الانجليز من كثافة نيران

---

(١) Alexandria ad Aegyptum

عاليـــة ، ومدفعيـــة لا يملك مثيلهـــا أهل البلاد . ولقد افقدت حرب الشـــوارع الانجليز مميزاتهم القتالية عندما انقض الاهـــالى عليهم من كل نافذة أو باب يكمن وراءه مقـــاتل أو مقاتلة . ونزلت الهزيمـــة العســـكرية بالقوة الانجليزية . فكانت واحدة من الهزائم القليلة التى منيت بهـــا القوات الانجليزية خلال عهد الحـــروب النابوليونيـــة .

وقد لا نكون مبالغين حين نقارن بين معركة رشـــيد هذه ومعركة ستالينجراد ففى كل منهما منى الغـــازى المعتـــدى بهزيمـــة مريرة فى حرب شـــوارع دموية ، انتصرت فيهـــا الروح القتاليـــة الوطنيـــة على جيش احتلال شديد البأس .

وحرب الشـــوارع فى مدينـــة رشـــيد ، هى الأولى فى الشرق العـــربى بين أهل البلاد وجيش الغـــزاة قبل أن يســـتقروا فيهـــا ، وهى من هذه الناحيـــة تختلف عن ثورتى القـــاهرة الأولى والثانيـــة .

وبعد ذلك الانتصار فى رشـــيد ، تجمعت قوى البلاد الشـــعبية والحكومية لمواجهة المعتدين وتفوقت عليهم فى معركة (الحماد) . واصيب اعوان الانجليز من المماليك بصدمة قاصمة ، وعبر عنهـــا المؤرخ المصرى المشـــهور على لسان محمد بك الألفى أبلغ تعبير مؤثر حـــين كتب مســـجلا آخر كلمـــات الألفى وهو يحتضر احتضـــار عهـــد المماليك نفســـه (١) .

وحيث ان هدف انجلترا من وراء تلك الحملة كان اقامة نظـــام حكم فى مصر يســـتمد قوته من الانجليز وبالتالى يدور فى اتجـــاه عجلة الامبراطورية الانجليزية ، وحيث ان هذا الهدف أصبح بعيد المنال ، فقد آثر الانجليز الانســـحاب من مصر .

ان قيمة هذه الانتصارات التى حققتهـــا الشـــعب المصرى فى أكثر من مواجهة ومعركة ترجع الى أن صانع النصر هو « جمهور مصر » ، وهـــذه نقلة لها دلالتها فلقد اصبح الذود عن تراب الوطن عقيـــدة تترســـخ فى النفوس ، بعد أن كان أمر القتال والحرب حكراً على صنف معين من غير المصريين . ورفع المصرى ســـلاحه التافه دفاعا عن وطنه . وانطلقت جموع المقاتلين من القاهرة الى شمال الدلتـــا للمشـــاركة فى القتـــال دون انتظـــار لأوامر الحاكم .

ولا شـــك لدينـــا ان واحـــدا من عوامل هذا التحـــرك القتـــالى هو الرؤية

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

المصرية الاسلامية التقليدية لعدوان الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى ، وهى الرؤية الصليبية . ومع ان الفكر الصليبى لم يكن فى مخططات الانجليز ، الا ان الأهداف البعيدة للعدوان الغربى تضمر فيما تضمره تدمير العقيدة الاسلامية بطريقة او باخرى ، ولسبب او لآخر .

رفعت تلك الانتصارات من مكانة محمد على لدى سلطات الأستانة ، وعمت الفرحة البلاد ، ومع أن انعكاسات ذلك الانتصار فى الداخل كانت منطقية فيما يتعلق بالمماليك ، كانت غير عادلة بالنسبة للزعامة الشعبية .

فمحمد على كان قد قرر أن ينفرد بالحكم ، ولا يطيق أن يقبل قيدا على نفسه حتى ولو كان القيد هو زعامات مصر الوطنية المنتصرة على قوى العدوان . فمحمد على رأى أن ذلك التفوق الذى حققه زعماء الشعب يعنى انهم قد يتمكنون من ان يصبحوا ليس فقط قوة قيادية بل قوة ضاربة ، ولهذا السبب ولأسباب اخرى قرر محمد على تصفية الزعامة الشعبية ففرق بين هذه الزعامات ، واستخدم العلماء ضد بعضهم البعض ، ثم نفى اقواهم وهو عمر مكرم (١) .

كانت الضربة التى وجهها محمد على الى الزعامة الشعبية بمثابة الضربة الاولى التى وجهها للنظام القديم ، وكانت الضربة الثانية موجهة الى المماليك .

كانت تجربة محمد على — منذ أن تولى الحكم — مريرة مع المماليك ، صراعات ، ومؤامرات ، وفتن ، ومحمد على يريد الاستقرار فضلا عن الانفراد بالحكم . وتبين لمحمد على خلال تلك التجربة أن لا جدوى من اقناع المماليك بالتعاون الجدى معه ، ولا جدوى من وراء اقناعهم بتطوير انفسهم بما يتلاءم مع متطلبات العصر الحديث . وبمرور الوقت اخذ محمد على يقتنع أكثر فأكثر ان لا انقاذ لمصر من وهدتها ولا سبيل الى الانطلاق نحو عالم حديث الا اذا اجتث النظام المملوكى من جذوره ، وذلك بعد ان فشلت مختلف الأساليب التقليدية لترويضهم . فقد فشلت المؤامرات والصدامات العسكرية فى القضاء على قدراتهم على اثارة الفتن والفوضى . بل لقد اصبح هؤلاء المماليك على مقدرة خطرة فى الاتصال بالدول الكبرى المتنافسة والعمل على كسب هذه

(١) سنتناول العلماء والمشايخ الاعيان بنوع من التفصيل فيما بعد .

او تلك الى جانبهم ، ولقد كان على محمد على أن يجد طريقا آخر لتوجيه ضربة لا تقوم لهم من بعدها قائمة .

اما وقد قويت مكانة محمد على لدى السلطان العثمانى بعد خروج حملة فريزر من مصر ، وساءت سمعة المماليك بسبب تعاونهم بعضهم مع الغزاة الانجليز (اعداء الدين والدولة) ، واسند السلطان العثمانى الى محمد على مهمة توجيه ضربة رادعة ضد الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ، فان الظروف على هذا النحو قد تهيأت لتوجيه ضربته للمماليك . بل ربما كان الوقت لا يسمح حينذاك الا بتوجيه هذه الضربة .

فمحمد على — وقد لبى نداء السلطان لارسال حملة ضد الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية — لا يمكن أن يقدم على ارسال قواته الى هناك الا بعد أن يطمئن على عدم قدرة المماليك فى مصر على التحرك ضده أو القيام بحركة تطعنه من الخلف . ووصل محمد على الى قراره النهائى ، وهو ان هذا التشكيل الاجتماعى المملوكى يجب ان يصفى نهائيا ، فدبر ما عرف باسم « مذبحة القلعة » الشهيرة فى ١٨١١ فقضى على الغالبية العظمى من رءوس المماليك ، وطارد بقيتهم ممن كان فى الوادى قتلا وتمزيقا حتى لم يتبق منهم فى مصر الا النادر وفرت البقية الباقية من المماليك الى خارج البلاد ، فكان ذلك نهايتهم ولم تقم لهم من بعد قائمة .

كانت ضربتا محمد على حاسمة للزعامة الشعبية وللمماليك للانفراد بصناعة القرار السياسى ، وكان أيضا يسعى الى الانفراد بالتحكم فى مختلف جوانب الاقتصاد المصرى . وكان نظام الالتزام — المطبق فى عهد المماليك — يجعل من الملتزم واسطة بين محمد على والفلاح المنتج . الأمر الذى يحول دون احداث تغيير جوهرى فى الانتاج ، ويحول دون القيام بمشروعات عامة .

فلماذا تذهب كثرة من الأموال الى جيوب الملتزمين ضيقى الأفق والامكانيات ؟ ولماذا لا تكون هناك خزانة موحدة تصب فيها كافة فوائض الانتاج ليتصرف فيها ؟ ذلك سؤال طرحه محمد على .

فلقد كان الملتزم حينذاك يلتزم قطعة من الأرض ، يدفع عنها مبلغا سنويا الى الحاكم ، وكان همه الأول ليس جمع المال فقط الذى ارتبط به مع

الحكومة ولكن ايضا الحصول على اكبر قدر من الأموال ليختص هو بنصيب كبير على حساب الفلاح وعلى حساب الدولة فى آن واحد .

وكانت الغالبية العظمى من الملتزمين من :

١ — المماليك .

٢ — المشايخ .

٣ — موظفى دوائر الحكومة .

٤ — مشايخ البدو .

٥ — اعيان البلاد .

وكان الالتزام غير وراثى ، ولا يستقر فيه صاحبه لمدد طويلة ، الأمر الذى لا يعطى الفرصة للتطوير والتنمية . وفوق هذا وذاك اصبح نظام الالتزام لا يتمشى مع التطورات الاقتصادية العالمية ومن ثم كان ينتظر من يجهز عليه . وحيث أن النظام المملوكى كان هو السند القوى لنظام الالتزام ، فقد كانت الضربة التى وجهت الى المماليك بمثابة المقدمة المنطقية للاجهاز كذلك على الالتزام . فقد وضع محمد على يده على التزامات المماليك ، واتبع سياسة ذكية لرفع يد الملتزمين عما تحت يدهم .

لجأ محمد على الى اساليب ملتوية احيانا ، واحيانا اخرى الى استخدام اساليب مباشرة ليرغم الملتزمين على ترك التزاماتهم . ومن ذلك انه طلب من الملتزمين ان يحددوا قيمة دخولهم من التزاماتهم ، فخشى هؤلاء من ان يكون وراء ذلك اعادة النظر فيما يدفعونه ، وكان من المعروف حينذاك ان محمد على — مثله مثل اى حاكم — يسعى الى زيادة موارده . ولذلك قدم الملتزمون بيانات غير حقيقية ليثبتوا لمحمد على ان « فائض الالتزام » لا يقيم أودهم . وانهم يتحملون مسئوليات اقتصادية واجتماعية متعددة الجوانب مكلفة .

فانتهز محمد على هذه الفرصة وسحب منهم الالتزامات ، ووعدهم بتقديم تعويضات مقابل ذلك ، ولكن محمد على لم يلبث أن تخلص حتى من دفع المعاشات المحدودة التى وعدهم بها ، وخلصت ارض مصر لمحمد على ، واصبح هو بمثابة المالك الوحيد الحقيقى لأرض مصر .

ماذا كان صدى الغاء الالتزام ؟ لقد قدم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورا معاصرة لذلك الاجراء ونتائجه . ولكن يجدر بنا أن نحذر كل الحذر من أن نأخذ ما كتبه دون تمحيص حيث ان هذا المؤرخ كان شديد النقد لمحمد على واعماله متحيزا ضده ، ميالا الى المماليك . ومع ذلك فمن رواياته ما يعد شهادة على عصره ، وذلك حين قال ان الفلاح المصرى شعر انه مقبل على عصر جديد ، عهد خلا من الملتزمين ، وبالتالى ابتعاد شبح المظالم عنه . فعلى حد قول الجبرتى كان الفلاح ......

« ... اذا دعى للشغل باجرته (يقول للملتزم) روح انظر غيرى ، انا مشغول فى شغلى ، انتم ايش بقالكم فى البلاد ، احنا صرنا فلاحين الباشا » (١) .

عمد محمد على الى توزيع ارض مصر الزراعية على الفلاح وعلى اسرته وعلى كبار رجال الدولة . وزعوها على الفلاحين لا لتكون ملكا لهم ، ولكن ليفلحوها لصالح خزينة الباشا . وكانت توزع المساحات على الفلاحين بمعدل اربعة الى خمسة افدنة للاسرة ، وحددت لهم المحاصيل التى يزرعونها واساليب الزراعة ، ولا يبيعون محاصيلهم الا للحكومة وبالاسعار التى تحددها ، ومعنى هذا ان الفلاح لم يعد حرا فى زراعة أرضه فضلا انه كان ممنوعا من التصرف فيها ، وليس لهم حق توريثها .

ولكن اذا كان الغاء الالتزام قد جعل من محمد على المالك الوحيد لأرض مصر ، فقد ادى توزيع الأرض على الفلاحين الى نوع من استقرار الاسرة فى قطعة أرض معينة نادرا ما كانت تنتزع منها او تنتقل الى غيرها .

هل تعتبر تلك الخطوة التى اقدم عليها محمد على بتوزيع الاراضى على الفلاحين ارهاصا لتطور مفهوم حق الانتفاع الى حق الرقبة ؟ .

تعرض لهذه المسألة الدكتور حسين خلاف فى كتابه التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث (١) ، وذلك حين قال عن موقف بعض المؤرخين من هذا الموضوع :

« .... ويضيفون أن موقف محمد على من الملكية الزراعية يعتبر على اية

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .
(٢) د . حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٢ ، ص ٩٦ .

حال تمهيدا لمـا جرى فيما بعد من اقرار للملكية الخاصة ، اذ قضى هذا الوالى على طبقة الملاك والملتزمين ، وهى التى كانت تقف وسـيطا بين ولى الأمر والفلاحين ، كمـا انه ثبت الفلاحين فيمـا كان فى ايـديهم وزادهم على توالى الزمن حقوقـا فى اراضيهم »(١) ...

ويدعم هذه الفكرة قول احـد الأجانب المعاصرين لعهد محمد على حين يقول :

« انه على الرغم من ان ملكية الأرض معتبرة من حق صـاحب السـلطان ، فانى لا اعرف حالات طرد فيها الفلاحون من اراضيهم ، مـا داموا يؤدون الضرائب المفروضـة عليهم بانتظام . وكثيرا ما كانت الأرض تنتقـل من يـد الى اخـرى ، ويسجل النقل فى المحكمة لقاء مبلغ يزيد كثيرا على قيمة ضريبـة الأرض المقـررة ، وعلى ذلك فقد نشـأ نوع من حق الملكية المكتسب » .

ومن ثم ، يمكن القول ان اجراءات محمد على تلك كانت بمثابة ارهاص مبكـر جـدا لمسيرة تؤدى الى تكوين مفهوم مـا لملكيـة الفـلاح للأرض ، وان اسـتقرار الفـلاح فى ارض على ذلك النحو كان بمثابة بـداية لمرحلة إنتقـالية من مفهوم حق انتفاع الى حق الرقبة .

على ان الظروف اضطرت محمد على الى تطبيق نظام عرف باسـم « نظـام العهدة » . فقد اتبع محمد على سياسة خارجية نشطة كل النشـاط وخاض غمـار حروب كثيرة فى شـبه الجزيرة العربية وفى السـودان والشـام وكريت واليـونان والاناضول ، وفقدت مصر خلال ذلك اعدادا كبيرة من زهـرة شـباب الفـلاحين ، كما استوعبت الصناعة الحديثة ومشروعات شق الترع وغيرها عددا كبيرا من الأيدى العاملة فى الوقت الذى كان فيه النمو السكانى لا يغطى حاجـة عمليات بنـاء الدولة الحديثة الى الايدى العاملة ، وانتشرت ظاهرة تناقص عدد سـكان القرى ، بينما كان محمد على فى حاجة الى تزويد خزانته بواردات مالية متزايدة ، فابتدع « نظـام العهدة » ، ويقضى بأن يقوم المسئول عن « العهدة » بجمـع الضرائب المفروضـة على ارض العهدة . ويختلف هذا النظام عن نظام الالتزام من حيث ان المتعهد كان

---

(١) المصدر السابق ، هامش ص ٩٥ .

يجمع الضريبة ، دون ان يحصل على زيادة (١) ، ومن حيث أنه اسهم فى نمو عـدد كبـار الملاك فيما بعد .

كانت لا تزال تحت يـد محمـد على مساحات شاسعة من الأراضى الزراعيـة غير المستغلة كشفتها عمليات المسح التى قام بهـا ، فضلا عن مسـاحات اخـرى كبيرة فى قلب الوادى المنتج يستطيع ان يتصرف فيها . ولذلك شرع فى توزيع بعض هذه المساحات على كبار موظفيه ومعاونيه اختارها لهم فى الأراضى التى تحتـاج الى استصلاح ، حتى يمكنهم من بذل اقصى الجهد فى سبيلها واعفاهم من الضرائب حتى يحولوها الى اراضى منتجة . وعرفت هذه بالابعديات ، وكانت تمنح فى أول الأمـر مدى الحياة فقط ، ثم أعطى اصحابها من بعد حق نقلها الى الابن الأكبر حتى صـدر قـرار فى ١٨٤٦ الذى اعطى لاصحاب الابعـديات حق التصرف بالرهن والبيـع ، وبالتالى اصبحت ملكية وراثية .

كذلك وزع محمد على على افراد اسرته مساحات واسعة من الأراضى الزراعية، ولكنه اختارها من الأراضى الزراعية الجيدة الانتاج ، وعرفت باسـم الجفـالك (٢) الأمر الذى حول افراد اسرة محمد على الى كبار الملاك حتى لقـد بلغت مسـاحة الأرض الزراعية التابعـة لهم فى مطلع القـرن العشرين الى حوالى سـدس ارض مصر الزراعيـة .

وايـا كان الأمر ، فقد أدت تلك الاجراءات ، فضلا عن الاصلاحات التى قـام بها محمد على الى احداث نقلة فى الانتاج الزراعى المصرى ، وان ظـل الفلاح مثقلا باعباء ارهقته كل الارهاق .

---

(١) يتضح ذلك فى عهـد الخديو اسـماعيل عندما فرض « نظـام المقـابلة » (١٨٧١) الذى اعطى حق الملكية لمن يدفع ضريبة ست سنوات مقدما .

(٢) مفردها شفتلك (جفتلك) .

الفصل الثانى

الفـــــــــلاح

حرمت الحكومة على الفلاج أن يبيع شـيئا من انتاجة الزراعى من الحبوب والا وقع تحت طائلة العقاب ، وللتاكد من ذلك كان رجـال الحكومة « يكبسـون » بيوت الفلاحين ، وهنا تقع الطامة وهى أن أولئك الرجال كانوا لا يفرقون بين خزين الفلاح من حقه في الحبوب التى أنتجها التى يطعم أسرته منه وبين الحبوب الممنـوع بيعهـا (*)

كانت الحكومة تشتري من الفلاح انتاجه من المحاصـيل التى حـددتها وكان ثمن الشراء تحدده الحكومة بنفسـها ، وكان ثمن بيعه بواسـطتها كبيرا الأمر الذى يجعلنا نقول ان حضارة مصر الحديثة التى نشطت ابتداء من عهـد محمد على انمـا كانت بعرق الفلاح المصرى .

ان سياسة الاحتكار هذه لم تكن وقفا على المحصـولات الزراعية المخصصـة للتصدير ، وانما امتد هذا النظام الاقتصادى الى المحاصيل التى تسـوق محليـا والتى كانت ضرورية لسد حاجات الشـعب الغذائية . حقيقـة كانت هذه الحاجات محدودة حينذاك ، ومع ذلك فقد ارتفعت الأسعار بشـكل جعـل الحياة مرهقة الا بالنسبة للفئات الغنية أو ذات الدخل العالى .

ولقد قارن احد المؤرخين المصريين بين حال الفلاح قبل وبعد تطبيق نظـــام الاحتكار فقال :

« وقد أثر نظام الاحتكار على القطاع الزراعى من السكان من عـدة نواح . فمن ناحية حرم الزراع من أى حافز لتحسين أحوالهم فهو قد جردهم من كل مبادرة وحرمهم تماما من الفوائد التى كان بمقدورهم أن يجنوها من الفرص التجـارية التى توافرت فى عهده (محمد على) ثم سحقهم فى النهاية بالضرائب الباهظة وكان محمد على فى ذلك يختلف إختلافا تامـا عن حكومة الممـاليك التى كانت باسـتمرار تترك

شئون الزراعة للفلاحين وحدهم ، كما انه بتطبيقه لنظام الاحتكار وضع الفلاحين وجها لوجه أمام البيروقراطية الحكومية . ففى زمن المماليك كان مشايخ القرى والملتزمين وحدهم هم الذين يتعاملون مع الطبقة الحاكمة ، بينما كان المزارعون يتمتعون بما يكاد يكون استقلالا تاما داخل قراهم ، ويحتمون وراء ما أقرته العادات ، من خلال ذلك تحققت لهم حماية مصالحهم ، اما البيروقراطية فى عهد محمد على ، فقد تجاهلت الأساليب المعتادة وأرهبت الفلاحين ، وكانت النتيجة هى البؤس والحرمان اللذان حلا بسكان مصر الزراعيين » (١) .

ولقد كان من نتائج سياسة الاحتكار — من وجهة نظر بعض الأوربيين — تذهب الى « أن افقار الفلاحين على هذا النحو يعود بالضرر على الحكومة نفسها اذ يتأخر فى دفع ما عليه من ضرائب ويهمل أرضه ثم يهجرها ، هذا الى أن النقص فى ايرادات الخزينة انما هو نتيجة مباشرة لتدهور زراعة الأرض » (٢) .

كانت القرية المصرية تمثل وحدة اقتصادية مظهرية ، فهى وحدة تقوم على أساس خدمة مصالح الحكومة (حكومة محمد على فى النصف الأول من القرن التاسع عشر) اكثر منها لخدمة مصالح الريف بصفة خاصة أو الشعب كله بصفة عامة ، فقد كانت القرية ككل مسئولة عن دفع الضريبة المقررة عليها ، وكانت الأراضى على المشاع ، حقيقة لم يكن ذلك سائدا فى كل البلاد المصرية ، ولكنه كان نظاما سائدا تقريبا فى جنوب مصر فى الصعيد بصفة خاصة . وكانت الأراضى الزراعية توزع من وقت لآخر على الفلاحين دون أن توزع الضريبة على عدد الافدنة المنزرعة أو على عدد الاسرات أو الرجال القائمين على العمل الزراعى ، وانما كانت تربط على القرية وعلى المستقرين فى القرية ان يدفعوها بغض النظر من اية تطورات اجتماعية أو اقتصادية الا فى الحالات الصارخة .

هذه المسئولية الجماعية فى دفع الضريبة المربوطة على القرية كانت تتمشى الى حد كبير مع مفهوم (المشاع) فى عملية الانتاج فى زمام القرية حيث ان المفروض حينذاك ان يقوم الفلاحون بالزراعة لتسديد الضريبة بغض النظر عن الحالات الكثيرة التى تؤدى الى خروج الفلاحين من القرية . ولقد كانت المغادرة كثيرة فى

---

(١) د . احمد عبد الرحمن مصطفى / الفلاح والأرض فى عصر محمد على ، محاضرة القيت فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى ٢٥ يناير ١٩٧١ ، ص ٢٦٨

(٢) تقرير باورنج .. ، عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٤٠٣ .

القرى منها ما هو برغبة الفلاحين أنفسهم ومنها ما هو تنفيذا لأوامر الحكومة . لقد كانت مسئولية القرية فى دفع الضريبة تفرض على المستقرين فى القرية دفعها ، وبالتالى كانت الاعباء الضرائبية تزداد على كاهل هؤلاء المستقرين كلما زادت معدلات خروج الرجال من القرية لسبب أو آخر .

بل لقد بلغ الأمر فى هذا الصدد أن الوفيات لم تقلل من نسبة الضريبة المربوطة ، وانما كان على القائمين فى القرية أن يدفعوا نفس الضريبة المقررة بغض النظر عمن توفى من أهلها .

فاذا اخذنا فى الاعتبار ان الاوبئة كانت تنقض على القرى من وقت لآخر بحيث ترتفع نسبة الوفيات بشكل ملحوظ ، وان أعمال السخرة ، والجيش استوعبت اعدادا كبيرة من الرجال العاملين فى الزراعة ، اذا اخذنا فى الاعتبار هذين الأمرين تبين لنا كم كانت الاعباء تتضخم على كاهل المستقرين فى القرية القائمين على الزراعة بأساليبهم التقليدية وتنفيذا لأوامر الحكومة .

ان مثل هذه الأوضاع كفيلة بأن تجعل حياة الفلاح تعسة الى حد كبير ؛ وهى حياة تزين له بمرور الوقت فكرة مغادرة القرية الى المدينة أو الى أية جهة بعيدة عن قريته ، واحيانا كانت جماعات الفلاحين تهاجر الى الشام الأمر الذى سبب لمحمد على متاعب كثيرة .

واسلوب آخر لجأ اليه الفلاح المصرى لتخليص نفسه من الأعباء المتزايدة عليه ظلما وهى تفضيل العمل فى الابعديات والجفالك التى كان يمنحها محمد على لافراد أسرته وكبار الموظفين وقادة الجيش ، حيث كان يلقى حماية صاحبها من ناحية ويتخلص فى نفس الوقت من أعباء السخرة .

أما قسوة الأموال التى كانت تفرض فجأة على القرى فان الفقرة التالية تكشف لنا مدى قسوتها :

« ... الفرد (١) (متوالية) على القرى .. حتى خربت القرى وافتقر أهلها ورحلوا عنها فكان يجتمع أهل عدد من القرى فى قرية واحدة بعيدة عنهم ثم يلحقها

---

(١) الفردة : مبلغ من المال يفرضه الوالى فرضا على قرية أو ملاك .

وبالهم فتخرب كذلك واما غالب بلاد السواحل هربت أهلها وهدموا دورها ومساجدها » (١) .

كانت المشكلة الحقيقية التى تواجه مصر حكومة وشعبا هى أن دافعى الضرائب فى مصر كانوا يقدمون أموالا للخزانة تعادل ما يدفعه الانجليز لحكومتهم من ضرائب وضعف ما يدفعه الفرنسيون وأربعة أمثال ما كان يدفعه الأسبان (٢) . ولكن شتان بين مستوى الفلاح الأوروبى والمصرى .

هذا فضلا عن السخرة التى كان يتعرض لها الفلاح فى عهد محمد على بل ومن بعده .

وفيما يلى نص يتحدث عن كثافة أعداد الرجال المستخدمين فى السخرة فى فترة محدودة :

« لما كانت الترع الثلاث التى يراد حفرها فى أطراف القناطر الخيرية مصمما على اتمام نصف اشغالها فى هذه السنة اقتضى الحال لاجراء عملية حفرها جلب ١٨٢٠٧٧ شخصا وقد وجب توزيعهم على المديريات بموجب دفاتر تعداد النفوس . ولما كانت مديريات الاقاليم الوسطى والوجه القبلى فيها اشغال ضرورية من ترع وجسور وغير ذلك فى هذه السنة ، وقد اشتغلت اهاليها بتلك الاشغال المذكورة لزم جمع الأشخاص المطلوبة من مديريات البحيرة وانتقر رأى مجلس العموم على ذلك فى عمل الحفر ابتداء من ١٥ جمادى الثانى من هذه السنة (١٢٦٤ هـ) » .

ومن هذه يتبين لنا أن اعداد العمال — ومعظمهم كان يجلب من الارياف — كانت كبيرة جدا وتتضح خطورة ذلك اذا وضعنا فى الاعتبار أن أقصى عدد لسكان مصر حينذاك هو ٥ خمسة ملايين نسمة فان نسبة المستخدمين رسميا فى السخرة كانت نسبة رهيبة . حقيقة لم تكن هذه النسبة تطبق باستمرار على هذا النحو المريع ولكن الحقيقة التى يمكن أن نستخلصها من الوثائق فى عهد محمد على هى أن أعدادا كبيرة من رجال وشباب مصر كانت تساق سوقا الى السخرة سواء فى أعمال الحكومة الكبرى أو فى اعمال على مقربة من القرية أو المديرية .

(١) الجبرتى : عجائب ، ج ٤ ، ص ٦٥ (جمادى الأول ١٢٢٢ هـ) .
ومحمود سامى ، تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٥٦٣ — ٥٦٤ .
(٢) من تقرير باورنج نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٤٦٩ .

ماذا كانت رؤية المراقبين الاوربيين لأحوال الفلاح المصرى ؟ ان هذه الرؤية مهمة لنا لأن على أساسها كان الأوربيون يضعون سياساتهم ازاء مصر .

فيرى احدهم :

« أن أبناء العرب وهم الجمهرة العظمى من السكان يعاملون على أنهم قوم حلت بهم الهزيمة وليس ثمة سوى عمل واحد يطالبون بأدائه وهو خدمة الأرض وزراعتها ، أما الوظائف والسلطان فمن نصيب شعبين غريبين عن مصر هما الترك والمماليك ، ولا يطلق الاسم الاخير الا على الارقاء البيض الذين جيء بهم الى هذه البلد ...(١) وفى ظل الترك والمماليك وهما الطائفتان اللتان تسيطران على البلاد اصبح ابناء العرب وهم أول من غزا مصر من المسلمين الطبقة المسودة اذ قلب لهم الحظ ظهر المجن على نحو لم يسبق له مثيل . وقد تم هذا التغيير فى غير عنف ودون أن يحدث ما يسترعى الانظار اليه ، وربما كان من المستطاع تبرير ذلك بما طبعوا عليه من صفات خاصة وليس ذلك راجعا الى أن تعوزهم صفات الذكاء وسمو الخلق . فقد حبتهم الطبيعة من هذه الصفات بما جعلهم امة تأسر محبتها القلوب الى أقصى الحدود .

فاذا نظرنا اليهم بوصفهم أفرادا فان تفوق ابن العرب على التركى قد يكون ظاهرة ملحوظة ، غير أننا اذا تصدينا للحكم على امة من الامم لا يعول عند ذلك على المزايا الفردية وانما يكون المعول على اتحاد الاهالى وعلى الروح العامة وعلى الاستعداد للسيطرة أو الخضوع . واذا كان الوضع على هذا النحو فمن الواجب أن نعترف بأن أبناء العرب أدنى مرتبة من غيرهم (٢) .

وفى نص تقرير بورنج دراسة عن « أخلاق المصريين ، وبطبيعة الحال فان التقرير يعكس رؤية أجنبية للفلاح المصرى كانت توضع على أساسها سياسات المسئولين فى انجلترا وأهدافهم الاقتصادية والاجتماعية ، جاء فى هذا التقرير :

«..... ليس هناك من يضارع فلاحى وادى النيل فى الصبر على طول الاذى ، والخضوع لذوى السلطان ، والبشر عند الشدائد ، و ... روحهم المرحة وابتهاجهم على الدوام . فما يبدو على الرجال وهم مصفدون بأثقل الأغلال خلال

(١) نقلا عن فؤاد شكرى ، بناء دولة ، ص ٢٣٧ .
(٢) نقلا عن فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر محمد على ، ص ٢٤٠ .

قيامهم بالاشغال العامة ، انهم اقل ابتساما من أى زميل لهم مهما آذتهم تلك الاغلال التى تهرأ منهم اللحم حتى تبلغ العظم ، والغناء والموسيقى يلازمان العمل مهما شق . وقد ترى الجموع السوط فى يد من يشرف عليها ، وهو يلهب به ظهور العمال فى غالب الاحيان ومع ذلك فان الغناء لا ينقطع والروح المعنوية لا يعتورها الوهن على الاطلاق . ومن العسير أن يجد الانسان وسط هذا الجمهور فردا تلازمه الكآبة وانكسار الخاطر ، فهذه الروح المرحة التى تتقبل المصائب على أنها أمر لا محيص عنه ، لا يستطيع شخص أن يحد منها أو يقضى عليها ، بل أنها لتثبت فى الوقت نفسه بكل ما تبدو عليه مسحة البهجة أو السرور ، سواء كان ذلك حقيقة أم خيالا ، على أن الموت نفسه يقترن فى مصر بمظاهر الابتهاج ، اذ تسير المواكب فى خطا سريعة كأنها مواكب النصر ، وتنطلق الصيحات وتعزف الموسيقى على نحو لا يمت الى الحزن بسبب .. » .

« وهذا الشعب الذى طالما تألق نجمه خلال تاريخه الزاهر ما يزال محتفظا بحماسته وحبه لكل ما يثير الاعجاب ، وربما لما يستمتع به من خيال خصب وما يزال حتى اليوم يفيض حيوية وظرفا وميلا الى الفنون والشعر . هذا الى انه شعب باسل يستثير التنافس غيرته ، لبق قانع ، قدير على احتمال النصب والجهد .

اما من حيث المزاج فهو على نقيض الاتراك فالمرء حين يرى أبناء العرب فى مرح دائم والترك تبدو عليهم سيما الجهد والاكتئاب لا يسعه الا أن يتساءل أى الشعبين احسن حظا واتعس حالا أهو الشعب الظالم أم الشعب المظلوم . ويرد ذلك كله الى طبيعة ابن العرب ، وهذه الطبيعة التى تعينه على الرضا بحالته البائسة هى نفسها التى تحول دون خروجه من هذه الحالة ، ذلك لأن أبناء العرب شعب خفيف الروح يعنى بتوافه الأمور لا يثبت على رأى ، ثرثار لا يعمل شيئا قبل ان يعد له ألف مرة ، مولع بالقصص والنوادر ، سريع التصديق مرهف الحس والتفكير حتى ليفوته ادراك الرأى السديد ، جم النشاط ولكن فى غير المراد أو ثبات ، لا يدرك معنى الشرف أو الوطنية يجيد المحاكاة ولكنه يميل الى الاعتماد على ذاكرته أكثر من الاعتماد على عقله . ولهذا كان سريع الحفظ سريع النسيان ، وهو شعب يشبه الترك وجميع الشعوب الاسلامية فى أنه لا يشغل باله بالتفكير فى المستقبل فاذا كانت عبارة من العبارات تستطيع فى بعض الأحيان أن تصور أخلاق شعب من الشعوب فان ثمة عبارة لا ينقطع ترديدها على أفواه أبناء العرب جميعا

وهى : « نكره ان عشنا وكان لنا عمر » وقد غرست فيهم حالة العبودية التى كانوا عليها ، رذائل توارثوها ، وهم كذابون منافقون ينكرون الجميل فقد كنت اتحدث فى يوم من الأيام الى « كاشف » — كان قد نجا من مذبحة سبتمبر ١٨١١ — فانحى باللائمة على جميع تصرفات محمد على وعلى نظامه ولكن عندما سألته عن مسلك الباشا ازاء ابناء العرب قال :

اما فى هذه الناحية فهو على حق لأنه لو وضع ثقته فيهم لغدروا به لا محالة » .

فقد جاء فى تقرير البارون بوالكونت (١) :

« وعندما اصبح محمد على مالكا لجميع الأراضى المصرية اخذ يبحث طبيعتها ويتعرف على احوال سكانها الذين سيستعينون بهم على استثمارها . على ان موارد هؤلاء السكان محدودة ولما كان قد نشأوا فى ظل العبودية وسط اعمال النهب والسلب فانهم لم يستشعروا قط رغبة فى اقتناء ثروة ، ليس لديهم على الاطلاق ما يضمن بقاءها فى حوزتهم ، وكان من اثر قناعتهم ومعيشتهم فى جو معتدل لا يتغير ان اكتفوا بقليل من الحاجات واستساغوا — الى حد كبير — ما هم فيه من ذل واستعباد حتى اصبحوا لا يفكرون فى رفع مستواهم فى الناحية الأدبية . وهكذا كانت تعوزهم الدوافع التى تحفزهم ان ينفضوا عن انفسهم غبار الكسل الذى الفوه ....

فعندما اراد (محمد على) حفر قناة الاسكندرية (٢) اخرج جميع سكان الأقاليم المجاورة من ديارهم وسيقوا الى السهول المحرقة الجرداء تحت وطاة السياط وكان من اثر ذلك ان اتم الفلاحون عملهم فى عشر شهور بعد ان مات منهم اثنا عشر الفا . وقد استطاع فريق آخر من الفلاحين عدته ثمانون الف ، ان يعيد فى خمسة ايام حفر ثمانية فراسخ من الترعة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر (٣) .

---

(١) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة .

(٢) يقصد قناة المحمودية .

(٣) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد على ، ص ٢٢١ .

وكان هناك تصور خطير لدى السلطات الحاكمة عن تراخى الفلاح المصرى حدثنا عنه باورنج فيتوك (١) :

« قد يكون فى تراخى الفلاحين ما يبرر — الى حد ما — ذلك الاشراف الذى تبسطه الحكومة على الزراعة ، اذ تطالب بزراعة أصناف معينة فى مناطق معينة دون أن تترك للزراع أو المالك الحق فى اختيار المحصول الذى يراه أعود عليه بالفائدة من سواه » .

ولكن باورنج استدرك وقال :

« ان الرغبة فى جمع المال والاحتفاظ به قوية بين الفلاحين ومسيطرة عليهم ، كما هو شأن اية طائفة أخرى من بنى الانسان . ولو صارت حقوق الملكية اكثر تحديدا ، ونالت قسطا أوفر من الاحترام وادخل على الادارة المالية فى مصر شىء من التنسيق لكان من الممكن أن تطمئن كل الاطمئنان الى اهتمام الفلاحين بمصالحهم » (٢) .

ويرى باورنج أن لدى الفلاحين نقائص عديدة :

« التواكل من اظهر خصائصهم ، فكثيرا ما يلتمسون الأعذار حتى لا يؤدوا عملا .. فان لديه كلمة « كده » يقولها فى جميع المناسبات ... شاع (بينهم) ميل الى تأجيل الأعمال ... الى غد أو بعد غد ... (جوابه) بكره أو بعد بكره ذلك أن نشاط المرء من تلقاء نفسه أو باختياره صفة يعتز وجودها فى بلاد الشرق (٣) .

ويرى أحد الأجانب المراقبين الأحوال مجتمع مصر فى أيام محمد على أن :

« من اهم العوامل التى ادت الى تأخر ابناء العرب ما يشعر به كل منهم نحو الآخر من حسد وغيرة ، ووصف طاغية منهم انما يصدر عن الخوف وليس أدل — على صحة هذا القول — من أنهم أسلس قيادا للترك واطوع لهم عن طيب خاطر مما لو كان سادتهم من ابناء جلدتهم وقد حدث

---

(١) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٤٠١ .
(٢) تقرير باورنج نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٤٠١ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٦٩ — ٧٠٠ .

فى بعض الجهـات أن بدىء احلال حاكم من ابنـاء العـرب محل الترك ، فاعقب هذا اللون من التجديدات قيـام الاضطرابات على الأثر .

ولمـا كان ابنـاء العـرب لم يشـغلوا حتى الآن سـوى الوظائف الثانوية سـواء اكان ذلك فى الجيش ام فى الادارة ، فان من العسـير ان نتنبـأ بما تكون عليه حالهم اذا اسـندت اليهم مناصـب رفيعـة « ولمـا كانوا قد رزحـوا قـرونا طويلة تحت وطاة الاسـتبداد والجأتهم الضرورة الى ان يصطنعوا الكذب والنفاق ولم يجـدوا امـام اعينهم مثـلا يحتـذونها سـوى اولئك الذين ظلموهم ، ولمـا كانوا الى جانب ذلـك اشـد تعصـبا من اولئك الظـالمين ، فاكبر الظن أن مصر ما كانت لتفيد شـيئا ، لو ان ابنـاء العرب تولوا حكمهـا بدلا من الأتراك » (١) .

ويرى بعض المراقبين لاحـوال المجتمـع المصرى فى عهـد محمـد على ان اصلاح هذا المجتمـع لا يمكن أن يتم الا بالتوسـع فى الخـدمات التعليمية فيقول :

« ولقـد ادرك محمـد على ، اكثر ممـا ادرك سـواه ، مـدى افتقـار مصر الى الرجـال القـادرين على ادارة الأعمـال . وكان لهذا الاعتبار بصـفة خاصـة اثر فى جميـع ما اتخـذ من وسـائل لنشر التعليم فى البـلاد ، وفى الحـق انـه ليخيـل الى ان احيـاء الشـعوب التى يدب فيها الفسـاد ومـا اكثرها الآن فى بلاد الشرق امـر لا يمكن تحقيقـه الا عن طـريق التعليـم ، ومهما يكن التقـدم الذى يرجوه المرء عن هذا الطريق بطيئا الا انه دائم الأثر ، ومن الواجب أن يكون المقـام الأول للتربيـة والتعليم فى الدول عـامة ومصر خاصة ، كما يجب أن يلقن الصـغار مبادىء الخلـق الكريم ، وان يحـال بين الرذيلة ودور التعليم فى غـير هوادة » (٢) .

---

(١) نقلا عن فؤاد شكرى : بناء دولة ، ص ٣٥٨ .

(٢) المصـدر نفسـه .

الفصل الثالث

العمال والصناعة فى عهد محمد على

الفئة الثانية المنتجة هى الحرفيون . وكان هؤلاء هم أهل الصناعة على مستوى ذلك العصر ، وكانوا على مستوى متواضع للغاية . وكان الحرفيون يقومون بأعمالهم فى رتابة دون تدخل من جانب الحكومة الا فيما يتعلق بجمع الضرائب والاعانات (والفرد) .

حتى اذا ما شرع محمد على فى احداث تغييرات جذرية فى مجال الانتاج الحرفى والصناعى أصبح الحرفيون هدفا من أهدافه ، اذ عمد الى السيطرة سيطرة كاملة على وسائل الانتاج . أو بمعنى آخر ، مثلما أصبح الفلاح فلاح الباشا ، عمل محمد على على أن يكون الحرفى فى خدمته وتحت توجيهه (*)

كان الحرفيون يقومون بأعمال صناعية لتغطية حاجات البلاد من المواد الغذائية ومن الملابس والأدوات البسيطة ومتطلبات البناء والتأثيث ، فضلا عن بعض الصناعات الحديدية المحدودة جدا .

وكان حجم دكاكين وورش الحرفيين صغيرا ، ورأس المال كان ضئيلا ، وعدد العمال المشتغلين فى الورشة لا يتعدى فى الغالبية العظمى عدد الأصابع . بل كانت كثرة من مواقع الانتاج الحرفى فى منازل أصحابها أو فى محلات صغيرة مستأجرة .

وكان التطلع محدودا لدى الحرفيين ، حيث كانوا يتطلعون الى سد الحاجة المحلية الاستهلاكية ولا شىء وراء ذلك ، اذ كانت فكرة التصدير غير متوفرة الا لدى عدد محدود جدا من الحرفيين .

واذا كانت هناك مصانع على نوع محدود من الاتساع ، فهى مصانع السلاح ومستلزمات رجال الحرب . ومع ذلك فكانت هى الأخرى على مستوى متواضع للغاية .

وضـع محمـد علـى الحـرفيين تحت سـيطرته عن طـريق التحـكم فى تزويدهم بالمواد الخـام ، وتحديد دورهم فى عملية الانتـاج ، مانعـا أى حرفى من ان يبيـع أى جـزء من انتاجه الا الى الحكومة ، كما منع تسرب اى انتـاج حرفى الى السـوق حتى منع المواطن المصرى كذلك من الشراء الا من الحـكومة وسـد منـافذ التهريب عن طريق العـديد من المكلفين برقابة العمـل والانتـاج وتسـليم الانتـاج وتصريفـه ، وكذلك عن طريق تجميـع أصـحاب الحـرفة الواحدة فى موقع معين حتى تسـهل عمليـات الرقابة والحصر .

حقيقة كانت الرقابة شـديدة ، وكانت العقـوبات رادعة ، ولكن فى مثـل هذا الشـكل من الاحتكار الحكومى ، لا يمكن التحـكم تحكما مطلقـا فى التهريب ، وحتى اذا كانت عمليـات التهـرب محـدودة للغـاية ، فان نتيجـة ذلك التحـكم القاسى تؤدى الى نتائج سـلبية خطيرة على المـدى القريب والبعيـد على حـد سـواء . وهذا يقـودنا الى الاجابة على سـؤال : ما هى العوامل الرئيسـية التى ادت الى تدهور حال الحرفيين وانتاجهم ؟.

١ ـ كان الحرفيون قبـل عهـد محمد على يعملون من منطلـق المصلحة الخاصـة (الربح) والحفاظ على مسـتوى الانتـاج ، وكانت له حـرية الحركة فى شراء المواد الخام وفى تصريف انتاجه ، اما بعـد ان فرض محمـد على نظـام الاحتـكار فانه بذلك قدجعل الحرفى مجـرد آلة تفكر له الحكومة وتسـيطر عليه ، ولا تعطيـه فرصـة للحركة الأمر الذى لا يقضى فقط على الابتكار ، وانما يؤدى الى تراجع انتاجيـة العـامل سـواء من حيث حجمه او دقته او من حيث المهارة الفنيـة .

٢ ـ كان من المفروض فى مثـل هذا الشـكل من الاحتكار والتحـكم وفى مثل تلك الأوقات من تفوق الانتـاج الأجنبى وتقـدمه ، أن تقوم الحـكومة بتنظيم حملة للتوجيـه والارشـاد والتدريب والتحـديث وتقـديم رءوس الأموال . وهذا ما لم تقم به الحكومة وانما احتكرت ما كان قائما بالفعـل ، لكى تحصـل على الأرباح . وهـو اسـلوب لا يثبط الهمم فقط بل كان يهـوى بالدخـول التى كانت ضـئيلة بالفعـل ، فأضاف الاحتكار أسـبابا جديدة لتدهور الانتـاج الحرفى فى وقت كان فيـه هذا الانتـاج مهددا بالتدهور ان عاجلا أو آجلا بسـبب النهضة الصـناعية العالميـة منـذ انطـلاقة الثورة الصـناعية فى انجلترا وامتدادها لأوربا .

بل هناك من يرى أن محمد على نفسه كان راضيا بسيطرته الاحتكارية تلك وبالضربة التى وجهها الى الحرفة والحرفيين فيقول الدكتور حسين خلاف « ان محمد على كان ينظر الى الصناعة الصغيرة نظرة خاطئة ، واغلب الظن انه لم يأسف لما لحقها من تدهور ، اذ كان اضمحلالها يفسح المجال لتصريف منتجات المصانع الحكومية ، كما ان اضطرار ارباب الصناعة الصغيرة الى تركها كان يزيد العرض من العمال القادرين على العمل فى المصانع الحكومية » (١) . واغلب الظن ان محمد على رأى فى الحرف والحرفيين فى أول الأمر مصدر دخل له ، وكان الرجل فعلا يسعى الى الحصول على اكبر قدر من الأموال لمواجهة متطلبات طموحه وتطلعاته ومشروعاته . ولقد أدت فعلا سياسة الاحتكار هذه الى هجر الكثيرين من العاملين فى الحرف لحرفهم ، ولكن لا ندرى هل أدى ذلك الى دعم مصانع الحكومة بعمال مهرة . ولذلك صدق د. حسين خلاف حين قال ان ما حدث للفلاح نتيجة سياسة الاحتكار من مغادرة ارضه بحثا عن عمل غير الفلاحة ، حدث كذلك للعامل الحرفى حين « هجر الكثير منهم الصناعة » (١) .

٣ — لم تستطع الرقابة الشديدة التى فرضها محمد على بواسطة المكلفين بتلك المهمة « منع التهرب من الاحتكار ، بل كان هذا التهرب قائما على نطاق واسع ، بل ساعد فيه ضعف الأداة القائمة بالرقابة ، وانتشار الرشوة بين أفرادها . وفى مثل هذا المناخ من العسف والرشوة ونقص العائد بالنسبة للمنتج لا تنجح أية عملية اقتصادية انتاجية النجاح المرجو ، ان لم تتراجع عن ذى قبل » (٢) .

كان محمد على معنيا اكثر بتحديث الصناعة عن طريق اقتباس أدوات النهضة الحديثة الأوروبية أو استيرادها ، فاقام العديد من المصانع الكبيرة التى تخدم صناعة القطن والمواد الغذائية وحاجات الجيش من الأسلحة واقام ترسانة كبيرة فى الاسكندرية وورشا حديثة فى القاهرة .

كان الوالى هو المالك لتلك المصانع ، وكان يجتهد فى ادارتها والتدخل

(١) سنتناول العمال والصناعات التى انشأها محمد على بعد قليل .

(١) دكتور حسين خلاف ، التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، طبع بدار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٢ الطبعة الأولى ، ص ١٨١ .

(٢) التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، ص ١٨٠ .

فى توجيهها ، ادار بعضها بالطاقة البخارية التى كانت اختراعا مدويا حينذاك ، ولكن لقى مشاكل عديدة فى استمرار استخدامها ، ولجأ الى استخدام حيوانات الجر فى ادارة الآلات ، بل استخدم الطاقة البشرية فى ادارتها.

كانت المصانع الحديثة مركزة فى القاهرة والاسكندرية ، وكثير منها منتشر فى مصر : فى الدلتا والصعيد ، وكان الانتاج لتلبية السوق المحلية وحاجات الجيش والاسطول اللذين اسسهما محمد على على نمط حديث .

ولقد استوعبت تلك المصانع والورش الحديثة آلاف العمال ، وهو وضع جديد على المجتمع المصرى وعلى اقتصادياته . ومع ما كان لدى محمد على من عناية بحجم الانتاج ، كانت الرعاية الاجتماعية غير متوفرة . وكان تسلط الخبراء الاجانب واضحا نظرا لقلة خبرة المصرى بادارة مثل تلك المشروعات الصناعية . ومع تقديرنا لدور هؤلاء الخبراء الاجانب الا ان الأجنبى لا يقدم المشورة الكاملة الا قليلا ، فضلا عن سوء قصد بعضهم .

وليس لدينا معلومات وفيرة عن احوال العمال فى مصر فى عهد محمد على ، ولكن نلاحظ ان كثرتهم وشبابهم جعلهم فى نظر محمد على قوة من قوى مصر الدفاعية حين يحتاج الجيش المقاتل الى ظهير بشرى فى فترات الملمات . فتحدثنا احدى الوثائق الخاصة بعام ١٨٣٩ عن ان محمد على كان مستعدا الأن يسلح عمال الورش للدفاع عن البلاد لمواجهة التجمع الدولى الذى تحالف ضد مصر حينذاك .

ومن الأمور التى اثارت الألم لدى الباحثين فى تطور سياسة التصنيع فى عهد محمد على انها كانت تركز على تزويد الجيش والاسطول باحتياجاتهما ، وان الادارة كانت سيئة ، والخبرة محدودة والانتاج غير جيد ، والنتيجة العامة هى توقف حركة التصنيع فى أواخر عهد محمد على ومن بعده وتدهورها الى حين .

ولقد تضافرت عوامل داخلية وخارجية على فشل سياسة محمد على فى التصنيع . وهناك من يرى ان العامل الخارجى كان العامل الرئيسى فى الوصول الى تلك النتيجة المؤسفة . والواقع ان دور انجلترا كان جوهريا فى هذا الصدد ، حيث عقدت انجلترا مع الدولة العثمانية معاهدة بلطة

ليمان فى ١٨٣٨ ، تلك المعاهدة التى تفتح أبواب ولايات الدولة العثمانية — ومن بينها مصر — امام التجار الانجليز ، فتدفقوا كما تدفق غيرهم من الأوربيين على البلاد بتجارتهم الرخيصة التى لا يصمد امامها الانتاج المصرى وخاصة فى غياب الحماية الجمركية .

ومن المعروف أن من بين قرارات مؤتمر لندن (١٨٤٠) وفرمان ١٨٤١ تخفيض عدد الجيش والاسطول الأمر الذى أدى الى اغلاق العديد من المصانع التى كانت تخدمها .

ويعلل احد مؤرخى التاريخ الاقتصادى هذه النكسة بقوله :

« واذا كانت المنتجات المصرية قد لقيت منافسة شديدة من البضائع الأجنبية فى السوق المصرية ذاتها ، فانه كان يصعب عليها أيضا منافسة هذه البضائع فى الأسواق الأجنبية ، على ان الصعوبات التى لقيتها صناعاتنا المحلية حينذاك لم تكن خاصة بالتسويق فحسب ، بل انها كانت تمتد الى سوء التقدير ، وتعذر الحصول على المواد الأولية والوقود وقطع الغيار اللازمة ، والى ارتفاع تكاليف الانتاج فى المصانع ، وعدم الاهتمام فيها بأعمال الصيانة ، وسوء ادارتها ، وانخفاض مستوى الكفاية الفنية والخلقية عند كثير من المشتغلين فيها ، واتباعهم الأساليب البيروقراطية فى العمل ، وكذلك سوء حال العمال المشتغلين فيها ، حتى كان السوط يستخدم احيانا فى تشغيلهم ، مع عدم رغبة الفنيين الأوربيين فى تمرينهم ، حتى لا يحلوا محلهم ، كذلك كانت أمور تلك المصانع تتركز عند الوالى نفسه ، فهو الذى كان يقر انشاءها ، ويعين لها مديريها ، ويشرف على سير العمل فيها ، ولا شك انه كان يستعين فى ذلك برأى مستشاريه من الأجانب ، الا ان هؤلاء لم يكونوا دائما من المخلصين أو ذوى الكفاية العالية ، كما لم يكن الوالى رجل صناعة أو اقتصاد ، بل انه لم يكن متفرغا للصناعة ، وانما كان مشغولا بغيرها من امور الدولة ، ولا شك أن تركيز شئون الصناعة فى شخص الوالى على هذا النحو كان أحد أسباب فشلها ، كما كان سببا فى انها لم تترك فى أرض مصر بذورا صالحة . ولا شك عندنا

ان الأمر ما كان يتم فى هذه الصورة لو كان الشعب قد اشترك ، رغم فقره وجهله ، فى عملية التصنيع هذه على نحو أو آخر » (١) .

وقد ابدى القنصل الانجليزى كامبل ملاحظة هامة حين قال فى هذا الصدد :

« ان الادارة مهما كانت قوتها لا تستطيع ان تحيل شعبا يعيش على الرعى (٢) الى شعب صناعى ، كما أن مجرد استخدام آلات باهظة النفقات معقدة التركيب كاملة الاجزاء لا يكفى مطلقا لخلق صناعة ناجحة » (٣) .

وايا كانت محاسن ومآخذ السياسة الصناعية التى نفذها محمد على ، فانها محاولة للانطلاق من فوق الصفر بقليل ، وغالبا ما تكون البدايات الأولى معرضة لعقبات وأخطاء ، ولكن مما لا شك فيه انها محاولة جريئة خلقت صناعة ، وخلقت مفهوما للعمل الحديث والعمال ، ومع أن العمال لم يشكلوا فى عهد محمد على ولا فى معظم سنى القرن التاسع عشر فئة لها دور اجتماعى فان هذه الطائفة ولدت مع النصف الأول من القرن التاسع عشر . وتطورت من بعد لتصبح طائفة لها مكانتها فى المجتمع المصرى فى القرن العشرين .

---

(١) دكتور حسين خلاف : التجديد ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(٢) لم تكن مصر بلدا رعويا .
(٣) المصدر السابق هامش ص ١٨٥ — ١٨٦ .

الفصل الرابع

التحديث في الجيش والتعليم

تحديث الجيش :

كان بناء القوة المسلحة المناسبة للدفاع عن المنطقة — فى نظر محمد على هدفا رئيسيا له وجزءا من سياسته نحو احداث نقلة حضارية . ولقد اتخذ خطوات واسعة لتوفير التمويل المحلى اللازم لبناء جيش قوى ، ولكنه اتجه فى اول الأمر الى تجنب تجنيد المصريين حتى يوفر الأيدى العاملة المصرية للانتاج وربما لكى لا يعطى فرصة للشعب المصرى لممارسة العسكرية التى قد تضر بمستقبل واحتكار محمد على وابنائه من بعد للحكم وبالثروة .

وكان محمد على بتفكيره هذا امتدادا لمن سبقه من حكام لمصر كثيرين ركزوا على تكوين جيش من غير المصريين . فمنذ اواخر الأسرة العشرين (الفرعونية) كان حكام مصر يتجنبون اشراك المصريين فى السلك العسكري الا فى حالة الضرورة القصوى .

وكان محمد على تركى التفكير عندما شرع فى تشكيل جيش حديث يحقق اهدافه العامة والخاصة . وكان يريد ان تكون القيادة العامة وكبار ضباطه من الأتراك او المتتركين أو من سلالة المماليك ومن بقايا الالبان فى مصر ومن أتراك يستقدمهم من تركيا الى مصر كبارا او صغارا . فلقد بعث محمد على يطلب « انتقاء الصبيان من الرها (اورفه) وأدنه ومرعش » على ان يكون ذلك « برضاء والديهم » وارسالهم الى مصر ليتلقوا العلوم فى مدارسها » .

ومن بعد تلك الضربة الحاسمة للمماليك عمل محمد على على تدريب اولادهم ومن بقى منهم على الاعمال العسكرية والادارية الحديثة . والى جانبهم توافدت على مصر هجرات متتالية غير منتظمة من اكراد العراق وسوريا والشوام وهجرات ارمنية والمغاربية الذين كانوا يكونون شريحة هامة من شرائح المجتمع الاسلامى غير المصرى .

ولقد كانت قوة الحكومة فى مصر فى عهد محمد على من العوامل التى شجعت هجرة هذه العناصر الى مصر وهى هجرة استمرت متصاعدة منذ ذلك العهد .

وكان محمد على يفضل أن يكون جنود الجيش من السودانيين .*. ولقد كان السودانيون فى بعض الفترات يشكلون جزءا هاما من القوات العسكرية فى مصر فى العصر الاسلامى وكان من المعروف عن الجندى السودانى الدقة فى اطاعة الأوامر ، والولاء للحاكم فضلا عن المقدرة العسكرية ، وكل هذا كان من الصفات التى يبتغيها محمد على فى جنده وخاصة انه كان صاحب تجربة مريرة مع الالبان سريعى التمرد والغضب الذين يخرجون عن الطاعة لاسباب هامة وغير هامة احيانا والذين عارضوا التدريبات اللازمة لنقلهم الى مستوى العسكرية الحديثة .

كان محمد على يعتقد أن الجندى السودانى اكثر قابلية لتقبل النظم والاساليب العسكرية الحديثة ، وان الجندى السودانى سيتمتع بخدمات افضل تجعل الجندية بالنسبة له نوعا من الرفاهية ، وفى هذه الحالة يشكل قواته من الجند السودانى ويركز القوة البشرية المصرية فى الانتاج الزراعى وفى خدمة مختلف مشروعات محمد على المدنية الاخرى .

لقد أخذ محمد على بهذه الفكرة حتى لقد كان من بين الاسباب الرئيسية التى دفعته الى فتح السودان العمل على جمع العدد المناسب من السودانيين لارسالهم الى مصر لذلك الغرض (٢)

بعث محمد على بقواته لفتح السودان ونجحت فى ضرب المقاومة وخلال عمليات الفتح هذه توالت مطالب السلطان العثمانى على محمد على بشأن توجيه قوات من مصر لعدة جبهات ساخنة جدا لا تستطيع جيوش السلطان أن تبعث اليها بالقوات العثمانية المناسبة بسبب الحروب النابوليونية التى كانت مستعرة فى أوربا من روسيا الى قلب أوربا الغربية وبسبب ما كان يموج فى أوربا من تطورات كبرى فى اعقاب سقوط نابوليون . فلقد بعث السلطان العثمانى الى محمد على يطلب منه ارسال قواته لانقاذ العراق من غزوة فارسية كبيرة وصلت الى أبواب بغداد ، ولاخماد قومية ذات طابع صليبى فى كريت واليونان ولمواجهة تمرد والى عثمانى شرس فى البانيا هو تبه دلنلى على باشا (٣)

قامت القوات المصرية فى السودان بجمع عدة آلاف من السودانيين واقام لهم محمد على معسكرا فى جنوب مصر ، ولكن مات العديد منهم بسبب التدريبات المرهقة ، وبسبب اختلاف المناخ ، الأمر الذى جعل محمد على يعيد النظر فى خطته السابقة بشكل جذرى ، حيث توصل الى نتيجة لامناص منها حينذاك وهى تجنيد أبناء مصر ، وشرع فى جمع الشباب من فلاحيها . وكانت هذه الخطوة نفسها غير متوقعه من جانب المصريين ، الأمر الذى جعلهم يقاومون التجنيد بطرق عديدة بعضها لا انسانى ، فبعضهم كان يقطع ابهامة أو يشوه جسده ، وبعضهم كان يفر من قريته ، وقد كانت الأسرة تعتبر دخول ابنها الجندية وكانها فقدته ، فكان الرجال من اسرته يتبعونه ومن خلفهم النساء باكيات نائحات ينتظرون جميعا الكشف النهائى فان قبل فى العسكرية كان ذلك بمثابة كارثة لكل الأهل والاصدقاء وان (سقط) فى الكشف كانت الفرحة والعودة مرفوعى الراس مبتهجين .

وهناك العديد من التفسيرات لهذه الظاهرة من أهمها :

١ — ان الشعب المصرى عاش قرونا عديدة وهو بعيد عن العسكرية فهى أمر لا يألفه . فقد كان يقوم بالمسئولية العسكرية اخرون ولذلك كان من الصعب اقناع الشباب بدورهم فى هذا المجال الذى قد يبدو بديهيا الآن .

— وهناك من يرى ان الروح القتالية فى الشعب المصرى ضعيفة ، ولذلك اضعفت قدراته على استيعاب مسئولياته الدفاعية عن وطنه وشعبه ، فاصيب بنوع من خور فى العزيمة وأصبح يفضل ان يحارب غيرهم معركتهم منتظرين هم نتائجها ، وهناك من يرى أن الشعب المصرى شعب مسالم يكره الحرب والدم .

٢ — كانت عملية جمع الشباب من القرى تتم بطريقة (وحشية) هى اقرب الى (الصيد) من جمع الشباب فكان رجال الحكومة يهبطون على القرية ويطوقونها ويقبضون على شبابها ويسوقونهم مقيدين الى المعسكرات ، الأمر الذى ينفر الشباب من العسكرية . ثم ان المجند كان يقضى فى الجيش مدة طويلة تصل الى اكثر من عشر سنوات ، هى زهرة عمره ، هذا اذا عاد ، وهناك من قضى مددا أطول وذهبت معه أخباره ومن ثم فهو فى نظر اسرته على هذا النحو قد (فقدوه) .

— كان الشباب فى مصر يتزوج فى سن مبكرة فى حوالى ١٦ الى ١٨ سنة ،

وغالبا ما ينجب بعد سنة فقط من زواجه وبذلك يغادر اسرته وهو فى مقتبل الزوجية ، يغادرها دون مورد رزق لها حيث كانت الدولة غير مسئولة من رعاية اسرة المجندين ، ومن ثم فان تجنيد رب اسرة مبتدئة على هذا النحو يعتبر نكبة لأسرته .

٣ — ولقد كان من بين رجال الدين والمتعممين من راى فى الجندية الحديثة حينذاك ما يزيغ الشباب عن دينهم الحنيف ، فقاوموا اساليب محمد على التحديثية ، ولكن مقاومتهم كانت محدودة وغير ذات اثر واضح . وبصفة عامة واجه محمد على ورجال حكومته مقاومة شديدة من جانب المجتمع للتجنيد الحديث ، ولذلك اصدر محمد على اوامره بانزال العقاب الشديد ، بكل من يشوه جسمه بغرض التخلص من العسكرية ، وقام محمد على — فى نفس الوقت — بحملة توعية بين جمهرة الشعب لشرح ضرورة قيام شباب ورجال مصر بالدفاع عن الوطن وعن الاسلام ، ضاربين المثل بالدول الأوربية المسيحية التى تجند شبابها وهم مقبلون على العسكرية بكل رغبة وايمان ليضحوا بانفسهم فى سبيل شعوبهم واوطانهم . فالجميع الى زوال ، أما الوطن والشعب فباق لكافة الأجيال فى المستقبل القريب والبعيد . بل وضربوا امثلة من المنطلق الدينى ومن غيره من المنطلقات ، بل لقد ذهب البعض الى القول : الم يجند الفرنسيون اقباط مصر ، فكيف يتقاعس مسلموها عن الدخول فى الجندية .

٤ — ولما دخل الفلاح المصرى سلك الجندية سمع الكثير من عبارات الاستهزاء به تفوه بها الأتراك اذ لم يكن هؤلاء الأتراك يتصورون فلاحا وقد لبس زى الجندى الحديث ، وتعلم اطلاق النيران ، وتدرب على النظم العسكرية ، بل لقد اندهشوا من أن هذا الجندى الفلاح هو الذى أحرز الانتصارات الكبرى فى عهد محمد على . ولقد كان محمد على منصفا حين زجر كل من تهجم على الجندى الفلاح المصرى . الا ان محمد على كان يمنع المصرى من تولى المناصب العليا العسكرية واختص بها الاتراك حفاظا على عرشه ، فكان ذلك من اسباب الثورة العرابية كما سنرى .

وبصفة عامة كان اعداد القوات المسلحة من اهم الموضوعات التى حظيت باهتمام بالغ من محمد على ، وقد ادى ذلك الى أن اصبحت مصر تمتلك جيشا واسطولا كان اقوى الجيوش والاساطيل فى منطقة الشرق الاوسط ، وكان اساسا بنى عليه خلفاؤه قوات مصر المسلحة .

تحديث التعليم :

كانت الحركة التعليمية فى مصر — قبل محمد على — تعيش على تراث الماضى المتخلف تخلفا شديدا عما تطورت اليه فى أوربا . فقد أصبحت العملية التعليمية الحديثة تهدف الى تكوين المواطن القادر على ادارة عجلة الانتاج الفكرى الثقافى وعجلة التطور العلمى الاقتصادى والادارى واستخدام السلاح الحديث دفاعا عن الوطن والانسانية . ومن ثم كانت مصر فى حاجة الى ثورة تعليمية حتى يمكن لمصر ان تلحق بركب الحضارة . ولكن محمد على — وهو المؤمن بالحاجة الى تلك الثورة التعليمية — اقدم عليها من زاوية الحاجات الملحة . ولذلك كانت عملية تحديث التعليم فى عهده تجرى من اعلى الى اسفل ، فكان ينشىء أولا المدارس العالية ثم اهتم بالتعليم على المستويات الأدنى .

من اهم المدارس العالية التى أسسها مدرسة الهندسة فى القلعة واخرى فى بولاق ، ومدرسة الطب ومدرسة الألسن ، واقام العديد من المدارس التجهيزية (الثانوية) والمكاتب (الابتدائية) والى جانبها الكتاتيب القديمة التقليدية .

واعتمد فى تغذية تلك المدارس العالية على الشباب الذى كانت لديه أسس ثقافية فضلا عن خريجى الأزهر ، وكان التعليم بالمجان بل كان الطالب يحصل على أسباب المعيشة على نفقة الدولة . وكانت العلوم الحديثة هى التى تدرس فى هذه المدارس . ونظرا لعدم توفر المدرسين المتخصصين اتجه محمد على الى اسناد المسئوليات التعليمية الى الأجانب ، وكان هناك من يترجم الدروس الى العربية فضلا عن دفع التلاميذ الى تعلم اللغة الفرنسية وبعض اللغات الأخرى وخاصة التركية .

وحتى يكون محمد على كوادر مصرية قادرة على تحمل مسئولية العملية التعليمية وتحديثها ، عنى بارسال البعثات التعليمية الى أوربا وبصفة خاصة الى فرنسا .

من العوامل الرئيسية التى أدت الى توجيه البعثات التعليمية المصرية الى فرنسا والتركيز على الاستعانة بالخبرات الفرنسية فى اكثر من مجال أن العديد من مستشارى محمد على كانوا فرنسيين . وكانت مخططات محمد على تلقى تأييدا ودعما من الحكومة الفرنسية ، حتى لقد توترت العلاقات بين انجلترا وفرنسا الى حد الوصول الى حافة الحرب فى عام ١٨٤٠ عندما أصرت انجلترا على ارغام

محمد على على سحب الوجود المصرى من الشـام ومن الجزيرة العربيـة سـواء رضيت فرنسـا بذلك أو لم ترض (١) .

ومن ناحية اخرى كانت هزيمة فرنسـا واستسـلام الامبراطور نابوليـون فى ١٨١٥ وتسريح اعداد كبيرة من رجال القوات المسـلحة الامبراطورية الفرنسية وفرار العـديد من هؤلاء الى مصر واخلاصهم بدرجـة اكبر من المتوقع فى خـدمة اهداف مصر التحديثية وخاصة انه كان لدى الفرنسـيين تصور عن ان نجـاح مشروعات التحديث على الطريقة الفرنسـية فى مصر يخـدم فرنسـا من جهـة ويفوت على خصومهم الانجليز فرصة تحقيق اطماعهم فى مصر ، وهى اطمـاع تضر بالتطلعات الفرنسـية — ادى كل هذا الى الاتجاه نحو فرنسـا .

ومن العوامل التى جعلت فرنسـا الدولة المفضـلة لدى حكومة محمـد على للتعرف والافادة من الحضـارة الأوربيـة الحديثة ان الروح الفرنسـية — المتاثرة بحضـارة حوض البحر المتوسـط — اقـرب الى الروح الشرقيـة ، بينمـا كان الشـعب الانجليزى على نوع من جفاف الطبع والاسـتعلاء يجعله اقل قبولا لدى الشرقى .

وفى عملية بنـاء الدولة الحديثـة كان محمـد على فى حاجـة ليس فقط الى نقل اسـاليب الحضارة الحديثة بـل كان كذلك فى حاجـة الى تكوين (كوادر) مصرية متفهمـة لهـذه الحضـارة الحديثة وقادرة على اسـتيعابها ونقلها والافادة منهـا بطريقـة مقبولة من مختلف مؤسسـات وشرائح المجتمع المصرى . ولذلك بعث محمـد على العديد من البعثـات التعليميـة الى فرنسـا — ومع كل بعثـة واعظ ليعمـل على الحفـاظ على العقيـدة الاسـلامية راسـخة بين أفراد البعثة فى بلاد المسـيحيين .

---

(١) لقد كانت الدول الكبرى ضد قيام مصر بدورها الطبيعى فى تكوين جبهـة فى المنطقة ضد الأطماع الاسـتعمارية ، ولكن الزعامات المحلية فى الشـام وفى شبه الجزيرة العربية لم ترتفع الى مستوى الهدف فثارت ضـد الوجود المصرى فكان ذلك احسن فرصة انتهزتها الدول الكبرى فى تقويض الجبهـة المصرية فى الشـام والجزيرة العربيـة .

ولقـد فجع محمد على فى فرنسـا التى شجعته فى مشروعاته اذ تخلت عنه فى وقت الشـدة حيث كانت سياسـة فرنسـا تقضى بعدم الاصـطدام بانجلترا ، ولذلك وقع تغيير وزارى مكن فرنسـا من الانضمام الى الكونسرتو الأوربى ضـد محمد على فى ١٨٤٠ .

الادارة :

كان محمد على يعمل على انشاء ادارات حديثة حكومية تكون مسئولة عن تنفيذ عمليات التحديث والاشراف عليها وضبط أمورها الادارية والمالية والبيروقراطية . ولذلك أنشأ العديد من الدواوين مثل ديوان الداخلية ، ديوان الجهادية ، ديوان المدارس . وكان على رأس كل ديوان ناظر ، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء النظار من الأتراك والعناصر غير المصرية ثم تمصرت بطبيعة عملها . وكانت هذه الادارات هى التى تطورت فيما بعد الى نظارات (وزارات) .

وبصفة عامة كانت الوظائف العليا من نصيب الأتراك وغير المصريين بينما استطاع المصرى أن يملأ الوظائف الصغيرة ، ولعل ذلك كان من أسباب تفشى داء عدم المسئولية لدى الموظف المصرى واعتبار مال الحكومة مالا لا يخصه .

وأيا كان الموظف تركيا أو مصريا كبيرا أو صغيرا ، فقد كان فى نظر عامة الشعب ممثلا للسلطة ، بل هو صاحبها فى مجاله . وانه لذلك يجب أن يعامل — من هذه الزاوية — بكل احترام وأدب ، مع ان مرتب الموظف الصغير كان ضئيلا ، وكان بعضهم يسد حاجته وتطلعاته عن طريق الرشوة واختلاس أموال الدولة بطريقة أو بأخرى . ورغم ذلك المرتب الزهيد الذى كان يحصل عليه فقد كان الموظف الصغير يعيش ميسور الحال بالقياس الى الفقر الشديد الذى كان شائعا بين جمهرة الشعب المصرى . وأحد أسباب هذا الوضع المتميز للموظف الصغير هو حصوله على مرتب محدد (مضمون) . وكان المرتب نقدا ، والنقدية حينذاك كانت على مكانة عالية المستوى من حيث القيمة الاقتصادية .



الفصل الخامس

طائفة العلماء

منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر

لقد كانت مصر منذ الفتح العربي ومنذ أن اصبحت واحدة من مراكز الثقل في العالم الاسلامي تفتح أبوابها أمام العلماء وتعطي الفرصة المتسعة أمام ابنائها ليكونوا مدرسة على مستوى عال من الفكر والتجديد . فمن أشهر المؤرخين ابن عبد الحكم صاحب « فتوح مصر » (القرن التاسع الميلادي) وعبد الملك بن هشام صاحب « سيرة ابن هشام » (القرن التاسع الميلادي) وثوبان بن ابراهيم المصري (ذو النون المصري) مؤسس المدرسة الصوفية ، وأما الأزهر فقد أصبح مدرسة اسلامية عالمية منذ العصر الأيوبي ، وخاصة بعد تدهور الدولة العباسية وسقوط بغداد في يد المغول (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) واجتياح الصليبيين للشام .

ومن الجوامع العلمية الصبغة جامع عمرو ومسجد الامام الشافعي والمشهد الحسيني .

وظهرت الى جانب الأزهر مدارس كانت لها شهرة كبيرة منها :

١ ـ مدرسة الغوري ومدرسة (ابو الدهب) التي بناها محمد أبو الدهب (١٧٧٥ م) بجوار الجامع الأزهر .

٢ ـ المدرسة الصالحية نسبة الى الملك الصالح نجم الدين ايوب بالقرب من ضريح الامام الشافعي .

هذا الى جانب الزوايا ذات الاتجاهات الصوفية مثل زاوية الشيخ الدردير في القاهرة (١٧٨٦ م) وزاوية قرب الجامع الكبير بالمنصورة (١٧٨٤ م) على أن بيوت العلماء كانت مفتوحة لعقد الجلسات العلمية وفتح مكتباتهم أمام تلاميذهم حيث كانت تلك المكتبات تضم أحيانا ثروة علمية نظرية طيبة . وكان

علماء مصر يستقبلون بكل ترحاب علماء المسلمين الذين يفدون اليها ، ومنهم محمد مرتضى الزبيدى من اليمن الذى وفد الى مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر (•)

ومما ساعد العلماء على القيام بالبحث والدرس انهم كانوا بصفة عامة يعيشون فى مستوى اقتصادى طيب وفى مستوى اجتماعى عال معترف به سواء بين دوائر الحكومة أو بين افراد الشعب (•) حقيقة كان منهم الزهاد والنساك ولكن كانت للغالبية العظمى منهم اما رواتب لقاء ما يقومون به من خدمات تعليمية أو أوقاف يديرونها أو التزام يتولونه (•)

واذا ما تتبعنا مواقف العلماء من الحكومة الملوكية وجدنا أنهم كانوا فى صف الرعية ضد ظلم الحكومة والمماليك ، وضد الحكومة اذا استشرى الشغب وضربت الفوضى اطنابها ، بل كان لدى المشايخ الجراة لأن يلعنوا الأمراء فى حضرتهم (١) وتزعموا اضرابات هزت مكانة الحكم الملوكى حتى أخذوا من المماليك عهدا بان يحكموا بالعدل ومن لا يفعل فعلى الرعية أن تعزله .

ويجدر بنا هنا أن نلقى نظرة على طائفة هامة من طوائف المجتمع وهى طائفة « رجال الدين الاسلامى » الذين كانوا يمثلون الواسطة بين الشعب والحكومة ، وفى نفس الوقت كانت لهم مصالح فى الريف حيث كان بعضهم ملتزما لبعض القرى والأراضى لذلك كانوا تارة مدافعين عن مصالح القاعدة الشعبية وأخرى لهم مصالحهم مع النظام القائم .

فمن الأزهر الشريف ، ومن المدارس الاسلامية العديدة ، ومن حلقات الدرس فى مختلف الجوامع الكبرى ، كان يتخرج علماء مصر وشيوخها ، حملة القرآن الكريم والشريعة الاسلامية . كانوا من قلب الشعب المصرى نفسه على مختلف مستوياته الريفية والحضرية . وكانوا يعيشون الحياة المصرية بكافة جوانبها ، وأبواب الحكام مفتوحة لهم ، ومنهم المديرون للأوقاف والمدارس وشيوخ الأروقة ، ومنهم التجار والملتزمون وأصحاب العقارات (•)

واذا كانت هناك فترات عصيبة مرت برجال الدين والمشايخ خلال التاريخ الحديث ، فقد كانت أكثرها دقة تلك التى تعتبر فترة انتقال من عصر المماليك

---

(١) الجبرتى : عجائب الاثار ، ج ١ ص ٤١٦ .

الى محنة الحملة الفرنسية الى عهد محمد على ، فخلالها وقعت متغيرات محلية ودولية سريعة كانت عبثا اعظم من قدراتهم .

ومع ما اصيبت به مكانة العلماء والمشايخ من هزات عنيفة خلال تلك الفترة العصيبة ، ظلت للعلماء والمشايخ مكانتهم بين الشعب ، ولدى مختلف الشعوب العربية والاسلامية ، محتفظين بتقاليدهم وفكرهم ، وبمدرستهم التى كان لها فى التاريخ نفس وباع طويلان .

كان العلماء والمشايخ ومن اطلق عليهم عبد الرحمن الجبرتى صفة المتعممين يكونون طائفة من طوائف المجتمع المصرى ، على راسها شيخ الأزهر ، انتظموا فى مراتب تعارفوا عليها ، فكان هناك مشايخ من الطبقة الأولى ، وآخرون من الطبقة الثانية ، يتطلع كل واحد منهم الى الارتقاء من طبقته الى الأخرى . فاذا ما وصلوا الى الطبقة الأولى أصبحوا أكثر تواضعا ، فكانوا يتجنبون القول بأنهم فعلا من هذه الطبقة الرفيعة ، شعورا بقصور العالم عن بلوغ كمال المعرفة .

وليس معنى هذا انه كانت هناك فوارق حاسمة بين هذه الطبقات ، وانما ابواب كل طبقة كانت مفتوحة لكل مجتهد من العلماء ، بدرسه وعلمه وايمانه ، وببذله الوقت والجهد — باحثا مدققا من اجل تكوين مدرسة له من تلاميذ يأخذون عنه ويتعلقون به .

ولعبد الرحمن الجبرتى الفضل الاكبر لما كتبه فى « عجائب الاثار » من كشف للتطورات والاتجاهات التى كانت تموج فى أوساط رجال الدين وعلماء الأزهر ، خلال الفترة التى يغطيها كتابه من القرن الثامن عشر الى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

فالجبرتى كان واحدا من هؤلاء الشيوخ ، وهو نفسه من بيت علم ، فكان أعرف ببواطن الأمور التى كانت تحدث فى دوائر العلماء وجلساتهم الخاصة ، وفى أروقة الأزهر ومجالسهم .. وبذلك كانت أمورهم مكشوفة امامه . وكان هو يريد الكمال منهم ، ولكن تطورات أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانت اكبر من قدراتهم .

حقيقة ، لم يرسم لنا عبد الرحمن الجبرتى صورة عن العالم أو الشيخ

المثالى الذى كان يتصوره هو ، والذى كان يتمنى وجوده وشيوعه بين العلماء . ولكن محصلة كتاباته وتراجمه عن العلماء والشيوخ من مختلف المستويات فى زمانه ، تعطينا صورة لهذا العالم المثالى على النحو التالى :

« انسانا حسن الأخلاق مقبلا على الافادة والاستفادة » (١) معتمدا على الأصول « يغوص بذهنه وقياسته فيها ويطالع كتبها القديمة التى اهملها المتأخرون » (٢) .

كان يرى كذلك ان العلماء يجب أن لا يقتصروا على عدد معين من علوم الدين والشريعة ، وانما عليهم أن يستعينوا بعلوم أخرى اهملوها مثل (الفلك) الذى اهملة علماء زمانه . ولولا عناية والده الشيخ حسن الجبرتى بهذا العلم ، لبدا علماء عصره فى مستوى ضعيف ، لا يتناسب مع مكانتهم الرفيعة فى داخل البلاد وخارجها . ويروى لنا الجبرتى قصة طريفة وقعت فى هذا الخصوص بمجىء باشا كان يميل للعلوم الرياضية والفلك واستاء لما علم ان علماء الأزهر لم يعودوا يدرسون هذه العلوم بالأزهر حتى دلوه على الشيخ حسن الجبرتى الذىكان يدرس هذه العلوم لبعض الطلاب فى بيته فاتصل به الباشا وافاد منه كثيرا ، فكان للشيخ حسن بذلك فضل انقاذ سمعة علماء مصر فى هذا المجال .

فمن وجهة نظر الجبرتى فان العالم الحق لم يخلق لحمل القرآن الكريم والشريعة الاسلامية وتدريسها والدعوة اليها ، وانما هو مسئول عن ترجمة هذه النظريات والدراسات الى عمل ميدانى يفيد الناس ويرفع من شأنهم ويدفع عنهم شرور الحياة وعذاب الآخرة ، ولا يخاف فى ذلك لومة لائم ، وانما يخاف ربه فقط واضعا نصب عينية احقاق الحق وازهاق الباطل .

« فان العلم اذا لم يقرن بالعمل ، ويصاحبه الخوف والوجل ويجمل بالتقوى ، ويزين بالعفاف ويحلى باتباع الحق والانصاف ... أوقع صاحبه فى الخذلان وصيره مثلة بين الأقران » (٣) .

---

(١) كان الجبرتى يطرب لسماعه ان أحد العلماء اوصى بكتبة لأحد تلاميذه : وكان يرى ان مسئوليات العالم أن يفتح مكتبته لطلاب العلم .

(٢) الجبرتى حوادث ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م .

(٣) انظر عجائب الاثار ، حوادث ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م .

ولهذا كان الجبرتى معجبا بالشيخ الذى يعمل ويتكسب بنفسه ، وخاصة اذا كان تكسبه عن حرفة ذات صلة بالعلم والدرس ، كأن يكون متقنا صناعة الجلود او مشتغلا بتجارة خلال قيامه بواجباته او بزراعة دون أن يرهق الفلاح .

وكان للعالم الذى لا يقع فريسة لاغراء المال والهدايا مكانة كبيرة لدى عبد الرحمن الجبرتى . ومع أن مبدأ الاهداء كان مقبولا فى ذلك العصر ، فالجبرتى كان يرى — وهو محق — قبول مثل هذه الهدايا فى حدود « الحشمة والعفة » (١) .

لقد ردد اكثر من مرة تقديره للعالم الذى يتجنب موائد الحكام واموالهم ، ولا يدق ابوابهم ، حيث قال فى الشيخ الخالدى الشافعى انه « لم يعهد عليه انه دخل بيتا لأمير قط او اكل من طعام احد قط الا بعض أشياخه المتقدمين » (٢) .

لقد كانت كرامة العلماء والمشايخ عند عبد الرحمن الجبرتى ، مسالة على جانب كبير من الاهمية ، وكان يسجل مواقف العلماء فى الدفاع عن كرامتهم مبينا كيف انه بلغ بالعلماء فى بعض المواقف انهم هددوا بالرحيل « الهجرة » عن البلاد اذا لم يستمع الحكام الى نصائحهم ، بل ذهب احد المشايخ وهو الشيخ الصعيدى الى حد أن صرخ فى وجه احد المماليك الذى عارضه فى مسالة دينية قائلا :

« لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » (٣) .

ومن حيث الشهامة ، كان يكبر فى العلماء الدفاع عن اصحاب الحاجات والمستضعفين والنساء « مكسورات الجناح » وخاصة عندما يتعرضن لحكام غلاظ القلوب لا يقيمون لضعفهن وزنا . ولقد كانت للعلماء فعلا مواقف مشرفة فى الدفاع عنهن فى مختلف العصور والعهود . وخص بالذكر الشيخ سليمان الفيومى ، اذ كان صاحب شخصية اجتماعية فذة ، عرف كيف يصادق الأمراء

---

(١) عجائب الاثار ، حوادث سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م .
(٢) انظر حوادث ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م .
(٣) انظر حوادث ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م .

وكبار المسئولين فى الحكم حتى وثقوا فيه فاتصل بحريمهم فكن يغتبطن بدخوله عليهن ويقلن « زارنا الشيخ .. وشاورنا ابانا الشيخ .. فاشار علينا بكذا .. » ، فلما نزلت الحملة الفرنسية مصر ، وخرج النساء من بيوتهن وذهبن اليه افواجا حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنساء فتصدى لهن .. وتداخل فى الفرنساوية ودافع عنهن واقمن بداره شهورا « فلما مات خرجوا بجنازته فى مشهد عظيم جدا مثل مشاهد العلماء الكبار وربما كان جمع النساء خلفه كجمع الرجال فى الكثرة » (١) .

وكشف لنا الجبرتى عن مبدأ هام ، كان لدى طائفة العلماء والمشايخ حينذاك هو مبدأ وراثة الأب او الأخ لمكانة العالم ومناصبه ، فاذا حدث ولم يكن من آل بيت العالم المتوفى من درس فى الأزهر او المدارس الاسلامية ، دفع العلماء بواحد من آل بيته الى التعلم والارتفاع الى مستوى العلماء . ومن ذلك انه لما توفى الشيخ احمد الجوهرى فرضوا على اخيه عبد الفتاح ان يخلفه ، مع انه « لم يكن معتنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء ويشارك ويضارب ويكاتب » ولكن كان لابد له من ان يتصدى بالتدريس فى الأزهر حفظا للناموس وبقاء لصورة العلم الموروث . فعند ذلك تزيا بزى الفقهاء ولبس التاج والفراجة الواسعة واقبل على مطالعة العلم وخالط اهله وصار يطالع ويذاكر واقرأ دروس الحديث بالمشهد الحسينى فى رمضان .. مع قلة بضاعته وذلك بمعونة الشيخ مصطفى الفرماوى فكان يطالع الدرس الذى كان يمليه فى الغد ويتلقى عنه مناقشات الطلبة وثبت على ذلك حتى ثبتت المشيخة وتقررت العالمية » (٢) .

وكان يسوء الجبرتى ان يرى عددا من علماء زمانه قد انحرف عن جادة الوقار وكان العصر حينذاك مليئا بالتقاليد الاسلامية التى كان بعضها اقرب الى الخرافات والخزعبلات والبلاهات ، وخاصة تلك البدع التى استشرت بين بعض رجال الطرق الصوفية ، والذين كانوا يدعون انهم من أولياء الله الصالحين او الدراويش . فقد رفض انحرافات بعض المتصوفة من حيث اجماع « المراد » (٣).

---

(١) انظر ترجمة الجبرتى للشيخ سليمان الفيومى .

(٢) انظر عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م .

(٣) عجائب الآثار ، حوادث ١١٢٢ هـ / ١٨٠٧ م .

عليه ، وغالبهم من ابنـاء مشـايخ البلاد ، منتقدا فى نفس الوقت استهواء افراد المجتمـع التقليد المشـين .

ومع اقتناعه هو بجدوى (الذكر) ، وانه من الحفـلات الدينيـة التى تفيد النـاس على اعتبار انه ذكر الله ولجميـع صـفاته وصفات رسوله ، كان شـديد الوطأة على الانحرافات التى دخلت حفلات الذكر والموالد ، كتلك التى كان يعقدها اتبـاع الطريقـة العيسـوية الصـوفية المغربيـة الأصل ، بسـبب « تحلقهم بالمسـجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك ... ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات فى المسـجد وطواف البـاعة بالمأكولات على النـاس وسـقاة الماء فيصير المسـجد بما اجتمع فيـه من هـذه القـاذورات والعفوش ملتحقـا بالأسـواق الممتهنة » (١) .

وكان لومه اشـد لكبار العلمـاء والمشـايخ بسـبب ذهابهم الى الموالد . ولعلـه كان يرى ان عالمـا مثل « الشـيخ عبد الرحمن الشرقاوى » اذا ما ذهب الى المولد فانه سـيفتح باب التطرف والبدع بين العـامة ، حيث انهم سرعـان ما يقلـدون العلمـاء الكبـار ، ولـكن دون تعقـل ، ويندس بينهم « سـخاف العقول » (٢) .

ولقد ادرك عبد الرحمن الجبرتى كم كانت هذه الموالد وسـيلة خبيثة فى يـد الفرنسيين لالهاء اهـل البـلاد . وكان يرى ان الفرنسيين لم يرحبوا ببعض احـد الموالد — المشهورة بالعبث والمجون — الا « ما راوا فيـه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات » (٣) .

تلك كانت بعض الصور العديدة التى رسمها الجبرتى للعلماء والمشايخ ومـا يحيط بهم فى مجالات العلم والمجتمع ، ومهما ظهـر فى هذه الصـور من شـوائب كانوا عنـده أكرم النـاس ، ولهذا كان يبدأ بترجمة حيـاة العلمـاء عندما يشرع فى تسجيل ترجمات من توفى فى كل عام وبعد ان يترجم للعلماء يترجم للامراء ، وكبار التجار وغيرهم من علية القوم .

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م .

(٢) انظر ترجمة حياة الشيخ الشرقاوى فى تراجم عام ١٢٢٧ هـ .

(٣) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م .

كان العلماء حينذاك يصنفون الى طبقات . فمن كان فى نظره الذى يستحق ان يكون من الطبقة الأولى فى زمانه ؟ .

حقيقة قدم لنا العديد من تراجم طائفة المشايخ والعلماء . ولكن عرضه لتاريخ الشيخ مرتضى الزبيدى ، يشير الى انه فى نظره العالم المثالى فى زمانه . ولقد كان الرجل فعلا من أفذاذ العلماء ، وصاحب موسوعة خالدة لا تزال مصدرا ، هى « تاج العروس » . ولم يكن الزبيدى من مصر ، وانما من اليمن ، جاب البلاد العربية وكتب عن رحلاته وجولاته ، وعلم وافاد فى اكثر من مكان ، وربط بين العديد من علماء البلاد الاسلامية .

حقيقة كان مرتضى الزبيدى على صلات قوية ببيت الجبرتى ، ولكن مكانة الرجل واشتهاره ، لا تجعل من هذه الصلات سببا فى أن يرفع عبد الرحمن الجبرتى من شأنه على ذلك النحو الذى كان يفعله بالنسبة لأبيه الشيخ حسن الجبرتى .

ولما كان عبد الرحمن الجبرتى حريصا على أن يكون علماء الأزهر فى « اعلى المستويات ، وموسوعى الكلمة » فقد قدم تاريخا عن الأدوار العديدة التى لعبها العلماء والمشايخ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومن خلال ما كتبه يمكن ان نحدد تطور زعامة المشايخ على النحو التالى .

١ — خلال القرن الثامن عشر كانوا يكتفون بالدفاع عن حقوق الرعية امام المماليك وبالوساطة بين الزعامات المتقاتلة منهم .

٢ — فى نهاية القرن الثامن عشر وقبيل مجىء الحملة الفرنسية ، بلغ ظلم المماليك جدا لا يطاق ، فتزعم العلماء والمشايخ « الجمهور » وفرضوا شروطهم سنة ١٧٩٥ .

٣ — بمجىء الحملة الفرنسية واجهوا مسئولية الجهاد فى سبيل الله ، وتحرير البلاد ، ومسئولية تمثيل الشعب امام سلطات الاستعمار .

٤ — وبعد خروج الحملة الفرنسية « وجد العلماء والمشايخ أنهم هم أصحاب الحق فى اختيار من يتولى حكم البلاد ، فأختاروا « محمد على » واليا » وكان ذلك ذروة ما بلغته العلماء من زعامة ، ولم يلبث محمد على أن وجه ضربته القاسية لها .

أ — العلماء وسطاء بين الحكام والرعية :

فى بلد لم يكن فيه بين الحاكم والمحكوم من يناقش ويحاسب السلطات العليا ويدافع عن وجهات نظر الشعب ، كان العلماء يقومون بدور الوساطة الهادئة ، وكان هذا الدور ملائما كل الملاءمة للعلماء فى عصر المماليك حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكانت أساليب الحكم الاستبدادية المملوكية ، وصراعات المماليك فيما بينهم تنعكس على الشعب على هيئة مطالبات مالية جائرة ، تتعدى ما كان متعارفا عليه من واجبات ضرائبية معقولة على الرعية . وكان الشعب يتحمل الى حد كبير هذه المظالم حتى يجد أصحاب الحرف أن أمورهم سائرة الى التوقف ، وأعمالهم الى البطالة وكانت القروض الاجبارية التى كان يقترضها المماليك — ولا يردونها — تنزل أبلغ الاضرار بالتجار ، فكانوا يضطرون الى اعلان الاضراب . الا ان تحركهم هذا ما كان ليرغم المماليك على الرجوع عن غيهم ، الا اذا تزعم العلماء والمشايخ والمجاورون الاضراب ، حيث ان ذلك يعنى ان الأمور وصلت الى ذروة التعقيد . فيضطر الحكام الى ان يعيدوا النظر فيما أثار مشاعر الزعماء والجمهور .

وكانت الصورة التى عرضها الجبرتى عن معارضة القرض الاجبارى الذى فرضه اسماعيل بك ، من أدق الصور التى تصور استجابة الزعامة الأزهرية لغضبه الجمهور على تلك المظالم .

فيقول الجبرتى ، ان التجار « اغلقوا وكائل البن بالغورية ودكاكين الميدان » ولكن لما ارادوا « قفل أبواب الجامع » الأزهر ، اعترضهم الشيخ العروسى — شيخ الجامع الأزهر — مفضلا الوساطة الهادئة واصطناع الملاينة — ولكن كان التجار والعامة على غير هذا الرأى ، ولهذا « قاموا فى وجهه » و « صاحوا عليه وسبوه بينهم الى رواق الشام » حتى انقذه « المجاورون » من بين أيديهم ، ليقوم هو من بعد ، بالتفاوض مع اسماعيل بك الذى حاول أن يقنع الشيخ العروسى بأن القرض سيرد لمن يسهم فيه ، منمقا الكلام له . الا ان التجار كانوا قد سئموا هذه الالاعيب اذ اقنعتهم السوابق أن المماليك لا يسمون فى مثل هذه الأحوال الا الى « فض الجمع » واعادة فتح المحلات ، ثم يعمدون الى ان يأخذوا التجار « واحدا بعد واحد » . وفعلا كان دور المشايخ فى هذه المرحلة على هذا النحو من الملاينة والوساطة .

٢ — العلماء يفرضون شروطهم على الحكام :

واذا كانت جهود العلماء قد توقفت — لحين — الى هذا الحد ، الا ان استمرار ظلم المماليك والتلاعب بالقول ونكث العهود جعل المشايخ والعلماء والشعب يصعدون من مقاومتهم للظلم ، وجعلهم يتحولون من الوساطة الهادئة الى التحرك الجماهيرى المحدد الاهداف حسب مستوى ذلك العصر . وتجلى ذلك عندما تزعم الشيخ الشرقاوى « الجمهور » ضد الضرائب « المستحدثة » ووجد المماليك ان هذا الموقف الصلب الذى اتخذه العلماء ، قد يؤدى الى زيادة اهتزاز حكم المماليك الذى كان يعانى من استشراء الفتن بين جماعاتهم . فبدأ المماليك وكأنهم يستجدون التفاهم مع العلماء ، فقد وقف مبعوث الامير الحاكم ، محاولا اقناع العلماء بالعدول عن الاضراب الشامل الذى دعوا اليه ، ولكن تشبث هؤلاء بموقفهم ، مما اضطر المماليك الى قبول « الحجة » (١) التى قدمها المشايخ متضمنة الشروط التى يجب أن يحكم المماليك بمقتضاها ، وقد اعتبرها البعض انها مشابهة للماجنا كارتا التى اصدرها ملك انجلترا فى (١٢١٥) .

حقيقة كان هذا نصرا كبيرا احرزه المشايخ لصالح « الجمهور » ولكن الجبرتى — الشيخ المؤرخ — لم يترك هذه الحادثة تمر دون متابعة نتائجها وما ادت اليه ، فوجد ان المماليك لم يلبثوا ان نكثوا العهد وتجاهلوا « الحجة » وعاد كل شىء الى ما كان عليه من قبل « وزيادة » ١٧٩٥ م / ١٢٠٩ هـ (١) .

٣ — دور الجهاد ضد الاستعمار الفرنسى :

وبمجىء الحملة الفرنسية الى مصر ، وتغلبهم السريع على المماليك الذين كانوا يمثلون قوة الدفاع عن البلاد ، وجد المشايخ والعلماء انفسهم فجأة مسئولين عن قيادة الشعب فى كفاحه . وهم الذين لم يسبق لهم قط أن حملوا السلاح ، ووجدوا كذلك انهم مضطرون الى مداراة السلطة الاستعمارية ، وسبر غورها حتى تنقشع الغمة .

ففى حديثه عن مواقف الشيخ السادات من الفرنسيين ، قال :

« وبالجملة كان بوجوده وتصدره فى تلك الايام النفع العام سد بعقله ثقوبا

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م .

واسعة وفتوقا ، لا سيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع وما يكدر طباع الفرنساوية من مخاوف الرعية تلافاه بمراهم كلماته ويسكن حدتهم بملاطفاته » (١) .

ومن ثم كان قبول العلماء والمشايخ رئاسة وعضوية (الديوان) الذى انشاه نابليون بونابرت ، محاولة لعدم ترك الأمور كاملة فى يد الفرنسيين ، بحيث يكون هناك من يدافع عن حقوق الشعب ، والحفاظ على شعائر الدين الاسلامى ، وتطبيق الشرع الشريف الذى هم مسئولون عنه وعن بقائه .

والجبرتى حين يتحدث عن تشكيل هذا الديوان ، وقبول المشايخ الالتحاق به ، كان يعرض الأمور دون اى انفعال ، ودون اتهام لهم بانهم انهزاميون ، حيث انه هو نفسه التحق بديوان (منو) فى وقت متأخر . ولكنه فى نفس الوقت كان حريصا على أن يبرىء ساحة المشايخ فى الديوان من اصدار مراسيم تخدم الفرنسيين . فعندما صدر منشور من الديوان قال انهم ـ اى الفرنسيين — كتبوا عدة أوراق « على لسان المشايخ » (٢) .

ونظرا لقيمة ومكانة الجامع الأزهر ، عرض الجبرتى باسهاب ما فعله به الفرنسيون فى أعقاب ثورة القاهرة الأولى ، وبشكل يثير العاطفة والمشاعر الدينية ، دون أن يستخدم عبارات السب التي كانت شائعة على لسان العلماء والعامة عند وصف الفرنجة . فيقول :

« وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والقنبر .. ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول .

وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والودائع والمخبآت بالدواليب ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا عليها وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا وكسروا أوانيه والقوها بصحنه ونواحيه ومن صادفوه عروه ومن ثيابه اخرجوه » (٢) .

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .

كما سجل الجبرتى غضبة الشيخ عبد الله الشرقاوى على (الطيلسان) الذى حاول نابليون بونابرت تقليده اياه ووضعه على كتفه تكريما له ، على ذلك النمط المعتاد فى فرنسا . ولكن الشيخ الشرقاوى الذى كان رئيس الديوان « رمى به الى الأرض واستعفى ، وتغير من مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه » فان الشرقاوى ، وقد ارغمته الظروف على ان يراس ديوانا فى مصر الواقعة تحت الاحتلال الفرنسى لا يقبل ان يضع على كتفه شارة تضيع قدره عند الله والرعية (١) .

ويلاحظ ان الجبرتى حين سجل احداث ثورة القاهرة الأولى ومشاركة وزعامة المشايخ والعلماء لها ، كان يوجه كلماته اللاذعة الى بعضهم . فهل كان ذلك من قبيل تثبيط الهمم ؟ وفى اعتقادنا ان عبد الرحمن الجبرتى كان اكثر ادراكا من غيره للقوة الضاربة الفرنسية ، لا من حيث امكانياتها العسكرية فقط ؛ بل كذلك من حيث قدراتها الحضارية . وكان الاتجاه العام لدى العديد من المسئولين عن أمور مصر ، هو انتظار جيش السلطان خليفة المسلمين لانقاذ مصر من أعداء الدين والملة . وكان الجبرتى على عكس ذلك . اذا كان يرى انهم لو انتظروا مجىء القوات العثمانية فانها لن تصل الا بعد فوات الأوان ، وبعد أن يستتب الأمر للفرنسيين فى مصر . وكان كذلك يدرك ان التفوق على الفرنسيين ذوى السلاح والاستراتيجية الحديثة لا يمكن أن يتحقق « بالنبابيت » والدعاء وبالحملات الارتجالية وكان يدرك أن قطاعات مهمة من القاهرة ، مثل مصر العتيقة لم تشترك فى ثورة القاهرة الأولى كل هذا جعله يلوم المشايخ والعلماء على تزعمهم هذه الثورة التى كانت نتيجتها متوقعة لدى الجبرتى ، من حيث عدم قدرة الشعب على الاستمرار فيها لمدة طويلة . ومن هذا قول الجبرتى واصفا واحدا من المشايخ الذين قادوا الثورة :

« ولم يزل حتى حمله التفاخر فى زمن الفرنسيين على اثارة الفتنة التى اساءته وغيره ، فقتل فيمن قتل بالقلعة » (٢) .. ولم ينظروا فى عاقبة الامور وانهم فى « القبضة » مأسورون .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) عجائب الآثار ، حوادث ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م .

فبعد العمليات الأولى الناجحة للثورة ، أعاد الفرنسيون تنظيم انفسهم واخذوا يضربون بانتظام أحياء القاهرة ومعاقل الثوار ، فى مواجهة مقاومة غير منظمة . حتى انكسرت حدتها واضطر المشايخ الى أن يركبوا « الى كبير الفرنسيين » ليرفع عنهم النازل ويمنع من الرمى المتراسل ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال (١) .

ولا شك أن الجبرتى لم يصف الحكمة الأخيرة اعتباطا ، فمن وجهة نظره ان التفوق العسكرى لا يحقق كل الأهداف ، ولا يخضع الناس والرقاب ، وانما يمكن أن ينحنى الشعب للعاصفة ، ويواجه بشجاعة هزيمته العسكرية ، ويحاول أن يصل الى اتفاق مع خصمه ، تمهيدا لاعادة رص الصفوف وسد الثغرات ومعرفة الأخطاء ومعاودة الكرة ضد اعداء الدين والملة .

وفى نفس الوقت تعجب الجبرتى : كيف كان هؤلاء العلماء والمشايخ مشلولى الحركة ازاء المأساة الكبرى التى دبرها الفرنسيون للمجاهد الكبير (محمد كريم) — بطل الدفاع عن الاسكندرية ، حين قرر عليه الفرنسيون من الأموال ما يعجزه ، حتى يبرر لهم ذلك اعدامه ، فاخذ المجاهد يستغيث بالعلماء والمشايخ أن (اشترونى يا مسلمين) . ولكن هؤلاء وقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه المحنة حيث :

« ليس بيدهم ما يقدمونه به ، وكل انسان مشغول بنفسه ، ومتوقع هذه المحنة لشىء يصيبه » (١) .

فكان ذلك من الأمور التى هبطت بمكانة العلماء . ففى اعتقادنا أن تردد المشايخ والعلماء بين التيار السلبى والتيار الثورى ضد الفرنسيين ، ومسلكهم فى الديوان وحصولهم على الرواتب ، وتبادلهم الولاء مع قادة جيش الاحتلال ، وفساد اخلاق بعض النساء — وخاصة بنت الشيخ البكرى — لا شك أن كل هذا أساء الى جهود العلماء والمشايخ ، وفرقهم بين معتدل وثورى وانتهازى . فكان أن اهتزت صورتهم ، وانحى عليهم الجبرتى باللائمة

---

(١) المصدر السابق .

بسبب اطماع بعضهم فى زاد الدنيا من يد الفرنسيين بالذات (١) .

حقيقة كانت هذه هى صورتهم حتى قبيل خروج الفرنسيين . أما خلال عمليات اخراجهم منها ابتداء من حملة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، الى الحملات النهائية التى اجبرتهم على مغادرة البلاد ، فقد تعدلت الصورة قليلا فقد شارك العلماء والمشايخ مشاركة كبرى فى الثورة ، وحتى أولئك الذين كانوا فى الديوان نزلوا الى الميدان . فكان ذلك مثار غضبة شديدة انزلها كليبر بالعلماء والمشايخ ، وكان أشدها ما وقع للشيخ السادات . فكان ذلك ابقاء لهم على زعامتهم ، لتلعب من بعد واحدا من اكبر أدوارها فى مطلع القرن التاسع عشر .

٤ — العلماء أصحاب الحق فى عزل وتولية الوالى :

كشف لنا الجبرتى عن الذروة التى وصلتها قوة العلماء فى مجال الزعامة الشعبية .

فقد استشرت الفوضى بسبب تصارع العثمانيين والمماليك على الانفراد بالحكم ، متجاهلين وجهة نظر الشعب فيهم ، ومتغاضين عن ضياع أرزاق الناس بين عسكر نهابين غدارين ، فالشعب كان فى نظر الوالى العثمانى مجرد فلاحين يجب عليهم أن يمتثلوا الأوامر السلطان ونائبه فى مصر ، حتى رغم ما كان ينزله بالشعب من ضروب العسف والارهاق الزائد عن الحد ، وحتى لقد طرد العسكر الأهالى من بيوتهم واستولوا عليها عنوة وعدوانا ، فقرر علماء ومشايخ مصر — بعد تردد — أن يقوموا بالدور القيادى المسئولين عنه . واعلنوا أن :

« شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم .. وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له انا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية وقالوا انه لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » .

وقاموا قومة رجل واحد ، وتسلحوا وأرغموا هذا الوالى العثمانى على

---

(١) ومن ذلك أن الجنرال كليبر بعد أن اخمد ثورة القاهرة الثانية ، دعا اليه العلماء والمشايخ فبكروا بالذهاب (ولبسوا أفخر الثياب) .. وطمع كل واحد فى « المناصب » المصدر السابق ، حوادث ١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م .

الرضوخ لهم وفرضوا رأيهم معلنين على لسان السيد عمر مكرم أنه من قديم الزمان لهم حقهم فى عزل الوالى الظالم ، بل السلطان نفسه اذا خرج عن حكم الشرع (١) .

هذا العمل الكبير الذى قام به العلماء والمشايخ فى عزل والى مصر العثمانى سنة ١٨٠٥ ، وتولية محمد على ، كان فى نظر عبد الرحمن الجبرتى عملا يتسم بقصر النظر وعدم التبصر . وكان هذا يرجع الى ما كانت عليه نظرة الجبرتى الى شخصية (محمد على) على اعتبار انه لا يختلف عن غيره من الطامعين فى حكم مصر ، ولا شك أن محمد على كان ذكيا عندما تولى الحكم من يد زعماء الشعب الحقيقيين حينذاك ، واستطاع هؤلاء أن يقدموا له خدمات كبيرة كان أهمها ذلك الموقف الكبير الذى وقفوه عندما جاءت الحملة الانجليزية على مصر بقيادة الجنرال فريزر ١٨٠٧ ولكن هل كان هذا يقنع محمد على بأنه من الأجدى أن يكون الحكم شركة بينه وبين العلماء ويرتفع مستوى الحكم والادارة بشكل يشارك فيه الشعب برجاله .

لقد كان محمد على باشا حاكما من الطراز التركى الذى يركز السلطات فى يده ويرفض أن يشاركه أحد السلطان ، مما جعل عبد الرحمن الجبرتى يحمل عليهم بشدة مثاليتهم تخليهم من وقت لآخر عن وقار العالم وما ينبغى له من مكانة وتقدير .

وكانت مكانة العلماء والمشايخ ، رغم تلك الذروة التى بلغوها بعزل الوالى التركى وتولية محمد على — قد أصابها الكثير من التفكك والتباغض، والتكالب على المناصب والأرزاق،وعرف محمد على ذلك فيهم فوضع خطته للانفراد بالسلطة ووصف الجبرتى كيف تحقق لمحمد على هذا حين فرض الأموال على الأرض التى كانت بأيديهم أسوة بسائر الأراضى المصرية ، كما قام بتفريق كلمتهم والايقاع بينهم . ثم وجه ضربة شديدة الى أقوى الزعامات المعارضة بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط والتاويح بمناصبه وأوقافه الى بعض العلماء المتهالكين على السلطان ، ووصفهم الجبرتى أبلغ وصف حين قال عنهم :

وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم .. الا

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م .

بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان . واجروا الحبس والتعذيب والضرب بالفلقة والكرابيج .. واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم .. وصارت لهم .. تحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب.. مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ، ومخاصماتهم القديمة مع بعضهم ... وانقلب الوضع فيهم بضده .. مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء والتطلع فى الأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء .. والتعريض بالطلب واظهار الاحتجاج لكثرة العيال .. وارتكابهم الأمور المخلفة بالمروءة .. كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطربة ، واعطاء الحوافز والنقوط بمناداة الخلبوص .. فى السامر وهو يقول .. بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاصى والدانى وهو يخاطب رئيسة المغانى يا ستى حضرة شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان منه كذا كذا من النصفيات الذهب .. نتيجة التفاخر والكذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم فى فعل المحرمات الواجب عليهم النهى عنها كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة ... فى كل مجتمع .. الى غير ذلك (١) .

تلك كانت حالة بعض العلماء والمشايخ كما صورها الجبرتى عندما « أخذ الباشا يدبر فى تفريق شملهم » حيث أنهم كانوا قد « تعاهدوا .. وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » لمنع الباشا من متابعة ضرباته الاقتصادية لمداخيل العلماء . وعقدوا الاجتماعات والجلسات لتحديد خطوات العمل ، ولكن « انفتح بينهم باب النفاق » واستمر القال والقيل ، وكل حريص على حظ نفسه وزيادة شهرته وسمعتة ، ومظهر خلاف ما فى ضميره ، وكانت فرصة كبيرة أمام « محمد على » كى يقرب اليه عددا من كبار العلماء من أمثال (الشيخ المهدى) الذى كان يخشى أن يتفوق عليه السيد عمر مكرم الذى كان يخوف محمد على « بقيام الجمهور ضده » ، وانتهز هذه الفرصة ليؤكد لمحمد على بأن عمر مكرم — الذى كان شديد المعارضة لمحمد على « لاستبداده ... اذا خلا عنا فلا يسوى شىء » بينما اتهم عمر مكرم العلماء قائلا لهم : « أنتم توافقونه وتسايرونه ، ولا

---

(١) عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م .

تصدونه بكلمة وانا الذى صرت وحدى مخالفا وشاذاً ووجه عليهم اللوم فى نقضهم العهد والايمان . وهكذا عرف محمد على كيف يعزل عمر مكرم — اقوى شخصية فى ذلك الوقت ، واصر على نفيه ، ليذهب من بعد ذلك الشيخ المهدى عند الباشا طالبا « وظائف السيد عمر .. فى نظير اجتهاده فى خيانته » .

ولكن بلصق ما حدث للسيد عمر مكرم بالمشايخ والعلماء ، حثهم « محمد على » على تنسيق عرضحال فى حق السيد عمر ، ومن وقع العرضحال تقرب من الوالى ومن اصحاب المناصب ، أما الشيخ أحمد الطحاوى فقد تشبث بأن ما ورد فى ذلك العرضحال ليس الا « كلام لا اصل له » . فما كان من المشايخ والمتصدرين الا أن عزلوه من « افتاء الحنفية » واحضروا الشيخ حسين البشرى وركبوا وطلعوا به القلعة .. بعد أن مهدوا القضية .. وخلعوا عليه .. أيضا خلعهم » .

ويرى الجبرتى ان ما حاق بالسيد عمر مكرم انماهو نفسه مسئول عنه فالذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن اعان ظالما (١) سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا (٢) .

وبعد تلك الحادثة ، التى سحبت من المشايخ والعلماء قدرتهم على التحرك ضد الوالى القوى الشكيمة ، دبر لهم محمد على خطة تسحب ما كان بيدهم من حق اختيار شيخ الأزهر . فقد عرض عليهم للتداول فيه . وكان المنصب مغريا يتنازعه المشايخ منذ وقت طويل . فاختلفت الآراء ، فالبعض اختار الشيخ المهدى والبعض ذكر الشيخ محمد الشنوانى « ولكن لم يكن » له درس بالأزهر وكان شديد التواضع راغبا عن المناصب فاختار المشايخ الشيخ المهدى « ففرح الرجل وركب ... الى بيته فى كوكبة ، وحوله وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين وشربوا الشربات واقبلت عليه الناس للتهنئة » أما محمد على باشا فقد استبعد المهدى ، حتى يسحب منه هذه الخلفية الكبيرة المؤيدة له ، وحتى يثبت للجميع ان اليد العليا فى اسناد هذا المنصب الدينى الكبير للباشا وحده .

---

(١) يقصد محمد على .
(٢) أنظر عجائب الآثار ، حوادث ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م .

مخلع على الشيخ محمد الشنوانى .. وجعله شيخا على الأزهر « وأرسلوا اليه الطباخين والفراشيين والأغنام والأرز .. وازدحمت الناس عليه ، وأتوا أفواجا اليه .. للتفرج على الشيخ الجديد وكأنه لم يكن طول دهره بينهم » (١) .

على تلك الصورة أصبحت طائفة المشايخ والعلماء ، من حيث العجز عن القيام بدورها القيادى ، وأصبحوا أداة فى يد محمد على للتخلص من خصومه .

وقد تألم احد المؤرخين المصريين من ذلك الأسلوب الذى اتبعه محمد على فى التخلص من الزعامة الشعبية ، وفى التحكم فى مشايخ وعلماء عهده فيقول :

« أكان محمد على على حق فيما ارتأى من ابعاد جمهور المصريين عن ميدان السياسة والاستئثار به وحده . أكان ذلك ضروريا لكى يستطيع المضى فى خططه الاصلاحية ؟ .

ويبدو أنه بالغ فى التحوط حين سلك هذا السبيل ، ان كانت تكون ايسر واهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فانه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات معه . ولو لم يبادر الى الاستعانة بهم فى جيوشه لما استطاع أن ينتصر .. نعم ، كان المصريون بعيدين عن أن يفهموا غاياته ومراميه ، وكانت عامتهم مستعدة للسخط عليه اذا اجبرها على بعض ما تكره من وجوه التحضر ، ولكن لا نزاع فى أن نفرا منهم كان قديرا على مجاراته ومتابعته بعد صبر قليل . وأن بعض أهلها كانوا اذ ذاك فى حالة معنوية من مجاراته وفهم مراميه اذا تفاهم معهم عليها .. وليس هناك امة تهذبت . وارتفعت من غير معلم ، وليست هناك أمة تسمو وتعلو من انصراف حكامها عنها وتخذيلهم اياها » (١) .

ومن وجهة نظرنا أن دراسة نقدية لتلك الأزمة التى وقعت بين محمد

---

(١) أنظر ترجمة حياة الشيخ عبد الشرقاوى ، حوادث ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م .
(٢) د . حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، مطبعة حجازى ، الطبعة الثانية ، مارس ١٩٣٨ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

على والزعامة الشعبية لتحتاج الى ان ناخذ فى الاعتبار اكثر من جانب آخر وعدم الاقتصار على امكانية قيام تعاون بين الطرفين أو من امكانية اقامة نوع من التنسيق بين القيادات المختلفة .

ومن المعروف فى الشرق حينذاك ان الحكم كان حكم اسرات ، وأن الزعامات كانت حين تبنى لنفسها ملكا كانت تهيىء فى نفس الوقت الظروف لأسرة حاكمة او لفئة حاكمة تحتكر الحكم والادارة والعسكرية ، ولا تعطى لاية قوة أخرى امكانية التسلط او فرض نوع من المشورة عليها . ولقد كان الأمر كذلك فى مصر ، فطوال العهد الفرعونى كان الحكم فى أسرات ، والبطالمة أسرة ومعظم العهد الاسلامى كان عهد اسرات حاكمة اما فى معظم عهود الفتح أو الاحتلال فيحكم مصر ولاة ، وعندما تتهيأ الفرصة للتخلص من الحكم المركزى تظهر اسرة حاكمة . ومن ثم فان محمد على — وقد اتجه نحو اقامة حكم له فى البلاد — كان يؤسس اسرة حاكمة فى نفس الوقت . ومفهوم الأسرة الحاكمة هو ان تضع كافة أدوات الحكم والادارة والعسكرية والفكر تحت توجيهها . اما وقد بلغ الأمر بالمشايخ والأعيان ان قادوا حركة طرد الوالى العثمانى (خورشيد) ، وتولية وال جديد بشروطهم (محمد على) ، وقيادة حركة المقاومة العسكرية ضد الغزاة الاجانب (حملة فريزر) فانهم اصبحوا قوة يخشى على مستقبل محمد على واسرته من تحرك تقوده هذه الزعامة الشعبية .

على أنه يمكن القول :

١ — ان طائفة المشايخ والعلماء ما هى الا جزء من المجتمع بخيره وشره ، وكانت تمت الى النظام القديم الذى كان محمد على يسعى الى تقويضه أو التحكم فيه .

٢ — ان التطورات كانت تسير بسرعة اكثر من قدرة المشايخ — بصفة عامة — على ملاحقتها ومع ذلك بقيت طائفة العلماء ، وبقى معها نظامها التقليدى ولكن فقدت مكانتها الأولى بين شرائح المثقفين بنمو التعليم الحديث الذى ادخله محمد على فى البلاد .

قد ادت عمليات التحديث التى بدأت فى عهد محمد على ونمت فى عهد اسماعيل الى صعود دور (الأفندية) وتراجع دور المشايخ فى تطور مصر الحديثة والمعاصرة .

الفصل السادس

عناصر المجتمع المصرى الحرفية والمذهبية

● الاتراك والشراكسة .
● اهل النوبة .
● القبائل العربية .
● الرقيق .
● الجاليات الأجنبية .

الأتراك

نظرا لما كان للأتراك العثمانيين من دور له مكانته فى التوجيه السياسى والاقتصادى لمصر ، وفى المجتمع المصرى فيجدر أن نلقى ضوءا عليهم خلال الفترة التى حكموا بها مصر حتى قضى على دورهم فى البلاد كسلطة .

وهناك مقولة مشهورة عن الاتراك بصفة عامة أنهم كانوا ينظرون الى المصريين الفلاحين نظرة استعلاء ، وانهم كانوا أصحاب صلابة وقسوة وغلظة ، وصاحب ذلك أنهم كانوا لا يقبلون التغير وبالتالى يمكن وصفهم على الأقل بأنهم محافظون — ورجعيون ، وهى صفات أدت بهم الى نوع من الاستهتار بالغير وعدم قدرة على تقييم صحيح لمن هم اكثر منهم تقدما وأن هم اقل منهم حضارة ، ومثل هذا التكوين يؤدى الى سلوك غير سوى لا يقبل التوجيه السليم . وعند الخطأ يسعى الى تحميل المسئولية لغيره ، ويدفعهم هذا التكوين الى اتباع مسالك غير اخلاقية فى الوصول الى أهدافهم ، ومن ذلك أنهم كانوا لا يتورعون عن قبول الرشوة وتقديمها كلما تبينوا لانفسهم مصلحة ، وانهم كانوا يحتقرون الأوربى رغم أن الأوربيين كانوا متقدمين عليهم حضاريا .

الا ان تمسك التركى الشديد بالدين الاسلامى ولو ظاهريا جعل له فى المجتمع المصرى مكانة عالية وخاصة ان انباء الكفاح التركى العثمانى ضد القوى المسيحية كان يتردد باستمرار فى اسماع الناس فى مختلف ولايات الدولة العثمانية الأمر الذى كان يقنع الناس بان مسائل الاتراك

تمحوها تضحياتهم فى سبيل الاسلام ، ولقد كان هذا المفهوم سائدا حتى خلال فترات الهزائم المتتالية التى لاحقت الأتراك العثمانيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وكان من عوامل الاقتناع المصرى بالحكم التركى ان الاتراك كانوا على نفس مذهب اهل مصر « مذهب السنة » ولذلك كان المصريون لا يرون فيهم اى شكل من اشكال الغرباء ، وانما منطلق العلاقة ان المسلمين اخوة بغض النظر عن كونهم اعاجم .

اهل النوبة

ويشكل النوبيون فى مصر جماعة متضامنة لها صفاتها وتحتفظ بلهجتها المحلية الى جانب العربية العامية ، وهم بصفة عامة يتميزون بالأمانة والنزاهة والطيبة الطبيعية اى بالسليقة .

ونظرا لفقر منطقة النوبة ، فقد كانت الهجرة النوبية الى داخل مصر كثيرة ومتلاحقة ، وهم كثيرا ما يتركون اسرهم فى مواطنهم ليعودوا اليها بعد ان يجمعوا مبلغا من المال او يستدعون اسرهم واقاربهم للعمل فى مختلف الفرص المتاحة .

ومن المشكلات الاجتماعية التى قامت فى جنوب مصر ، وجود نوع من التميز الغصبى بين ما هو (عربى) الأصل وما هو (نوبى) الأصل ومن الملاحظ أن التزاوج بين الفئتين (العرب والنوبيين) لا يقع الا نادرا . ولكن خلال النصف الأخير من القرن العشرين حدث تحول جوهرى فى العلاقات الاجتماعية بسبب تصاعد اعداد المتعلمين فى الطرفين مما - يقضى آجلا على مثل هذه الحالات الاجتماعية المرضية .

القبائل العربية

كانت القبائل العربية تموج فى الصحراء الغربية والصحراء الشرقية وكانت تشكل اقوى قوة ضاربة وغير مملوكية ، بينما كان الشعب المصرى - فلاحين ، وحضرا - لا يملك قوة عسكرية يدفع بها عن نفسه شر العدوان .

وانه لمن المفارقات المقلوبة ان يكون البدو الرحل الذين لا يتمتعون

بمستوى حضارى يضارع الفلاح أو سكان المدن ان يكون البدوى اقدر على مواجهة قوى الطغيان الحكومية .

فلقد كان فى استطاعة القبائل العربية أن تتصدى للقوات الحكومية واذا ما شعرت بان الهزيمة ستحل بالمقاتلين العرب ، فرت القبيلة بعيدا متعمقة فى الصحراء فلا تستطيع القوات المملوكية ادراكها فتمتعت هذه القبائل بنوع من الحرية ، ولكنه نوع من حرية التخلف ، فهى حرية لا تدفع بالقبائل الى اى تطور تقدمى ، وتعطى للبدوى مفهوما مزيفا للحرية والاباء والشمم .

ومن ناحية اخرى كانت هذه الحرية والأصالة العربية ذات وقع كبير فى نفوس الشعوب الاسلامية نظرا لأن الله خص العربى بنشر الدين الاسلامى اذ أنزل الله قرآنه الكريم على النبى العربى . ولذلك كان التشبه والتقرب من شيخ العرب من تقاليد العصر . وكان الانتماء الى أصل عربى من أمور الرفعة الاجتماعية .

ولكن هذه القبائل العربية مارست طغيانا مدمرا على الأراضى الزراعية فى الدلتا اذ فرضت سطوتها على الفلاحين وعاملتهم معاملة قاسية حيث ان الفلاحة والفلاح كان من الاعمال الدنيئة التى لا يرضى بدوى عربى أن يقوم بها وانما كان البدوى العربى يفرض نفسه بالقوة على الفلاحين مبتزا أموال المجاهدين بعرقهم .

ان مجرد وجود تشكيلات قبلية عشائرية فى العصر الحديث هو ظاهرة من ظواهر التخلف ، ومن ثم فان ترتيبها يأتى فى ذيل المستويات الحضارية سواء من حيث الوضع الاجتماعى أو الفكر السياسى أو المستوى الثقافى والاقتصادى .

ومع ذلك ، فقد كانت القبائل العربية أداة توفرت بسرعة لدى الحكومة المملوكية لمواجهة الحملة الفرنسية التى فاجأت مصر سنة ١٧٩٨ فانه من المعروف ان تعبئة قوات بسرعة من المجتمع الريفى من الأمور العسيرة بينما تعبئة قوات سريعة من القبائل امر ميسور . ولكن النتائج المرجوة من ذلك فى مواجهة قوات حديثة لا تقع ، وما يستطيعه البدو هو الكر والفر ومضايقة قوات الاحتلال لفترة تطول أو تقصر ولكن لا تستطيع

ان تحرر البلاد من المعتدى . ومع هذا ، فان للقبائل دورا له قيمته اذ كانت القوات القبلية تقوم بمتابعة القتال ضد المعتدى .

فلقد افادت حكومة المماليك من القوات العربية القبلية فى قتال الغزاة الفرنسيين من مصر واستخدموا القبائل العربية فى استباحة اجزاء واسعة من الدلتا وتمادت تلك القبائل فى السلب والنهب (١٨٠٤) .

ولكن المشكلة الرئيسية للوجود القبلى انه لا يقبل سلطة مركزية تفرض عليه ، ويرفض السياسة الواحدة للدولة ، فهم عنصر تفكك واضطراب فى المجتمع ، وبالتالى عنصر من عناصر التخلف والتعطيل للمشروعات العامة .

ولقد ادرك محمد على هذه الحقيقة تمام الادراك وهو يبنى مصر الحديثة ، ولذلك عمل على توجيه الضربات ضد القبائل المشاغبة ، وعمل على علاج المشكلة القبلية فى مصر علاجا جذريا بان دفع القبائل الى (التوطين) ليصبحوا منتجين وليكونوا فى متناول يده . ولقد نجح محمد على الى حد كبير جدا فى خطته فى توطين البدو ، وتوقفت تعدياتهم على الارياف وعلى طرق المواصلات .

وعندما عبا محمد على قواته لحملته على الشام ، وعندما اصبحت التمردات الداخلية فى الشام ضد الادارة المصرية هناك متصاعدة الخطورة، استعان محمد على بالعشائر العربية لتعمل الى جانب قواته النظامية . ولقد استخدم محمد على هذه القوات العشائرية فى حملاته فى الجزيرة العربية وفى السودان كذلك .

ولكن هذه التشكيلات العشائرية عندما عملت مع قوة محمد على الضاربة لم تأخذ بأساليب القتال الحديثة ، وانما ظلت محتفظة بطابعها واسلوبها التقليدى فى القتال .

ولقد كانت هذه العشائر مفيدة فى العمليات الحربية فى الشام وفى شبه الجزيرة العربية نظرا لأن القوات النظامية الحديثة تواجه صعوبات فى ضرب القبائل الثائرة ، انما اذا اشتركت القوات العشائرية مع بعض القوات النظامية ضد القبائل المتمردة فان ذلك يشكل صعوبات خطيرة امام تحركات القبائل الثائرة .

وكانت هذه القبائل العربية مفيدة أيضا للتكتيك المصرى فى مواجهة قوات عشائرية كبيرة قذف بها العثمانيون من العراق فى المعركة ضد القوات المصرية فى المنطقة الواقعة بين العراق والشام .

ومن ناحية ثالثة ، كانت هذه القبائل مفيدة لمحمد على فى معركته ضد الدولة العثمانية لأن جيشه النظامى كان مسئولا عن رقعة واسعة من الأرض تمتد من الفرات وجبال طوروس حتى جنوب الجزيرة العربية وجنوب وادى النيل ومن ثم كان فى حاجة الى كل قوة ضاربة مستعدة لدعم القوات النظامية المصرية .

ومن المعروف عن البدو العرب أنهم أصحاب شهامة ومروءة ونجدة وانهم لا يقترفون خيانة وان كلمتهم محترمة ولا يسطون على الجار ولكنهم فى نفس الوقت لا يتورعون عن القيام بعمليات السطو الجماعية ونهب القوافل واغتصاب النساء من اهل المدن ان حانت الفرصة لهم وخاصة اذا كانت القافلة أو الجماعة غير اسلامية .

الى جانب ذلك فلدى البدو العرب مفهوم للأمانة يصل الى حد الائتمان على مسروقات أو على أسرار ضد الدولة أو القيام بعمليات غير مشروعة .

الأقباط

وصف كرومر المصريين الأقباط بأنهم لا يختلفون عن المصريين المسلمين الا من حيث طقوس العبادة . فالصبر هو صفة أصيلة فى القبطى ، والمرأة القبطية تعامل نفس معاملة المرأة المسلمة من حيث التقاليد الاجتماعية ومن حيث مكانتها ازاء الرجل ، والخرافات شائعة بين الأقباط ، وكذلك هم شديدو الكراهية للمذاهب المسيحية الأخرى فلا يتقبلونها الا بصعوبة بالغة بشكل فردى وليس جماعيا .

والواقع ان الكنائس الأوروبية الغربية هى الأخرى تنظر الى المصرى القبطى نظرة استعلاء وترى أن الكنيسة القبطية متخلفة وتحتاج الى يد أوربية لانقاذ ايمانها والأخذ بيدها وهو تصور غير مقبول بين جمهرة الأقباط فى مصر .

وبطريرك الأقباط يتولى منصبه بالانتخاب وبصدور براءة من حاكم

البلاد . وتستخدم اللغة القبطية فى الطقوس الدينية فقط بينما اللغة العربية هى لغتهم العادية اليومية .

وقد اشتهر اقباط مصر بالمهارة فى الأعمال الديوانية والمالية وهى مهارة لا تزال تؤثر فى الاقباط فى مصر حتى الآن .

الى جانب ذلك ، فهم يعملون فى التجارة ، وفى بعض الحرف التى تخصصوا فيها مثل (الحصر) وتقطير ماء الورد وعمل المنسوجات الكتانية .

لقد كان موقف اقباط مصر من الحملة الفرنسية فى بداية الأمر موقف المتخوف اذ لم يستجيبوا للتوافق الدينى بينهم وبين الفرنسيين ولكن ذلك الموقف لم يقدره عامة الشعب تمام التقدير الأمر الذى ادى الى تعرض الاقباط لبعض التعديات وهى تعديات وقعت كذلك لكثرة من البيوت والأسرات الاسلامية .

وكان من أبرز من تعاون مع الفرنسيين المعلم يعقوب الذى اشتهر بالجنرال يعقوب ، ولقد ذهب البعض الى اعتباره من رجال الحركة الاستقلالية المصرية ولكنه من وجهة نظرنا كان قد تخطى حاجز الوطنية الى دائرة التبعية للفرنسيين من أجل أهداف مسيحية ، ومع اننا لا نستطيع ان نحكم بدقة على أهدافه الا انه ليس الوحيد من زعامات عصره الذين انضموا الى هذا الجانب أو ذلك من الدول الكبرى الأوربية .

فان الألفى بك فعل تقريبا ما يشبه ما فعله المعلم يعقوب . فلقد خرج الألفى بك من مصر مع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٣ م ليعود مع حملة فريزر على مصر ١٨٠٧ وفشل كل منهما فى تحقيق اهدافه ولكن التعاون بين المعلم يعقوب والأجانب يثير من الريب لدى القاعدة العريضة من الشعب اكثر بكثير جدا مما يثيره التعاون بين زعيم مسلم مثل الألفى بك واحدى الدول الكبرى الأوربية .

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر خشى الأقباط على أنفسهم وعملوا على جذب انتباه الانجليز اليهم ، ولا شك ان العديد من الأقباط تعرض لتعديات السلطات المملوكية وغير المملوكية خلال الفترة الواقعة بين خروج الحملة الفرنسية من مصر وتولية محمد على الحكم . ولقد سلك

محمد على مع الأقباط الاثرياء نوعا من الاستبدادية للحصول على الأموال منهم فى اوائل عهده بالحكم ، ولكن بعد ذلك اتبع محمد على أسلوبا حديثا فى التعامل مع الأقباط ليس فقط من حيث حمايتهم من اية تعديات تقع عليهم ولكن من حيث تقديم الدولة لخدمات تعينهم على القيام بالطقوس الدينية حتى لقد ضجر الاهالى مما اصاب الاقباط من زهو لم يكن معتادا فى المجتمع المصرى فيما سبق ذلك من عهود .

فمن ابرز ما يتميز به عصر بناء الدولة الحديثة فى مصر تلك الحرية الدينية الواسعة التى تمتع بها الأقباط وخاصة من حيث بناء الكنائس وتسهيل امور الحج المسيحى القبطى الى القدس .

ولقد فتحت أبواب المناصب العليا امام اقباط مصر فى عهد محمد على ، فقد وصل باسيليوس الى رئاسة المحاسبة فى عهد محمد على ، وحصل منه على رتبة البكوية وهى رتبة لم يسبق لقبطى أن حصل عليها .

على ان التسابق الى المناصب العليا كان من العوامل التى أدت الى صراع بين جبهتين قبطيتين كل منهما تحدت الأخرى على تولى منصب من المناصب ، ومن ذلك ان أزمة عميقة دارت بين المعلم جرجس والمعلم غالى وأخذ محمد على جانب المعلم غالى ونفى الأول فما كان منه الا أن أوقف أملاكه على الكنيسة . ويبدو ان هذه الأزمة بين جرجس وغالى هى التى أدت فى نهاية الأمر الى ان يلقى مصرعه فى ظروف غامضة .

حقيقة كانت الجزية تدفع ولكن ذلك كان فى مقابل مسئوليات عسكرية لا يتحملونها وهى مسئولية القتال من اجل مصر . ومع ذلك فقد تحدثت الوثائق عن ان الحرية الدينية من أهم مبادىء محمد على .

وكان الاقباط لا يطالبون بالانخراط فى سلك الجندية من جانب الحكومة ، وكان الاقباط من ناحيتهم — مثل بقية عامة الشعب — غير مرتاحين للعمل العسكرى الحديث أو العمل العسكري بصفة عامة .

الرقيـــــق

اما الرقيــق فكانوا مظهريا فى اســفل قائمة الشرائح الاجتماعية ومع انه من المعروف ان الاسلام يحض على عتق الرقيق الا أن الممارسة كانت تســير نحو اطلاق الحــق فى الاســترقاق . ومع ذلك فان مكانة الرقيــق فى المجتمــع الاســلامى كانت احسن بكثير جــدا من حالتــه فى اى بلد أوربى .

وكانت تجــارة النخاســة رائجــة ولم تصبح مشــكلة الا عنــدما استنفدت أوربا حاجتهــا الى الاســترقاق فهبت ضد هذه التجــارة اللا انســانية فى الوقت الذى اســتمر فيه مجتمع المســلمين يقرها .

ولذلك ما ان جــاء القــرن التاســع عشر حتى كانت الدول الكبرى الأوربية تلبس رداء الدفــاع عن الرقيق والضغط على الحــكومات الاســلامية للتخلى عن هذه التجــارة ، وهو اســلوب حصلت من ورائه بريطانيا على توســع استعمارى واسع تحت ســتار العمل على منع النخاســة .

كانت الغالبيــة العظمى من الرقيــق يعملون فى المنــازل وعــدد كبــير من الرجــال منهم كان خصــيا وكان يتولى مســئولية رعــاية الحريم ، وكان هو نفسه يزهو بهذه المهمــة ، فضــلا عن أن منطلقـــه فى ذلك هو منطلــق دينى ، فلقــد كان العبيــد ـ بصفة عامة ـ من المتمســكين بالمبادىء الاســلامية على قــدر ما كانوا يحصــلونه من علــوم الدين .

اما الجوارى فكن ملك يمين صاحبها ، وكان يبنى بها ، واولاده منها شرعيون ، وكثرة من الجوارى كن حبشــيات ، وكانت بعض الاغانى الفلــكلورية حتى وقت قريب تتحدث عن زفاف العروس وفى ركابها الجارية .

ولقــد ادرك محمد عــلى لا انســانية النخاســة ولذلك اصدر أوامــره بان يحــد المسئولون من الاســترقاق . بــل لقــد تزعمت مصر فى عهــد الخــديو اســماعيل مســئولية مكافحة هذه التجارة اللا انســانية فارســلت العــديد من الحمــلات العســكرية الى الســودان والى اقصى جنوبه متكبدة خســائر فادحة فى الأرواح والأموال . ولــكن غمطت أوربا حــق مصر فى هــذا الميدان ، فى نفس الوقت الذى لم يقــدر فيــه الســودانيون من تجــار الرقيق هذا الدور الانسانى ،

فكان هؤلاء التجار من العوامل التى أشعلت الثورة المهدية فى السودان ضد الادارة المصرية .

الجاليات الأجنبية

خلال العهد العثمانى كان توارد الأجانب على مصر محدودا ، وكانت الجاليات الأجنبية قليلة ، واغلبيتها من التجار فى المدن . ولقد بلغ الأمر بالحكومة الانجليزية انها اغلقت قنصليتها فى مصر لعدم جدواها وذلك قبيل هبوط الحملة الفرنسية ارض مصر ، أما الجالية الفرنسية فكانت تعانى من ضغط المماليك عليها حتى كان أحد دوافع فرنسا لارسال الحملة الفرنسية لتوجيه ضربة تأديبية للمماليك .

وبتولى محمد على ، ومع بداية عهد الانفتاح على الدول الأوربية المتقدمة ، وتصاعد الدور المصرى السياسى والاقتصادى تكاثر وصول الأجانب الى مصر وتوالى فتح القنصليات الأجنبية أو تنشيط ما كان قائما منها ، ومع ذلك فقد كانت أعداد الأجانب فى مصر محدودة خلال عهد محمد على ، ولكن شوكة القناصل — وخاصة قنصلى انجلترا وفرنسا — كانت تتصاعد .

ولقد ثبت من دراسة نشاط القناصل أنهم كانوا لا يعتمدون على مرتباتهم فقط بل كانوا يشاركون فى الأعمال التجارية وجنوا من وراء ذلك ثروات كبيرة .

وخلال عهد محمد على تزايدت إعداد البيوت التجارية الأجنبية ، ولكن هذا التزايد سار بخطوات اسرع بكثير جدا فى عهد الخديوى اسماعيل . بل لقد ظهرت فى عهده مدن ذات طابع أوربى شكلا وسكانا مثل بورسعيد .

ولا شك ان اهتمام محمد على برفع مستوى التصنيع فى مصر هو الذى فتح ابواب مصر فى عهده ومن بعده أمام اعداد كبيرة نسبيا من العمال والفنيين الأوربيين وقد تزايدت معدلات هجرة أمثال العمال والفنيين الى مصر فى عهد الخديو اسماعيل ومن بعده .

وخلال ذلك كانت تتوافد على مصر أعداد من الانتهازيين اللا أخلاقيين من العمال الأوربيين ، انضم الى زمرتهم من لا يجد عملا مناسبا ، وأغلبية من هؤلاء كان ينخرط فى أعمال لا أخلاقية وغير شرعية ، حتى قد اضطرت الحكومة

المصرية الى طرد واعادة اعداد ليست بالقليلة منهم الى اوطانهم تجنبيا للبلاد من شرورهم .

وخلال الفترة التى سبقت الحملة الفرنسية على مصر كانت هناك مشروعات اوربية متعددة استهدفت استغلال موقع مصر وامكانياتها حتى انه قبيل مجىء الحملة الفرنسية على مصر كانت فرنسا عندما تعقد معاهدة مع المماليك تسرع انجلترا الى عقد معاهدة معهم حتى لا تنفرد فرنسا بالنشاط فى مصر .

ولا يكاد محمد على يفتح مصر على حضارة العالم الأوربى ، حتى تصاعدت تطلعات الدول والبيوت التجارية والأفراد الى مصر على اعتبار انها مجال بكر للاستثمار .

ولقد كان محمد على واعيا تماما لخطورة فتح أبواب مصر أمام الاستثمار الأجنبى ، وكان حذرا تماما وأدى ذلك الى أن تكون المشروعات الاستثمارية الأوربية فى مصر محدودة ، ولكن فى نفس الوقت كان يدرك أن مصر فى حاجة الى المشروعات الأجنبية وان الأجانب كانوا مستعدين لتقديم الخبرة وراس المال للاستثمار ، ولذلك ظهر العديد من المشروعات الاستثمارية وخاصة فى المجال الزراعى ولكن تحت عين محمد على ورجاله .

لقد وجد محمد على نفسه مضطرا وهو يبنى مصر الحديثة انه فى حاجة ماسة الى الخبرة الأجنبية فى مختلف جوانب الحياة الانتاجية والفكرية والعسكرية ، ولذلك استخدم العديد من الخبراء منهم من ترك بصمات هامة فى تحديث مصر من أمثال الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) وكلوت بك وهامون ولينان وغيرهم من مختلف الجنسيات .

وكان موقف الأتراك وعلماء الدين من هؤلاء الخبراء مليئا بالحذر والمخاوف . فقد كان الأتراك ، ينظرون بعين الحقد الى هؤلاء الذين شغلوا المناصب القيادية العليا وحصلوا على رواتب وامتيازات كانوا يتمنون أن تقتصر عليهم .

أما علماء الأزهر فقد كانوا أكثر العناصر تقديرا لخطورة الاستعانة بالأجانب وبرؤوس الأموال الأجنبية . فقد كانوا ينظرون اليهم من زاوية سوء الظن اذ كانوا يعتقدون انهم حتى ولو قدموا لمصر أدوات الحضارة فذلك بهدف

ضرب مصر قاعدة الاسلام . وكان من هؤلاء من يرى خطورة اسناد الوظائف القيادة الى الأجانب وخاصة أن هؤلاء الأجانب لا يقومون بتكوين صف ثان لهم من المصريين .

حقيقة كان بعضهم يدرك قيمة الأخذ بالحضارة الغربية ويدعو الى ذلك ولكن بشرط ان يحافظ المصرى على شخصيته ودينه .

وكانت هناك شواهد عديدة على الانسجام بين العمال المصريين والقيادات الأجنبية ، ولقد وقعت منازعات بين الطرفين وهناك من يرى ان السبب الرئيسى وراء هذه المنازعات اختلاف مفهوم العمل لدى الأجنبى عنه لدى العامل المصرى . فالعامل المصرى لم يتعود الدقة فى العمل ، والخبير الأجنبى من جانب آخر يجد صعوبة فى تبليغ رسالته الى العامل المصرى ، فضلا عن مشاعر الألم الدفينة لدى المصرى الذى وجد نفسه تحت أمرة أجنبى .

وبتوالى الهجرات الفردية الى مصر فى عهد محمد على ظهرت جاليات تمثل معظم الدول الرئيسية فى أوربا : انجليز وفرنسيون وايطاليون ويونانيون واسبان وروس فضلا عن يهود وأرمن . ولكن بصفة عامة كانت أكبر الجاليات الأجنبية فى مصر فى عهد محمد على هى الجاليات اليونانية والفرنسية . وكان محمد على أكثر ميلا نحو الفرنسيين ، ولذلك تكاثروا فى مصر فى عهده ، بينما كانت اليونان منطقة طرد بشرى وعلى دراية مسبقة بأحوال مصر ، وعلى مستواهم كان الايطاليون (١) الى حد كبير .

كانت اليونان حتى ١٨٢٣ — ١٨٢٧ تحت السيطرة العثمانية ، ومن ثم كانوا رعايا عثمانيين بلادهم تعانى فقرا واضحا ، ولذلك عملوا فى أوجه النشاط البحرى وهاجروا الى بلاد الليفانت ، وعندما نزلوا فى مصر كانوا لا يقتصرون على العمل فى المدن وانما كانوا منتشرين فى المدن الصغيرة والقرى وكانوا مشهورين بالاعمال التجارية الصغيرة .

---

(١) لم تكن هناك ايطاليا الموحدة حينذاك وانما تمت الوحدة الايطالية فى سيتينات وسبعينيات القرن التاسع عشر .

اما الارمن فقد عرفوا بالنشاط التجارى كذلك ولكن كانت لهم مميزات خاصة وهى معرفة أكثر من لغة الأمر الذى أهلهم لوظائف الاتصال مع الأجانب فضلا عن أعمال السكرتارية والترجمة وهى أمور كانت تعوز الحكومة المصرية الناشئة .

أما الفرنسيون فقد كانت حكومة محمد على ترحب بهم أكثر من ترحيبها بالانجليز ، وذلك بسبب ميل محمد على الى الفرنسيين بشرا وحضارة ، ويبدو ان هناك نوعا من الانسجام النفسى بين الفكر الشرقى والفكر الفرنسى والذى يتميز عن الفكر الانجليزى من حيث التأثر بحضارة البحر المتوسط .

ولقد كانت ظروف فرنسا فى أعقاب هزيمة نابليون قد جعلتها منطقة طرد وخاصة للعناصر العسكرية التى سرحت من الجيش أو خشيت على نفسها من نقمة البوربون الذين عادوا الى العرش على جثث رجال نابليون (١٨١٤ — ١٨١٥) .

أما السوريون المسيحيون فكانوا على اتصال مستمر بأحوال مصر ، وعلى نشاط ملحوظ فى المجالات التجارية ، ونظرا لأنهم كانوا رعية عثمانية كانت حركتهم الى مصر أكثر سهولة فضلا عن قرب المسافة .

ومع تصاعد اعداد الجاليات الأجنبية فى مصر تصاعدت المخاوف الشعبية منهم فضلا عن عوامل الضيق من هذا النشاط الأجنبى وخاصة بين العامة . وكثيرا ما كانت تقع اعتداءات هوجاء على الأجانب يقوم بها العامة أثناء الفتن . ولكن حسب ما ورد فى كتاب المؤرخ المصرى المعروف عبد الرحمن الجبرتى ، كان يتعرض لهذه التعديات الأجانب والمصريون على حد سواء .

لقد كان هناك عدم ثقة لدى المصرى ازاء الأجنبى ، وكانت بعض الأزمات تنسب الى مكرهم و (افاعيلهم) وبصفة عامة كان هناك شعور عام بان الثقل الحضارى الغربى على مصر يهدد مستقبلها .

ولقد ضاق محمد على فى أكثر من مرة من دخول الأجانب الى مصر

دون تصاريح الأمر الذى يعرض البلاد لمجىء واقامة من لا يفيدها ومن يستطيع أن يثير المتاعب والشغب دون ان تدرى عنه الادارة شيئا . ولذلك عنيت حكومة محمد على بأن لا يدخل مصر من الأجانب الا من كان يحمل تصريحا بذلك .

بصفة عامة كان اليهود فى مصر — مثلما كانوا فى معظم البلاد الأوربية — يعيشون حياة صعبة ليس فقط بسبب ما عرف عنهم من تقتير شديد على أنفسهم ولكن كذلك بسبب ما شاع فى العصور الدينية من نظرة تحقير لهم هم ساهموا فى تعميقها (*)

ولقد كان من أسباب تلك النظرات المريبة الى اليهود فى مصر أنهم كانوا يتعاملون (بالربا) وهو محرم فى الدين الاسلامى . ولقد مهر اليهود فى بعض أنواع الحرف ، وخاصة صياغة الذهب ولكن نجاحهم الأكبر كان فى ميادين التجارة والصيرفة .

الفصل السابع

رؤية فى التركيب الاجتماعى

(النصف الأول من القرن التاسع عشر)

من العسير على أى باحث ان يحدد تعداد مصر بدقة خلال معظم فترات القرن التاسع عشر . وان كان فى الفترة الأخيرة منه أمكن الحصول على تقديرات يمكن الاعتماد عليها ، ولكن مع تحفظات كثيرة . والمؤكد ان تعداد مصر كان فى تزايد منذ مطلع القرن التاسع عشر واستمر ذلك التزايد سمة من سمات المجتمع المصرى حتى أصبح فى النصف الثانى من القرن العشرين ظاهرة من أخطر الظواهر التى تهدد اقتصاديات الدولة والدخل القومى والدخل الفردى باشد الاخطار .

يقدر تعداد مصر فى أيام الحملة الفرنسية على مصر بحوالى ٢ر٥ مليون نسمة ، وفى نهاية عهد محمد على ارتفع الى الضعف تقريبا ٤ر٥ مليون نسمة وذلك خلال نصف قرن تقريبا (النصف الأول من القرن التاسع عشر) . ولا شك ان هذا النمو فى عدد سكان مصر فى عهد محمد على يرجع الى ما حظيت به مصر خلال ذلك العهد من نقلة فى الرعاية الصحية للسكان .

حقيقة لم يحدث توسع يذكر فى الخدمات الصحية فى القرى ، ولكن هذه الخدمات الصحية فى المدن وخاصة فى العاصمة كانت واضحة ومن ذلك الجهود التى بذلت للقضاء على مصادر الأمراض مثل البرك ، حتى لو كانت بركة الازبكية ، التى كانت تعتبر واحدة من متنزهات القاهريين . وبعد ردمها انشئت مكانها حديقة غناء . ولا شك ان ردم البرك وازالة تلال القمامة حد من انتشار الاوبئة والأمراض فى العاصمة .

فانه لأمر ذو مغزى انه رغم ما حدث فى عهد محمد على من اوبئة — وان كانت شراستها أقل عن ذى قبل — وما ترتب عن الحروب وعن السخرة من خسائر ظلت أعداد مصر فى النمو والتزايد . ومعنى ذلك أن الاجراءات الصحية

وسريان المفاهيم الوقائية كان من اهم العوامل التى ساعدت على اعطاء دفعة الى معدلات النمو السكانى .

وهناك عوامل — شبه دائمة — كانت تؤدى الى نمو تعداد سكان مصر من اهمها :

١ — الاعتقاد لدى الأسرات انه يجب أن يكون لهـا (عزوة) فكلما كثر عدد الذكور فى الأسرة كانت تعتز بنفسها ، وأكثر اطمئنانا على أموالها وعلى مواجهة الخصوم والشدائد .

٢ — هناك مقولة سائدة عن أن المرأة المصرية ولود كثيرة الانجاب .

٣ — على أن التبكير بالزواج — سواء للشاب أو الفتاة — يعتبر من التقاليد الاجتماعية السائدة فى مصر .

٤ — وهناك قول بأن تعدد الزوجات ، من العوامل التى تعمل على زيادة نسبة المواليد .

٥ — وظهر عامل جديد فى القرن التاسع عشر ، هو أن محصول القطن — الذى أصبح يزرع فى مساحات واسعة — يحتاج الى اعداد كبيرة من الأيدى العاملة — وخاصة من الصبية والفتيات الصغيرات . وهذا المجال من العمل كان يدر دخلا على رب الأسرة الفقيرة ، ولذلك كان يرى فى زيادة عدد الأطفال استثمارا مناسبا له .

واذا حاولنا تصنيف المجتمع المصرى الى طبقات أو الى فئات أو طوائف اصطدمنا بمناهج عديدة متخصصة فى هذه التصنيفات من زوايا ايديولوجية . ومن وجهة نظرى لا يجدر الأخذ بالمناهج الأيديولوجية فى عملية التصنيف هذه ، نظرا لأنها مناهج أيديولوجية غربية أفرزها الفكر الاجتماعى الأوربى . وحيث أن المجتمع المصرى جزء من المجتمع الشرقى فلا يجدر — من وجهة نظرى — أن نطبق المفاهيم والأيديولوجيات الأجنبية على المجتمع المصرى فتطبيقها سيؤدى الى نتائج تبدو — من الناحية النظرية — سليمة ولكن لا تعطى نتائج حقيقية تمكن من القيام بعمليات تخطيطية لتنظيم المجتمع واقتصادياته وعلاقاته الاجتماعية .

فبادىء ذى بدء — من وجهة نظرى — لا يصلح التقسيم الى طبقات فى المجتمع المصرى ، وهذا التقسيم الى طبقات من منطق التطورات الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية فى أوربا من عصر الاقطاع — الذى كان فيه الفرد الأوربى مجرد قن لدى سيده الاقطاعى — الى عصر الملكيات المستبدة ذات الحق الالهى فى الحكم ، الى عهد الثورات البرجوازية الراسمالية والملكيات المقيدة والنظم الاشتراكية والشمولية القائمة على النظرية الماركسية .

هذه التطورات لم تحدث فى مصر ، والمجتمع المصرى لم يتعرض لتلك التطورات . حقيقة كان فى مصر اقطاع ، ولكن هذا لم يكن يعنى مطلقا أن المصرى أصبح قنا . فقد ظل الفلاح حرا . وذلك لأن الفكر الدينى الاسلامى لا يستعبد حرا . ومفهوم القنية والعبودية والعبيد كان يطبق على ما يشترى من رقيق أبيض أو أسود فى الغالب الأعم .

واذا وضعنا فى اعتبارنا ذلك الاتجاه الفكرى الذى يفرق بين أساليب تصنيف المجتمع المصرى وأساليب تصنيف المجتمع الأوربى عبر العصور ، فاننا نستطيع ان نوزع المجتمع المصرى الى فئات ، وليس الى طبقات . وذلك لأن الطبقية فى اوربا تعنى :

١ — اغلاق كل طبقة على نفسها بحيث لا تسمح للطبقة الأخرى بالنفاذ اليها .

٢ — وبالتالى فان المجتمع الأوربى كان مهيا — الى حد ما — لما قال به ماركس من صراع طبقات . وحتى هذه النظرية الخاصة بالصراع الطبقى ثبت انها مهزوزة حيث أن ماركس كان يتوقع ثورة البروليتاريا فى الدول الصناعية المتقدمة ضد البرجوازية والراسمالية ولكن الذى حدث ان الدول الصناعية المتقدمة لم تتعرض لهذه الثورة بينما تعرضت لها روسيا التى كانت فى طور أقرب الى الاقطاع منه الى أى شىء آخر .

وحيث ان المجتمع المصرى — بمفاهيمه الدينية الاسلامية وبتقاليده الاجتماعية — لا يمنع من انتقال الفرد من مستوى اجتماعى الى آخر ، وانه لا توجد طبقة محرمة على أى فرد من افراد المجتمع ، فاننا لن نستخدم تعبير طبقة ، وانما سنستخدم تعبيرات (الشريحة — الطائفة — الفئة) .

ولكن كيف نصف (المماليك) و (افراد الأسرة العلوية الحاكمة) وهم كانوا يمثلون تركيبا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا أغلق على نفسه ، مانعا من يريد الدخول اليه ليحتفظ بكيانه وتركيبه .

فالمماليك من وجهة نظر أوليجاركية حاكمة مستبدة احتكرت السيف والحكم والتسلط الاقتصادى . ولكنها لا ترقى الى مستوى (الطبقة) ، ونهاية المماليك فى مصر ونهاية الطبقة الارستقراطية الحاكمة فى أوربا تقدم لنا الدليل على وجهة الاختلاف بين مفهوم (الطبقة) الغربى ومفهوم الأوليجاركية التى تمثل طائفة ذات طابع معين خاص بها .

فالثورات التى شنتها البرجوازية والبروليتاريا على الراسمالية وجهت ضربة قاصمة للطبقة الأرستقراطية ، فسلبتها ما كانت تحتكره وما كانت تتمتع به من امتيازات ، ووهنت الطبقة الارستقراطية من بعد فى المجتمع ، بمعنى أن المجتمع امتصها بطريقة أو بأخرى .

اما المماليك ، فقد اخذوا اخذ عزيز مقتدر ، واجتثوا اجتثاثا من المجتمع المصرى بالقتل والتشريد (مذبحة القلعة وما تبعها) . ولم تقم لهم من بعد قائمة .

اما الأسرة الخديوية التى أسسها محمد على والتى حلت فى الحكم محل المماليك . فانه يمكن وصف مؤسسها بانه اقرب ما يكون الى مفهوم الحاكم المستبد العادل الذى وضع أساسا لحكم ملكى وراثى يعتمد على ما يمكن وصفه بالصفوة الحاكمة من الأتراك والشراكسة وذوى المقدرة من المسلمين وغير المسلمين من المصريين وغير المصريين .

ان انتقال الحكم من الأوليجاركية الملوكية المستبدة بالشعب الى يد محمد على ومن بعده الى ورثته ، هو انتقال منطقى من حكم (القلة) المتنافسة الى حكم الفرد الذى احتفظ بسلطات المماليك مجتمعة . وبذلك بدأ حكم (الملك المستبد) . واى نظام ملكى أو شبه ملكى غالبا ما يستند الى طائفة تدعمه يثق فيها فى مجالات الادارة والقيادة ، ويعتمد على جيش وطنى . وهذا ما حدث فى عهد محمد على . فاتخذت مصر شكل الدولة القومية — دون ان تعلن ذلك — وظل ارتباطها الوثيق بمفهوم (الولاية) التابعة للسلطان العثمانى سارى المفعول .

أما من كان يثق فيهم محمد على وخلفاؤه فكانوا من شريحة ذات تميز عرقى واضح ويمكن ان نطلق عليهم الأتراك والشراكسة والمتتركين .

فالاسرة الحاكمة (اسرة محمد على) يمكن أن نصفها بانها الصفوة الحاكمة العليا صانعة القرار السياسى ، والاتراك الباشوات والبكوات الذين يشكلون جهاز الادارة والقيادة العليا — هم من وجهة نظرنا — يشكلون (الصفوة الحاكمة منفذة القرار) . فالغالبية العظمى من هذه (الصفوة الحاكمة المنفذة للقرار السياسى) شغلوا مناصب الادارة العليا والمديرين والقيادات العسكرية والوظائف الرئيسية .

هذه الصفوة الحاكمة بشريحتيها ذات صفات تميزها ، ومن اهم هذه الصفات :

١ — الاشتراك فى العرقية التركية أو الشركسية .

٢ — استخدام اللغة التركية والميل الى استخدام لغة اجنبية وخاصة الفرنسية .

٣ — الأخذ بمظاهر الحضارة الغربية فى السلوك الاجتماعى .

٤ — الشعور بانهم اقدر على توجيه أمور البلاد حتى لو لم يكونوا قد اعدوا لذلك .

٥ — احتقار المصريين (اولاد العرب) .

هذه الصفوة الحاكمة كانت تتمتع بالثروة على هيئة حيازة مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية الأمر الذى وضع فى ايديهم رءوس اموال سائلة كبيرة .

ويلاحظ ان هذه الصفوة الحاكمة استخدمت اموالها السائلة فى مختلف جوانب الحضارة الحديثة ولكن فى مجالات استهلاكية ، أذ لم تقتحم هذه الرأسمالية ميدان اقامة المؤسسات الانتاجية او الصناعية فقد كانت تفضل استثمار اموالها فى شراء الأراضى الزراعية والعقارات المبنية .

بل انهم حين استثمروا أموالهم فى شراء المزيد من الأراضى الزراعية لم يعمدوا الى استخدام أساليب الانتاج الزراعى الحديث حينذاك ، وانما ارتكنوا الى تلك الأساليب القديمة .

ومن ثم كانت هذه الصفوة ذات دخل وفير ورأسمال ضخم اضاع

فرصـــة ذهبيـــة لتطوير اســـاليب الانتـــاج فى مصر ، فكانت بذلك عاملا رئيســـيا من عوامل اســـتمرار التخلف الاقتصـــادى فى مصر رغم مظهـــر الطفرة الذى بدا عليـــه الاقتصـــاد المصرى فى عهـــد محمـــد على .

خلال عهـــد محمـــد على اعطيت الفرصـــة — وعلى نطـــاق اوســـع بكثير جدا عن ذى قبل — لنمو كبير فى شريحة فى المجتمع ، ويطلق البعض عليهـــا الطبقة الوسطى او الطبقـــة البرجوازية ، ولكننـــا نفضـــل ان نطلق عليها تعبير الفئـــات الوسطى فى المجتمع المصرى نظرا لانها كانت من العـــديد من الفئـــات دون ان تاخذ: بظاهرة التضـــامن والتآزر الأمر الذى افقدها القدرة على الظهور بمظهر الطبقة .

هذه الفئات الوســـطى كانت تتألف من التجـــار الكبار والمتوسطين والعلماء ورجال الدين فى المستويات العاليـــة واعيـــان الريف من كبـــار المـــلاك والموظفين ذوى المناصـــب الراقية الذين يتولون مسئوليات كبيرة فى مختلف الادارات الحكومية، مثـــل القضـــاة ومديرى المـــدارس والادارات . ومن بين هؤلاء خريجو المـــدارس الحديثة ومن عـــاد من بعثات محمـــد على الى الدول الأجنبية المتقدمة ، والضباط من المستوى التالى لمســـتوى القيادات العليـــا .

وهـــؤلاء كانـــوا يرون فى الصـــفوة الحـــاكمة مثـــلا اعلى وكانت لـــدى بعضهم تطلعـــات للوصـــول الى الصـــفوة الحـــاكمة المنفذة للقـــرار السياسى . ولكن قلة قليلة جـــدا هى التى توصـــلت الى ذلك وعلى راســـــهم رفاعة رافـــع الطهطـــاوى والمحروقى التـــاجر المصرى الذى كان دعامة من دعائم الســـياســـة الاقتصـــادية ايام محمـــد على .

تميـــزت هذه الطـــوائف بالاقبـــال على تربيـــة ابنـــائهم تربيـــة حديثـــة فى المـــدارس والبعثـــات التى نظمتهـــا الـــدولة . وكانت بالتـــالى تقتبس من أدوات الحضـــارة الغربية ، وكذلك من مظاهر السلوك الراقى التركى .

وهى كذلك معنية عناية كبيرة بحيازة الأراضى الزراعيـــة ، والظهور بمظهـــر الارتباط بالصفوة العليـــا بصورة ما من الصور .

ويرى احـــد البـــاحثين الالمـــان أن المثقفين والذين عـــادوا من البعثـــات التعليمية والذين تخرجوا من المدارس العاليـــة الحديثـــة — وهم احدى الفئـــات الوسطى — كانوا بمثابة خبراء لدى صـــانعي القرار الســـياسى (الصفوة) .

ان هذه الفئات الوسطى من المثقفين اصبحت ذات مكانة فى المجتمع المصرى ، بل يمكن القول ان هؤلاء بنوا طائفة جديدة فى المجتمع هى (الافندية) الذين تفوقوا على طائفة العلماء والمشايخ . واستمرت هذه الظاهرة ونمت حتى الآن .

ورغم تراجع طائفة العلماء والمشايخ فقد ظلت — ولا تزال مكانتهم قوية بفضل علمهم الدينى ومكانة الأزهر الشريف ، وحاجة الحاكم من وقت لآخر الى مساندتهم الفكرية والسياسية . كذلك كان الأعيان يعنون عناية خاصة بعلاقتهم بالعلماء والمشايخ لما لهم من مكانة خاصة فى نفوس الناس ولدورهم القيادى الدينى .

اما الفلاحون والحرفيون والصناع والعمال والاجراء فهم الذين يشكلون القاعدة الشعبية العريضة المنتجة ذات المستويات الهابطة والدخول المحدودة للغاية . ولكن مع فوارق فيما بينهم .

الفلاحون حدث لهم نوع من التطور من حيث الانتقال من مستوى (الفاعل) فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى الأرض لحساب الدولة الى مستوى شبه المالك الى المالك فى النصف الثانى من ذلك القرن . علما بان ملكية معظم الأرض — بصفة عامة — كانت من نصيب الطوائف الأعلى أكثر من أن تكون من نصيبه . وظل الفلاح هو الذى تقع عليه اعباء الانتاج وتزويد الخزانة بالأموال لتغطية تكاليف الادارة والمشروعات فضلا عن اسراف الصفوة الحاكمة .

وكانت ثقافة الفلاح موروثة ومحدودة ، وكذلك كانت ثقافة المهنى ، والفلاح من الناحية النظرية يستطيع الارتفاع من مستواه ، ولكن قنوات الارتفاع هذه كانت محدودة للغاية ، واقصى ما يستطيعه هو ان يكون مالكا لقطعة ارض تجعله يعيش حياة أفضل من الحضيض الذى كان يعيشه الفلاح الأجير أو المستاجر لأرض .

واذا كانت هناك مؤسسة تحافظ على كيان الفلاح فهى الأسرة الكبيرة لما كان يجرى فى داخلها من عرف عريق وهو التكافل الاجتماعى والتعاون التلقائى فيما بين افراد الأسرة . الا ان هناك من يرى أن هذا الشكل

من الأسرة الكبيرة كان من عوامل ضياع الفرد فى المجموع وما يترتب عن ذلك من اغلاق مجالات الابتكار والتطوير .

وادت الاجراءات القانونية فى عهد سعيد باشا الى فتح باب الملكية امام مختلف مستويات الشعب وكانت اللائحة السعيدية لعام ١٨٥٥ هى العامل الأساسى لتثبيت حق الملكية . ولكنها خدمت القادرين اكثر من خدمتها لغير القادرين ماليا ، الأمر الذى فتح الباب واسعا لظهور الملكيات الواسعة .

واذا ما قارنا بين التطور الذى حدث للقرية بالتطور فى المدينة نجد ان الثانية حظيت بالرعاية وبالمشروعات وبالتحضر ، فالقرية لم تتغير ملامحها تغيرا واضحا بينما توالت عمليات التحديث والاستثمارات فى المدينة وخاصة فى العاصمة . وكانت القرية — ولا تزال — تقدم مستلزمات الحياة للمدينة ، وكانت رخيصة بل كان أهل المدينة يملكون الأراضى فى القرى ، ولم يكن اهل القرى على مستوى التعامل مع اهل المدينة . وهذه الفوارق لا تزال تعانى منها حتى وقت قريب .

المجتمع المصرى ومجتمع الجزيرة العربية :

تعتبر حركة الموحدين (الحركة الوهابية) واحدة من أكبر الحركات الاصلاحية التى هزت المجتمع العربى والاسلامى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . وكانت هذه الحركة قد ظهرت على يد محمد بن عبد الوهاب فى نجد فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر .

كان محمد بن عبد الوهاب مراقبا ناقدا لمجتمع نجد ، وتبين له ان ذلك المجتمع قد ابتعد فى مفاهيمه وممارساته الاسلامية عن جادة الايمان الصحيح. ومن ذلك ما استشرى فيه من بدع كاستجداء الشفاء من أنواع من الشجر واضفاء كرامات لبعض أولياء الله الصالحين والتغاضى عن بعض الواجبات الدينية الرئيسية .

بل يمكن القول ان مجتمع نجد حينذاك كان قد عاد الى مفاهيم الجاهلية ، وخاصة من حيث الصراعات المريرة بين القبائل ، والمنافسات الدموية بين الأسرات الحاكمة العديدة هناك .

وقد سعى محمد بن عبد الوهاب الى اصلاح حال الناس والاحتكام داعيا

الى جمـع القلوب حول كلمـة التوحيـد ، متخـذا من مبـادىء المذهب الحنبلى اساسا لدعوته . ولقد كسـب حوله عددا من المعتقدين بدعوته ولكن تصدت لـه قوى اجتماعيـة وسياسـية شـديدة البأس ، فلم يسـتطع أن يحـدث تغـيرا يذكر ، حتى اسـتطاع أن يكسـب الى جانب دعوته آل سعود حكام (الدرعية) .

اسـتطاع محمد بن عبد الوهاب بتحالفه مع آل سـعود أن يضم قوة القلم واللسـان الى حـد السـيف الرادع . ونجـح هذا التحالف فى توحيـد معظـم الجـزيرة العربيـة تحت سـيطرة آل سـعود باسـتثناء اليمن ومعظـم عمـان والجنـوب العربى بـل امتدت السـيطرة السـعودية الى غرب نهـر الفـرات واطراف سـوريا الجنوبيـة ، على أن سـيطرة آل سـعود على مكة المكـرمة والمدينة المنورة فى السـنوات الثلاث الأولى من القرن التاسـع عشر كان له دوى فى مختلف أجزاء العـالم الاسـلامى .

وانتشرت الحركة الوهـابية انتشـارا محـدودا فى البـلاد الاسـلامية ، ونلاحظ انهـا كانت تلقى قبولا بين مثقفى ذلك الوقت خـارج الجـزيرة العربية ، دون أن يكون لها انتشـار واسـع فى القـاعدة الشـعبية ، واستطاعت أن تهـز الفـكر الدينى فى بعض الدوائر مثلمـا حدث فى مصر اذ لقيت صـدى فى نفـوس بعض العلمـاء ولكن دون أن تنتشر ، وكان من بين المتعاطفين معها المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى ، بينما كان محمد على قد عزم على تلبيـة أوامر السـلطان لضرب هذه الحـركة الوهابيـة ، فضـلا عن ذلك كان يؤدى الى تحقيق أهـداف سياسيـة واستراتيجية كان يسـعى اليها محمد على .

فعندما أتت الى مصر أنبـاء اسـتيلاء آل سـعود على مكة المكرمة والمدينة المنورة وما صاحب ذلك من منع المحمـل والحجـاج من مصر والشـام تسرع الرأى العـام الاسـلامى واتهم آل سـعود بمنع الحجـاج وبارتكاب أمور عـديدة لم يرتكبوها ، بينما كان الجبرتى متزنا فى أحكامه اذ قال عن دخول القوات الوهابية لمـكة المكرمة :

« ودخلهـا الوهابيـون ، ولم يحـدثوا بهـا حدثا ... غير منـع المنكرات وشرب التنباك فى الأسـواق وهـدم القباب ... ما عدا قبة الرسـول صلى الله عليـه وسـلم » (١) .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ١٥ جمادى الآخرة ١٣٢٠ هـ / ١٩ أكتوبر ١٨٠٥ م .

واما عن منع الحج فقد كان الجبرتى دقيقا حين أوضح أن آل سعود لم يمنعوه وانما منعوا المحمل وذلك لأن المحمل كان يصاحبه الطبل والزمر وتقاليد لا تمت الى مبادىء الحج . بل اشاد الجبرتى بتسهيل آل سعود الحج للذين وفدوا الى الأراضى الحجازية بهدف الحج ولا يقومون بأى شكل من اشكال البدع .

كذلك نفى الجبرتى عن آل سعود تهمة نهب النذور التى كانت محفوظة بحجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ومن « كنز المال بحجرته » فهو من باب « مخالفة أوامره » ومن باب « حرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين » وان الذين يقدمون على وضع النذور الثمينة فى الحجرة النبوية فهم لدى الجبرتى من « سخاف العقول » .

واكد الجبرتى ان الاختلاس امتد الى تلك النذور ، ومع انه لم يصرح بحق آل سعود فى الاستيلاء على تلك النذور والأموال الا انه كان — فى اعتقادنا — لا يرى فى ذلك خروجا عن اى مبدا من مبادىء الاسلام .

واذا وضعنا فى الاعتبار ان المجتمع المصرى — بل وحتى دوائر العلماء — كانت ترى فى مسألة النذور والمحمل مسألة مرتبطة بالاسلام وتقاليده المقدسة ، فيمكن القول أن الجبرتى تمكن من ادراك مخاطر التقاليد على الفكر الاسلامى ، وتصدى له ، وهو فى ذلك لم يقف فقط ضد قوى التقاليد الضخمة حينذاك ، بل وقف كذلك ضد الفكر السياسى الذى كانت تعتقده الحكومة فى مصر حينذاك ..

فقد شرع محمد على فى ارسال حملة ضد الحركة الوهابية ، ولم يجد الجبرتى سوى قلمه ليسجل به معارضته لتلك الحملة ولمحمد على فسجل لنا اكثر من ظاهرة اجتماعية حينذاك . فقد وصف الجبرتى الجنود الذين جمعهم محمد على بأنهم على خلق سيىء ، وقال عن طائفة من الجند كانت تعرف باسم (الدلاة) انه :

« يوجد فيهم من هو على طريقة حميدة ... وقليل هم ويتوقدون

الناس وكأنهم بينهم وبين أهل البلدة عداوة قديمة » (١) ويقول ان هؤلاء المجندين كانـوا :

« نقمـة حلت بأهـل الاقليـم من كل ناحيـة » (٢) وقال كذلك عن الجنـد المتوجه الى الجزيرة العربيـة .

« اجتمع بناحيـة عرضيهم وخيـامهم الجـم الكثير من النسـاء والبغـايا .... يلعبـون القمـار جهـارا فى نهـار رمضـان ولياليـه .... كانما سـقط عن الجميع التكاليف وخلصوا من الحساب » (٣) .

بل ذهب الجبرتى الى القول بأن :

« أكثر عسـاكرنا على غير الملة ، ومنهم من لا يتـدين ، ولا ينتحـل مذهبا » ومعهم « صناديق المسـكرات ولا يسـمع فى عرضـينا (٤) أذان ولا تقـام به فريضـة » (٥) .

والواقع ان عبد الرحمن الجبرتى انتقـد بشـدة المجتمع المصرى بسـببية تقاليـد قالوا عنهـا انهـا اسلامية ، وهى ليسـت من الإسـلام فى شىء وبخاصـة المفاسـد التى كانت تصاحب الموالد والذكر .

أما محمد على فكان يرى أن الحـركة الوهابيـة لا تهـدد مكانة السـلطان العثمانى فقط بل تهـدد كذلك مكانتـه . فمنـع الحج والمحمل لا يحـرم السلطان من شرف التلقب بلقب حامى حمى الحرمين الشريفين فقط ، بل يهبط بمكانة محمـد على لانه هو المسـئول ــ كحاكم لمصر ــ عن تمكين الشـعب من تادية شـعائر ومناسـك الحج . فان لم يسـتطع أن يحمى الحجاج فى ذهابهم وعودتهـم ، وان لم يهيىء الظروف لتأدية فريضة الحج فانه بذلك يبـدو ضعيفا غير جدير بالحكم .

فاذا اضفنا الى ذلك أسـبابا سياسـية عـديدة ــ من بينهـا الحصـول

---

(١) الجبرتى ، ٤ رمضان ١٢٣٠/١٨١٥ .
(٢) المصدر نفسـه .
(٣) الجبرتى ، عجائب الآثار ، أول رمضان ٢٦/١٢٢٩ اغسطس ١٨١٤ ، أول رمضان ١٢٣٠ / اغسطس ١٨١٥ .
(٤) المعسـكر .
(٥) الجبرتى : عجائب الآثار ، ١٠ محرم ١٢٢٧ / ٢٥ يناير ١٨١٢ .

على مكانة عالية فى الدولة العثمانية — فاننا نستطيع القول ان وجهة نظر قلة من المثقفين كانت على مستوى عال من القدرة على رؤية الأمور بعين المصلح الاجتماعى .

أؤكد هنا انها كانت فعلا قلة قليلة من المثقفين حينذاك هى التى كانت تأخذ بوجهة نظر عبد الرحمن الجبرتى ، أما الغالبية العظمى من دوائر المثقفين حينذاك فقد كانت ترى ان محمد على على حق عندما اراد أن يوجه ضربته العسكرية الى الحركة الوهابية .

ارسل محمد على قواته الى الجزيرة العربية . ولم يكن بين جنود هذه الحملة قوة مصرية ، وانما ارسل فرقة من الأرناووط والألبان ، ومعها بعض القبائل العربية المصرية . وبعد معارك مريرة استطاعت هذه القوات خلال سبع سنوات من القتال ان تهزم القوات الوهابية وأن تستولى على « الدرعية » عاصمة آل سعود وأن تبلغ قوات ابراهيم باشا — ابن محمد على وقائد قواته — مشارف الخليج العربى (١٨١٨) ثم لم تلبث أن انسحبت معظم تلك القوات وتركزت فى الحجاز .

ولنا عدة ملاحظات على مسيرة هذه الحملة ، وعلى رؤية أهل الجزيرة العربية لها :

١ — تناول عدد كبير جدا من الباحثين والمؤرخين حملة محمد على على الجزيرة العربية ، والغالبية العظمى من هؤلاء الباحثين استخدموا مصطلح « الجيش المصرى » للتعبير عن قوات تلك الحملة . والواقع ان الشىء الوحيد الذى يربط هذه الحملة بمصر هو أنها خرجت منها . ولم يشارك فيها الشعب المصرى .

٢ — اما رؤية آل سعود وأهل الجزيرة العربية لتلك الحملة فكانت اكثر واقعية ، حيث استخدموا مصطلح « الحملة التركية » و « الحكم التركى » على اعتبار أن القيادة والجند كانوا من أصول تركية ولم يلحظوا وجودا مصريا فى قوات الحملة .

٣ — ان ما فعله أولئك « الجند التركى » فى الجزيرة العربية لا يزيد عما فعلوه بالشعب المصرى من نهب وقتل ومفاسد .

٤ ـ ذهب بعض الباحثين السعوديين الى وصف حملة محمد على على شبه الجزيرة العربية بأنها « حملة صليبية » ، وهذا فى الواقع أخطر أسلوب فى استخدام مصطلحات فى غير مكانها وبشكل يعمق تنافر الشعوب العربية فيما بينها فمهما كانت حملة محمد على مليئة بالمفسدين فان وصفها بأنها صليبية يعتبر تطرفا خطيرا فى الأحكام وذلك نظرا لأنه ما من شعب عربى الا ورفع السلاح ضد شعب عربى آخر ، فهل نسترسل فى استخدام هذه المصطلحات ذات الدلالات المحددة ، ونخرجها من مفهومها المتعارف علية الى مفهوم آخر لا يمت اليها بصلة (١) .

وهناك من المؤرخين من نظر نظرة ألم لما وقع بين محمد على وآل سعود من صراع دموى دون اية محاولة لكى يتفهم كل من الطرفين الآخر تفاهما يؤدى الى التكاتف بدلا من التصارع ، فيقول :

« كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية . وكان خير الاسلام لو تعاونا وتصالحا ، ولكن صروف السياسة قضت أن تكون احداهما حتف الأخرى ، فكأنما خنق الاسلام نفسه بيده » .

انها لقضية تثير الأشجان والحسرة ، لما ينتاب العالم الاسلامى من صراع بين أطراف متعددة ولما يقع حاليا من اقتتال أبناء العرب فى أكثر من موقع ، بينما المتربصون بهم يقبعون فى كل مكان تقريبا وينتظرون الفرصة السانحة للتسلط على هذا وذاك من الأطراف المتنازعة العربية والاسلامية .

اتفقت حملة محمد على على الجزيرة العربية مع حملته على السودان من حيث أن أهم الدوافع لأى منهما كانت اجتماعية . فقد كانت الأيديولوجية الوهابية مناقضة للايديولوجية العثمانية ، كما أن المقدرة العسكرية للسودان ـ من وجهة نظر محمد على فى أول الأمر ـ كانت أعلى مستوى من مقدرة المصرى ، وكان المصرى ـ فى نظر محمد على ـ يجب أن يتركز فى الفلاحة وأعمال السخرة التى تتطلبها مشروعاته .

بعث محمد على بقواته (التركية) الى السودان ، وفتحه بعد معارك محدودة ، وطفق رجاله يجمعون السودانيين لتشكيل الجيش الجديد الذى

---

(١) د. سليمان الغنام : قراءة جديدة .

كان يزمع محمد على تكوينه . ولكن التجربة أثبتت فشلها الذريع ، واضطر محمد على الى اعادة النظر فى طبيعة تكوين الجيش واتجه الى تجنيد المصريين فى الجيش والاسطول . وكانت أول حملة شارك فيها « الجيش المصرى » حملة ضد الثورة اليونانية .

وكان هذا الجيش هو جيش مصر الحديث . وابدى الجندى المصرى ليس فقط شجاعة جديرة بالتقدير ، وانما كذلك مقدرة على السلوك الاجتماعي والانضباط — فهناك فى اليونان كانت سمعة أية قوات عثمانية سيئة ، حتى لقد كانت توصف بالبربرية أما الجندى المصرى فاثبت أنه تحول بسرعة الى مستوى العصر الحديث .

وكانت صورة المجند المصرى الحضارى اكثر وضوحا خلال القتال الذى دار بين الجيش المصرى والعثمانى فى الشام (١٨٣١ — ١٨٣٩) . ولكن رؤية معظم طوائف المجتمع الشامى لمصر ولجيشها فى أول الأمر كانت ترحيبية بمقدم المصريين وطرد النظام العثمانى الفاسد . وبعد قليل توالت ثورات الطوائف على الوجود المصرى فى الشام . ومعنى هذا أنه لم يكن لدى تلك الطوائف الشامية قدرة على ادراك قيمة تكوين نوع من الوحدة مع مصر فى ذلك الوقت .

وهذا يرجع الى أن تلك الطوائف قد أصبحت تتمتع بنوع من الكيان الاجتماعى والسياسى تسعى الى الحفاظ عليه ازاء العثمانيين فأفلتت فرصة ثمينة قدمتها مصر الى المشرق العربى لتكوين جبهة تستطيع أن تقف على قدميها فى مواجهة قوى الاستعمار المتنامية . ولكن على من تقع المسئولية فى هذا الشأن .

الواقع أن كافة الأطراف لم تكن قادرة على فهم وتقدير الأهداف لدى الطرف الآخر ، ولم يكن فى استطاعة الشعوب العربية والطوائف والزعامات أن ترتفع الى سمو الفكر المصرى الوحدوى حينذاك . ورغم ما اعتور بعض الأساليب المصرية من عدم الانسجام — مثل تطبيق نظام الاحتكار على أهل الشام الذين يضعون التجارة فى المرتبة الأولى من أوجه نشاطهم

الاقتصادى — فان مثل تلك الأخطاء الاقتصادية لا ترتفع الى مستوى اخطاء الثورة ضد المحاولة المصرية لتحقيق نوع من الوحدة .

* * *

لقد أدركت مصر قبل غيرها من بلدان ومجتمعات الشرق الاسلامى — بل مجتمعات آسيا وافريقية — أن بناء الدولة الحديثة هو مفتاح الحفاظ على كيانها وكيان شعوب المنطقة . وكان أن وقعت النقلة الحضارية فى عهد محمد على .

وكانت النقلة أكثر وضوحا فى الجوانب الرئيسية الاجتماعية التالية :

١ — اختفاء تركيب اجتماعى كان مسيطرا على الحكم والادارة منذ مئات السنين ، ونعنى به نظام المماليك .

٢ — ظهور أسرة حاكمة ذات ثراء وأملاك اتسعت عبر العقود حتى امتلكت نسبة عالية من أجود أراضى مصر الزراعية .

٣ — نمو الملكيات الواسعة .

٤ — لم يتغير حال الفلاح تغيرا جوهريا فى عهد محمد على ولكن فتح الباب المؤدى الى تملكه أرضا .

٥ — أدت المنشآت الصناعية الحديثة الى ظهور فئات العمال الفنيين .

٦ — ادى فتح المدارس الحديثة الى بداية ظهور فئات المثقفين وأدت البعثات الى الخارج الى ظهور ما يمكن أن نسمية (الانتلجنسيا) . وحلت هذه الانتلجنسيا (الافندية) محل رجال الأزهر والشيوخ فى قيادة الحركة العسكرية والعلمية الحديثة فتراجع بذلك دور المشايخ أمام الأفندية .

٧ — كان نمو التحديث سريعا فى القوات المسلحة ، كذلك سيكون لهم دور فى التغير الاجتماعى سواء فى شريحة القيادة أو فى القاعدة . وكانت القيادة ذات طابع تركى شركسى ، ولكن تهيأت الظروف لصمود (أولاد العرب

المصريين) من بعـد للارتقاء الأمر الذى سـيؤثر على مجريات التطورات السياسية والاجتماعية فيما بعد .

٨ — قلت الاوبئة والفيضانات وأخـذ تعـداد مصر السـكانى فى الارتفـاع المطـرد .

٩ — نمت المـدن وتحسـنت أحوالها وان ظلت القـرية على حالها . وهدات تحركات البدو .

١٠ — بدأ تيـار تـدفق الأوربيين والشـوام والاتـراك على مصر لمـا كان يتوفر فيها من مجـالات عمل .

وسـتكون لكـافة تلك التطورات اثرها الجـوهرى فى توجيـه تاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

الباب السادس

مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

حتى ثورة ١٩١٩



الفصل الأول

مصر الدولة القائد

١ ـ مصر وشبه الجزيرة العربية .

٢ ـ مصر والسودان .

٣ ـ حرب المورة .

٤ ـ مصر وضم الشام .

كان محمد على منذ ان تولى مسئولية حكم مصر يدرك منذ البداية ان مصر اصبحت مطمع الدول الكبرى الأوربية . وان مصير مصر ومصير المنطقة المجاورة لها : (وادى النيل والمشرق العربى) اصبح متوقفا على اعادة بناء قوة مصر والمنطقة بشكل يدفع عنها عادية الطامعين .

ومن هذا المنطلق نشطت مصر سياسيا فى اكثر من اتجاه عبر نصف قرن من الزمان حكمها فيه محمد على .

وكانت عمليات التوسع المصرى فى اتجاه السودان ، وشبه الجزيرة العربية ، واليونان (المورة) ، والشام تغطى الفترة من ١٨١١ حتى ١٨٤٠ . ومن ابرز مميزات هذه الفترة ان مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث قد انتقلت من الدفاع عن النفس الى السيطرة على اجزاء شاسعة من البلاد العربية . ولا يشاركها فى هذه الميزة سوى سلطنة عمان التى انطلقت نحو شرق أفريقية ففرضت سيطرتها على زنجبار هناك .

وتعتبر قدرة مصر على القيام بمهام كبرى فى اكثر من جهة فى البلاد العربية دليلا واضحا على أن مصر ـ حتى ولو كانت تحت السيطرة ـ تلعب دورا رئيسيا من منطلق امكاناتها القيادية الراسخة فيها عبر القرون وبسبب قدراتها البشرية والاقتصادية والاجتماعية . ونظرا لما تضمنته سياسة مصر الخارجية من ظواهر وعلاقات ورؤية اجتماعية يجدر بنا ان نلقى نظرة متأنية على تلك السياسة الخارجية المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أى عهد محمد على .

(١)
مصر وشبه الجزيرة العربية

شبه الجزيرة العربية الذى توحد على يد المسلمين فى القرن الاول الهجرى لم يلبث ان اصيب بتفكك شديد عبر العصور التالية ، حتى اذا ما جاء العصر الحديث كان موزعا بين مناطق ذات حكم اسرى بعضها كان مستقلا والبعض الآخر تحت حكم غير مباشر للدولة العثمانية او ان الدولة العثمانية تدعى تبعيته لها .

وكان قلب الجزيرة العربية يموج بمجموعات كبيرة من التركيبات العشائرية المتقاتلة ، حتى استطاعت الحركة الوهابية ان توحدها بقيادة آل سعود وان ينشئوا الدولة السعودية الاولى . واخذت هذه الدولة العقائدية تعمل على نشر دعوتها فى الدول العربية المجاورة لها فكان ان اصطدمت بالدولة اليمنية التى يحكمها الائمة الزيدية ، وبدولة عمان التى كانت تحت حكم السلاطين البوسعيد وباشراف مكة الذين كانوا يحكمون الحجاز فى اطار التبعية للدولة العثمانية .

وخلال القرن السابع عشر والثامن عشر انطلقت هجرات عربية من قلب الجزيرة العربية ، عرفت باسم (هجرة العتب) واتجهت صوب شرق الجزيرة وادت الى تأسيس اسرات حاكمة على النحو التالى :

- آل الصباح فى الكويت .
- آل ثانى فى قطر .
- آل خليفة فى البحرين .

وقد عملت الدولة السعودية الاولى على السيطرة على هذه البلاد ولكن ظلت هذه الاسرات الحاكمة — رغم عنف التيار السعودى — تحتفظ بكيانها .

وفى المنطقة المعروفة الآن بدولة الامارات العربية ظهرت عدة تركيبات قبلية عربية ذات نشاط بحرى اقتصادى عسكرى كان له شأن كبير خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد اشتهرت تلك القبائل — وكذلك معظم العشائر المطلة على الخليج — بصيد اللؤلؤ وبأن لديها قوة بحرية استطاعت ان تفرض سيادتها على الخليج لفترات عديدة ، وعرف عنها رفضها للوجود البحرى الاجنبى

في مياه الخليج فكانت سفن تلك القبائل تنقض على السفن الأجنبية وتأسرها او تصادر ما تحمله من بضائع ، كانت هذه العمليات من وجهة النظر الاسلامية توصف بانها جهاد ، ولكن من وجهة نظر الدول الأوربية كان ذلك قرصنة .

وكانت معظم شعوب الجزيرة العربية عقائدية بمعنى انها اسلامية وتعتنق مذهبا أو دعوة أو نظرية اسلامية ، فأهل عمان يفضلون الاباضية ، واهل اليمن يفضلون الزيدية ، وقلب الجزيرة العربية يفضل الحنبلية . والجميع على المذهب السنى باستثناء جيوب شيعية محدودة في شرق الجزيرة العربية ، وبصفة خاصة في الاحساء .

والطابع العام للتركيب الاجتماعي في البلاد العربية هو التركيب العشائرى على العكس من مصر التى انتهى فيها هذا النوع من المجتمعات الا فى هوامشها حيث تعيش بعض القبائل العربية . وهذا يفسر لنا الدور القيادى الذى لعبته مصر طوال القرنين التاسع عشر والعشرين وجعل الدور القائد فى المنطقة العربية لها . وحيث ان التطورات الاجتماعية لا يمكن تقييمها الا اذا كانت التطورات السياسية واضحة فى ذهن الباحث .

انتشرت الحركة الوهابية فى قلب الجزيرة العربية وضمت اليها الحجاز والاحساء ومن بعد ذلك اخذت تضغط ايديولوجيا وعسكريا على عمان واليمن والعراق والشام الأمر الذى ادى الى تغيير كبير فى التوازن الدولى فى منطقة الشرق الأوسط حيث ان استمرار التوسع السعودى كان يعنى توحيد الجزيرة العربية تحت حكم آل سعود ، ومن بعد ذلك ، ضم العراق والشام وما وراءها ، فضلا عن ان وجود الأراضى الاسلامية المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة) يعنى سلب ما كان يفتخر به السلطان العثمانى .

كان محمد على ينظر الى مسالة الوهابيين من زاوية سياسية فى المقام الاول ومن زاوية دينية فى المقام الثانى . كان محمد على يرى ان الحركة الوهابية تهدد مكانة السلطان العثمانى بصفته الخليفة الاسلامى المسئول عن حماية الحرمين الشريفين وادارة أمورهما ، وانها تهدد كذلك مكانة والى مصر نفسه حيث يتردد فى طول البلاد وعرضها انه فى ايامه رد الحجاج المصريون عن تأدية فريضة الحج ، وبذلك يظهر الوالى وكأنه عاجز عن حماية مصالح رعيته فى أعز ما يتعلق به المصريون (الحج) .

ان الوالى مسئول — فى نظر الشعب — عن حماية الحجاج فى ذهابهم وعودتهم ، فان فشل فى ذلك يكون قد بدا ضعيفا غير جدير بحكم مصر . ولذلك كان على محمد على — من هذه الزاوية — ان يوجه ضربة شديدة للحركة الوهابية تبعدها أولا عن الأراضى الحجازية المقدسة .

واذا ما قام الوالى (محمد على) بحملته ضد الوهابيين وبعث بها الى ارض الجزيرة العربية ونجح فى القضاء على الحركة الوهابية هناك فانه بذلك يكون قد قدم خدمة جليلة للسلطان وللدولة العثمانية ، ولا شك سيؤدى ذلك الى تثبيت السلطان له فى ولاية مصر وربما تلبية مطالب اخرى كان قد تقدم بها محمد على من قبل وهى ولاية الشام . وفعلا ارسل محمد على قواته — وكانت من غير المصريين — الى الحجاز .

ودارت فى الأراضى الحجازية معارك ضارية بين حملة محمد على والقوات الوهابية ، ولكن تفوقت قوات محمد على بسبب ما كان لديها من عدد محدود جدا من المدفعية والاسلحة النارية .

واستولت قوات محمد على على الحجاز واطراف اليمن الشمالية ، ونجد ووصلت حتى الأحساء المطلة على الخليج (١٨١٨) . ثم لم تلبث ان انسحبت قوات الحملة من الأحساء ونجد وعادت الى الحجاز محتفظة بوحدات صغيرة فيما هو شرقى الحجاز حتى مياه الخليج .

ولنا عدة ملاحظات على تطور تلك الحملة ، وعلى رؤية اهل الجزيرة العربية لها :

١ — تناول عدد كبير جدا من المؤرخين والباحثين حملة محمد على على الجزيرة العربية . والغالبية العظمى من هؤلاء الباحثين استخدموا مصطلح « الجيش المصرى » أو « الحملة المصرية » . الواقع ان الشىء الوحيد الذى كان يربط هذه الحملة بمصر هو أنها خرجت منها والحقيقة انه لم يشارك مصرى فى هذه الحملة حيث انها كانت تتكون من الجنود الارناؤوط والألبان الى جانب رجال بعض القبائل العربية فى مصر .

٢ — كانت رؤية آل سعود واهل الجزيرة العربية من منطلق اكثر واقعية ، حيث نعتوها بالحملة التركية ووضعوا الحكم الذى نفذه محمد على

فى البلاد بأنه « حكم تركى » على اعتبار ان القيادة والجند كانوا من اصول تركية .

٣ — ان ما فعله هؤلاء الجند من الارناؤوط ومن الألبان بالشعب المصرى لا يقل عما فعلوه فى الجزيرة من عدوان ومفاسد ونهب . ولكن من ناحية اخرى فان تلك القوات التى ارسلت من مصر ضد الحركة الوهابية لم يشترك فيها مصرى حضرى أو ريفى ، وانما قلة من (العربان) ومعظم الحملة من أولئك الارناعوط والألبان . ولقد اقترفوا فعلا من الآثام ما يمكن ان يشكك فى سلامة اسلامهم .

وقد تأكدت هذه الحقيقة المرة بعد عدة سنوات عندما قاد خورشيد باشا حملة ثانية فى ١٨٣٨ — ١٨٣٩ لاستعادة السيطرة على نجد ثم الأحساء . فقد اكتشف خورشيد أن الأهالى كانوا يفرون من وجه القوات التى كانت تزحف تحت قيادته بسبب ما اقترفته الحملة السابقة من أعمال مشينة . فعمل خورشيد على تهدئة روع الأهالى وكسب ثقتهم من جديد .

٤ — ذهب بعض الباحثين السعوديين — سلمان الغنام الى وصف حملة محمد على على الجزيرة بأوصاف مليئة بالتطرف الفكرى . ومنها وصف سليمان الغنام للحملة بأنها « حملة صليبية » وهذه سقطة فى استخدام المصطلحات المقننة فى غير مواضعها . وهى سقطة تسهم فى تعميق الهوة بين الشعوب العربية بدلا من العمل على التقريب فيما بينها .

فمن الأمور المتواترة فى التاريخ ان يرفع شعب عربى سيفة ضد شعب آخر ، ولكن ان نصف حملة أو قتالا من هذا النوع بأنه حملة صليبية فهو تطرف ، ويؤدى الى تمييع المعانى الحقيقية للمصطلحات التاريخية .

وفى هذه الحالة كيف نسمى القتال الذى دار بين قوات عبد العزيز بن سعود — وكان من بينها الكابتن شكسبير — وقوات امير حائل فى ١٩٠٤ (١) .

---

(١) انظر كتاب سليمان الغنام بعنوان « قراءة جديدة » وهو الذى وصف حملة محمد على بأنها صليبية .

وأما المؤرخ المصرى حسين مؤنس فهو ينظر الى القضية من زاوية عاقلة عقلانية ، وذلك حين قال :

كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية وكان خير الاسلام لو تعاونا (١) ، وتصالحا . ولكن صرف السياسة قضت ان تكون احداهما حتف الأخرى . فكأنما خنق الاسلام نفسه بيده » .

٥ — لقد ادى الصدام بين مصر والدولة السعودية الأولى الى اعطاء فرصة واسعة للتطلعات الاستعمارية الانجليزية فى منطقة الخليج العربى . فلا السعودية ولا القوى العربية المطلة على الخليج استطاعت أن ترد الحملة البريطانية البحرية على موانى الساحل الغربى فى ١٨٠٩ قبل وصول حملة محمد على الى الحجاز ولا قدرت الحكومة المصرية الوجود الانجليزى فى الخليج وانما سحبت قواتها بسرعة بعد قليل من وصولها الى الأحساء فى ١٨١٨ تاركة المنطقة للمخططات البريطانية .

اننا لسنا هنا بصدد القاء اللوم على هذا الجانب أو ذاك ، ولكن بصدد رؤية موضوعية لتطورات ونتاج صراع أيديولوجى له مدلولات اجتماعية بين مجتمعين عربيين اسلاميين .

(٢)

مصر والسودان

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

كان الصدام الايديولوجى من العوامل الرئيسية التى ادت الى صراع بين الدولة السعودية الأولى ومصر محمد على ، هذا فضلا عن العوامل السياسية العديدة المعروفة بينما كان من أسباب فتح السودان على يد الحملة التى بعث بها محمد على أسباب متعلقة برؤية محمد على لقدرات المواطن المصرى ، وبرؤية محمد على لفلسفة الانتاج المناسبة لمصر . ولذلك يجدر بنا أن نلقى نظرة على ظروف التوسع المصرى — فى عهد محمد على — فى السودان .

---

(١) أى لو تعاون الوهابيون مع محمد على .

أن علاقة مصر بالسودان عريقة وأقوى من اية علاقة مع دولة مجاورة اخرى ، وذلك بفضل النيل الذى أضفى على الدولتين نوعا من الوحدة الجغرافية (وادى النيل) وعمقتها العلاقات المتبادلة والمتجانسة فى كثير من المظاهر البشرية والاقتصادية .

ولقد مر بنا كم من مرة كانت القوة العسكرية السودانية تلعب دورا هاما فى البلاد ، وقد كان الاسلام من العوامل التى فتحت الأبواب أمام السودانيين للهجرة الى مصر ، ولقد كانت مصر حتى الآن امتدادا للوطن السودانى .

وقد تجمعت عدة عوامل دفعت محمد على الى العمل على السيطرة على السودان وفيما يلى أهم هذه العوامل :

(١) كان هناك من اهل السودان وزعمائه من سعوا الى مصر يسالونه نقل الادارة القوية الحازمة الى السودان . وكانت أحوال السودان سيئة فى مطلع القرن التاسع عشر تكاد الحضارة العربية الاسلامية القديمة أن تحافظ على شكله الانسانى .

٢ - كان السودان موزعا الى مشيخات قبلية عربية متنافرة متقاتلة متدهورة كان من أهمها (سنار) التى أصيبت بداء التفكك مثلها فى ذلك مثل (دارفور) فى اقصى غرب السودان ، رغم أنها كانت تكافح من أجل الحفاظ على نوع من التماسك .

واما المنطقة الممتدة من جنوب مصر والنوبة حتى أواسط النيل الأبيض ، وحتى النيل الأزرق فكانت تموج فيها قبائل عربية سودانية تعيش حياة متخلفة فضلا عما كان بين تلك القبائل من اقتتال يكاد يكون متواصلا . وفيما وراء ذلك جنوبا كانت تنتشر قبائل زنجية وثنية حتى منطقة البحيرات ، وحتى حدود الحبشة . وكان محمد على ينظر الى هذه التركيبات البشرية نظرة جديدة ، اذ رأى فيها عمقا بشريا لمصر يمكن أن يزودها بالقوة البشرية المقاتلة التى تحتاجها البلاد فى حالة تجنب حكومة محمد على تجنيد شباب مصر فى الجيش . ولقد كان محمد على يخطط فعلا للابقاء على المصرى فى حقله للزراعة او فى السخرة فى شق القنوات والترع وغير ذلك من الاصلاحات الاقتصادية . كان محمد على يرى ان جمع الشباب من جنود السودان وتدريبهم عسكريا كفيل بأن يمكنه من انشاء جيش جديد لا يعرف من سيد له

سوى محمد على ومصر وطنا له . ولقد شجع « محمد على » على ذلك ما اشتهر به السودانى من سرعة ودقة فى تنفيذ الأوامر والتعلم والوفاء والولاء .

كان هناك العديد من الاسباب الأخرى التى ادت الى فتح السودان وعلى راسها تشكيل المماليك — الذين فروا من مصر الى السودان — خطرا على امن حدود مصر الجنوبية هذا فضلا عما تردد من وجود مناجم ذهب وفيرة فى السودان .

وعلى اى حال ، بعث محمد على بقواته من الباني وارناءوط وغيرهم لفتح السودان وتم له السيطرة على معظم البلاد بعد معارك عديدة . واخذ محمد على يبعث برسائله بالتعجيل فى جمع الشباب من جنوب السودان وارساله الى مصر . وفعلا توالت قوافل الشباب من السودان على مصر ، وارسلوا الى مراكز التدريب . ولكن سرعان ما اكتشف محمد على ورجاله انها محاولة فاشلة لتكوين جيش لمصر من هؤلاء السودانيين .

ولم يمض وقت طويل حتى تخلى محمد على عن هذه التجربة ، وانتقل الى السبيل القويم الطبيعى وهو تجنيد الشباب المصرى . وفعلا نجحت التجربة — رغم المقاومة والمتاعب — وتشكل جيش مصرى حديث ، فكان اول جيش يشكل على النظام الحديث فى الشرق الأوسط .

ولكن محمد على ، وهو يشكل هذا الجيش ، اتخذ حذره من هذا الجيش الوطنى ، فقصر القيادات العليا على الاتراك والعناصر غير المصرية ، ومنع ترقية اى ضابط مصرى الا الى رتبة اليوزباشى فقط لأن محمد على كان يعتقد — وقد اثبتت التطورات صحة معتقده — انه اذا ما تولى مصرى القيادة العسكرية العليا فلن يتوان عن طرد اسرة محمد على من الحكم .

ولقد كان حدس محمد على صائبا ، حيث ان احمد عرابى كان اول مصرى يرقى الى رتبة اميرالاى . وهو الزعيم المصرى الذى قاد ثورة ١٨٨١ ضد الاستبداد الخديوى وضد التسلط الأجنبى ، وضد تمييز الضابط التركى أو الشركسى عن صنوه المصرى .

لقد اثبت الجيش المصرى مقدرة عالية الكفاءة فى معارك حرب المورة (اليونان) ، وخلال حروب الشام فى الفترة الواقعة بين ١٨٣١ ، ١٨٤٠ ،

وظهر الجيش المصرى بمظهر حضارى وقتالى عالى المستوى . ومنذ ذلك التاريخ والجيش المصرى يلعب داخل المجتمع المصرى دورا حضاريا نظرا لما كان عليه الجيش من فرص أكبر فى تلقى وممارسة الأساليب الحضارية الحديثة عن المواطنين المدنيين وذلك خلال فترة حكم محمد على بصفة خاصة .

(٣)
حرب المورة

لمصر مكانة خاصة فى المنطقة ، وبالنسبة للعالم ، وليس قولنا هذا من قبيل الشوفينية الوطنية ولكن من قبيل احقاق الحق ، واعطاء كل شعب ولكل دولة فى المنطقة المكانة التى كونتها لنفسها فعلا وليس التى يكونها لها ذوو الحناجر العالية والعبارات المفخمة .

فمصر هى أول من تلقى الضربة الأولى (الحملة الفرنسية) ، وهى أول من انطلق نحو التحديث (بناء مصر الحديثة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر) وهى أول من خاضت حروبا فى أوربا ، طبعا باستثناء الدولة العثمانية ، وهى أول من تحالفت ضدها الدول الكبرى الأوربية بل تحالفت ضدها الدول الكبرى مرتين فى قرن واحد وثالثة فى منتصف القرن العشرين .

فقد تحالفت الدول الكبرى الأوربية ضد مصر ١٨٤٠ ، وفى ١٨٨١ ، وفى ١٩٥٦ ولم يكن لأية دولة عربية أو اسلامية مثل هذه المواقف الدولية لأن دور الدول الأخرى فى المنطقة ومكانتها كانت أقل من مكانة مصر .

ثم ان مصر تحملت فى مطلع القرن التاسع عشر مسئولية الدفاع عن المشرق العربى ، فضلا عن الدولة العثمانية ، ولم يكن لأى شعب فى المنطقة من العراق شرقا حتى المغرب غربا شرف تحمل مسئولية من هذه المسئوليات .

فعندما هددت ايران (فارس) العراق ، وشنت حملة عسكرية ضد العراق فى ١٨٢٠ تقدمت القوات الفارسية فى مواجهة مقاومة ضعيفة داخل العراق واستطاعت أن تصل حتى بغداد وبدأت فى حصارها .. وهنا استنجد السلطان العثمانى محمود الثانى بمصر طالبا ارسال قواتها لانقاذ العراق من الفرس . وجاء هذا الطلب فى وقت لم تكن فيه مصر قد بدأت مشروعها لتحديث ادارتها وقواتها المسلحة ، الأمر الذى جعل محمد على يتخلص من هذه

المسئولية حتى يستعد استعدادا مناسبا ، ولما استكمل محمد على بناء الجيش والأسطول أو كاد ، لبى نداء السلطان العثمانى لتوجيه ضربة ضد الثوار اليونانيين الذين كانوا يعملون على فرض ارادتهم على الدولة العثمانية لبناء دولتهم القومية ولكن بطريقة صليبية .

استخدم محمد على جيشه واسطوله المكونين حديثا أول ما استخدمهما فيما عرف بثورة المورة (اليونان) . وقد كانت تحت السيطرة العثمانية منذ أربعة قرون . فقد تحركت المشاعر القومية اليونانية وتصاعدت بدعم من الدول الكبرى المعادية للدولة العثمانية ، وقامت ثورة عنيفة فى اليونان وخسر العثمانيون أكثر من معركة فاتجهوا الى الاستعانة بمصر فلبى محمد على الدعوة ، وكان قد انجز حينذاك اعداد جيش من المصريين مجهز بالأساليب والمعدات الحديثة .

وهناك عدة أسباب دفعت محمد على الى تلبية نداء السلطان العثمانى لاخضاع ثورة المورة ، وعلى رأس هذه الأسباب :

١ — ان الثورة اليونانية تهدد الدولة العثمانية وأى تهديد لها هو فى نفس الوقت تهديد للعالم الاسلامى ، وتدهور الدولة العثمانية يعنى تدهورا عاما بين المسلمين لا يمكن أن يعرف مداه . ومن ثم فان مصر ، وهى ولاية عثمانية ، مسئولة عن تلبية دعوة السلطان للمشاركة فى الدفاع عن الدولة العثمانية .

٢ — كان محمد على يعتقد أن الدولة العثمانية تعانى من مرض الشيخوخة ، ولقد كانت فعلا الدول الأوربية تتحدث عن « الرجل المريض » أى الدولة العثمانية المتداعية ، وكان يرى أن من مسئولياته أن يواجه التطور بالتركيز على انقاذ مصر والشام وما يمكن انقاذه من البلاد العربية . وكان معتقدا تماما ان الأساليب التى تقنع أوربا بالتخلى عن مشروعاتها الاستعمارية ضد هذه المنطقة تعتمد على :

(أ) النمو الحضارى الحديث .

(ب) القوة العسكرية القادرة على صد العدوان .

(جـ) وضع امكانيات المنطقة كلها البشرية والاقتصادية فى خدمة هذا المشروع الدفاعى .

٣ — كان محمد على يريد أن يفرض نفسه على أوربا وعلى السلطان ، ويحصل على حكم كيان مستقل معترف به (مصر) ويضمن سلامة المنطقة من

اى عدوان ، ومن هنا كان مستعدا للتفاهم مع كافة القوى : روسيا وفرنسا وبريطانيا ، ولكنها — على ما هو معروف عبر التاريخ — كانت قوى كبرى متنافسة الى حد التناحر الدموى المرير الطويل ، ولا تتورع عن تسوية ما بينها من مشكلات على حساب الآخرين . وخاصة على حساب الدولة العثمانية اذا كان الصراع متعلقا أو يتصل بشكل ما بهذه الدولة ومثل هذا الاجراء التعسفى كان يلقى ترحيبا من الشعوب الأوربية ».

وأرسل محمد على الجيش والأسطول المصرى الى اليونان ، وخاض معارك كبيرة ضد الثوار اليونانيين الذين كانت تدعمهم معظم الدول الكبرى الأوربية ، وخاصة روسيا وفرنسا وانجلترا ».

وكان موقف الجيش المصرى من المقاتلين اليونانيين موقفا كريما ، موقف المقاتل ، بعكس الحال الذى كان عليه بين الأتراك واليونانيين ، وكان خلال محادثاته مع الأوربيين فى صدد الثورة اليونانية لا يبدى عداوة لليونانيين بقدر ما كان يبديه من قلق شديد من جانب الدول الكبرى الأوربية ».

وخلال العمليات الحربية فى اليونان ظهر الجيش المصرى بمظهر حضارى لم يكن يتوقعه الأصدقاء ولا الأعداء . فلم تحدث الاعتداءات التقليدية على الأعراض أو على الممتلكات . تلك الاعتداءات التى كانت تقدم عليها القوات العثمانية وغيرها من القوات فى منطقة الشرق الأوسط . بل كان من يقدم من المقاتلين المصريين على أى عمل من هذه الأعمال الشنيعة يحاكم وأحيانا يعدم ».

وعلى أى حال تضافرت الدول الكبرى ضد مصر فى اليونان ، وبعثت الدول الكبرى (انجلترا وفرنسا وروسيا) بأساطيلها الى المياه اليونانية ، وتحرشت بالأسطول المصرى وانقضت عليه دون سابق انذار فأغرقت معظمه فى موقعة نوارين البحرية (١٨٢٧) الأمر الذى أقنع محمد على أن لا جدوى من استمرار وجود قواته فى اليونان ، فقرر سحب قواته منها فغضب عليه السلطان العثمانى ».

لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تتحالف فيها الدول الكبرى ضد دولة عربية أو اسلامية ، وسيتكرر هذا فى اكثر من مرة ، حيث وقفت معظم الدول الكبرى ضد مصر فى ١٨٣٩ — ١٨٤٠ ، ثم خلال الثورة العرابية (١٨٨١ — ١٨٨٢) ثم خلال ثورة ١٩١٩ وكذلك عندما وقع العدوان الثلاثى على مصر .

وهذا ما لم يحدث لأية دولة عربية أخرى الأمر الذى يؤكد مدى ما تعنية نهضة مصرية فى أعين الدول الكبرى الطامعة فى مصر وفى المنطقة .

(٤)
مصر وضم الشام

بعد أزمة الحرب اليونانية اتجه محمد على بقوة نحو تثبيت حكمة والحفاظ على كيان مصر ومنع اتخاذ المناطق المجاورة لها قواعد للوثوب عليها . وكانت الدولة العثمانية تتربص به وتسعى الى استمادة سيطرتها المباشرة على مصر وعلى ما أصبح تحت يدها ما أمكنها ذلك .

وهنا نتساءل : أيهما كان أبعد نظرا عند تحقيق أمن وسلامة مصر والمنطقة المحيطة بها ويحوض البحر المتوسط وخاصة الجزء الشرقى منه ، أهى مصر الفتية أم الدولة العثمانية المتداعية .

لقد كانت مصر — حينذاك — هى الاقدر على الدفاع عن المنطقة وعلى تطويرها بما يرفعها الى المكانة اللائقة بها فى ذلك الوقت ، ولكن السلطان العثمانى كان يرى أن العصر حينذاك هو عصر الدول الكبرى ، وان دولة كبرى فى الشرق هى الأقدر على مواجهة أطماع الدول الكبرى الأوربية . وقد تشبث كل من السلطان ومحمد على برأيه فوقعت الدولتان فى هوة الخلاف والمواجهة العسكرية .

كان محمد على منذ أن تولى حكم مصر يقدر القيمة الكبرى للشام بالنسبة لمصر ومصر بالنسبة للشام . وكثير من المؤلفات تتناول موضوع العلاقات بين مصر والشام من زوايا مختلفة ، بعضها جيولوتيكى ، والبعض الآخر قومى وحدوى ، عام أو اقليمى ، وبعضها استراتيجى عسكرى ، ... الخ من الزوايا الأمر الذى يدل على أن موضوع العلاقات بين مصر والشام من الموضوعات المعقدة فعلا عبر التاريخ ، وليس خلال التاريخ الحديث والمعاصر فقط .

اننا لا نستبعد أى عامل من تلك العوامل التى تجعل لمصر كلمة فى مصير الشام ، وذلك لأن الشام عبر العصور كان منطقة مفككة موزعة بين العديد من العصبيات المحلية المتنافرة ، ومعرضة لأطماع العديد من القوى المجاورة أو البعيدة الأمر الذى يضع مصر فى موقف حرج ويعرض أمنها وسلامتها لأخطاء

شديدة تهدد كيانها . وهذا يفسر لنا لماذا كانت منطقة الشام تحت سيطرة مصر كلما قامت فى مصر حكومة قوية بصيرة بمصالحها وبمصالح الشام نفسه أو على الأقل كانت هناك كلمة مسموعة مصرية فى الشام .

لقد جاءت من البوابة الشمالية الشامية أعاصير عاتية هبت على مصر ، وكان ضعف الشام سببا فى أن تنطلق القوى الطامعة الى الشام ومنها الى مصر .

والهكسوس والأشوريون والفرس والاغريق والرومان ، هبطوا مصر من بوابتها الشمالية الشامية واحتلوا البلاد .

وجاء العرب من الشام كذلك (فلسطين) وهدد الصليبيون مصر طوال وجودهم فى الشام واندفع المغول حتى ردوا فى عين جالوت ، وهبط العثمانيون الى مصر عبر الشام ، وحاول الأتراك مرة أخرى السيطرة على مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

ونظرا لأن مصر كانت واقعة تحت الاحتلال البريطانى تفتحت أبواب فلسطين الهجرات الهيودية ، حتى حصل اليهود على تصريح بلفور ، ونجح اليهود فى توسيع رقعة مستعمراتهم والبلاد العربية الأخرى غير قادرة على أن تفعل شيئا مجديا حتى قامت اسرائيل فى ١٩٤٨ واذا بمصر تتعرض لعدوان اسرائيلى فى ١٩٥٦ ثم فى ١٩٦٧ .

ومعنى هذا كله أن بوابة مصر الشمالية الشامية من أخطر البوابات التى تهدد أمن وسلامة مصر . وأنه فى غياب الدور المصرى لا تستطيع الدول الأخرى الاسلامية (مثل الدولة العثمانية) أو العربية مثل الدول المحيطة بالشام أو القائمة فيه ، أنه فى غياب الدور المصرى لا تستطيع هذه الدول أن تقوم بدور ايجابى .

نريد أن نقول من وراء كل هذا أن سياسة مصر نحو الشام تمليها دواعى الأمن والوجود ليس لمصر ولكن للمنطقة .

ونلاحظ من ناحية أخرى أنه كلما ظهرت فى مصر شخصية بارزة ، أو قامت فى مصر حركة قوية ترددت أصداؤها فى الشام وتطلعت أعين زعمائه الى الارتباط بها .

ولقد وحدت بين مصر والشام آلام محنة الحملة الفرنسية فى مطلع القرن التاسع عشر : فلقد كان الشام ملجأ الوطنيين الذين فروا من مصر أمام سيف الاستعمار النابوليونى . وهناك عاش الزعيم المصرى « عمر مكرم » فترة من النفى حتى عاد الى مصر ، وخنجر سليمان الحلبى انقذ مصر من كليبر ، ذلك القائد الفرنسى الذى كان بوسعه أن يطيل أمد الوجود الاستعمارى الفرنسى فى مصر .

وخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر كان الشام مسرحا لصراعات متواصلة بين حكامه العديدين : صراع متواصل بين حكام دمشق وحكام صيدا (وعكا) وآل شهاب وغيرهم .

فوضى عارمة ضربت أطنابها فى الشام من اقصى شماله من حلب الى اقصى جنوبه عند ولاية عكا . واشتد ساعد محمد على خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر . وتطلع الى الشام ، وتطلعت زعامات الشام اليه .

وهناك عدة أسباب رئيسية اقنعت ودفعت محمد على الى السيطرة على الشام بعد حروب المورة . فقد كانت حرب المورة ونتائجها بداية القطيعة بين محمد على والسلطان ، فلقد بذل محمد على الكثير من الأموال ، وفقد أسطوله والعديد من كتائبه المدربة التى كلفته مبالغ باهظة . بل لقد طالبه السلطان بأن يبعث بقوات مصر لقتال الجيش الروسى الذى كان يتقدم فى البلاد العثمانية . ولكن محمد على الذى وجد الدولة العثمانية غير مستعدة لتعويضه عن خسائره الباهظة آثر أن يقبع فى دولته وأن لا يمد يد المساعدة للدولة العثمانية ضد روسيا .

كان محمد على قد رضى بأن يبعث حملته الى المورة فى مقابل اسناد حكم الشام اليه . ولكن بعد حرب المورة رفضت الدولة العثمانية منحه باشوية الشام فقرر محمد على ان يحقق هدفه بنفسه دون انتظار لموافقة من السلطان لن تصدر الا تحت الضغط القوى .

ومن الناحية الاقتصادية كان التكامل بين مصر والشام اقتصاديا كفيلا بان يرفع مستويات القطرين الى درجة عالية فضلا عن حماية المنطقة كلها من تدفق التجارة الأجنبية على البلاد . هذا فضلا عما كان يتوقعه محمد على من استغلال مناجم وأخشاب الشام .

ومن الناحية الاستراتيجية كان الشــام مع مصر يمثلان قـوة رادعة للغزاة من الناحية العثمانية أو الناحية الأوربية .

فى نفس تلك الفترة تطلع حكـام الشــام الى مصر الغنية لحـل مشــكلاتهم فقد كان لمحمــد على دور كبير فى عــودة عبد الله باشــا الى حكمة لولاية عكــا (صــيدا) ، وكذلك بالنسـبة لبشــير الشــهابى الثانى حــاكم جبــل لبنــان . بــل لقد كان بشــير الشــهابى يحث محمــد على على ضــم الشــام ويقــدم له الاغراءات ، ويحدثه عن فرســان ومقاتلى جبــل لبنــان الذين ســيجعلون الأمور ممهدة للقوات المصرية عندما تتقدم فى الشــام .

زحفت القوات المصرية على الشــام ، واســتولت على المنــاطق الجنوبيــة لفلســطين ثم حاصرت عكــا ، وكان لعكا شــهرة كبيرة عندما نجحت فى مقــاومة حصار الفرنسيين لها بقيادة نابوليون بونابرت ، وكانت عكــا سببا فى أن يتخلى عن كافة مشروعاته فى الشــام .

ولكن اســتطاعت القوات المصرية أن تنزل الهزائم بالقوات العثمانية ، وأن تســتولى على عكا ، وأن تنطلق زاحفــة حتى أصبحت ، ليس فقط الشــام فى قبضــة المصريين ، وانما معظم تركيــا نفسها (١٨٣١ — ١٨٣٣) .

ولابراز ثقل مصر فى مطلع القــرن التاســع عشر يجدر بنــا أن نلقى ضــوءا على أثر التوســع المصرى فى الشــام على العراق الذى كان هو الآخر تحت الحكم العثمــانى المبــاشر .

فقد عبــا العثمانيون قواتهم فى العــراق ، ولكنهم كانوا فى حاجة الى تعبئــة قوات عراقية ، ولذلك اســتخدموا الزعامات الدينية الاســلامية العراقيــة ضــد مصر . ومن ذلك قيــام العــالم الاسلامى الكبير بحملة دعاية واسعة النطاق ضــد مصر ســواء فى العراق أو شــبه الجزيرة العربيــة . وكان جوهر دعايته هو أن محمــد على أوقــع الفرقة بين المسلمين ، وأن كــل البــلاد الاســلامية يجب أن تظل خاضــعة للســلطان العثمانى حفاظا على وحــدة المسلمين الممثلة فى الدولة العثمانية ، ولكن لم يحدث تحرك من العراق ضــد مصر ، بمعنى أنه لم تكن هنــاك اســتجابة للدعاية العثمانية . وعلى العكس وقعت تحركات قوية فى العراق تؤيد مصر ضــد الدولة العثمانية .

فقد هيأت الانتصارات المصرية فى الشام بغداد للقيام بالثورة ضد الحكم العثمانى المكروه هناك . وقد اشتعلت فعلا الثورة فى بغداد فى ١٨٣٢ ولكن أخمدتها القوات العثمانية بقسوة .

وفى الشمال ، فى امارة كردية قوية قامت حركة مؤيدة لمصر تزعمها ميركوز أمير راوندوز وكذلك فى الموصل ، انقض عليها يحيى الجليلى واستولى عليها معلنا ولاءه لمصر .

وهكذا كانت فى العراق حركة كبيرة تؤيد مصر ، ولكن لا تدعمها دعما مباشرا . واستطاعت القوات العثمانية أن تقضى على هذه الحركات ، وأن تسيطر على العراق وتجعله قاعدة لضرب الوجود المصرى فى الشام .

ومن مظاهر استخدام العراق قاعدة لضرب الوجود المصرى فى الشام تعاون العثمانيين مع الانجليز فى أنزال قوة بحرية بريطانية فى نهر الفرات وفعلا سمحت السلطات العثمانية لسفن بريطانية مسلحة بالمرابطة فى نهر الفرات لمنع اى اتصال بين العراقيين والمصريين .

اما فى الشام ، فقد تمكنت السلطات العثمانية وعملاء بريطانيا من اثارة العصبيات المحلية هناك ضد الادارة المصرية . فقد قام الدروز بثورة متطاولة دموية ضد الحكم المصرى وثارت عناصر محلية أخرى . واستعدت الدولة العثمانية عسكريا لخوض معركة أخرى ضد مصر على أمل هزيمتها واستعادة سيطرتها على الشام وعلى مصر ان أمكن .

حاولت السلطات المصرية قدر استطاعتها ان تخمد الثورات فى الشام ، ولكن دون جدوى . وخلال ذلك كانت الدولة العثمانية قد حشدت قواتها على الضفة الشرقية للفرات ثم عبرته الى الضفة الغربية وفرضت على المصريين القتال ، فدارت معركة نزيب (١٨٣٩) . وفيها فقدت الدولة العثمانية جيشها ، كما استسلم اسطولها للاسكندرية . وهنا تدخلت الدول الكبرى ضد مصر .

عقدت بريطانيا مؤتمرا فى لندن اثمر نوعا من التحالف الدولى ضد مصر اذ ضم فى اول الأمر الى جانب انجلترا كلا من روسيا والنمسا وبروسيا ، ثم انضمت اليه بعد ذلك فرنسا .

وتضافرت الثورات الدرزية والمارونية مع المؤامرات فى الشام مع التحالف الدولى على خروج مصر من الشام ومن شبه الجزيرة العربية .

من كل هذا يتبين لنا أن مصر ظهرت بمظهر لا يضارعها فيه أى شعب او دولة شرقية أخرى ، أو بمعنى آخر كان ثقل مصر فى المنطقة اقوى من أية دولة أخرى .

الفصل الثانى

تاريخ مصر السياسى والاجتماعى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

كان محمد على واعيا الى حد كبير جدا الى مخاطر الاطماع الاستعمارية الأوربية ، وكم من مشروع عرض عليه ولكن تجنبه حفاظا على مصر واستقلالها . ففكرة شق قناة تربط بين البحرين عرضت عليه ، وعرض عليه مد خطوط سريعة للمواصلات بين السويس والاسكندرية ، ولكنه تجنب الموافقة على مثل هذه المشروعات الكبيرة الأوربية .

كذلك وجه محمد على انظار المسئولين فى حكومته الى أن يعملوا على منع تدفق البضائع الأجنبية على مصر والشام منعا من تسرب العملة الذهبية والفضية الى خارج البلاد الأمر الذى يعرضها لأزمات اقتصادية شديدة .

وطبق محمد على نظام الاحتكار ، بمعنى ان الدولة هى المتحكمة فى عمليات التجارة الداخلية والخارجية ، ومن ثم كان من المستحيل على أية قوة اقتصادية ان تشق طريقها الى داخل البلاد أو تتحكم فى سياستها التجارية الخارجية . الأمر الذى جعل بريطانيا — ذات المصلحة الواسعة فى فتح أسواق جديدة لها لتصريف بضائعها والتعامل مع مجالات اقتصادية بكر — تعمل على القضاء بطريقة أو بأخرى على نظام الاحتكار ولذلك عقدت مع الباب العالى العثمانى معاهدة فى ١٨٣٨ عرفت باسم معاهدة بالطة ليمان .

كانت هذه المعاهدة تعطى لبريطانيا حق الاتصال المباشر بين رعايا بريطانيا وأفراد الشعب فى الدولة العثمانية — وكانت مصر جزءا من هذه الدول — والتعامل معهم تجاريا الأمر الذى يقضى تماما على نظام الاحتكار .

حقيقة قاوم محمد على فى حياته تطبيق معاهدة بالطة ليمان على مصر ، ولكن اضطرت حكومة مصر من بعده أن تذعن وان تفتح مصر أبوابها أمام التجار الانجليز وغير الانجليز من الأوربيين .

واخذت البيوت التجارية ترسل مندوبيها الى مصر ، واصبحت قبلة العديد من المغامرين التجاريين ، وبمرور الوقت ، وبمجيء الخديو اسماعيل الى الحكم (١٨٦٣) وايمانه بتحويل مصر الى دولة حديثة على الطريقة الأوربية ، تفتحت ابواب مصر امام الأجانب فى معظم النواحى الاقتصادية العسكرية والفكرية والسياسية .

وقد وجد الأجانب فى الشوام المقيمين فى مصر او الذين وفدوا عليها اداة مناسبة لتحقيق نشاط ابتزازى اقتصادى لمصر ، فقد افاد الأجانب من خبرة الشوام فى التعامل مع الشعب المصرى وفى التصدير والاستيراد وحصل الطرفان من وراء ذلك على مكاسب باهظة .

ومما ساعد الأجانب على استغلال الشعب المصرى ان الأسرة الحاكمة فى مصر كانت مقتنعة بقيمة فتح البلاد امام الدول الأوربية ، وكانت هذه الأسرة تحكم حكما مطلقا يدعمها وينفذ سياستها « صفوة » مقربة . وهذا يتطلب منا القاء نظرة على الصفوة الحاكمة .

كان محمد على معنيا بأن تصبح أسرته ذات قوة اقتصادية ، ولذلك وزع على افرادها « الشفالك » وكان كل شفلك يحتوى على الوف الأفدنة من أجود اراضى مصر .

اما وقد وضعت تحت افراد الأسرة الحاكمة مثل هذه المصادر الاقتصادية ، فانهم استطاعوا من بعد توسيع نطاقها والاضافة اليها .



وبنمو الدولة كان (البلاط العلوى) ينمو ويتسع ويزداد عدد افراده ويحصل هؤلاء على هبات وأراضى ويشترون المزيد من الأراضى .

ولقد أسرف بعض الحكام من اسرة محمد على فى شراء الأراضى ، ونعنى بذلك الخديو اسماعيل الذى اشترى من اموال البلاد اراضى شاسعة لنفسه ، حتى لقد بلغت مساحة الأراضى المملوكة للأسرة الحاكمة حوالى ٢٠ ٪ من مساحة الأرض المزروعة فى مصر .

وكان من سياسة حكومة محمد على وخلفائه منح كبار رجال الدولة فى

مختلف الجوانب قطعا من الأراضى الأمر الذى جعل القاعدة فى مصر هى الملكية الواسعة . وهؤلاء الذين هم أصحاب الملكيات الواسعة كانوا يشكلون فى نفس الوقت الشطر الأكبر من الصفوة الحاكمة .

وكانت هذه الصفوة الحاكمة تضم أصحاب الوظائف العليا فى الدواوين ، وفى المديريات والقيادات العسكرية .

والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الصفوة كانت من أصول تركية أو شركسية ومن الأكراد وغير ذلك من العناصر غير المصرية ، وقلة قليلة جدا هى التى كانت من أصول مصرية مثل على مبارك .

ويقول المؤرخ الالمانى شولش فى هذا الصدد :

« كان الوصول الى مراكز السلطة يتحدد بالأصل العرقى والروابط الشخصية والعلاقات مع الأسرة الحاكمة . اما المصريون ، فكانوا يمثلون استثناء ، وكان نشاطهم مقصورا على فرع واحد من فروع الادارة ، وهو ذلك الذى يرى الخديو ان لديهم مهارة خاصة فيه » (١) .

ولقد ذهب البروفسور شولش الى القول بأن المثقفين المصريين كانوا « يلعبون دور الخبراء والفنيين فى الادارة ، بينما كانت المناصب الخاصة بصنع القرار بيد الأتراك والشراكسة » (٢) .

والواقع أن هذا كان تطورا طبيعيا من حيث أن محمد على حين بدأ بناء مصر الحديثة اعتمد على العناصر القريبة منه ، وكانت عناصر تركية وشركسية وارسل البعثات وفتح المدارس ، وما كان للمصرى ان — ينتقل الى مستوى أعلى الا بعد فترة طويلة حتى اذا ما تعلمت طائفة من المصريين فى المدارس وحصلت على الأجازة وعملت فى الحكومة بدأ يظهر ما يمكن أن نسميه (طائفة الأفندية) وهى التى كانت تلى (طائفة الأعيان) . والأفندية هم الذين تحملوا مسئولية بناء الادارة والجيش والثقافة على اسس حديثة ، ولكن من زاوية القدرة على التنفيذ وليس من منطلق الحكم أو التوجيه.

(١) د . الكسندر شولش ، مصر للمصريين . أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ — ١٨٨٢ تعريب د . رءوف عباس حامد . ، الناشر دار الثقافة العربية — القاهرة . بدون تاريخ ص ٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

ولقد كانت أمام المصريين فرص لتولى القيادات العليا فى وقت مبكر عما حدث .

فقد فتح سعيد باشا باب الترقى أمام الضباط المصريين ، واسند الى العديد من المصريين مناصب ادارية عالية ، ولكن لم يستمر المصريون فى مناصبهم تلك الا لفترة محدودة . فقد آثرت العائلات المصرية أن تدفع البدلية ليعفى ابناؤها من الخدمة العسكرية ، الأمر الذى أعطى للعناصر غير المصرية وخاصة التركية والشركسية فرصا أوسع لتولى المراكز القيادية فى الجيش .

وزاد من ضعف الدور القيادى المصرى فى الجيش ان الخديو اسماعيل عمل على تحديث الجيش باستقدام الخبراء العسكريين الأوربيين واسناد المناصب القيادية لهم . فكثر هؤلاء بشكل واضح ، وكانوا من مختلف الجنسيات انجليز وفرنسيين وسويسريين وأمريكيين وغيرهم . حتى أن الحملة التى ارسلت الى جنوب السودان لمنع تجارة الرقيق اسندت الى مبشر انجليزى هو صموئيل بيكر .

اما المصريون فقد كانوا يتولون مناصب من الدرجة العالية فى المجال الدينى مثل مشيخة الأزهر ومناصب اخرى دينية ، كما كان كبار رجال الطرق الصوفية من المصريين . وكان كبار رجال الدين والطرق الصوفية من كبار الملاك ايضا ، فضلا عن توليتهم نظارة الأوقاف .

وبصفة عامة ملأ المصريون الوظائف والأعمال غير القيادية كموظفين فى الدواوين والادارات والمدارس وضباط صغار فى الجيش ، فضلا عن توليهم مناصب العمدية ومشيخة البلد فى القرى ، والأعمال التجارية .

ومن تحت كل هؤلاء كانت القاعدة العامة من الفلاحين واصحاب الحرف البسيطة فى المدينة .

والفلاحون كانوا يعيشون نفس الأساليب والمستوى الذى كانوا عليه من قبل ، والغالبية العظمى تعمل لدى المالك فى مستوى اجتماعى مقبول ولكن مستوى اقتصادى منحط فالأسرة متضامنة الأب والأم والأولاد فى العمل من اجل لقمة العيش بكل جد ولكن بعائد ضعيف جدا ، وبمستوى ثقافى منهار لا

يحفظه من الزوال الا الايمان بالله واليوم الآخر وما يتطلب ذلك من صلاة يومية وحفظ لبعض آيات القرآن الكريم وسماعه فى المناسبات وسماع لبعض القصص والأناشيد فى الموالد والأفراح . ويدعون الله صباح مساء أن يخفف عنهم أعمال السخرة التى تزايدت فى عهد اسماعيل .

فقد كانت أعمال السخرة تتزايد زيادة طردية مع عمليات بناء الدولة الحديثة والتوسع فى المشروعات الاقتصادية ، وخاصة فى نظام الرى ومشروعات حفر الترع وصيانة الجسور وفوق هذا وذاك حفر قناة السويس . هذا فضلا عن تجنيد عشرات الالوف فى الجيش ومن كان يجند لا يعود الا نادرا والا بعد سنوات طويلة وخاصة اذا ما كان ضمن حملة الى القرم ، او الى المكسيك أو الى جنوب السودان أو الى قتال الحبشة .

وكانت هذه الحملات التى خرجت من مصر فى الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر .

حقيقة تعرض الفلاح المصرى فى ايام محمد على لأعباء ضخمة فى مختلف المجالات ، ولكن فى نفس الوقت بدأ يحصل على مكاسب اقتصادية واجتماعية هامة . واستقر كل فلاح فى قطعة ارض صغيرة يفلحها وينتج منها للحكومة الأكثر ولنفسه وما يسد رمقه ، منتفعا بالأرض دون أن يكون له (ملكية رقبة) . وحددت الضريبة على الأرض . وكانت مساحتها للأسرة الواحدة صغيرة لا تتجاوز الأفدنة الخمسة فى الأغلب الأعم ومجرد الاستقرار فى قطعة ارض دون ملتزم كان كفيلا بأن يمهد الطريق امامه لكى يصبح مالكا يوما ما قرب او بعد .

وكانت القرى فى حاجة الى من يشرف على امورها وكان المشايخ هم اقرب الناس الى هذه المهمة ، ولذلك اعطاهم محمد على تشجيعا على مهمتهم هذه ارضا عرفت باسم (مسموح المشايخ) مقابل ما يقومون به من خدمات للفلاح والحكومة ، كما منح لوجهاء البلد ارضا عرفت باسم (مسموح المصاطب) مقابل ما يقدمونه من خدمات اجتماعية . وكانت هذه الأراضى بحق الانتفاع وليس بحق الرقبة ، ولكن الاستقرار فيها مهد للملكية الفردية .

ومنح محمد على كبار رجال الدولة الابعديات ، وقد حصل عليها ايضا شيوخ القبائل البدوية وقلة قليلة جدا من الأجانب ، واعطى اصحاب

الابعديات حق البيع والرهن والتنازل وبالتالى حق التصرف وان ظلت ملكية منفعة لا رقبة الا ان ذلك كان اقرب الى ملكية الرقبة من المنفعة فقط .

اما الشفالك التى كانت بيد اسرة محمد على فقد تمتع أصحابها بملكية الرقبة اذ كانت لهم حقوق التصرف فيها وان لم يقنن ذلك صراحة ، فلم ينص على انها ملكية رقبة .

وبدات مسيرة حق الملكية تتخذ شكلا قانونيا ابتداء من لائحة صدرت فى ١٨٤٧ اذ اعطت الفلاح حق الرهن والتنازل ، ثم صدرت لائحة اخرى فى ١٨٥٨ اعطته حق توريثها للابن الارشد بشرط ان تكون الأسرة كلها فى معيشة واحدة وحصل على حق رهن الأرض . واصبحت فى يده بعد ذلك (حجة) بأرضه تثبت حيازته لها رسميا . وطبقت هذه اللوائح على أراضى الفلاحين وغيرهم ممن كان فى حيازتهم ارض واسعة او محدودة . فلما جاءت الأزمة المالية ورات الحكومة ان تحصل على اموال فرضت لائحة المقابلة فى ١٨٧١ التى تقضى بأن يدفع المنتفع من الأرض الضرائب لعدة سنوات مسبقا لتصبح الارض ملكية خالصة له . فدفع اكثر المنتفقين ، فاصبحت امور الملكية اكثر استقرارا حتى صدر قانون تثبيت ملكية حائز الارض فى ١٨٩١ وفى ١٨٩٤ .

لقد ادت تلك التطورات الى النتائج الرئيسية التالية :

١ — اصبحت حركة بيع وشراء الأرض نشطة فارتفع سعرها (٥)

٢ — اقبال الشرائح المتوسطة من اهل المدينة على شراء الأراضى الزراعية مثل التجار والموظفين .

٣ — توسيع الأعيان من حيازاتهم بالشراء فتصاعدت اعداد كبار الملاك . واتسعت بذلك شريحة الملاك المتوسطين .

٤ — انطلاق المرابين فرادى وجماعات على هيئة شركات لتقديم القروض الى الملاك بضمان أراضيهم ومن عجز عن السداد فقد ارضه لصالحهم ، كان اغلب المرابين من الشوام واليونانيين والأقباط واليهود .

٥ — أصبحت الفرصة سانحة للمشايخ والعمد لتوسيع ملكيات على حساب الفلاحين بالشراء وبالضغط . كما وضعوا أيديهم على مساحات كبيرة من الاراضى المملوكة للدولة .

٦ ـ حازت الأسرة الحاكمة مساحات شاسعة جدا من الأراضى حتى أصبح ربع أراضى مصر الزراعية ملكا لهم .

٧ ـ ظلت أعداد كبيرة جدا من الفلاحين لا أرض لها وتعمل بالأجرة (تراحيل) الأمر الذي كان يشكل سبة فى جبين المجتمع لما كانوا عليه من فاقة شديدة اذ كان الفلاح يغادر أرضه للعمل فى منطقة بعيدة يسوقه (مقاول التراحيل) ولا يقدم له اية خدمات وانما يعيش على (الجبنة الحادقة والعيش الناشف وماء الترع) .

الفصل الثالث

الثورة العرابيــــــــــة

ان الأوضــــاع الاجتماعية فى النصف الأول من القـــرن التاســـع عشر، فضلا عن التطورات السياســية والاقتصادية هى التى افرزت نظام حــكم اســتبدادى يأخــذ بنظرية التطور والتحديث .

بدأ هذا النظام بالحكم المطلق الكامل فى ايـــام محــمــد على ، ثم انشىء المجلس المخصــوص الذى كان بمثابة مجلس اســتشــارى عــال للباشـــا . ولما انشــأ اســماعيل مجلس شــورى للنواب كان أول مجلس تمثيلى لمصر ، وكان مواليــا للوالى (اســماعيل) ولا يحاســب الخديوى ورجاله ومع أنه نص على انتخـــابه النواب إلا أن عملية الانتخاب كانت صورية .

وكانت الأغلبية العظمى من النواب من أصــول تركية وشركســــية . ولم يأخــذ هــذا المجلس مكانته الا بعد وقوع الأزمة الماليـــة الكبرى أواخــر عهــد اســماعيل وعندما اســتخدمه اســماعيل فى مقاومة الوزارة الأوربية .

وقد دفع اســماعيل باشــا ثمن ذلك باهظــا اذ اعتبرته الدول الأوربيـــة الكبرى عامل عرقلة للخطط المؤدية الى تســديد مصر لديونهــا ، ونجحــوا فى عزل اســماعيل فى ١٨٧٩ . فكانت هذه التطورات كلهــا من العوامل التى مهدت للثورة العرابيـــة .

فلقد تهاونت الادارة العليــا ــ وعلى رأســها الخديو اســماعيل ــ فى حق مصر ، من حيث توريطهـــا فى أزمة ماليـــة حادة ذات طابع عالمى فتح البلاد أمام التدخل الأجنبى التسلطى :

حقيقـــة كانت القروض تنفق على مشروعات عظيمة من بينهـــا شــق قناة الســويس ، وعلى مشروعات ذات طابع تحديثى مثل الأوبرا ، ولكن لم تكن لدى اســماعيل ورجـــال الحــكومة رؤية اقتصــادية لمســتقبل مصر فى ظل الديون . فالحكومة الواعية هى التى تجنب البــلاد ويلات الطامعين والعصر حينــذاك كان عصر الرأســمالية المســتغلة . فقد كانت فى أوربا رؤوس أموال مكدســـة تبحث

عن مجـــالات للاســـتثمار . ففتح اســـماعيل لهـــا أبواب مصر ويسر مجـــالات الاستثمار ، ولكن دون تحديد لقدرات مصر على التسديد .

ورأس المال شرس حين يتمكن ، وجبـــان حين يشـــعر بالخطر ، وفى مصر تمكن منهـــا فى أيام اسـماعيل ، حيث كان وراء رأس المـــال دول طامعـــة فى مصر ففرضت هـــذه الدول على مصر نوعا من الوصـــاية عليها وذلك عندما قامت (لجنة تحقيق) أجنبية بدراســـة أحوال البلاد الاقتصـــادية على ضوء الأزمة المالية وعدم قدرة مصر على الوفاء بمسئولياتها نحو الدائنين ، واهتزت الثقة بالحكومة عندما اصـــدرت هـــذه اللجنـــة قراراتهـــا التى نعتبرها بـــداية دخـــول مصر فى دائـــرة النـــكبة .

فقد وضـــعت هذه اللجنـــة خطـــة لاصـــلاح اقتصـــاديات البلاد ، وخطـــة سياسية لاصلاح الادارة الداخلية تعتمـــد أساســـا على تقليص ســـلطة الخديو فى ادارة أمور البـــلاد ، وفرضت على الخـــديو وزارة برئاســـة نوبار (الأرمنى) ودخـــل فى عضـــويتها وزيران أحـــدهما انجليـــزى (ولســـون) والثانى فرنسى (دى بلنيير) ، وطالبت ايطاليـــا بأن يكون لهـــا هى الأخـــرى وزير ايطـــالى فى الوزارة ، ولكن دون جدوى .

ان هذا الشـــكل من توزيع الحقائب الوزارية يكشـــف بوضوح أن مســـتقبل مصر بدأ ينتقـــل من يـــد حكام مصر الى يد الأجانب ذوى الأطمـــاع المبـــاشرة فى بلادنا .

كان افلاس مصر المـــالى ، وعدم قدرة اسـماعيل على مواجهـــة الأزمة حتى لقـــد أصبح مشـــلول الفـــكر منهـــار الكيـــان ، كان كل هذا ســـببا فى أن يقبـــل اســـماعيل توصيات (لجنة التحقيق) ، ووافق على أن يتنـــازل عن حوالى ٤٠٠ ألف فدان من أملاكه وأملاك أسرته . وهذا القبول وتنفيـــذه فعـــلا ان دل عـــلى شىء فيـــدل على أن الخـــديو اســـماعيل أصبح شخصية لا وزن لها ، معترفا بأثم الفســـاد والفوضى واســـقاط الدولة فى هوة الخضوع للأجانب . حتى لقد أسند رئاســـة مجلس النظـــار (مجلس الوزراء) الى نوبار باشـــا (الأرمنى) . وقام الرجـــل بتشـــكيل وزارته على الطريقة التى يرتضيها (الدائنون) والدول الكبرى وخاصـــة تلك الطامعة فى البلاد اذ أدخل فى الوزارة وزيرين أجنبيين .

وكان اســـناد رئاســـة الوزارة الى نوبار تحـــديا ســـافرا لرجلـــين كانا

يتصارعان على اليد العليا فى البلاد ، فقد كان شريف باشا يسعى الى انقاذ ما يمكن انقاذه على الطريقة المصرية بينما كان نوبار يسعى الى انقاذ ما يمكن انقاذه على الطريقة الأوربية .

واذا كان هناك مجال للمقارنة بين الرجلين فان موقف كل منهما من مستقبل مصر يكشف عن تلك الحقيقة التى سبق أن ارسيتها :

فخلال مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذى انعقد لاعادة رسم خريطة الدولة العثمانية والبلقان بتسسوية الخلافات بين الدول الكبرى على حساب الدولة العثمانية كان نوبار يستجدى بسمارك للاستيلاء على مصر ، ويلح عليه لكى تتولى المانيا انقاذ مصر من كبوتها حتى ولو كان ذلك بسيطرة المانية على بلادنا .

أما شريف باشا فكان سياسيا محترفا ، يرى أن الادارة العليا الخديوية غير جديرة بأن تحكم البلاد ، وحيث انها مسئولة عن تدهور أمور البلاد وتعريضها للخراب فعلى الخديو أن يكون فقط مجرد رمز ملكى وأن يترك الحكم الفعلى لوزارة مسئولة أمام مجلس النواب .

كان اسماعيل يدرك أنه يواجه قوى كبيرة ، ولكنه لم يكن ليقبل أن يزاح عن مكانته بهذه السهولة التى بدا عليها ، وشرع فى استخدام أوراقه الأخيرة . فمع انه هو الذى وافق على اسناد رئاسة الوزارة الى نوبار والى ان يكون فى الوزارة وزيران أجنبيان ، فقد عمل على عرقلة أعمال هذه الوزارة حتى أصبح ذلك من الأمور الشائعة ، وخشيت الحكومة البريطانية من أن ينجح الخديو اسماعيل فى استعادة سلطانه والتحكم فى مقدرات البلاد ولذلك وجهت اليه الحكومة البريطانية خطابا هو فى حقيقة الأمر (انذار) له بالكف من عرقلة أعمال هذه الوزارة .

ومن يراجع نص الرسالة التى بعث بها اللورد سالسبرى — رئيس الوزارة البريطانية — يكتشف بسهولة كيف أصبحت مصر مسيرة فعلا من لندن ، وأن الخديو أصبح يتلقى أوامر لندن لتنفيذها .

فقد ورد فى هذه الرسالة أن حكومة لندن مستاءة كل الاستياء من العقبات التى يضعها اسماعيل أمام وزارة نوبار ذات الوزيرين الأجنبيين ، وأن

استمرار اسماعيل فى ذلك يعنى ان يسير نحو الهاوية ، فعليه أن يكف عن اية اجراءات يفهم منها أنه يناهض تلك الوزارة .

أراد اسماعيل ان يدخل فى حوار مع حكومة بريطانيا ليقنعها بأنه لا يستحق هذه المعاملة الجائرة . وهذا يعنى ان اسماعيل أصبح يتكلم من منطلق التابع للمتبوع . وكان يحاول بالحوار أن يستعيد بعض كرامته المهدرة ، وأن يستعمل فى ذلك أسلوبا قد تفهمه بريطانيا ، بمعنى الضرب على وتر الديمقراطية . فبريطانيا دولة ديمقراطية ، وتحترم الشعوب والسلوك الديمقراطى ، وظن اسماعيل انه لو ضرب على وتر حق مجلس النواب — ممثل الشعب — فى فرض الضريبة لربما كسب الحكومة البريطانية ، بل وكسب الشعب ، كذلك نظرا لمعارضة معظم اعضاء مجلس النواب لأنهم هم انفسهم ضد فرض ضرائب جديدة . فضلا عن أن المرابين كانوا قد استنفدوا كل امكانيات الأعيان والفلاحين على حد سواء .

ولقد كان موقف الوزارة النوبارية سيئا فعلا نظرا لأنها كانت فرضت نوعا من السخرة على شباب البلاد الأمر الذى اثار البلبلة والضيق وخاصة أن البلاد لم تكن قد أفاقت بعد من نكبتين اقتصاديتين متتاليتين : ففى ١٨٧٧ وقع جفاف تلاه فيضان مدمر فى ١٨٧٨ وانتشرت المجاعة والفقر . فمن أين يدفع الفلاحون والأعيان الضرائب الجديدة التى فرضتها « الوزارة الأوربية » . بل وصلت الى العاصمة وفود من الأقاليم للاحتجاج على الضرائب الجديدة كما تحرك عدد من النواب المصريين ضد الوزارة الأوربية .

لقد كانت الحركة التى قام بها اسماعيل بارعة ونعنى بذلك التجاءه الى مجلس شورى النواب للدفاع عن مصالح البلاد بشكل يعطى المجلس شكلا من اشكال البرلمان الحديث حينذاك . وفى نفس الوقت كان يدبر — على أغلب الآراء — ما عرف باسم (حركة الضباط) فى ١٨٧٩/٢/١٨ . فقد كان الموظفون والضباط يعانون من تأخير دفع مرتباتهم ، وادى ذلك الى تحرك مجموعة من الضباط وأهانوا نوبار باشا وريفرز ويلسون ، وكادت الأمور أن تتحرج لولا أن جاء الخديو الى مسرح الأحداث وأمكن السيطرة على الموقف . وهناك اتجاه عام ان كل هذا كان بتخطيط وتدبير الخديو ليثبت انه لا يزال صاحب قوة ونفوذ فى البلاد .

وادت تلك الحادثة الى استقالة نوبار والى أن يعقد قرض جديد من

بيت روتشيلد لدفع رواتب الضباط . ولكن أكدت التطورات التالية أن اسماعيل لم يسترد سلطاته بل أنه فقد المزيد منه بعد تلك الحادثة بل وان اسماعيل فقد قدرته ليس فقط على المفاوضة بل ربما على فهم ما يجرى حوله ، أو ربما اسقط فى يده فقبل أمورا هى سببة فى جبين البلاد .

فقد أصر اسماعيل على ابعاد نوبار عن الحكومة ، واصر ولسون على أن يظل رئيسا للوزارة ، وتدخلت حكومتا لندن وباريس حتى انتهى الأمر الى :

١ ـ استقالة نوبار وتكليف الأمير توفيق اسماعيل بتشكيل الوزارة .

٢ ـ لا يحق للخديو اسماعيل حضور مجلس الوزراء .

٣ ـ الابقاء على الوزيرين الأجنبيين (الانجليزى والفرنسى) .

٤ ـ حق الوزيرين الأجنبيين فى وقف أى قرار وزارى لا يرتضيانه .

ان نظرة سريعة الى هذه التسوية تؤكد أن :

١ ـ اسماعيل فقد سلطاته .

٢ ـ الرقابة الأجنبية أصبحت اكثر قوة بل أصبحت تحكم مصر .

وأغلب الظن أن اسماعيل قد وجد انه لا حول له ولا قوة فقبل تلك الشروط القاسية ، وفرح لأنه تخلص من نوبار ، وما كان التخلص من نوبار ليوازى تلك الخسائر الفادحة التى نزلت بمصر بسبب تلك الوزارة الأوربية . والنتيجة العامة لتلك التطورات هى أن اسماعيل خرج من (حركة الضباط) مزهوا ولكن مسلوب السلطة مهيأ لعزله عن الحكم .

ولكن اسماعيل لجأ الى الأعيان والى مجلس النواب لعرقلة اعمال الوزارة الأوربية ، ونجح فى اسقاط الوزارة وتكليف شريف باشا بتشكيلها (ابريل ١٨٧٩) .

وبذلك يكون الخديو قد وضع نفسه فى مواجهة حاسمة مع الدول الأوربية نظرا لأن شريف وان كان ضد الحكم المطلق الا انه كان ضد التدخل الأجنبى . ولذلك اتجه شريف الى اعداد دستور وتهيئة البلاد لحياة ديمقراطية فما كان من بريطانيا وفرنسا الا أن قررتا عزل اسماعيل ، ووقف الاجراءات التى سار فيها شريف . وفعلا عزل اسماعيل وتولى ابنه توفيق الخديوية .

أسند توفيق الى شريف باشا تشكيل الوزارة ، ولكن الظروف الجديدة لم تعد ملائمة لشريف ليقوم بدور ما ، ولذلك لم يلبث أن استقال ، وخلفه رياض باشا .

وخلال ذلك كانت الحركة الوطنية قد أخذت فى التصاعد على يد الانتلجينسيا المصرية . بحيث أدى عزل اسماعيل الى أن تصبح والشعب فى مواجهة الدول الكبرى الطامعة فى البلاد وضد الحكم المطلق .

لقد كان العديد من الزعامات المصرية تشعر بالأسى الأن الدول الاروبية الكبرى الطامعة فى مصر هى التى أرغمت السلطان العثمانى على اصدار قرار عزل اسماعيل ، وهو القرار الذى قبله صاغرا وغادر البلاد ، لقد كان كثرة من الوطنيين المصريين مستائين من هذا التطور الذى اثبت بكل قوة ان أمور مصر تدار فى لندن وباريس والأستانة وأن زعماء مصر ، وشعبها لا رأى لهم حتى فى مثل هذا الأمر الخطير .

لقد كان عدد من أصحاب الفكر الثورى يتمنى أن يكون عزل هذا (الطاغية) على يد حركة وطنية مصرية ، وكان من بين هؤلاء أحمد عرابى الذى تألم كل الآلم بسبب عزل اسماعيل بيد اجنبية وليس بأيدى المصريين أصحاب القضية الحقيقية .

انه لمن الجدير بالمقارنة بين ما حدث فى ١٨٧٩ من عزل لاسماعيل بيد الدول الكبرى الاستعمارية الطامعة فى مصر ، وبين ما حدث فى ١٩٤٢ حين أقدمت بريطانيا على حصار سراى عابدين بالدبابات لارغامه على التنازل عن العرش أو اتخاذ سياسة تضع مصر فى خدمة عجلة الحرب البريطانية بغض النظر عن مصالح مصر ورأى الشعب . فلقد احتج بعض السياسيين والعسكريين على أقدام بريطانيا على ذلك العمل فى ١٩٤٢ ، ومن بين هؤلاء الساسة والضباط من شارك فى أسقاط الملك فى ١٩٥٢ .

كانت الحركة الوطنية قد نشطت فى أواخر عهد اسماعيل . فقد كانت فى مصر صحافة نشطة متعددة الاتجاهات ، وهبط مصر من كان بمثابة رجل العصر فى الشرق (جمال الدين الأفغانى) رجل يرتدى الملابس الدينية ويتكلم عن الدستور والبرلمان والتمثيل والحكم المطلق الخطر على مستقبل البلاد — رجل يحمل القرآن الكريم ولا يتورع عن الالتحاق بالماسونيه لعله يستخدمها من أجل تحرير

التحرق من الطغاة المحليين ومن الاستعماريين الأوربيين وبدأت تظهر اسماء لها دوى فيما بعد ، بعضها فى القريب العاجل وبعضها فى ضمير الوطن لحين تأتى الظروف المناسبة .

ظهرت اسماء (محمد عبده) ، (سعد زغلول) ، (عبد الله النديم) ، الهلباوى) وكان هؤلاء من المصريين الخلص ، من ريف مصر . تربوا فيه ، وتعلموا فى مدارس مصر ، واكتسبوا اتيكيت الترك والغرب ولكن احتفظوا بمفهومهم للمصرية الكامنة فى نفس كل من ولد وعاش فى وادى النيل . ومنهم من ظل متعلقا بالأصالة اكثر من تعلقه بالجديد الأوربى مثل النديم الذى اتجه نحو دعم الحركة الاسلامية الى جانب دعم الحركة التحريرية الوطنية المصرية .

وظهر الى جانب هؤلاء (شوام) على مقدرة كبيرة فى أن تكون أصواتهم لهم صحافتهم المتأججة . ومن هؤلاء ديب اسحق وسليم نقاش . وهما من دافع عن أراء الأفغانى (١٨٧٧) ، وامثالهم كثيرون فى مصر من شوام جاءوا الى مصر ليعيشوا فيها وينغمسوا فى صالوناتها الاجتماعية ويركبوا تياراتها ... ، بل ويركبوا التيار العالمى ، ومن ذلك ظهورهم بمظهر المكافحين من اجل الديمقراطية ضد الاتوقراطية وضد الاستبداد على نحو ما فعلوا مع ... بعد ان خلف شريف باشا .

وظهرت التيارات العديدة ، وتشكلت الجمعيات الداعية الى الاصلاح ... أو الاصلاح الاجتماعى ، وتصاعدت الشعارات التى تتحدث عن الشعب من حقوقه المهضومة ، وتجمعت عناصر عالية الثقافة على دربة سياسية وتكوين ... فوق البرجوازية وليس دونها ، تجمعت فى حلوان وشكلت ما عرف باسم جمعية حلوان) أو (الحزب الوطنى) (١) ووجدت فى نفسها الهيئة التى يمكن أن ... البلاد من رياض والشراكسة والأطماع الأجنبية .

لقد تهيأت البلاد لحركة تنتظر الزعامة التى تقودها . وهى حركة قوامها ... (أولاد العرب) وذوو الأصول التركية ولكنهم مصريون فى فكرهم

---

(١) من ابرز اعضاء جماعة حلوان أو الحزب الوطنى : شريف باشا ، جون ... مصطفى السويسرى) ، محمد عبده ، سعد زغلول ، محمد سلطان ، ... ، عبد الله النديم ، ابراهيم الهلباوى . وجميعهم سيلعبون أدوارا بارزة فى ... الحركة الوطنية .

وتطلعاتهم ، فى مواجهة استبداد الخديو ، والضياع الاقتصادى ، واهمال حقوق الشعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واذلال البلاد بالرقابة الأوربية ووضع البلاد تحت رحمة الأجانب ، لقد تهيأت البلاد لثورة .

* * *

تعتبر الثورة العربية — رغم قصر عمرها (١٨٨١ — ١٨٨٢) — نقطة تحول رئيسية فى تاريخ مصر الحديث ، وذات صدى كبير فى تاريخها المعاصر .

وهى بلا جدال ثورة من أجل التحرر من الطغيان — فى عصر الليبرالية — ومن الاستعمار فى عصر القومية وحق الشعب فى أن يحكم نفسه بعيدا عن تسلط فرد أو قوة أجنبية . ولقد سارت مصر فى الاتجاه السليم نظريا ، ولكن عمليا وقعت فى أخطاء شديدة ، وفى نفس الوقت كانت الدول الكبرى مستعدة لتسوية خلافاتها على حساب الدول والشعوب غير الأوربية أو الشعوب الصغيرة أو الضعيفة .

وليس فى استطاعة أى باحث ان يحدد بداية معينة لثورة من الثورات وانما يستطيع أن يقدم الجذور التاريخية لها حتى يصل الى نقطة انطلاقها كثورة ، ومن ثم سنعمل أولا على أن نتتبع الجذور التاريخية لهذه الثورة والعوامل التى أدت اليها وتطوراتها ونتائجها .

لقد أدركت مصر منذ وقت مبكر نسبيا ان بناء دولة جديثة هو مفتاح حريتها وتقدمها ، ولقد أحرزت مصر قصب السبق فى هذا المضمار خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولقد بذل محمد على وعدد من رواد النهضة الحضارية جهدا لا يمكن الا أن نقدره كل التقدير . فمحمد على فى مصاف بناة الدول . وليس معنى هذا ان نتجاوز عما وقع من اخطاء خلال مسيرته فى تحضير وتحديث مصر .

لقد كان محمد على طموحا ، وكان يسعى الى بناء دولة لنفسه ولأسرته . وهذا شأن ذلك العصر ، وظاهرة كانت حينذاك مقبولة من مختلف الأوساط السياسية المحلية أو غير المحلية . فقد كان نظام الحكم السائد حينذاك هو الحكم (الملكى) بأشكاله المتعددة :

* الملكية المستبدة المستنيرة الوراثية مثل (بروسيا) وكانت تحكمها أسرة الهوهنزلون .

* الملكية المستبدة الوراثية (اسرة رومانوف الحاكمة فى روسيا) .

* الامبراطورية المستبدة المستنيرة (نابوليون) .

* الملكية الامبريالية المستنيرة الدستورية البرلمانية (انجلترا) .

وكان فى الشرق ملكيات أخرى ذات طابع مختلف — الى حد كبير جدا — عن تلك الملكيات الأوربية .

فقد كانت الدولة العثمانية تدعى انها دولة الخلافة الاسلامية ، وأن على الرعية ان يطيعوا خليفة المسلمين السلطان العثمانى محمود الثانى (١) حينذاك .

ولا تعترف لا بالنظم الدستورية ولا حتى بالملكية المقيدة . وهناك فى ايران ملكية مذهبية شيعية قاجارية فارسية ، تتمتع بمقومات الدولة القومية وتمارسها دون اعلان رسمى لها . كما كان فى البلاد العربية العديد من الأسرات الحاكمة :

١ — الأسرة الشهابية فى (لبنان) .

٢ — اسرة الائمة الزيديين فى اليمن .

٣ — اسرة البوسعيد فى مسقط وعمان .

٤ — اسرة بابان فى السليمانية فى العراق .

٥ — اسرة الإشراف فى الحجاز .

٦ — اسرة آل سعود فى نجد .

٧ — الاسرة القره منلية فى طرابلس الغرب .

ومن ثم كانت ظاهرة الأسرة المالكة ظاهرة عامة ، كان ذلك من العوامل التى عمقت فكرة اقامة اسرة حاكمة فى مصر ، ولم تكن مصر قد عهدت نظاما اسريا

(١) حكم سلطانا عثمانيا من ١٨٠٨ حتى ١٨٣٩ .

حاكما منذ سقوطها فى يـد العثمانيين فى ١٥١٧ الا اذا اعتبرنا المماليك فى مصر اسرة من الأسرات الحاكمة .

لقـد وضـع محمـد على نصـب عينية اقامة دولة يحكمهـا هو فى حيـاته ويتولاها من بعده ابناؤه واحفاده . لقد كان وجود الأسرة العلوية فى الحكم محورا أساسيا من محاور سياسته الداخلية والخارجية .

وتطبيقا لهذه الخطة :

* وزع الأراضى الواسعة (الجفالك) على افراد اسرته وفى مناطق زراعيـة عالية الجودة والانتـاج .

وكان محمد على لا يقبل ان يشاركه فى حكم البلاد اى مصرى ، ولقد استبعد كبار المشايخ والأعيـان من امكانية مشاركته فى الحكم ، ومع انهم هم الذين سعوا الى تعيينه واليا على البلاد . واسند محمد على المناصـب العليا والادارية الى من هم من جنس أو سلالة الاتراك أو الشراكسة ، وبصـفة عامة ابعد المصريين عن المراكز ذات الشأن وترك لهم المناصب الدنيا العسكرية والمدنية .

ومعنى هذا ان محمـد على وضـع مستقبل مصر فى يـد أسرته وحوارييها ، وعلى اعتبـار انهـا هى الأسرة الاقـدر على حـكم البـلاد ، اسـتبعد المصريين من تولى المناصب القيادية وفق خطة موضوعة .

ولكن حدث ان تبنى ابراهيم باشـا بن محمد على قضـية حـق المصرى فى ان يترقى الى رتب اعلى . ويرجع ذلك الى تجارب ابراهيم باشا خلال الحـروب التى خاضتها القوات المصرية ضـد القوات العثمانية (١٨٣١ — ١٨٣٩) .

أدرك ابراهيم باشا مـدى هذا الغبن الذى نـزل بكل مصرى قاتل قتـال الابطال تحت قيادته خلال الحروب التى دارت بين مصر والدولة العثمانية بين عامى ١٨٣١ ، ١٨٣٩ . ولقد تبين لابراهيم باشـا ان الضباط والجند المصريين هم الذين خاضوا وكسبوا المعركة تلو المعركة ، أما الضباط الاتراك والشراكسـة فقد كانوا غالبا أقرب الى الفرار منهم الى الصمود ، وكثرة منهم كانت سـببا فى اضـطراب الصـفوف بينما كان المصريون يملأون الصـفوف وينقضـون حتى يتشتت الجيش العثمانى ، ويكسب المصريون نصرا مؤزرا .

وقد تجلى كل هذا بوضوح خلال معركة نزيب التى دارت بين الجيش المصرى والعثمانى فى ١٨٣٩ . تلك المعركة التى اندحر فيها الجيش العثمانى اندحارا حتى لقد دب اليأس فى القادة العثمانيين فما كان من قائد اسطول البحرى العثمانى الا ان سلم اسطوله الى القيادة المصرية فى الاسكندرية .

وشعر ابراهيم باشا بنوع من الخجل لأنه كان قد تلقى اوامر ابيه من قبل بان لا يقدم ابدا على ترقية اى مصرى (فلاح) الى رتبة اعلى من رتبة اليوزباشى . ولقد فكر فى كيفية التوفيق بين هذه التعليمات وبين حقيقة ما يراه بعينيه من احقية المصرى فى الترقى الى أعلى المناصب ؟ فقرر ان يكتب لابيه فى هذا الشأن .

لقد كان ابراهيم باشا صادقا مع نفسه تماما حين كتب الى ابيه طالبا فتح باب الترقى أمام المصرى للرتب العليا والقيادية ، وما ان تلقى محمد على خطاب ابنه حتى رد عليه بما ادهش ابراهيم ولكن فى نفس الوقت بما اقنعه بعدم التخلى عن وجهة نظر أبيه .

فقد قال محمد على فى رسالته الى ابنه :

ومن المعلوم يا ولدى اننى تجنبت حتى الآن ترقية العرب الى الرتب العليا ، وظللت محجما عنها مدة طويلة مقدرا النتائج التى ستترتب عليها بعد مائة سنة .

لقد كان محمد على يدرك بثاقب بصيرته وقدرته على تكوين رؤية مستقبلية ان المصرى لن يتوانى عن الثورة على حكم اسرة محمد على اذا ما تولى المصرى المراكز القيادية . ولقد كان محقا فى توقعه ولكن بعد اربعين عاما فقط وليس بعد مائة عام .

لقد كان محمد على ينظر الى المصريين نظرته الى من هم فى خدمته فقط وفى خدمة أسرته وخدمة مخططاته لتحضير وتحديث البلاد . وكان محمد على على يقين من أن المصرى اذا ما خرج عن هذا الاطار المرسوم له واذا ما تولى المناصب القيادية ان يتورع عن الثورة على اسرة محمد على ويطردها من حكم البلاد . ومعنى هذا أن الأزمة بين المصرى (العربى) والأسرة العلوية بدات مع نشأة مصر الحديثة على يد وعهد محمد على .

وأبلغ تصوير لهذه المتناقضات ونتائجها ورد فيما كتبه أحمد عرابى زعيم الثورة ، فقد قال :

« صغار الضباط ... يترقون ... بعضهم الى رتبة الأمير آلاي ... وبعضهم الى رتبة الفريق ... لا بعلم علموه من دونى ، ولا بفهم خارق للعادة ، ولا بشجاعة ابرزها فى ميادين القتال . ولكن لكونهم من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديوية ، فاصطفاهم الخديوى بالرتب ، وحباهم بالأموال الكثيرة ، والحلى الثمينة من دم المصريين وعرق جبينهم » .

وكان فى مصر عدد من أرباب القلم ، ممن راقبوا عن كثب كم كانت مصالح البلاد مهدرة من أجل الخديو اسماعيل ، ومن أجل سوء تقديراته الاقتصادية التى اوقعت البلاد تحت رحمة الدائنين .

وفى عبارة موجزة بلور أحد رجال القانون التضارب الذى نجم عن اخضاع مصر للأجانب :

« كانت الدول الأوربية ... تعلن ان الحكومة المصرية تتمتع بحرية كاملة فى ادارة شئونها ، وتفرض فى الوقت نفسه على الخديو انظمة وقوانين لا تتلاءم مع أوضاع بلاده وتتنافى وروح الحرية التى تنادى بها ... ان معظم الاوربيين كانوا سببا فى خراب مصر ، وانهم أفرطوا فى سوء تصرفهم حتى عاش الشعب المصرى الوادع المسالم فى مركب الحقد عليهم » (*)

وشعرت الانتلجنسيا المصرية ان الوقت قد حان لتخليص البلاد من الحكم الاستبدادى ، واصدار دستور للبلاد ، دستور يحقق مشاركة الشعب فى توجيه أموره ، ويعطى الشعب امكانية التصدى للتدخل الأجنبى استنادا الى جيش وطنى يدفع عن البلاد عادية الاستعمار الذى كان يدق بعنف أبوابها من ذوى الأصول التركية المتمصرة الذين ظلوا متمسكين بحق حصولهم على المراتب العسكرية العليا وان رفعهم الى المناصب الادارية الكبيرة انما هو منة منهم وليس تفضلا من هذا الوطن عليهم . لقد عاش هؤلاء بمعزل عن الشعب . ومنعوا الضباط المصريين من ابناء الفلاحين — من ان يصلوا الى أعلى من رتبة اليوزباشى . بينما كانت باقى الرتب حتى « فريق » متاحة لكل من هو ليس من ابناء فلاحى مصر ، ولكل أجنبى عن البلاد (*)

كان أحمد عرابى على صلة بسراى الخديوى اسماعيل . وكان قد

اشترك فى حرب الحبشة ، تلك الحرب التى بدا واضحا فيها ان الحكومة عرضت ارواح الألوف من الجند المصرى دون مبرر اذ القت بهم فى بيئات معقدة التضاريس صعبة المواصلات ، وبين شعب معاد ، دون ان توفر له امكانيات النصر . وفوق هذا وذاك ، كانت قيادة الجيش المصرى خلال حملة الحبشة اجنبية مكنت الأحباش من قتل اعداد كبيرة من الجنود المصريين . فعاد أحمد عرابى من حرب الحبشة الى مصر ناقما على حكومتها (١٨٧٥) . ولكنه وجد مصر فى حالة اشد خطورة . وجدها تئن من الضربات القاسيات التى يوجهها رجال الحكومة الى الشعب لابتزاز ما يمكن ابتزازه لصالح الخديوى والشراكسة ، والدائنين الأجانب . وملأت الثورة صدره . ودخل فى الحزب الوطنى الذى تالف على يد جمال الدين الأفغانى وضم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول واحمد شريف باشا وغيرهم من الغيورين على مستقبل البلاد .

ومن الخطوات التى كان احمد عرابى — ورفاقه فى الحزب الوطنى — يفكرون فى اتخاذها انقاذا للبلاد من استبداد الخديدى اسماعيل ان يقوموا بحركة تؤدى الى خلعه . ومع ان خلع اسماعيل باشا لم يلبث ان تم بعد ذلك بوقت قصير الا ان احمد عرابى — وان كان يرى ضرورة خلعه — ادرك ان خلعه بيد غير يد المصريين تنطوى على مخاطرة كبيرة (١) .

لقد كانت الاذهان مهياة للثورة سواء لدى المثقفين الذين ادركوا عن قرب خطورة استمرار توفيق فى الحكم الاستبدادى بالتعاون مع المراقبة الثنائية البريطانية الفرنسية على البلاد ، وسواء لدى الفلاحين الذين ارهقتهم الضرائب . حتى كبار الملاك انفسهم — وكانوا من المتعصبين للأسرة الخديوية — تعرضوا للكثير من المظالم المالية على يد حكومة رياض باشا . ولذلك كانوا مستعدين للمساهمة فى حركة تقوم ضد الحكم الخديوى بشرط ان تعود عليهم بارباح مالية وتحقق أغراضهم الخاصة .

---

(١) قال أحمد عرابى فى هذا الصدد : اننى عزل اسماعيل بعد ذلك عبئا ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو اننا فعلنا ذلك بأنفسنا لكان افضل . اذ أننا كنا نستطيع أن نتخلص من اسرة محمد على كلها ... وكنا نستطيع ان نعلن اقامة جمهورية .

على أن تهيؤ الظروف للثورة لا يؤدى اليها الا عندما تقع حادثة معينة تحرك اكبر قوة قادرة على التحرك والعمل واستقطاب القوى الأخرى المستعدة للمشاركة فى الثورة . وحدث هذا فعلا عندما بلغت تحديات عثمان رفقى باشا - وزير الحربية الشركسى - للضباط المصريين درجة لا تحتمل وتحيزه الشديد لجانب الضباط الشراكسة . وادى هذا الى ظهور تكتل من الضباط المصريين ضد عثمان رفقى ، ولم يلبث هذا التكتل أن اختار أحمد عرابى زعيما له . وهكذا بدأ يظهر أحمد عرابى على مسرح الأحداث ، واصبح قادرا على التأثير فيها لأنه يستند الى قوة يستطيع استخدامها اذا لزم الأمر .

وشرع احمد عرابى يدق أبواب رئيس الوزراء - رياض باشا - وأبواب وزير الحربية - عثمان رفقى - فى هدوء وبساطة لعلهما يعدلان من نظام ترقية الضباط (الفلاحين) ولكن دون جدوى . بل زاد عثمان رفقى فى اضطهاد الضباط المصريين واهانتهم . فلم يعد هنسالك بد من ان يطلب الضباط (الفلاحون) من رئيس الوزراء ان يبعد وزير الحربية عثمان رفقى عن الوزارة ، وان يسندها الى وزير وطنى . فما كان من الخديو ومن رئيس الوزراء رياض باشا الا ان قبضوا على احمد عرابى واثنين من الضباط معه تمهيدا لمحاكمتهم ، وهنا تحركت بسرعة كتائب من الجيش المصرى بقيادة ضباط وطنيين وافرجت بالقوة عن احمد عرابى ورفيقيه . وبدت نذر تطورات خطيرة فى البلاد اذ أصبح الخديوى وجها لوجه أمام الجيش لأول مرة . وادرك أن العاصفة قد تهب ، ففضل أن ينحنى لها حتى تمر ، فعزل عثمان رفقى ، واسند وزارة الحربية الى محمود سامى البارودى .

لقد بدأت الثورة ، واصبح من المستبعد جدا ان تقف عند حدود هذا التغيير الوزارى . اذ انتشرت فى البلاد انباء تلك الحركة ، وتطلع الناس الى أن التغيير يجب ان يسير فى مختلف الأجهزة ، وليس فى منصب وزير الحربية فقط . والتف الشعب وزعماؤه حول أحمد عرابى ، على اعتبار انه اصبح الزعيم القادر على فرض ارادة الشعب على الخديوى وعلى اعوانه من الأجانب . وبدأت التيارات الوطنية تصب فى اتجاه واحد هو ضرورة اصدار دستور للبلاد يعطى الشعب حقه فى أن يدير أموره بنفسه ، ويتصدى للتدخل الأجنبى ولسياسة تفضيل مصالح الأجانب على مصالح الوطن .

ادى ذلك الى أن يقرر الزعماء الوطنيون ، المدنيون منهم والعسكريون القيام بمظاهرة شعبية سلمية تزحف الى سراى عابدين مطالبة بحقوق الشعب . وتحدد ميعاد المظاهرة فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، وسارت فى نظام متكامل . وواجه أحمد عرابى — ومن خلفه كتائب الجيش وجموع الشعب — الخديوى ومن حوله كبار مستشاريه من الانجليز . وتقدم أحمد عرابى بمطالبه :

— مجلس نيابى منتخب تكون الوزارة مسئولة أمامه .

٢ — تقوية الجيش واصلاح قوانينه .

٣ — عزل وزارة رياض باشا المستبدة المكروهة من الشعب ومن الجيش .

ورفض الخديوى هذه الطلبات على اعتبار أن لا حق للزعماء العسكريين او المدنيين فى مثل هذه الأمور التى هى — فى نظره — من شأنه هو على أنه ورث مصر عن آبائه واجداده .

بل لقد تمادى الخديوى ووجه نقمته على عرابى قائلا له : « وما انتم الا عبيد احساناتنا » .

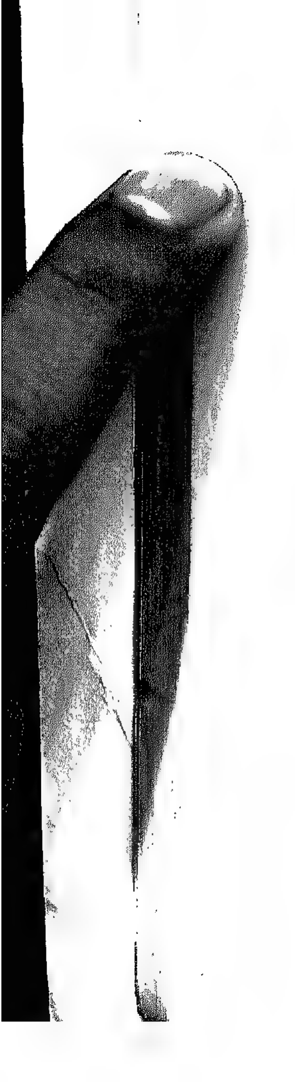
فرد عليه احمد عرابى بكلمته المأثورة : لقد خلقنا الله احرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لانورث ولا نستعبد بعد اليوم » .

لقد اتضحت معالم الثورة :

١ — ثورة شعب يريد أن يحكم نفسه بنفسه وان تنتقل اليه السلطات حتى ولو كان ذلك فى احلك الظروف ، وخديوى يتمسك بحق الارث .

٢ — ثورة شعب ضد أقلية شركسية متعاونة مع الأجانب الذين لا يتورعون عن بيع البلاد للأجنبى (١) .

وكان لابد من أن ينحنى الخديوى مرة اخرى للعاصفة فالجيش والشعب من وراء عرابى ، وسقطت وزارة رياض واسندت رئاسة الوزارة الى احمد شريف



(١) كان نوبار باشا رئيس الوزارة المصرى الأرمنى يحث بسمارك والانجليز على أن الثمرة قد أينعت وأن مصر يمكن شراؤها ببضعة الوف من الجنيهات .

باشا (١٤ سبتمبر ١٨٨١) . وحفاظا على الديمقراطية ، وتمكينا لشريف باشا من العمل فى جو هادىء بعيدا عن ضغوط صادرة عن رجالات الثورة ، اتفق على ان ينقل احمد عرابى واعوانه الى مراكز عسكرية بعيدة عن القاهرة . وتم ذلك فعلا الأمر الذى يؤكد ان احمد عرابى لم يكن من النوع الذى يسعى الى السلطة والثورة من اجل الحكم ، وانما كان يضع مصالح وآمال مصر امام اى هدف آخر .

شرع احمد شريف باشا فى اعداد لائحة اساسية (الدستور) على اساس ان تكون الوزارة مسئولة امام مجلس النواب ، ودعا مجلس النواب فى ديسمبر ١٨٨١ ، وتلا الخديوى خطاب العرش امامه ، واعلن المجلس من جانبه التزامه بتنفيذ الاتفاقيات أو بمعنى آخر لم يتعرض مجلس النواب للديون ،ولم يشر الى انه سيحد منها ، بل على العكس كان هناك اتجاه عام يحث على ايجاد وسيلة لدفعها وتخليص البلاد منها . ولكن الى جانب هذا اصر النواب – والحق معهم – على مناقشة الميزانية واقرارها .

وحيث ان الديون كانت وسيلة من وسائل التدخل الأجنبى الانجليزى والفرنسى ، وحيث ان اتجاه مجلس النواب كان الى دفع هذه الديون ، بوسيلة او بأخرى ، والى وضع رقابة وطنية برلمانية على ميزانية البلاد ، فكل هذا يعنى ان النفوذ الأجنبى فى داخل البلاد سينهار عن قريب وهو أمر لا يمكن ان تقبله العقلية الاستعمارية الانجليزية الفرنسية حينذاك فقد كانت النية مبيتة على فرض احتلال أجنبى على مصر ، وبالذات احتلال بريطانى بموافقة الحكومة الفرنسية . كانت هذه الاتجاهات الاستعمارية قد بدأت تتضح فى اعقاب مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

ومن الظروف التى كانت أقوى من ان تتحكم فيها قوى الثورة فى مصر أن الفترة كانت فترة تسابق استعمارى محموم قبيل عقد مؤتمر برلين (١٨٧٨) وخلاله ، وبعده .

فلقد كانت سياسة بريطانيا التقليدية هى الدفاع عن كيان الدولة العثمانية، على اعتبار ان ذلك يخدم المصالح البريطانية من حيث الجوانب التالية :

١ – إن الدولة العثمانية القوية هى بمثابة صخرة تسد الطريق أمام انطلاقة روسية الى العراق عبر ارمينيا ، أو الى البحر المتوسط عبر مضايق

الدردنيل . وبالتالى تصبح خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب عبر الشرق الأدنى بعيدة عن متناول الجيوش الروسية أو أساطيل روسيا . بل تصبح مصر وسوريا مهددة تهديدا مباشرا بالقوى الروسية ان أصبحت المضايق تحت سيطرة روسية أو أضحت الدولة العثمانية تحت حماية روسيا .

وكم من مرة عرضت مصر على انجلترا فى مقابل اعطاء روسيا الآستانة (القسطنطينية) . ولكن الحكومة البريطانية كانت ترى فى ذلك خطورة كبرى على مستقبل خطوطها العالمية عبر الشرق الأدنى وبالتالى فلتظل آمال بريطانيا فى احتلال فعلى لمصر معلقة حتى يمكن تحقيقها فى فرصة لا تعطى روسيا الحق فى أن تحصل فى مقابل ذلك على الدردنيل والبسفور . ولا تعطى كذلك فرنسا فرصة لمشاركة الانجليز فى السيطرة على مصر وهو أمر كان يتمسك به الفرنسيون اذا أراد الانجليز التدخل فى أمور مصر .

٢ — كانت يد بريطانيا هى القوة العليا فى منطقة الشرق الأدنى خلال الثلث الأول والثانى من القرن التاسع عشر . فقد منعت روسيا من تنفيذ معاهدتها السرية مع الدولة العثمانية المعروفة باسم معاهدة خنكار سكله بى (١٨٣٣) ، وكانت معاهدة دفاعية هجومية تعطى للجيوش الروسية فرصة واسعة للتحرك فى الدولة العثمانية ، كما أنها منعت مصر من أن تجنى ثمار انتصاراتها المتتالية على الجيوش العثمانية (١٨٣١ — ١٨٣٩) ، ونجحت فى أن تتوقع مصر وفى أن تحصل بريطانيا من وراء ذلك على اليد الطولى فى توجيه السياسات العليا للمنطقة .

٣ — عندما فكرت روسيا فى تنفيذ سياسة أوربية ترمى الى اقتسام ممتلكات الرجل المريض (الدولة العثمانية) فى ١٨٥٣ شنت كل من بريطانيا وفرنسا حربا كبرى ضد روسيا بالتحالف مع الدولة العثمانية فيما عرف باسم (حرب القرم ١٨٥٤ — ٥٦) ، وكانت تؤكد حينذاك أنهما تحافظ على كيان الدولة العثمانية .

٤ — وفى ١٨٦٠ — ١٨٦١ خلال حوادث الستين فى لبنان ، كانت فرنسا تريد أن تبعث بجيشها هناك وأن تستغل هذا الصراع الطائفى لكى تثبت اقدامها فى البلاد ، ولكن بريطانيا أصرت على أن تحدد بدقة نوع المهمة التى ستقوم بها القوات الفرنسية فى لبنان ، والمدة التى ستقتضيها تلك القوات هناك ولكن فى أعقاب هزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا فى حرب ١٨٧٧ وارغامها على توقيع

معاهدة سان استفانو المذلة اتجهت بريطانيا بقوة الى سياسة اقتسام الدولة العثمانية بطريقة تجعل لها اليد العليا فى الشرق الأوسط .

وعندما فرضت روسيا المنتصرة شروطها على الدولة العثمانية المهيضة الجناح فى معاهدة سان ستيفانو (١٨٧٧) أرسلت بريطانيا باسطولها الى الدردنيل مهددة باستخدام القوة ان لم تعدل هذه المعاهدة التى تعطى روسيا امكانيات واضحة للوصول الى اعالى العراق ومنه الى الخليج العربى الى الهند أمام الجيوش الروسية ، كما كان توسيع نطاق دولة بلغاريا بمقتضى معاهدة سان ستيفانو قد خلق — من وجهة نظر بريطانيا أيضا — دولة كبيرة فى البلقان تحت السيطرة الروسية تمكنها من العمل بحرية فى البحر المتوسط .

وهنا برزت فكرة اقتسام الدولة العثمانية فى مختلف الدوائر السياسية البريطانية ، والفرنسية ، والألمانية ، والايطالية ، والنمساوية ، فضلا عن الدوائر الروسية . وكل هذه الدوائر كانت توافق — باستثناء فرنسا — على أن تكون مصر لبريطانيا . وبالتالى كانت المشكلة مركزة فى كيفية اقناع فرنسا بالتخلى عن مصر . وزادت هذه المشكلة تعقيدا عندما عقدت بريطانيا معاهدتها السرية مع الدولة العثمانية التى تقضى بأن تحصل الأولى على قبرص فى مقابل حماية الدولة العثمانية من العدوان الروسى المتربص بها والذى أصبح خطرا ماثلا (بعد احتلال روسيا لقارص) لا على الدولة العثمانية فقط وانما على الطريق الى الخليج العربى الذى تهتم بريطانيا به كل الاهتمام .

وكان لدى بسمارك وادى الحكومة البريطانية حل على حساب بلد شرقى عربى آخر هو تونس ، اذ صرح سولزبرى للمسئولين الفرنسيين ان بريطانيا ترى فى تونس امتدادا للأراضى الفرنسية . فهدأت ثائرة الفرنسيين ، واتجهوا بسرعة الى تونس بينما أصبح على بريطانيا أن تضع يدها على مصر .

اذا كانت مختلف الاتصالات والتهديدات والتسويفات التى اصطدمت بها حكومة مصر بعد ثورة أحمد عرابى (فى خريف ١٨٨١) كانت كلها تستهدف انفراد بريطانيا باحتلال مصر . وحيث ان ثورة عرابى بدأت تتجه بسرعة الى قيام حكم دستورى شعبى فقد عملت بريطانيا على القضاء على هذه الاتجاهات الدستورية فى وقت مبكر .

ونظرا لقيمة الاتجاهات الدستورية لدى الثورة العرابية فتجدر الاشارة الى اهداف هذه الاتجاهات مع تحليل للدستور الذى وضعه المشرعون المصريون حينذاك . فهذا الدستور هو أول دستور دعا الى إقامة نظام نيابى برلمانى فى مصر ، يستند الى اتجاهات شعبية ، وله — أى البرلمان — السلطات التشريعية وله كذلك حق الرقابة على السلطة التنفيذية ، والنائب المنتخب من احدى الدوائر الانتخابية ليس نائبا فقط عن دائرته ، وانما هو وكيل عن عموم أهالى الشعب ، والوزارة مسئولة أمام هذا البرلمان ، وليس الخديوى ، الذى كان يجمع فى يده كافة السلطات من قبل . واذا كانت الوزارة قد حصلت بمقتضى هذا الدستور على حق حل مجلس النواب الا أن الدستور اكد ضرورة اجراء انتخابات وعودة تشكيل البرلمان خلال ثلاثة أشهر . وفى نفس الوقت حدد الدستور مدة مجلس النواب بخمس سنوات تجرى بعدها انتخابات لمجلس جديد .

هذا الدستور أزعج بريطانيا وفرنسا ، ولذلك قررتا التحرك بالقوة ضد هذا الدستور ، وضد حركة الشعب التحررية .

بدا ذلك واضحا عندما أصدرت بريطانيا وفرنسا المذكرة المشتركة فى ٧ يناير (كانون ثانى) ١٨٨٢ التى جاء فيها أن الدولتين تعملان على الابقاء على النفوذ الخديوى وتشير اشارة ضمنية الى أنهما تدافعان عن المراقبة الثنائية الأوروبية وأنهما غير راضيتين عن دعوة مجلس النواب الى الانعقاد . ومعنى هذا كله سلب الشعب المصرى حقوقه الشرعية ، وفى نفس الوقت توجيه ضربة مبكرة الى ثورة أحمد عرابى . فان هى قبلت هذه المذكرة فانها تكون قد خانت أهدافها التى قامت من أجلها ، وان لم تقبلها فعليها أن تعد البلاد لحرب ضد هاتين الدولتين الكبيرتين وليس هذا فقط بل واللتين لهما فى داخل البلاد قوى خطيرة على رأسها الخديوى والرأسمالية غير الوطنية وكذلك الرأسمالية الوطنية التى خشيت على مصالحها من الحركة الشعبية .

وبدأت الأمور الداخلية تتعقد ، فبينما تمسك مجلس النواب بحقه فى مناقشة واقرار ميزانية البلاد ، كانت المؤامرات تحاك ضد الزعامات الوطنية بتوجيهات خفية من الخديوى — الذى قبل المذكرة المشتركة — ومن أعوان الدولتين الانجليزية والفرنسية فى مصر . ولم يلبث أن دار جدل حول امكانيات النصر أو الهزيمة اذا تدخلت هاتان الدولتان (فرنسا وبريطانيا) عسكريا ، ونجح رجال الخديوى فى تحريض كبار الملاك —

وكانوا هم ممثلى الشعب فى مجلس النواب - على التعاون معه ضد الثورة ولم تلبث أن انتهزت الدولتان هذه الفرصة وبعثتا بمذكرة مشتركة ثانية فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ تطالبان فيها باستقالة وزارة محمود سامى البارودى ونفى أحمد عرابى . وبالتالى أصبحت المواجهة العسكرية مفروضة على المصريين دون أن يعمدوا هم اليها .

ودبرت العناصر الأوربية المنتشرة فى الاسكندرية - بالتعاون مع بعض أعوان الخديوى - مذبحة المصريين والأجانب الذين كانوا على جانب كبير من التسليح ، وكان الغرض من وراء ذلك هو اثبات ان حكومة الثورة عاجزة عن المحافظة على الأمن وعلى أرواح الأجانب . وتعلل قائد الأسطول الانجليزى بأن هناك عمليات تحصين لطابية الاسكندرية ليفرض الاستسلام على المصريين او الحرب . فكان طبيعيا ان تدافع الاسكندرية عن نفسها ضد هذا العدوان . ودمر الأسطول الانجليزى الاسكندرية فى ١١ - ٧ - ١٨٨٢ واحتلها وبدأت الحرب بين أكبر امبراطورية فى العالم حينذاك ومصر التى تخلى عنها الجميع حينذاك والتى لا تملك من السلاح الا أقله .

ولكن الادهى من ذلك ان الجيش المصرى أصبح مرغما على ان يحارب فى جبهتين فجأة ، وذلك بسبب موقف التغرير الذى وقفه فرديناند ديلسبس - مدير شركة قناة السويس - وبسبب موقف الخيانة الذى وقفه الخديوى نفسه من مسألة اقتحام الأسطول البريطانى القناة .

فما ان وقعت الحرب حتى اقتحم الأسطول البريطانى قناة السويس وأنزل جيشا كبيرا على الضفة الغربية لها (١) فى الوقت الذى كان فيه جيش آخر انجليزى فى جبهة الاسكندرية . وكانت النتيجة هى هزيمة الجيش المصرى فى موقعة التل الكبير ودخل الجيش الانجليزى القاهرة وبدأ الاحتلال البريطانى لمصر منذ خريف ١٨٨٢ .

والى جانب التفوق العسكرى الضخم للانجليز ، هناك عوامل اخرى ادت الى هذه الهزيمة أهمها ان الجبهة الداخلية لم تكن قد أعدت بعد

---

(١) علق ولزلى على عدم ردم القناة بقوله : لو ان عرابى سد القناة ... لكنا للآن لا نزال فى البحر نحاصر مصر .

لحرب كبيرة ، وهناك لوم شديد من جانب المؤرخين لأحمد عرابى لأنه لم يعن بالجبهة الداخلية من حيث القضاء على الخديوى واذنابه واعداد الشعب للحرب . ولكن الحقيقة هى ان الثورة بدأت فى سبتمبر ١٨٨١ والحرب فرضت على البلاد بعد أقل من تسعة اشهر ، وما كان فى استطاعة احمد عرابى واعوانه من رجال الثورة ان يحدثوا نقلة كبرى سواء فى داخل البلاد او فى اعادة بناء الجيش المصرى .

ثم ان الانجليز كانوا منذ البداية يؤكدون أنهم ما جاءوا الا ليعيدوا السلطة الشرعية الى صاحبها (الخديو) وتخليص البلاد من زعماء (العصيان العسكرى) وانهم بعد هذا سيجلون عن البلاد . وكانوا يقسمون بشرف بريطانيا وبتعهداتها الدولية بأن تجلو عن البلاد حتى لقد صدر الكثير من الوعود والتعهدات البريطانية دون أن ينفذ وعد واحد . ولننظر فى بعضها الذى صدر قبل الاحتلال وبعض هذه التعهدات التى صدرت بعد الاحتلال .

ففى مجلس العموم البريطانى ، وفى ٢٤ يوليو ١٨٨٢ وفى أعقاب ضرب الإسكندرية — صرح المستر جلادستون — رئيس الوزارة البريطانية — بانه : « ليس لبريطانيا العظمى مطامع فى مصر ، ولم ترسل الجنود لها الا لاعادة الأمن فيها ، ولكى ترجع للخديوى سلطته التى فقدها ، وهى تنوى بكل تاكيد ان تعرض على الوفاق الأوربى تسوية المسألة المصرية تسوية نهائية » .

واكد قائد الأسطول البريطانى الذى دمر الاسكندرية بمدافعه هذا المعنى فى ٢٦ يوليو ١٨٨٢ فى رسالة بعث بها الى الخديوى توفيق قال فيها :

« ان حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى مطلقا فتح مصر .. ان غرضنا الوحيد ان نحمى سموكم والمصريين من العصاة » .

وفى مجلس العموم أيضا ، اكد جلادستون فى ١٢ آب (أغسطس) ١٨٨٢ أنه اذا كان هناك شىء لا تقدم عليه فهو ذاك الاحتلال ، لأن فيه مناقضة تامة للمبادىء التى أعلنتها حكومة الملكة ، وللوعود التى وعدتها لأوربا ولسياسة أوربا نفسها » .

واقسم جلادستون غير مرة بشرف بريطانيا انها لن تستمر فى احتلال مصر ، اقسم بذلك فى مجلس العموم فى ٩ أغسطس ١٨٨٢ قائلا :

« ان الحكومة البريطانيـة لم تفكـر فى ضـم مصر لأن هذا العمـل يمس شرف انجلترا »».

بل لقد حدد بعد ذلك تاريخ الجـلاء عن مصر وان وضـع له بعض الشروط حين تعهد بألا يطيل احتلال مصر « الى مـا بعـد أول يناير ١٨٨٨ اذا كانت الدول يومئذ تصرح ان حالة البـلاد تسـمح برحيلنا بدون تعكيـر الأمن فى مصر ولا جرم أننا اذا كنـا ننوى عرقلة عمل الدول بمقاومتنا عندما يحين وقت تنفيذ مـا تعهدنا به : فلن يصبح لبلادنا شرف يتكلم به أحد » (١) .

ومع هذه التعهـدات الحـازمة الجـازمة اسـتمر الاحتلال من ١٨٨٢ حتى ١٩٥٤ .

عمـل الاستعمار البريطانى على القضـاء على القوى الوطنيـة المسـتعدة للتحرك وعلى رأسـها الجيش فسرحتـه ، وأعـادت تشـكيله تحت قيـادة بريطانية جعلته فى خدمة الاسـتعمار البريطـانى سـواء فى مصر أو السـودان . ولم يكتف الانجليز بالقضـاء على الجيش الوطنى وانما عطلوا كذلك كـل الحريات السياسية والصـحفية فيما عـدا مـا يتعلق بأعوان الاحتلال . فكانت صحيفة المقطم (صـوت الاحتلال) لصـاحبها فارس نمـر ، بينمـا أوقفت الصـحف الوطنيـة الأخـرى .

وعندما حـاول أحمـد شريف باشـا رئيس الوزارة المصرية الحفـاظ على وحدة مصر والسـودان ، وكانت فى السـودان ثورة المهـدى المعادية للاستعمار البريطانى فى مصر وخارج مصر ، أصـدرت الحكومة البريطانية أوامرها بأن تخلى القـوات المصرية السـودان ، وان اى رئيس وزراء مصرى لا يقبـل نصـائح الحكومة البريطانية وسياستها عليه أن يغـادر كرسى الوزارة . فغـادرها أحمد شريف باشـا قائلا كلمته المأثورة :

« اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » .

وكان ذلك مقدمة لاخراج الجيش المصرى من السـودان الأمـر الذى مهـد لوقوع السـودان هو الآخر فى يـد الانجليز .

---

(١) ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ، ص ١٩ .

وهكذا سيترتب عن الاحتلال الانجليزى لمصر قضايا هامة :

١ — قضية الاحتلال البريطانى وتركيز الشعب المصرى على التحرر منه .

٢ — قضية التحكم البريطانى فى قناة السويس ووضعها فى خدمة الاستعمار البريطانى .

٣ — قضية وحدة وادى النيل وسعى الانجليز الى الانفراد بالسودان دون مصر .

فمنذ أن فتحت قوات محمد على السودان ١٨٣٠ —١٨٣٣ (١) ظل وادى النيل وحدة سياسية متكاملة . وازدهرت أموره وظهرت فيه المدن الكبيرة التى يفخر بها وعلى راسها الخرطوم . ولكن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تعرض السودان — لمثل ما تعرضت له مصر — من موظفين اجانب (٢) اسندت اليهم المناصب العليا فيه ، واتراك وشراكسة أساءوا ادارة البلاد ، الأمر الذى اثار روح الثورة بين المواطنين ، وقامت ثورة بزعامة محمد احمد المهدى ، الذى اشتهر باسم « مهدى السودان » واتخذ من جزيرة (ابا) مركزا له .

وهناك اتجاه عام فى المؤلفات يشير الى الثورة المهدية التى قامت فى وقت مقارب جدا من نشوب الثورة العرابية كانت موجهة ضد مصر ، والحقيقة أنها كانت لنفس الأسباب تقريبا التى قامت من أجلها ثورة أحمد عرابى . بل بعد ان سقط عرابى فى يد الانجليز (١٨٨٢) كانت مشاعر المصريين الاحرار متعلقة بنجاح ثورة المهدى لعلها تعطى لمصر دفعة قوية تمكنها من أن تعود الى الكفاح ضد الاستعمار البريطانى . كان هذا واضحا فى عدة مقالات شديدة اللهجة والحماسة كتبها الشيخ محمد عبده فى مجلة « العروة الوثقى » .

وتجلى هذا أيضا فى أول حملة بعثتها سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر الى السودان فى ١٨٥٤ ، وهى التى عرفت باسم حملة هكس باشا . اذ ان الجنود المصريين لم يحاربوا قوات المهدى ، بل انضمت القوات التى بقيت بعد المعركة الى جيش المهدى .

---

(١) فى أعقاب تسوية الأزمة بين السلطان العثمانى ومحمد على باشا فى ١٨٤٠ — ١٨٤١ صدر فرمان بتقليد محمد على حكم السودان بغير ارث .

(٢) من أمثال صمويل بيكر وغوردون .

وعندما تابع المهدى انتصاره ، وحاصر الخرطوم ،وكان بها غوردون باشا المكلف بسحب الجيش المصرى من السودان ، كان واضحا ان قلب المهدى كان مع مصر المحتلة ، فلقد سر كل السرور عندما علم بانتصار رجاله وبفتحهم مدينة الخرطوم (١٨٨٥) ، ولكنه أسف كل الاسف عندما علم ان غوردون باشا لقى مصرعه خلال ذلك ، فقد كان المهدى يريد غوردون حيا حتى يستبدل به احمد عرابى .

وتكاتفت القوى الاستعمارية ضد ثورة المهدى ، وخاصة أيام خليفته محمد التعايشى (١٨٨٥ - ١٨٩٦) . فقد كانت الحملات الانجليزية تضغط على السودان من الشمال فى الوقت الذى كان فيه الايطاليون يضغطون عليه من الشرق وكانت الحبشة تضغط على السودان من جنوب ، كما كانت هناك حملة فرنسية تستعد لغزو السودان من شرق وغرب . واشتهرت الحملة الفرنسية الآتية الى السودان من الغرب باسم حملة مارشان . هذا كله الى جانب استعدادات بلجيكية للتوسع من الكونغو صوب بحر الغزال . وبدا كان هناك سباقا عالميا على اقتسام السودان .

وكان طبيعيا ان يتركز التنافس المحموم بين بريطانيا وفرنسا ، حيث ان ايطاليا لم تثبت أمام الاحباش فى الشرق ، وحيث ان ملكية بلجيكا كانت تدرك ان مستقبل نجاحها فى التجربة الاستعمارية فى الكونغو يتوقف الى حد كبير على رضاء الحكومة البريطانية . وكانت أنباء تقدم حملة مارشان Marchand تثير الدوائر الانجليزية فى مختلف ارجاء العالم سواء فى أوربا أو فى مصر وأفريقيا ، وحتى فى الهند على اعتبار ان هذه الجهود الفرنسية وراءها ما وراءها من محاولات فرنسية مستميتة لبناء امبراطورية فرنسية على قدم المساواة مع الامبراطورية البريطانية فضلا عن ان كثيرا من الدول والبلدان المهيضة الجناح أمام بريطانيا كانت تنظر ما سيسفر عنه هذا الصدام الانجليزى الفرنسى فى جنوب السودان .

فتسابق كل من مارشان وكتشنر فى الوصول الى جنوب السودان والتقى الرجلان فى فاشودة . وهناك اخذ كتشنر دور المدافع عن المصالح المصرية . على اعتبار أن فاشودة جزء من السودان تابعة لمصر . والملاحظ هنا ان كتشنر عندما استولى على الخرطوم رفع عليها العلمين المصرى والبريطانى ، اما فى مواجهة الفرنسيين فى فاشودة فقد رفع العلم المصرى فقط .

واتهم مارشان بالعدوان على ارض تابعة لمصر . وطلب منه كتشنر أن ينسحب حتى لا يقع ما يعرض الدولتين الفرنسية والبريطانية لاشتباك فى حرب . وآثرت فرنسا ان تتخلى عن فاشودة لأن ظروفها العسكرية والسياسية لم تكن تمكنها من الحصول على نصر اكيد ، بل ان مؤشرات الخسارة كانت اكثر وضوحا .

فلم يكن لدى فرنسا الاسطول الذى يحمى سواحلها نفسها . ويعمل فيما وراء البحار . هذا فضلا عن ان آلمانيا – المنتصرة فى حرب السبعين – كانت ترغم فرنسا على الاحتفاظ بجيش كبير على الحدود الالمانية – الفرنسية .

ثم ان الجبهة الداخلية الفرنسية التى كانت تمزقها بعض القضايا وعلى راسها قضية (دريفوس) المشهورة ، ما كان ليتصور ان تدخل فى حرب طاحنة ضد بريطانيا من اجل فاشودة بينما هى لا تستطيع ذلك من اجل الالزاس واللورين . فضلا عن ان الحكمة السياسية كانت تتطلب كسب بريطانيا الى جانب فرنسا ضد المانيا . اذ لم تكن بريطانيا قد كشفت أوراقها بعد فى لعبة المحالفات الثنائية التى كانت دائرة بين دول القارة الأوربية .

وتجمعت العوامل السياسية والعسكرية فى جانب انسحاب الفرنسيين من فاشودة وتم ذلك ، واصبحت بريطانيا هى الدولة الأوربية الوحيدة فى السودان . ولم يكن فى استطاعة حكومة مصر ان تفعل شيئا له قيمته اذ كانت هى نفسها تحت الاحتلال البريطاني . وفى هذه الظروف وضعت الدوائر الانجليزية نصوص اتفاقيتى السودان ١٨٩٩ اللتين تنظمان حكم السودان ، ذلك الحكم الذى عرف باسم (الحكم الثنائى) ، وان كان – فى جوهره – تسلطا بريطانيا وهذا يتضح من نصوص اتفاقيتى السودان .

فقد نصتا على :

١ – أن افتتاح السودان كان بمجهودات بريطانية مصرية مالية وعسكرية .

٢ – ان حق الفتح يعطى للحكومة البريطانية حق الاشتراك فى حكم السودان .

٣ – رفع العلمين المصرى والانجليزى معا فى السودان ، باستثناء سواكن فقط .

٤ ـ الحاق وادى حلفا بالسودان .

٥ ـ الرئاسة العسكرية والمدنية لحاكم عام يعين بناء على طلب من حكومة بريطانيا ولا يفصل الا بعد موافقة كل من خديوى مصر وحكومة بريطانيا .

٦ ـ تطبق الأحكام العرفية فى السودان .

٧ ـ اعفاء صادرات مصر الى السودان من الضرائب الجمركية .

حقيقة لم ينص فى هاتين الاتفاقيتين على ان يكون الحاكم للسودان بريطانى الجنسية . ولكن أصرت بريطانيا ، وظلت مصرة باستمرار ، على أن يكون الحاكم العام انجليزيا . وبسبب التفوق البريطانى فى كل من مصر والسودان أصبحت سلطات الحاكم العام مطلقة فى البلاد . ومن ثم أصبحت لدى الانجليز فرصة ذهبية متسعة للغاية لفرض كل ما يرونه فى السودان سياسيا أو اقتصاديا ، والقضاء ـ ان أمكن ـ على كل ما يمكن ان يؤدى الى استمرار وحدة وادى النيل .

وهكذا أصبحت مصر والسودان تحت الاحتلال البريطانى وبدا واضحا ان الانجليز لن يغادروا البلاد الا بكفاح مرير طويل . وبدأت الجهود الوطنية بشكل فعال على يد مصطفى كامل الذى يرجع اليه الفضل الكبير فى تعبئة الشعب واعداده لمكافحة الاحتلال سواء فى داخل البلاد أو خارجها .

لم تهدأ المقاومة المصرية ضد الاحتلال البريطانى وانما كانت شعلتها فى أول الأمر ضعيفة ، رفعها ، بقدر ما كان لديه من قوة محمد عبده . الذى أسس مع استاذه جمال الدين الأفغانى ـ الفيلسوف التحررى الكبير ـ مجلة العروة الوثقى ، ليقاتل الانجليز الاستعماريين على صفحاتها .

كان محمد عبده يدعو الى قيام حركة اسلامية عامة ضد الوجود الانجليزى فى مصر ، وكان يؤكد انه :

« اذا حصل التساهل فى أمر مصر انفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة » وان ترك الانجليز فى مصر سيغرى المستعمرين بالتوسع فى بلاد جديدة اسلامية (١) .

(١) تاريخ الامام محمد عبده : ج ١ : ص ٣٥٩ .

لقد كانت هذه الآمال وتلك الأهداف السامية لا تجد أرضا صلبة قادرة على الوقوف عليها والتحرك منها ، ولعل محمد عبده نفسه ادرك هذه الحقيقة خلال سنوات نفيه فى بيروت واوربا فى الثمانيات من القرن التاسع عشر ، ادرك أن تحرير مصر من الاستعمار لن يكون الا باصلاح امورها الدينية والتعليمية ، واعداد جيل قادر على أن يقف على قدم المساواة حضاريا امام الاستعمار الأوربى . فكانت فلسفته الاصلاحية هذه جوهر مجهوداته بعد عودته الى مصر . فاصبح نشاطه قاصرا على اهل مصر ، ولم يتجه الى تلك الآمال الواسعة النطاق التى كان يدعو اليها والتى كانت تهدف الى تجميع قوى المسلمين العسكرية ضد الاستعمار الأوربى ولهذا تحول محمد عبده الى مصلح مصرى اسلامى ولم يكن له دور فى تطلعات مصر نحو عرب المشرق أو المغرب الا فى حدود ضيقة تقليدية . بل نلاحظ انه وقف موقفا شديدا ضد الفكر الثورى الذى احياه مصطفى كامل .

ان فلسفة محمد عبده الاصلاحية ، ومحاولات مصطفى كامل الوطنية لبعث الحركة الوطنية صورتان من صور كفاح مصر من اجل التحرر ، ولقد ظهرت فى مصر عدة حركات تحررية ، ولكن للأسف لم تلتق هذه القوى عند محصلة واحدة ولم تستطع تلك الحركات أن تجتمع تحت هدف واحد محدد تعمل كلها من اجله .

كانت الحركة التحريرية تعمل على أن تحيى فى المصريين اصرارهم على التحرر من الاستعمار ، وعلى أن تعيد الثقة الى نفوس الشعب وتحريك كوامن الكفاح فيه ، وتبلورت هذه الحركة فى الحزب الوطنى . وكانت طبيعة تكوينه وعماله واهدافه مصرية ، وكان مجال عمله الميدانى الرئيسى فى مصر بالذات . ومع هذا كان لهذه الحركة طابعان :

(أ) طابع مصرى .

(ب) طابع اسلامى .

ولقد اشرنا الى الطابع المصرى والى أن ظروف مصر هى التى ادت الى ظهوره ، اما الطابع الاسلامى فهو وليد الماضى البعيد . ولكن زاد هذا الطابع قوة على يد مصطفى كامل والحزب الوطنى .. فلقد كان مصطفى كامل يستخدم فكرة الخلافة الاسلامية كوسيلة من وسائل تحرير مصر من الاستعمار الانجليزى .

وهنـاك من اشتط وهـاجم مصطفى كامل بأنه كان يضحى بمصر من أجل الدولة العثمانية ، وانه يريد أن يضعها تحت حكم السلطان عبد الحميد الثانى المستبد الفاسد (١) .

والحق أن مصطفى كامل حين طالب بعودة مصر الى حظيرة الخلافة العثمانية كان يقصد تخليص مصر من الاستعمار الانجليزى مراعيا فى الوقت نفسه الا تفقد مصر الامتيازات التى سبق أن حصلت عليها من السلطان العثمانى منذ ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، والا تفقد مصر تطورها التقدمى الذى عرفت به طوال القرن التاسع عشر .

ثانيا : الحركة التحررية بزعامة لطفى السيد (٢) :

وهى تقوم على اسس تختلف عن اسس الحزب الوطنى وان هدفت فى نفس الوقت الى اقالة البلاد المصرية من عثرتها . فقد دعا لطفى السيد الى (القومية المصرية) ، ولهذا كانت هذه الحركة التحررية مقصورة على مصر وترتكز على كيان مصر المنفصل عن بقية أجزاء الوطن العربى والاسلامى .

ثالثا : الحركة التحررية العربية (٣) .

كان دعاة هذه الحركة من الزعماء العرب الذين حاولوا توجيه حكومة

---

(١) عن السلطان عبد الحميد أنظر : الماوتلن : عبد الحميد ظل الله على الأرض . تعريب راسم رشدى القاهرة ١٩٢٢ ، رامساور : تركيا الفتاة . ترجمة صالح العلى بيروت ١٩٥٩ .

V. Berard : La Revolition Turque, Paris. 1909.

G. Roy : Abdul Hamid le Sultan Rouge Paris 1936.

E. Pears : Life of Abdul Hamid ll. London 1917.

Zeine Zeine : Arab Turkish Reiations and the Emergence of Arab Nationailsm Khayat 1958.

(٢) كانت صحيفة « الجريدة » الناطقة بلسان هذه الحركة .

(٣) انظر عن الحركة العربية فى ١ — أحمد عزت الاعظمى القضية العربية ٦ اجزاء بغداد — ب اسعد داغر : ثورة العرب . القاهرة ١٩١٦ جـ — أمين سعيد الثورة العربية الكبرى — القاهرة د — جورج أنطونيوس يقظة العرب بيروت هـ — عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . القاهرة ١٩٣١ . أم القرى . القاهرة ١٣١٦ هـ و — محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، قوافل العروبة ومواكبها بيروت ١٩٥٠ د — توفيق برو : العرب والترك . القاهرة ١٩٦٠ .

السلطان عبد الحميد الثانى الى اصلاح أمور الدولة العثمانية بأساليب العصر واهدافه . وقد ادرك معظم هؤلاء الزعماء أن الحكم الاستبدادى الحميدى يهدد البلاد بالضياع ، وان احتكار الاتراك للحكم وللمناصب العليا أمر لا يمكن ان يرتضيه العرب شركاء الأتراك فى هذه الدولة .

وكانت هذه الحركة العربية تحتوى على جناحين :

(أ) جناح اسلامى عربى يمثله عبد الرحمن الكواكبى ورشيد رضا صاحب جريدة المنار .

(ب) جناح عربى اسلامى يمثله عبد الحميد الزهراوى وغيره من دعاة التحرر العربى .

والى جانب هذين الجناحين كان هناك قوميون عرب معظمهم من مسيحيى لبنان أو من العلمانيين العرب وحزب اللامركزية العربى .

كانت هذه الأجنحة موجودة فى مصر ، واتخذت منها مقرا مؤقتا لها ، وذلك لأن السلطان عبد الحميد الثانى كان يطارد معارضيه بقسوة ، فلا يجد هؤلاء أمامهم سوى الفرار الى بلاد لا تقع تحت حكمه مباشرة ، وكانت مصر اكثر البقاع امنا للمناهضين للسلطان عبد الحميد الثانى ، حيث أن سلطات الاحتلال الانجليزى كانت تترك لهم حرية البقاء فى مصر والعمل ضد السلطان العثمانى حيث ان هذا كان على هوى الانجليز ومن مصلحتهم .

ومما لا شك فيه أن الانجليز هم الذين كانوا يحاولون تقديم مساعداتهم الى الزعماء العرب ، وأن هؤلاء الزعماء العرب كانوا يتجنبون التعاون معهم باستثناء بعض الدعاة وخاصة اللبنانيين منهم الذين كانوا يطالبون بتدخل كل من انجلترا وفرنسا الى جانب الحركة التحررية العربية ونذكر منهم نجيب عروزى . الا ان اتخاذ الزعماء العرب من مصر ملجأ لهم — وهى الواقعة تحت الاحتلال الانجليزى ومطالبة بعض الزعماء العرب اللبنانيين بتدخل فرنسا وانجلترا لصالح الحركة العربية جعل من اليسير على السلطات العثمانية أن تتهم هذه الحركة العربية التحررية بأنها صنيعة الانجليز أعداء الاسلام والمسلمين . فكان هذا من الأسباب التى جعلت هذه الحركة التحررية العربية منفصلة عن الحركة التحررية التى

يتزعمها مصطفى كامل فى مصر ، وكان طبيعيا أن تكون منفصلة عن الحركة التحررية التى يتزعمها لطفى السيد ذو الاتجاهات المصرية المحددة .

وكما كانت هناك تيارات قوية فى البلاد العربية ضد استبداد عبد الحميد الثانى كانت هناك حركات كبرى ضده بين كبار ضباط الجيش العثمانى نفسه ، وبين التقدميين الأتراك فى انقاذ الدولة العثمانية من الاستعمار الأوربى . وكانت جمعية الاتحاد والترقى (١) هى أبرز هذه القوى العاملة ضد عبد الحميد الثانى ونجحت فى تدبير انقلاب كبير ضده فى ١٩٠٨ ، ثم اقصته عن العرش فى ١٩٠٩ ، وتسلم رجال جمعية الاتحاد والترقى مقاليد الحكم منذ ذلك التاريخ وسيطروا على مقدرات البلاد حتى الحرب العالمية الأولى .

لقد ابتهجت البلاد العربية لنجاح انقلاب جمعية الاتحاد والترقى فاعلن محمد فريد — رئيس الحزب الوطنى (٢) — أنه يمد يده الى رجال جمعية الاتحاد والترقى ، وكان يرجو أن تمد حكومة الاتحاديين لمصر يد المعونة ليساعدوها على التخلص من الاستعمار الانجليزى . وفى العراق عمت الفرحة البلاد لأن عهد الكابوس الحميدى قد انقضى وجاء العهد الدستورى على يد الاتحاديين حيث صدر الدستور فعلا فى ١٩٠٨ ، ذلك الدستور الذى رأى فيه الزعماء العرب الوسيلة التى ستؤدى الى اشتراك الشعب فى ادارة اموره وفى رفع قدرات الأهالى الى الدرجة التى يستطيعون بها مقاومة الاستغلال الأوربى للبلاد . ولقد كان العراق يعانى حينذاك من احتكار شركة لينش الانجليزية التجارة فى انهار العراق .

ولكن سرعان ما تبددت تلك الآمال حيث وجد الزعماء العرب أن الاتحاديين يمثلون لونا جديدا من الاستبداد والتسلط هو اشد خطورة على مستقبل العرب من استبداد السلطان عبد الحميد الثانى . فقد كان عدد كبير من رجال جمعية الاتحاد والترقى من دعاة تتريك الدولة العثمانية بقضها وقضيضها ، وتحويل من ليس تركيا الى أن يصبح تركيا ، فاصبح على العربى أن يتخلى عن لغته وقوميته وأن يصبح تركيا .

---

(١) انظر عنها فى رامسارو : تركيا الفتاة . ترجمة احمد صالح العلى . بيروت ١٩٥٩ ، الفصل السادس من كتاب يقظة العرب ، رفيق العظم : مجموعة آثار رفيق العظم . الجامعة العثمانية والعصبية التركية نشر عثمان العظم — القاهرة ١٣٤٤ هـ ، توفيق برو : العرب والترك : الفصل الثانى .

(٢) تولى رئاسة الحزب الوطنى بعد وفاة : مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ .

وعلى مســتوى الولايات العربية ، كانت الامتيازات العظمى تعطى للأتــراك دون العرب ، وعندما أجريت الانتخابات ، كانت أغلبيــة الناجحين من الأتــراك ، واقلية قليلة من العرب لا تتناسب مع ضخامة عدد العرب فى الدولة العثمــانية . بل لقد انتخب نواب ترك عن مناطق عربية ، كما أن جمعية الاتحاد والترقى تدخلت فى الانتخابات من وراء ستار لتضمن نجاح رجالها فى الانتخابات وأن للأتراك أغلبية عددية فى مجلس المبعوثان (النواب) التركى .

وكان طبيعيا أن تكون اتجاهات الحكومة الاتحادية واتجاهات هذا البرلمــان التركى نحو خدمة المصالح التركية على حساب المصالح العربية . وتجلى هــذا فى موقف خطير وقفه المسئولون من مشكلة الاحتلال الانجليزى لمصر .

فلقد سافر محمد فريد على راس وفد مصرى الى الأســتانة للمشــاركة فى احتفالات ذكرى اصدار الدستور ، وقوبل الوفد المصرى هناك بحفاوة بالغة جعلته يعتقد ان مجهودات الحكومة العثمانية من أجل تخليص مصر من الانجليز فى عهد الاتحاديين ستكون أكبر وأكثر فاعلية من مجهودات الســلطان عبدالحميد الثانى ، ولكن بعد عودة الوفد المصرى أخــذ موقفا لاتحاديين يتغــير ، بل ويأخــذ شــكلا يضر بالقضية المصرية ، فقد نفى الصدر الأعظم حسين حلمى باشا كل علاقة تربط رجال تركيا الفتاة بالحزب الوطنى المصرى ، بل لقد أعلن أن الباب العالى راض عن الحكم القائم حينذاك فى مصر ، أو بمعنى آخر أن الباب العالى كان يوافق على بقاء الاحتلال الانجليزى فى مصر ، ثم صدرت تصريحات أخرى من أحــد الزعماء الأتراك وهو سليمان نظيف باشا — الذى عين واليــا على البصرة — طعن فيها فى الحزب الوطنى المصرى (١) .

وهكذا كان موقف الأتراك العثمانيين من القضــية المصرية يدل على تخــاذل شديد . وكان هذا التخاذل شاملا لهذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بالرعايا العــرب فى هذه الدولة . ولكن الحــركة التحــررية العــربية الموجهة ضد سياسة الأتراك العثمانية التعسفية كانت هى الأخرى لا تقدر الحركة التحررية المصرية حــق قدرها ، وفصلت الحركة التحــررية العربية نفسها — وساعد الغرب الاســتعمارى فى ذلك — عن الحركة التحررية المصرية ، ومن ذلك أن الزعماء العرب حين دعــوا

(١) توفيق برو : العرب والترك ص : ١٩٠ — ٢٠١ .

الى عقد مؤتمر فى باريس لتحديد موقفهم من الحكم التركى فى ١٩١٣ لم يدخلوا المصريين فى حسابهم ، بل كان عبد الحميد الزهراوى الزعيم العربى ورئيس المؤتمر العربى فى باريس داعيا الى ابعاد القضية المصرية عن هذا المؤتمر الأمر الذى يؤكد لنا ان حزب اللامركزية العربى فى مصر يكاد يكون منعزلا انعزالا كبيرا عن تيار الحركة التحررية فى وادى النيل ، ويتجلى هذا أيضا من موقف عبد الحميد الزهراوى نفسه من شاب مصرى جاء الىالمؤتمر العربى هو « سيد افندي كامل » الذى سأل عبد الحميد الزهراوى عما اذا كان المصرى يحق فى ان يشترك فى مناقشات للمؤتمر اجابه بقوله :

« نحن نحترم اخواننا المصريين ونحترم آراءهم وبهذه المناسبة اعتذر لانى لم اجد فرصة قبل الآن لتحية الأمة المصرية والآن نحيى اخواننا المصريين ونبدى احترامنا لآرائهم ، ونعرف أن مصر عربية عثمانية ولكن بما ان لهما ادارة خاصة لا ينفذ فيهما راى العثمانيين وكذلك لبلاد العثمانيين ادارة لا ينفذ فيها راى المصريين ، لذلك ارجو ان يكون هذا عذر لبقاء مناقشة الشئون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لآرائهم حق التاثير على احوالهم » (١) .

الا ان فكرة التحرر ذاتها كانت قادرة على أن تخلق الظروف التى تجمع بين هذه الحركات التحررية وكان كفاح عزيز المصرى من اجل حرية العرب ورعاية الدولة العثمانية عاملا رئيسيا فى خلق ظروف ادت الى تقارب كبير بين الحركتين التحرريتين فى كل من مصر والعديد من البلاد العربية الأخرى .

ان دراسة جهاد عزيز على المصرى هو فى الحقيقة دراسة للرجل الذى خلق الترابط الحركى بين وطنيى مصر ووطنيى العراق . فقد تربى عزيز المصرى فى مصر ، وعاش فترة صباه تحت حكم كرومر ، وكانت كلمات مصطفى كامل الوطنية تهز مشاعره ، واراد ان يكمل تعليمه فى فرنسا تشبها بمصطفى كامل ليعود من هناك باسمى انواع التعليم والوطنية مثل مصطفى كامل . ولكن كان هذا فى سنة ١٩٠٤ وهى السنة التى عقدت فيها فرنسا الوفاق الودى مع انجلترا .

---

(١) توفيق برو : العرب والترك : ص٥٢٠ .

فاطلقت هذه يد فرنسا فى مراكش واطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر . ومعنى هذا ان فرنسا كشفت عن وجهها الاستعمارى بكل وضوح وضحت بمصر من اجل اطماعها . فقرر عزيز المصرى ان يذهب الى استامبول .وهناك اكمل دراسته العليا وتخرج ضابطا فى الجيش التركى واشترك فى انقلاب ١٩٠٨ ضد عبد الحميد الثانى .وكذلك فى القضاء على الانقلاب الذى دبره عبد الحميد الثانى ضد الحكومة الجديدة وصدر الدستور ١٩٠٩ . وقد فشل انقلاب عبد الحميد الثانى وفقد عرشه بينما استمر رجال تركيا الفتاة فى الحكم ولكنهم اتبعوا سياسة عنصرية تركية ولهذا قرر عزيز المصرى ان يأخذ جانب العرب ضد سياسة التتريك واشترك فى الجمعية القحطانية السرية التى الفها سليم الجزائرى فى ١٩١١ ثم شكل هو جمعية من ضباط الجيش وهى جمعية لم تكن مقصورة على العرب ولكن الذى حدث هو ان من انتمى الى تلك الجمعية كانوا من العرب . وعرفت هذه الجمعية باسم جمعية العهد . وكان عدد من الضباط العراقيين اعضاء فى هذه الجمعية . وكانت الحكومة التركية قد اخذت تخشى من نشاط عزيز المصرى منذ ان اكتسب شعبيته باستبساله فى الحرب ضد ايطاليا فى طرابلس . فدبرت له الحكومة التركية تهمة وقبضت عليه وحكمت عليه بالاعدام . فما كان من زعماء العراق والعرب الوطنيين الا ان قاموا بنشاط ضخم من اجل اطلاق سراحه كذلك فى مصر قامت المظاهرات الكبرى ضد الحكومة العثمانية وكان لهذا التكاتف الشعبى العراقى المصرى اثره فى ارغام الحكومة التركية على اطلاق سراحه فعاد الى مصر (١٩١٤) (١) .

وبعد وقت قصير وقعت الحرب العالمية الأولى ودخلت تركيا الحرب

---

(١) عن اعتقال عزيز المصرى وصداه فى العراق ومصر انظر :
سليمان فيضى : فى غمرة النضال . بغداد ١٩٥٢ : ص ١٤٩ — ١٥٣ .
توفيق برو : العرب والترك :القاهرة ١٩٦٠ : ص ٥٦٢ — ٥٦٥ . ويحاول الأتراك اثبات أن الأزمة التى وقعت بين عزيز المصرى من جهة ووزير الحربية (أنور بك) من جهة اخرى ترجع الى اسباب شخصية انظر :
جمال باشا :مذكرات جمال باشا : تعريب على احمد شكرى القاهرة ١٩٢٣ ص ٦٥ — ١٠٣ .

ضد دول الحلفاء (روسيا وانجلترا وفرنسا) واعلن الخليفة العثمانى الجهاد المقدس . وكانت انجلترا فى حاجة ماسة لثورة عربية ضد السلطان لتكسر حدة الدعوة الى الجهاد المقدس ولتفتح على الاتراك جبهة جديدة فاتصل المسئولون الانجليز بعزيز المصرى يحثونه على التعاون معهم ضد الأتراك فاشترط عزيز عليهم ان يعلنوا صراحةانهم لن ينزلوا قواتهم فى البلادالعربية وانهم لا يضمرون استعمار البلاد العربية . واكد لهم انه مستعد لطرد الأتراك من العراق لو نقلوه الى البصرة على ظهر سفينة بريطانية واعطوه كميات من السلاح على الا ينزلوا هم الى أرض العراق اى جندى انجليزى (١) . وكان عزيز على بعيد النظر حين قال لهم انه اذا وجد نفسه فى هذه الحالة فى حاجة الى معونة اجنبية لتحرير العراق والشام من الترك فانه سيطلب معونة فرنسية بالنسبة العراق ومعونة انجليزية بالنسبة للشام ، لأن عزيز على كان يعرف تمام المعرفة ان الفرنسيين لا يمكن أن يتركوا الانجليز يثبتون فى الشام ، ولا الانجليز يتركون العراق للفرنسيين (٢) . وبحثوا عن شخصية أخرى تقوم بالثورة على الأتراك . وكان حسين بن على — شريف مكة — على استعداد للثورة عليهم ففاتحوه فى الأمر بواسطة هنرى مكماهون ، ودارت المراسلات المعروفة بين مكماهون والشريف حسين والتى وافق فى نهايتها الشريف على اعلان الثورة على الأتراك دون أن يحصل من الانجليز على التزام واضح باحترام استقلال البلاد العربية .

ولما علم عزيز على المصرى بذلك أخطر اعضاء حزب العهد بعدم الشروط بارتباطات مع الانجليز الا اذا قدموا تعهدات واضحة باستقلال البلاد العربية وحذرهم من النيات الانجليزية الاستعمارية ومع هذا نجد عزيز المصرى — بعد ذلك — يشترك فى الثورة العربية فما هو السبب ؟ حقيقة قبل عزيز المصرى ان يتولى قيادة جيش الثورة العربية ولكنه كان مقتنعا بأنها ستؤدى الى ان يستعمر الانجليز البلاد العربية حيث أنهم لم

---

(١) M. Khadduri : Aziz Ali Misri and the Arab Nationalist Movement (' St Antony's Papers Mo 17 Middle Eastern Affairs. No. 4 Edited by A. Hourani, London, 1965, pp. 152 – 155.

(٢) Ibid

يعطوا العرب ضمانات كافية بالاستقلال . وكانت وجهة نظر عزيز المصرى هى أنه اذا أراد العرب القتال فليقاتلوا الى جانب الأتراك ضد الانجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد العربية فعلا . وهنا يتفق عزيز المصرى مع الزعيم العراقى المعروف طالب النقيب من حيث أن كلا منهما رفض التعاون مع الانجليز فقد طالب النقيب :

« ان الذى لا يرضى بحكم الأتراك ، اخوانه فى الدين ، احرى به أن يأبى حكم الانجليز » (١) .

ولهذا عندما تولى عزيز المصرى قيادة الجيش العربى فى الحجاز عزم على احداث انقلاب ضد الشريف حسين بن على ليتسلم الحكومة منه ليتعاون مع الأتراك ضد الانجليز . ولكن فشلت المحاولة حيث اكتشف الانجليز أمره وعاد عزيز المصرى الى القاهرة (٢) وسارت الأمور ضد مصلحة العرب فقد استولى الانجليز على العراق واصبح مثل مصر تحت الحكم الانجليزى وهذا ما كان يخشاه كل من طالب النقيب وعزيز المصرى .

وهنا نتساءل : من كان على حق ؟ أولئك الذين راهنوا على انتصار الأتراك الذين هزموا فى الحرب العالمية الأولى وأدى ذلك الى مزيد من الاستعمار البريطانى والفرنسى فى البلاد العربية أم أولئك الذين تعاونوا مع الانجليز على أمل الحصول على الاستقلال ؟

---

(١) سليمان فيضى : فى غمرة النضال ص ١٩٢ .

(٢) M. Khadduri; op cit pp 154 * 255.

الفصل السابع

ثورة ١٩١٩

كانت الحكومة البريطانية تعرف أن ظروف الحرب من أكثرها مناسبة لضم مصر نهائيا الى الممتلكات البريطانية . ولهذا أعدت مذكرة سرية بواسطة المسئولين الانجليز لعرضها على حلفاء بريطانيا للحصول على موافقتهم على الضم فى ١٩ نوفمبر ١٩١٤ .

ولكن لماذا تلجأ بريطانيا الى الضم بينما هى فى الحقيقة مسيطرة سيطرة فعلية عليها ؟ السبب فى هذا يرجع الى ان بريطانيا كانت تعمل على ان تحول مصر الى مجرد مستعمرة ليس لأى دولة أخرى حق التمثيل فيها ، او اى حق فيها ، فتستثمرها استثمارها للمستعمرات الأخرى البريطانية فى افريقية وآسيا . ولكن حال دون ذلك عوامل جوهرية اهمها :

١ — ان لمصر حضارة وقوة ثقافية كبرى مؤثرة كان من العسير على بريطانيا التغاضى عنها حتى ولو بدا أن ضمها كان ممكنا من الناحية العسكرية .

٢ — ان روسيا — حليفة بريطانيا — طلبت شيئا خطيرا فى مقابل موافقتها على ضم مصر للممتلكات البريطانية فقد طلبت الحصول على مضايق الدردنيل والبسفور .

٣ — اما فرنسا فقد أبدت معارضتها .

فكان ان طوت بريطانيا صفحة هذا المشروع . ولكنه يكشف لنا كم كانت تبيت بريطانيا لمصر من مصير قاتم . واكتفت الحكومة البريطانية بأن اعلنت الحماية على مصر فى ١٩١٤/١٢/١٨ فى انتظار فرصة أخرى ملائمة لاعلان ضم مصر الى ممتلكاتها .

ويبدو ان الزعامات الحاكمة كانت قد لمست حينذاك ان هناك شيئا خطيرا يبيته الانجليز لمصر ، ولذلك ظهر مشروع — على يد رئيس وزراء مصر حسين رشدى — باعلان مصر ملكية مستقلة مرتبطة ببريطانيا . ولكن الانجليز قبروا المشروع وهو فى المهد (١٩١٥ — ١٩١٧) . ولقد كانت هناك فعلا مشروعات أخرى تهدد مستقبل مصر واهمها :

١ — فرض النظم القضائية البريطانية على مصر وجعل اللغـة الانجليزية لغة رسمية فى المحاكم مع أن اقلية جـدا من الشعب كانت تعرفهـا .

٢ — وضع قوانين تنزل مصر الى مستوى المستعمرات .

وكانت الزعامات المصرية قد شـعرت بتلـك المشروعات فانزعجت وعملت على التحرك ضـدها . وبدأ سـعد زغلول هذه التحركات مسـتندا الى منصـبه كوكيل منتخب للجمعية التشريعية المصرية . ولكن لم يمكنه الانجليز من أن يشـكل جبهة وطنية للعمل ضد تـلك المشـاريع وخاصـة ان ظروف الحـرب والأحكام العرفية كانت لا تزال قائمة .. ولكن كان السـلطان فؤاد (فؤاد الأول) يخشى هو أيضـا على عرشـه من تلك المخططات فعمـل على الاتصـال بالرئيس الأمريكى ولسون — من وراء ظهر الانجليز — مطالبا بتطبيق حق تقـرير المصير على مصر ، وذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهدنة نوفمبر ١٩١٨ .

وبدأت تظهـر قيـادات معـادية للوجود الانجليزى فى مصر وهى :

١ — قيادات معتدلة جـدا ، تتمثل فى الأسرة الحاكمة (فؤاد الأول والأمراء) وكانوا يعملون على الحفاظ على العرش لهم .

٢ — قيادات وطنيـة ، بزعامة سـعد زغلول . كانت فى نظـر الانجليـز قيـادات متطرفة .

كما أن الجمـاعات المصرية فى خارج مصر ، فى فرنسـا ، وفى سـويسرا، بدأت تتحرك هى الأخرى مطالبة بعرض قضية مصر على مؤتمـر الصـلح . ومن هذا يتبين لنـا أن كافة الاتجاهات الوطنية كانت تدعو الى عرض القضـية عـلى مؤتمر الصلح . وكان الانجليز يودون لو اقتصر ذلك على الحـزب المعتدل . ولكن هذا الحزب المعتدل نفسـه ادرك أن الانجليز لن يعطوه شـيئا من الاسـتقلال الا اذا استند الى قوة شعبية ، وحيث ان سـعد زغلول كانت له حصيلة شـعبية مناسبة فقد اتجه الجناح المعتدل الى اشراك سـعد زغلول معـه فى السـفر الى مؤتمر الصلح فى باريس بطريقة ما حتى لو كره الانجليز ذلـك . ومن ناحية أخرى اسرع الجنـاح الوطـنى الى التحرك والى مقـابلة ونجت (المندوب السـامى البريطـانى) .

كان المجتمعون فى (١٩١٨/١١/١٣) بالمندوب السامى البريطانى ثلاثة هم :

١ — سعد زغلول .

٢ — عبد العزيز فهمى .

٣ — على شعراوى .

اكد الأول (لو نجت) ان هناك رايا عاما فى مصر وراء المطالبة بالاستقلال واكد له الثانى أن مصر « تريد الاستقلال . وصداقة بريطانيا صداقة الحر للحر ، لا العبد للحر » . وعزمت السلطات البريطانية على وضع العقبات فى وجه هذه الزعامات ومنعها من السفر الى خارج مصر . ولذلك عمل الزعماء المصريون على الاتصال بالقناصل الأجانب فى مصر لكشف حقيقة أهداف الحركة التحررية المصرية وتعسف بريطانيا ازاءها . واعلن سعد زغلول بطلان الحماية البريطانية على مصر (فبراير ١٩١٩) فاتجهت السلطات البريطانية الى العنف .

وقبل أن نخوض فى أسباب وتطورات ونتائج ثورة ١٩١٩ يجدر بنا ان نضع بعض الحقائق التاريخية أمامنا :

١ — لقد خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الأولى أكبر دولة فى العالم . وفى الشرق الأوسط بالذات كانت هى صاحبة اليد العليا فى توجيه أموره . ومن ثم كانت الحركات الثورية التحررية العربية الناشئة تجابه القوة الاستعمارية الكبرى وهى فى أوج قوتها . ومن ثم كانت بريطانيا تسعى الى أن تظل الحماية مفروضة على مصر دون تغيير ما ، وخاصة بعد انتصارها الضخم على المانيا .

٢ — ان بريطانيا كانت تدرك أن هناك حركة وطنية فى مصر ، وانها كانت تعرف شخصيات هذه الحركة ، ومن كان عنيفا ضدها سبق لها أن أبعدته أو قضت عليه ، ومن كان متفاهما معها تركته يتحدث عن الاصلاح فى حدود ضيقة ولهذا كانت تعتقد أن الزعامة الوطنية تحت سيطرة سلطات الاحتلال البريطانى .

٣ — ان السلطات الانجليزية ضربت على البلاد عزلة سياسية قاسية . ولكن نمو الصحافة فى مصر خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، أعطى لها امكانيات كشف الأمور أمام الجماهير المثقفة . وخاصة ما تناقلته الأنباء عن مبادىء رئيس الولايات المتحدة الأربعة عشر التى من بينها حق تقرير المصير .

وحيث ان الولايات المتحدة الأمريكية كانت حليفة بريطانيا . فقد اعتقدت الزعامات المصرية أن هذا المبدأ يمكن أن يطبق على مصر ويمكن أن ترضى به بريطانيا . وخاصة اذا أبدى الزعماء المصريون لبريطانيا حسن نيتهم وقبولهم نوعا من الامتياز لبريطانيا فى مصر فى مقابل الاعتراف البريطانى بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٤ — خلال سنوات الحرب انقطعت الواردات الأوروبية الى مصر . وتزايدت حاجات الجيوش الانجليزية فى مصر الى كثير من المواد الغذائية فنشأت بعض الصناعات التى يمكن أن تحل محل الصناعات الأوروبية . فكان ذلك سببا فى ازدهار الصناعة المحلية الوطنية التى كانت بيد الأجانب فنمت بعض رؤوس الأموال الوطنية .

٥ — ان الحكم الانجليزى فى مصر عنى بالانتاج الزراعى ، وخاصة القطن ، لتموين مصانع لانكشير به فكان ان نمت طبقة كبار الملاك ، وكذلك نمت الراسمالية الوطنية الزراعية .

٦ — منذ مائة سنة كانت مصر تتطور بسرعة فى تجديد الادارات الحكومية ، وانشاء أجهزة ادارية فى القاهرة ، وفى المديريات (المحافظات) ، فنشأ نظام حكومى بيرقراطى استطاع أن يسيطر على عمل الحكومات . وكانت كل وزارة (نظارة) يتولاها وزير مصرى ، ولكن له مستشار انجليزى يملى عليه أسلوب العمل . ومع هذا كانت هذه الادارات والوزارات بمثابة مدارس تعلم فيها أبناء الشعب المصرى كثيرا من ايجابيات العمل الثورى ، كما أن كثيرين من الموظفين استكانوا الى سلبيات البيروقراطية التى يسيطر عليها المحتل الانجليزى .

٧ — ان الحركة التعليمية فى مصر كانت تواجه عقبات شديدة تضعها أمامها سلطات الاحتلال التى كانت ضد سياسة التعليم الشعبى حتى لقد قلصت عدد المدارس الثانوية من ٢٠ عند بداية الاحتلال الى أربعة فقط فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وأما المدارس الأولية فكانت لا تستوعب الا ١٠ ٪ من الأطفال ولا يستطيع هؤلاء ان يحصلوا على مستوى أعلى من التعليم فسرعان ما يفقدون ما تعلموه .

٨ — كانت هناك مدارس عالية ، استطاعت ان تفتح أمام بعض أفراد الشعب آفاق الفكر التحررى ، مثل مدرسة الحقوق ، ومدرسة الصنايع ، ومدرسة المهندسخانة . بعيدا عن المدارس التبشيرية التى كانت تمد الفتيان

والفتيات اعدادا يجعلهم غير منسجمين مع البيئة المصرية التى يعيشون فيها ، وبعيدا عن المدارس الأجنبية التى تخلق من تلامذتها مفكرين على مستويات طيبة ، ولكن على أساس أوربى لا يستطيع أن يفهم متطلبات وطنه .

اقدم المندوب السامى البريطانى (ونجت Wnigate) على عمل كان يعتقد أنه سينهى هذه المشكلة بسرعة ، وهو اعتقال ونفى سعد زغلول ورفاقه . وكان سعد زغلول نفسه يعتقد أن الأمور لن تتطور بقوة من وراء ذلك . وعلى غير ما كان يتوقعه كل من ونجت وسعد زغلول هب الشعب المصرى كله فى ثورة عارمة (مارس ١٩١٩) لدى سماعه بانباء نفى سعد زغلول .

لقد وجد سعد زغلول أن الشعب كله فى ثورة ، فلاحون وعمال ورجال دين من مختلف الطوائف ،ومثقفون ، ورأسمالية زراعية واقطاعية ، وموظفون ، ونساء وفتيات نزلن الى المظاهرات ضد الاحتلال . هذه هى قوى الثورة التى هبت قبل أن يطلب منها زعيم أن تثور ، ومن هنا كانت قيمة ثورة ١٩١٩ . ويجب علينا أن نحلل هذه الثورة على مختلف اتجاهاتها وكياناتها وتكويناتها .

هناك اتجاه جديد فى تحليل هذه القوى الى رأسمالية وبرجوازية ومثقفين وطلبة ، وعمال ، وفلاحين . أو بمعنى آخر تصنيف هو خليط بين القوى الاقتصادية ، والفئات الحرفية والانتلجنسيا .

وهناك من يحلل هذه القوى على أساس مدى المشاركة والقدرة على القيام بالعمل الثورى الظاهرى فيضع الزعامات المصرية السياسية والدينية فى قمة هذه القوى ، وانه لولا هذه الزعامات لما استطاعت الثورة أن تبدأ أو تستمر أو تصل الى نتائج ما .

وفريق ثالث يضع القوى الكادحة على أساس أنها هى قوة الثورة الحقيقية التى بدأت فخانتها الرأسمالية والبرجوازية ومنعت التطور الاشتراكى الذى يمكن أن يستمر ويتطور او لم تقف الرأسمالية والبرجوازية فى وجه تطور الثورة التحررية من الاستعمار الى ثورة اجتماعية .

تلك الاتجاهات فى تحليل الثورة بأقلام وطنية مصرية تغلب عليها ميول الكاتب أو المؤرخ الى حد كبير . وأما المؤرخون الأجانب فلننظر ماذا قالوا عن الاتجاهات التحررية لدى الشعب .

كانت مصر فى نظـر الانجليز قـد أصبحت مجـرد مسـتعمرة ، بعـد ذلك الانتصـار الكبـير فى الحـرب العالميـة الأولى . وشرع كبـار رجـال القـانون الانجليـز يدرسـون القوانين الجـديدة التى يجب أن تطبق فى مصر ، وصـبغ مصر بالصـبغة الانجليزية ، ورفع (شـأن !) العاميـة للقضـاء على اللغـة العربية الفصـحى ، ورفـع (شـأن !) الفرعونية ، التى غادرتهـا مصر منـذ اكثر من الف عام ، وملأوا الوظائف بالموظفين الانجليز ، وجعلوا الوظائف الكتابية الصغرى فى يـد المصريين ، وهو أسـلوب نجـح فى اسـتعمار الانجليز للهنـد ، وفرضوا على مصر اقتصـاديات ارتبطت ماليـا وتجاريا بالصـناعات الانجليزية والبيوت التجارية البريطانية فى بريطانيا والمستعمرات . ومن وراء كـل هذا كانت نظـرة الانجليز الى قوى الشعب فى مصر على النحو التالى :

١ ـ رأسمالية مرتبطة بالمصالح الانجليزية ومستعدة للتعـاون مع سلطات الاحتلال لو حدث تحرك وطنى فى البـلاد ضـد الوجود الانجليزى فيها .

٢ ـ كبـار ملاك زراعيين تقوم دخولهم على أسـاس تصـدير القطن الى المصانع البريطانية ، فتكون دخولهم بمئات الألوف من الجنيهات اذا تعـاونوا مـع الانجليز ، ويتعرضون لمستقبل مالى مزعزع اذا قامت ثورة تحررية .

٣ ـ فلاحون يتصاعد دخلهم (عـدة قروش) كلما ارتفعت اثمـان القطن . وبسـبب قدراتهم التعليمية البسـيطة كانوا يرون فى كبـار المـلاك قـوة لهـا مكانتها المحترمة فى نفوسـهم على اساسين :

(أ) انهم أصحاب الأرض التى يعيشـون عليها ويخدمون فيها .

(ب) انهم قوة قادرة على ضرب أية تحركات ضدهم .

ولكن اخـذت هذه المفـاهيم تتزعزع عندما (انتشر) التعليم الى حـد مـا على يـد الهيئات الوطنية المصرية مثـل الحـزب الوطنى الذى كان يفتح المدارس المجانية لتعليم ابناء الشـعب فبدأت آفاق الفلاحين فى التطور ، وخاصة بظهـور زعامات وطنية تؤمن بالفلاح وتكشف عن الظلم الفظيع الذى يعانيه فى صـمت . وكان على رأس هذه الحركة مصطفى كامل ومحمـد فريد .

بدأت لدى الفلاحين اتجاهات قوية نحو المسـتقبل الأفضـل ، مسـتقبل لابنائهم يختلف عما عاشـوه هم . مسـتقبل فيه تعليم ، وفيـه أعمـال ، وفيـه

وظائف راقية لابناء الشعب وليس للانجليز ، ومجالات للتقدم ليس لأبناء (الباشوات والبكوات والأعيان) ولكن للجميع .

كانت الصحف الوطنية قد نبهت الفلاحين الى كثير من جوانب الحياة المتطورة ، وجوانب عديدة من فكرة المساواة . وكانت قوة هذه التطلعات راجعة الى كراهية بغيضة للاحتلال الانجليزى ، وايمان حقيقى بأن المكاسب الضخمة التى يحصل عليها الانجليز هى التى تجعلهم متشبثين (ببر مصر) . وان هؤلاء الباشوات والأعيان يسيرون فى ركاب الانجليز ، فلم يقف هؤلاء مثلا وقفة كتلك التى وقفها مصطفى كامل — نصير الفلاح — ضد كرومر بسبب حادثة دنشواى (١٩٠٦) التى شنق فيها الانجليز من الفلاحين عددا ليس بالقليل ، وحبسوا وجلدوا ، لا لشىء الا لأن كرومر اراد ان يثبت للمصريين وللحزب الوطنى أن مصر قد صار أمرها كله للانجليز وان لا حول ولا قوة لها بعد أن عقدت بريطانيا مع فرنسا الوفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ان قيمة حادثة دنشواى ، ودفاع مصطفى كامل عن الفلاح ، وعن القانون ، وعن الحقوق ، جعل فلاحى مصر لا يتعلقون بكبار الملاك الا على مضض وتحت ضغط الحاجة الى ما يسد الرمق ، فكانت هذه القوة الشعبية مستعدة للعمل ضد الوجود الانجليزى عندما تسنح لها القيادة والفرصة . فمع ان الفلاحين كانوا يمثلون حوالى ٧٠٪ من شعب مصر ، الا انه لم تكن هناك روابط تربطهم بعضهم ببعض. لم يكن الفلاحون قوة واحدة ، وانما كانوا قاعدة شعبية مفككة متناثرة ، بلا زعامة . ولكنها كانت قوة اصيلة حضارية ، قادرة على فهم متطلبات الزمن عندما توضع امامها ، واعية الى خطورة الوجود الانجليزى فى مصر ، وشاعرة فى نفس الوقت بعجزها عن التحرك .

ومن ثم كانت المعضلة التى تواجه التحرك الفلاحى فى مصر هو عدم وجود الزعيم الذى يستطيع ان يجعل كل الانظار متعلقة به ، ويجعل الأيدى ممدودة اليه . هذا الزعيم يجب أن تتوفر فيه الامكانيات التالية :

١ — قوة ذات تأثير اسلامى عربى مصرى ضد الوجود الاستعمارى .

٢ — قوة تقدمية تنظر الى مصالح الفلاحين والى حقهم فى حياة افضل .

وتاريخ الفلاحين . كقوة تحررية ، مهضوم فى كتب التاريخ . نظرا لطغيان الزعامات على تاريخ البلاد . ولو القينا نظرة سريعة الى فلاحى مصر لوضع تاريخ تحررى له لوجدنا فيه أصالة تختلف عن تلك الصورة البغيضة

التى يرسمها مؤلفو الغرب عنه . فهو فى نظر مؤرخى الغرب - وللأسف أيضا فى نظر بعض كتاب الشرق العربى ومؤرخيه - مستكين للذل ، وطغيان الحكام ، ولا يستطيع ان يحرر نفسه من قيود الخضوع التى يرسف تحتها منذ أيام الفراعنة ! ويتباهى بعض المؤرخين بما فى بلادهم من عصبيات عشائرية متمردة ثائرة على الحكومات .

ولكن يجب ان نضع فى الاعتبار ان البيئة الزراعية والعمل الزراعى ، والانتاج الزراعى هو مرتبة متقدمة جدا من مراتب الحضارة ، لا تزال التشكيلات العشائرية بعيدة عنها كل البعد ، ولا تزال الجهود الحكومية المضنية تبذل من اجل تحويل تلك العشائر الى قوى مستقرة فلاحية منتجة ، حضارية : ان التشكيل العشائرى ، العصبى ، والطائفى اقرب الى البدائية منه الى متطلبات العصر .

ففى تاريخ مصر القديم ، كانت حضارتها تقوم على اكتساف الفلاح ، وفى التاريخ الاسلامى ، كان ثراء مصر ، وثراء حكامها يرجع الى قدرات ارضها فى زيادة الانتاج . وعاش الفلاح فى مستويات من التقدم (النسبى) كما كان يعيش غيره فى مختلف ارجاء العالم . حتى جاء العصر الحديث ، بالاستعمار ابتداء بالحملة الفرنسية . لقد قضت الحملة الفرنسية على الوجود المملوكى فى القاهرة ، وفى الدلتا ، ولكن الشعب المصرى فى الأرياف رفض تلك الهزيمة التى منيت بها العسكرية المملوكية ، وشنت على الوجود الفرنسى فى مصر حربا لا هوادة فيها من قرية لأخرى حتى أقنعت نابليون بونابرت انه يعيش هو وجيشه فى ارض معادية . وكان يعتقد انه لو ضرب المماليك ضربة قاضية لن يرفع مصرى واحد يده فى وجه الاستعمار الفرنسى .

وهناك مئات من الالوف من الفلاحين الذين عملوا فى شق قناة السويس، وكانوا يسخرون تسخيرا فى هذا العمل ، وكان الواحد منهم يحصل ٢,٥ قرش فقط ، ان لم يكن مسخرا . ومات منهم الآلاف خلال عمليات الحفر تاركين فى صدر ذويهم ذكريات مؤلمة تنتظر من يوقظها .

وخلال الثورة العرابية ، وقف الفلاحون بما لديهم من مخزون قليل من الغلال والأموال وراء أحمد عرابى ، ووراء جيشه الذى تولى قتال الانجليز . وبعد الهزيمة العسكرية قضى الانجليز على اية مؤسسة عسكرية تستطيع أن تقدم شيئا من الطعام او الدواء حتى ولو مكانا ليموت فيه المصاب من جند

مصر ، فى هذه الأزمة الساحقة كانت بيوت الفلاحين ، وامكانياتهم البسيطة ملاذ هؤلاء الجند . لقد كانت ذكريات غير بعيدة عن ١٩١٩ .

لقد كان هناك جيل متقدم فى السن شاهد هذا وآلمه ، ولكن غرس فى أبنائه روح العودة الى النضال ، وهناك جيل جديد تربى على تلك الآلام وتطلع الى مستقبل افضل . فقرر أن يتحرك عندما تحين الفرصة .

وكان طبيعيا أن يكون هناك من هذا الجيل ، ومن ذلك دعاة هزيمة . وانهزامية ، وان الانجليز لا يمكن ان يخرجوا من مصر . وان الفلاح لا حول له ولا قوة ، وانه ليس بالامكان تغيير أموره فى وجه الاستعمار ، وفى وجه كبار الملاك والباشوات والأعيان . وانه اذا أريد تعديل لاحوال البلاد فليكن هذا عن طريق ذوى المكانة العليا ، وليس عن طريق الفلاح نفسه لأنه لا يستطيع التفاهم مع (الذوات) . هذه الاتجاهات كانت خطيرة ، ومثبطة للهمم ، وتوطدها الرأسمالية والملاك الكبار فضلا عن سلطات الاحتلال البريطانى . وكان من الممكن أن يستمر ذلك فترة من الزمن تطول أو تقصر . ولكن لابد لها من أن تنتهى وتصل الى طريق مسدود يرى فيه الفلاح انه تعاون مع كبار الملاك الى اقصى طاقته . واعطاهم وحرم نفسه ، ومكن الانجليز من فترات من الهدوء لعلهم يبرون بوعودهم فيتركون البلاد لأهلها ، ويغير كبار الملاك من سياستهم ازاء الفلاح وابنائه . وفعلا خلال الحرب العالمية الأولى ، كانت قوى التحرك فى الفلاح المصرى قد نمت ، لا بسبب نمو الفكر والثقافة فى القرى فقط . بل كذلك بسبب الأزمات الشديدة الاقتصادية التى عاناها الفلاح المصرى خلال الحرب العالمية الأولى .

فخلال الحرب العالمية الأولى جمعت السلطات البريطانية الفلاحين بالقوة للعمل فى الجيش البريطانى . بل لقد وصلت بعض هذه الفرق من المصريين حتى فرنسا . ومات منهم الألوف .

وخلال تلك الحرب كذلك (اشترى !) الانجليز من الفلاحين فى مصر انتاجهم بأبخس الأثمان : أليس الانجليز يدافعون عن مصر ضد الأتراك والألمان ؟!!

هذا هو فلاح مصر ، الذى سنجده هو والطلبة القوة الثورية الحقيقية فى ١٩١٩ وكانت الزعامة التى تولت هذه الثورة لا تعتقد انه على هذه المقدرة الكبيرة فى التحرك ، بل لقد فوجىء الإنجليز بهذا التحرك لأنهم كانوا يضحكون ملء

الانواه كلما سمعوا زعيما وطنيا مثل سعد زغلول . وقبلة مصطفى كامل يتحدث عن الفلاح ، وانه هو شعب مصر الحقيقى الذى يجب أن تتم كل الأمور باسمه سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية .

القوة الثانية التى نراها عصبا رئيسيا للثورة المصرية عبارة عن تحالف عاطفى بين الطلبة والعمال ضد العدو المشترك (الاحتلال البريطانى) .

والقوة العددية للعمال فى مصر كانت قليلة ، كذلك كان الحال بالنسبة الطلاب ولكن سيكون لهم دور كبير فى تطور الثورة المصرية .

فالمجتمع المصرى زراعى فلاحى فى أساسه ، والتصنيع كان محدودا جدا ، بل ان الحرفيين كانوا فى تدهور سريع تحت الاحتلال البريطانى . فقد توقفت الكثير من الحرف الصناعية اليدوية بسبب تدفق المنتجات الأوربية الرخيصة ، وكان من مصلحة سلطات الاحتلال أن تزيد من فتح ابواب مصر امام التجارة البريطانية بصفة خاصة . وكانت النتائج السريعة التى تحققت فى مصر هى رخص فى الاسواق ، وتوفر السلع ، فأقبل الكثيرون عليها ، بل عدها بعض الكتاب (نعمة) من نعم الاحتلال البريطانى على مصر . ولم ينظروا الى المستقبل البعيد ، وهو ان مصر ظلت متخلفة صناعيا فى عصر يتطور صناعيا ، وما كان هذا الا خدمة للأهداف الاستعمارية البريطانية . لقد وضعت سلطات الاحتلال البريطانى مصالح بريطانيا قبل مصر وعمالها . ولم تكن تعنى بتطور مصر على مستوى العصر .

ولكن قوى العصر وتطوره أقوى من تحديات وتخطيطات الاستعمار اذ لابد ان تتسرب الحركة الصناعية بطريقة أو بأخرى الى البلد المحتل ، فقد بدأت تظهر بعض الصناعات الاستهلاكية : صناعة السجائر ، صناعة السكر ، صناعة حلج القطن . كما أن هناك مشروعات تستوعب الألوف من العمال كان على الاستعمار ان ينفذها خدمة لمصالحه أولا ، واعنى بذلك مد خطوط السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة الى جوف الصعيد لنقل الانتاج المصرى من القطن ، وغيره من أنواع الانتاج المحلى فضلا عن الضرورات العسكرية ، والأرباح الباهظة التى تكسبها شركة سكك حديد فى قطر كبير كمصر .

هذه هى المؤسسات التى تجمعت فيها اعداد كبيرة من العمال . ولم تكن هناك قوة مدافعة عن حقوقهم الا الزعامة الوطنية المناهضة للاحتلال ومن هنا ارتبطت الحركة العمالية بالحركة الوطنية ، رغم سوء أحوال العمال الشديد ، ورغم مقاومة سلطات الاحتلال كافة الجهود التى بذلت لانشاء نقابات عمالية . ومع هذا نجحت زعامات الحزب الوطنى فى انشاء « نقابة عمال الصنائع اليدوية » . ونظرا لانه كان من الخطر على مستقبل هذه النقابة ان تعمل علانية فى مجال الدفاع عن حقوق العمال ، لجأت الى العمل السرى ، حتى لا تتعرض لضربة قاضية على يد سلطات الاحتلال البريطانى ، وعلى يد كبار الراسمالية المستعدة باستمرار للتعاون مع القوى الاستعمارية ضد الحركات العمالية التحررية . ومع هذا استطاعت الحركة العمالية أن تفرض نفسها على مسرح الوطن قبل ١٩١٩ . ففى ١٩١٠ قام اضراب كبير عمالى ، على يد عمال شركة سكك حديد مصر ، ايذانا بمشاركات جديدة فى الحركات التحررية عندما تحين الفرصة . ولعل تركيز عمال السكك الحديدية فى القاهرة كان من العوامل الجوهرية التى جعلت منهم قوة متلاحمة العمل الجماعى من اجل مستقبلهم ومن اجل مستقبل البلاد ، وجعلهم قوة من العسير القضاء عليها .

أما بالنسبة لعمال محالج القطن فقد كانوا مبعثرين فى مختلف مدن مصر الكبرى ، والصغرى . ولم يكن هناك ما يجمع بينهم سوى الفقر المدقع دون أن تكون هناك اية روابط بين عمال محلج وآخر . ولذلك كانوا قوة غير مرئية ، وانما طاقة مستعدة للمشاركة فى العمل الوطنى اذا ما وجدت فرصتها .

كما هو واضح من هذا العرض ، كانت هناك حوافز للتحرك الوطنى وتطلعات الى مستقبل افضل ، ولكن دون أن تكون لدى هذه القوى العمالية ايديولوجيات اشتراكية محددة واضحة المعالم . كانت الايديولوجيات الاشتراكية لدى مثقفين من خارج البيئات العمالية ، بيئات تشعر بقيمة الاشتراكية لهؤلاء العمال ، ولكنها لم تكن خارجة من بين صفوف العمال أنفسهم . ومن هؤلاء سلامة موسى الذى كان يدعو الى اشتراكية فابية طيبة فى اتجاهها ولكن من العسير أن تطبق فى بيئات مصر . وكان سلامة موسى يشكل الجناح اليسارى المعتدل فى مصر ، أما الجناح اليسارى المتطرف فكان يمثله الحزب الشيوعى .

وبادىء ذى بدء ، تجدر الاشارة الى ان دعاة الاشتراكية الفابية ، ودعاة الاشتراكية الشيوعية ، كانوا اقلية محدودة تحتوى فكرا اكثر مما كانت تحتويه من قوى عاملة متحدة ذات قواعد شعبية عامة متسعة بين صفوف العمال انفسهم . أما القاعدة العمالية العريضة . فكانت ذات اتجاهات واضحة :

١ — التحرر السياسى والعسكرى لمصر من الاحتلال على اعتبار انه المسئول الأول عن منع مصر من التقدم ومن افادة اهلها من خيراتها . وان اى تقدم على يد الانجليز فانما هو لخدمة لمصالح الأجنبية ، وليس من أجل مصر . ولهذا كانت هذه القاعدة العمالية مستعدة للالتفاف حول الزعيم الوطنى الذى يعلن حربه ضد الاستعمار .

٢ — ان العمال كانوا ينظرون الى طلبة المدارس نظرة تقدير واحترام ونظرة بعيدة الى آفاق جديدة . كان العمال ينظرون الى الطلبة — عن حق — انهم امل مصر . وانهم هم القوة الحقيقية التى يجب أن تتعاون معها الحركة العمالية من اجل تحرير مصر .

وهناك عدة عوامل جعلت الحركة العمالية ترتبط برباط وثيق مع الحركات التحررية الطلابية :

١ — كانت المدينة هى مركز تجمعات الطلاب والعمال ، فكان هذا التقارب المكانى عاملا رئيسيا فى اكتشاف كل من الآخر قدراته الثورية التحررية .

٢ — ان العمال فى المدن كان كثير منهم قد خرج من الطبقة الفقيرة ، أو هاجر من الريف ، والتلاميذ كانوا من أبناء الطبقة المتوسطة أو الفقيرة التى تكدح من أجل مستقبل افضل لابنائها . ولذلك كان التقارب (الطبقى) كفيلا بأن يتحول الى تلاحم اذا اتحدت الأهداف . وكان هدف التحرر من المستعمر الانجليزى كفيلا بأن يوحد هذا الالتحام .

٣ — شعرت الجماعات العمالية خلال الحرب العالمية الأولى بوطأة ارتفاع الأسعار . فالموظفون زيدت مرتباتهم ، وكبار التجار افادوا من الحرب بالمتاجرة مع الجيوش البريطانية ، أما صغار التجار فقد تضرروا نوعا . وكبار

الملاك كان لديهم ما يمكنهم من مواجهة أزمة الحرب . بينما اكتوى العمال بنيران الغلاء دون ما يشير الى تعويضات مناسبة .

اما الطلبة ، فكانوا قوة كبيرة ، وليسوا فقط امل العمال والفلاحين فى تحدى قوى الاستعمار ، وانما امل الموظفين ، والتجار ، والسيدات ، والعامة فى انقاذ مصر من الانجليز . والطالب فى ذلك الوقت كان مختلفا عن طالب اليوم . كان كبير السن ، كانت له مكانة اجتماعية مرموقة ، وكان معدودا من أركان الأسرة ودعامتها الرئيسية بعد رب الأسرة . وكان متفتحا على اهداف كبرى يتحدث عنها فى مدرسته ، وبيته ، وناديه . وكان يقرأ كثيرا عن زعماء مصر القريبين من أمثال مصطفى كامل . الم يكن مصطفى كامل طالبا عندما بدأ جهاده من أجل تحرير مصر ؟ اليست مدرسة الحقوق هى التى بدات الحركات التحررية ؟ اليس زعماء مصر من خريجى المدارس العليا ؟ ان مصر كانت متقدمة فى التعليم ، ورغم قلة عدد الطلبة الا انهم كانوا قوة فكرية ، قادرة على التحرك ، وخلق زعامات ميدانية ، تنفذ اتجاهات الزعامات الوطنية السياسية . وكانت قوة عامرة بالوطنية ، لا ترى أية غضاضة من أن يقف العامل جنبا الى جنب مع الطالب فى الصراع من اجل مصر . لقد استشهد مئات من الطلبة على اكتاف من كان يحملهم من العمال ومئات من العمال استشهدوا بين أيدى طلبة كانوا يحاولون بما لديهم من معلومات طبية بسيطة انقاذ المحتضرين منهم .

هنالك قوة شعبية اخرى بدات تظهر فى ميدان العمل التحررى . وهى موظفو الحكومة ، وموظفو المديريات فى الاقاليم . ولقد سبقت الاشارة الى ان كبار موظفى الدولة كانوا من الانجليز . ومن كان يرتفع الى تلك الوظائف العليا من غير الانجليز كانوا من الشركس أو الاتراك أو ابناء الاعيان . وكان هؤلاء منذ الثورة العرابية مستعدين للتعاون الى حد كبير مع السلطات البريطانية فى مصر حفاظا على مكانتهم ، وحتى لا تتكرر ثورة عرابية اخرى . وكان هؤلاء دعامة من دعائم الوجود الانجليزى فى مصر ، وكانوا فى نفس الوقت قوة يعتمد عليها السلطان (السلطان فؤاد) الذى جاء به الانجليز الى العرش وهو لا يعرف من العربية الا قليلها . ولا يعرف من أبناء الشعب الا تلك الفئات الشركسية التركية التى تحتاج اليه للاستمرار فى تسلطاتها ، والذى يحتاج هو اليها لانها تدافع عن الوجود التركى الشركسى فى مصر ضد نمو فى امكانيات الشعب المصرى فى ان

يحكم نفسه بنفسه . ولكن مما لا جدال فيه ان السلطان فؤاد كان ذكيا ويدرك ان المصريين اخذوا يزحفون على الوظائف الكبرى ، وبدات تظهر فيهم كفاءات جديدة قادرة على ازاحة العناصر التركية والانجليزية عن المناصب العليا ، كما كان يدرك ان السلطات البريطانية نفسها لن تتورع عن التخلى عن الأتراك والشراكسة والتعاون مع الزعامات المصرية الناشئة اذا ما وجدت مصلحتها فى هذا الاتجاه .

لهذا عمل السلطان فؤاد على تقريب الزعماء المصريين منهم ، ودمجهم فى المجتمع الشركسى دمجا ، اما عن طريق زيجات سياسية ، أو عن طريق ادخالهم فى دوامة المجتمعات التركية الأجنبية ، وصالونات الذوات وسيدات المجتمع (الراقى) الأمر الذى يؤدى الى انفصال هذه الزعامات بعد وقت — عن أصولها المصرية المكافحة . بل لقد ثبت ان بعض العناصر المصرية التى اندمجت فى المجتمع التركى — الشركسى كانت اشد قسوة على المصريين من أولئك الأتراك والشركس ، وكانت اشد خيانة للقضية التحررية المصرية .

ومهما كانت قدرات السراى ، والانجليز ، فى استيعاب الزعامات الناشئة المصرية ، الا أنه لابد أن يصلوا يوما ما أمام أعداد كبيرة من المصريين لا يمكن استيعابها أو فصلها عن قواعدها الشعبية التى خرجت منها . فتصبح هذه مترددة بين ذلك المجتمع (الراقى) ، وبين المجتمع المصرى الحقيقى المتطلع الى التحرر والتقدم .

ومن بين هؤلاء ستخرج الزعامات الجديدة الوطنية . وستكون لها ميزاتها ، وستكون لها مثالبها كذلك . فهذه الزعامات تدرك حقيقة ما كان يدور فى قصر الدوبارة (مقر المندوب السامى) من مؤامرات استعمارية ، وذلك نظرا للمستويات الثقافية التى وصلت اليها ، ورحلاتها التعليمية الى خارج مصر ، والى فرنسا بالذات ، ونظرا لامكانياتها على الاطلاع على تطورات الأمور خارج البلاد . فاصبحت أمور (قصر الدوبارة) مفهومة الى حد كبير لديهم . وبدأوا يتعلمون أساليب الدبلوماسية فى الأخذ والعطاء مع الانجليز ، وأخذوا يحذرون فى نفس الوقت أساليب الانجليز فى احداث تفرقة كبرى بين صفوف الوطنيين .

وهذه الزعامات مسموعة الكلمة لدى عدد كبير من (ذوات) مصر وعدد كبير من كبار الملاك ، وكانت كذلك محترمة لدى الفئات الكادحة (الفلاحون والعمال والطلبة) . وكانت محترمة جدا لدى الموظفين الذين كانوا يبحثون عن زعامة تتولى تحرير مصر ، ويعتقدون أن مثل هذه الزعامة لا يمكن أن تظهر الا من بين موظفي الدولة الذين خبروا مخططات الانجليز . ولقد كان العديد من زعماء الثورة فى مصر من أمثال سعد زغلول على هذا النحو .

واذا كان ارتفاع المصريين الى المناصب العليا بأعداد قليلة ، فان وجود عدد كبير من الموظفين المصريين فى مختلف أجهزة الحكومة اصبح يكون قوة لها مكانتها فى الحركة الوطنية . فلقد كرهت هذه الفئة من الموظفين اغلاق الوظائف العليا أمامها ، ولكن زاد حنقها على الوجود الانجليزى عندما شرعت الحكومة البريطانية فى ملء بعض الوظائف المتوسطة بموظفين انجليز ، وبالتالى أصبح من الواضح ان الانجليز يريدون أن يصبغوا الادارات والأجهزة المصرية بالصبغة الانجليزية بحيث تغلق تلك الوظائف المتوسطة فى وجههم ، وأدرك الموظفون أن مستقبلهم أصبح فى خطر ، ومن ناحية أخرى هم فئة مثقفة ذات تطلعات بالنسبة لنفسها . وبالنسبة لمستقبل أبنائها ، وحيث أن سياسة صبغ الادارات بالصبغة الانجليزية تهدد مستقبل هؤلاء الأبناء اتجهت هذه الفئة الى بث روح الثورة بين مختلف طبقات الشعب .

ولكن يجب أن نحدد هنا قدرات هذه الطائفة من الموظفين ازاء ثورة شعبية كبيرة ؟ ان تلك الطائفة على جانب كبير من الفكر الثورى ، والمنطق الثورى . وقادرة على تحريك النفوس ، وقادرة على شل أجهزة الدولة حتى لا تتيح للانجليز فرصة السيطرة عليها . ولكنها لم تكن بقادرة على الاستمرار فى الثورة مدة طويلة وان كانت قادرة على الاثارة . وذلك لأن هؤلاء الموظفين يعتمدون أولا وأخيرا على مرتباتهم الشهرية البسيطة . وانقطاعها عنهم يعنى ببساطة موتهم جوعا ، ولذلك كانت امكانياتهم فى الاثارة أقوى من قدراتهم على الثورة . ولكن هذا لا يقلل من قدراتهم ودورهم ، وانما هى الظروف التى تفرض نفسها على الأوضاع .

ويمثل الموظفون جزءا من القاعدة المثقفة فى مصر . فهناك المحامون ، وأصحاب الأعمال الحرة ، والصحافة بمن يعمل فيها ، وكانت الصحافة نشطة قوية رغم أنها كانت تحت عين الرقيب الدقيقة .

وكانت هذه الطبقة المثقفة حديثة التكوين ، تعيش الحضارة الأوروبية الجديدة والحضارة الشرقية التقليدية ، وبالتالى عندها قدرة على المقارنة وقبول التجارب والتغييرات والتجديدات فى البناء السياسى والاجتماعى فى البلاد ، ونظرا لاطلاعها على جوانب عديدة من تاريخ التحرر الأوروبى والأمريكى واليابانى ، فقد كانت ترى فى حضارة مصر القديمة والاسلامية والحديثة خلفية عريقة فى الاصالة الحضارية قادرة على ان ترفع مصر الى مستويات الدول الحرة وان ذلك لا يمكن أن يتم الا عن طريق اخراج الانجليز بثورة تحررية كتلك الثورات العالمية التحررية .

وهذه الطبقة المثقفة هى التى أعدت الفكر والمجتمع لتغييرات ثورية من أهمها نمو فكرة (تمصير) الاقتصاد ، وتحرر التعليم من قيود الماضى ، والعناية بنصف القوة البشرية (المرأة) فكان ان تحررت المرأة من قيود التزمت ، فكان ذلك اعدادا لها للمشاركة فى ثورة ١٩١٩ .

بعد هذه الفئات : (الفلاحون — العمال — الطلبة — المثقفون) ننتقل الى فئات أخرى ذات صفات قيادية غير ميدانية ، تخضع من الأهداف ما هو متأثر بمصالحهم تارة ، وتارة أخرى يسيرون مع تيار التحرر الشعبى حتى لا يتهموا بالتخلى عنه ، وتارة ثالثة يعارضون هذا التيار على اعتبار أنه بدأ يفلت من أيديهم . فلا زعامة للثورة الا زعامتهم . ولا هدف من ورائها الا ما يضعونه هم .وهى الزعامات الرأسمالية الوطنية .

هذه الرأسمالية الوطنية كانت زراعية فى غالبيتها العظمى وهى التى كانت تشغل معظم مقاعد الجمعية التشريعية ، وهى الهيئة الوحيدة التى كانت تمثل الشعب المصرى تحت الاحتلال البريطانى ، وكانت تحت توجيه الانجليز بطبيعة الحال . ولكنها رغم هذا كانت مدرسة تدرب فيها سياسيو مصر على العمل السياسى .

ونمت قوة الرأسمالية المصرية خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى وخلالها ، وذلك بسبب انقطاع ورود البضائع الأوربية الى مصر واعتماد الجيش الانجليزى على ما يمكن انتاجه من مصر سواء فى ميدان الصناعة أو فى ميدان الزراعة . وبالتالى ادركت الرأسمالية التجارية كم أنها

تستطيع ان تحصل على ارباح اكبر لو تفتحت امامها هى الاسواق الخارجية التى كانت تحتكر التعامل معها البيوتات المالية الأجنبية ، وخاصة الانجليزية .

اما كبار الملاك الزراعيين فقد اصيبوا بخسائر شديدة بسبب عدم تصدير القطن خلال سنوات الحرب التى كانت فى نظرهم حربا ابتدعها الانجليز ضد الألمان الذين كانوا فى نظر الرأسمالية المصرية قوة أوربية جديدة قادرة على كسر شوكة الانجليز .

وهناك قوة ليست ثورية . ولكنها ترى فى نفسها أنها احق القوى بالعمل السياسى من اجل اجلاء الانجليز عن مصر واعنى بذلك الحكومة القائمة حينذاك والمتمثلة فى السلطان فؤاد الأول وفى وزارة رشدى باشا . ولكنها قوى تريد الوصول الى تفاهم مع سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر بالتهديد بأن البلاد قد تثور فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه القوة ضد وقوع الثورة . كذلك كانت هذه القوة الحكومية ترى فى كبار الملاك والرأسمالية المصرية قوة لاستخدامها ضد الانجليز ولكن دون ان تتحول الأمور الى ثورة ضد الانجليز أو ثورة شعبية تدعو الى تحرير الطبقة الكادحة من ظلم الانجليز ، وظلم كبار الملاك ، وكبار الرأسماليين على السواء .

وما ان سمعت كل تلك القوى الوطنية ، على اختلاف درجاتها فى الثورية والوطنية ، بأن الانجليز رفضوا السماح لسعد زغلول بالسفر الى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح حتى هب الشعب كله فى ثورة واحدة ضد الاحتلال (٨ مارس ١٩١٩) . ووقف شعب مصر ، بلا جيش يستند اليه ، وبسلاح قديم جدا ، وقليل جدا ، وبلا زعامة واضحة محددة بعد نفى سعد زغلول ورفاقه ، وقف شعب مصر ثائرا ضد اكبر واقوى دولة فى العالم خرجت منذ وقت قصير جدا منتصرة فى أعظم حرب عالمية حينذاك . وهذه هى قيمة ثورة ١٩١٩ الكبرى ، فقد وضعت مفهوما للثورة أنها لا تهتم بقوة العدو بقدر ما تهتم بالتحرك الثورى تمهيدا لخطوات اخرى اذا ما توفرت الظروف .

ففى المدن ، وفى القاهرة بالذات ، كانت جموع الطلبة ، والعمال ، والمثقفين ، ورجال الأزهر ، طلبته وعلمائه ، ورجال الدين المسيحى قد جندوا انفسهم للمشاركة فى الثورة ، وكان الخطباء من شيوخ الأزهر يلهبون الشعب بخطبهم فى الكنائس ، وكان القساوسة يحمسون أفراد الشعب بخطبهم فى المساجد ، والطلبة والعمال والفتيات وقود الثورة فى مختلف الأحياء .

كان الفلاحون هم القوة الميدانية الكبرى ، التى لم تجعل الثورة مقصورة على المدن ، وانما جعلتها ثورة شعبية عامة من أقصى شمال دلتا مصر ، حتى أقصى جنوب صعيد مصر . وقامت هذه الجماهير بقطع خطوط المواصلات بين المدن بعضها وبعض معرقلة بذلك حركة القوات البريطانية ، وعازلة بعضها . لقد كانت زعامات ثورة الفلاحين زعامات ظهرت فجأة ، يدفعها العمل ضد المحتل الانجليزى دون أن يكون وراء ذلك تخطيط وتنظيم ثورى ، ومن ثم كانت الأعمال الثورية التى قام بها الفلاحون فى أول الأمر فعالة ، ولكن عندما أصبح على الفلاحين أن ينتقلوا من مرحلة العمل الثورى الفورى ، الى العمل الثورى المستمر المخطط الذى يحفظ للفلاحين قدراتهم على متابعة ثورتهم ، بدأت الأمور تضطرب . ولكن هناك عامل أشد خطورة لعب دورا هاما فى وضع حد لثورة الفلاحين .

لقد رحب كبار الملاك والرأسمالية المصرية بثورة الفلاحين ، وبثورة العمال والطلبة فى المدن ، وباضراب الموظفين ، وبتوقف الحياة كلها واتخاذ القوى الوطنية جانب الثورة . ولكن كانت القوى الرأسمالية تريد من الثوار أن يثوروا فقط ، ثم يتركوا الأمر فى يد الرأسمالية لتدبره مع الانجليز على مائدة المفاوضات . أما أن تستمر الثورة فهذا ما كانت لا تريده تلك الرأسمالية . ولكن حدث تطور أدى الى ازعاج الراسمالية ازعاجا أشد من استمرار الثورة وظهور قيادات وطنية عديدة ليست تحت سيطرة كبار الملاك وانما تحت توجيه المثقفين . هذا التطور هو أن جماعات من الفلاحين ادركت أن الثورة يجب أى لا تتركز فى اتجاه العمل السياسى للتحرر من الاحتلال ، وانما عليها أن تسعى وراء تحول اجتماعى يرفع مستوى الفلاح الى المكانة اللائقة به على أساس انه هو المضحى الأول والقوة الكبرى التى تدفع بدمائها ثمن الثورة .

فقد حدث أن نادى بعض الفلاحين بأن توزع أراضى كبار الملاك على الفلاحين وأن تتجه الثورة الى الاتجاه الاجتماعى . وكان هذا أخشى ما تخشاه الرأسمالية المصرية وكبار الملاك . فسعت هذه القوى الى وقف تطور الثورة عند هذا الحد قبل أن تمس مصالحهم مباشرة . وبالتالى يكون الفلاحون قد فقدوا القيادات التى يمكن أن تستمر فى توجيه ثورتهم وتحولت تلك القيادات الرأسمالية الى العمل ضد الثورة بالتعاون مع القوى الأخرى التى أزعجها نمو وتطور الثورة ، ونعنى بذلك السلطان فؤاد الأول . والأقلية الشركسية والتركية ، والوزارة ، والذوات ، وفوق هذا وذاك : سلطات الاحتلال البريطانى .

وادركت سلطات الاحتلال البريطانى أن فرصة ذهبية قد سنحت لها لضرب أكبر قوة من قوى الثورة (الفلاحون) . فأخذت أبواق السلطات البريطانية تردد ان الفلاحين قد تحولوا الى الشيوعية ، وانهم اعلنوا حكومة (سوفييتية) فى زفتا ، وجمهورية فى المنيا . وحيث أن الفكر الشيوعى حينذاك كان يعنى الالحاد والخروج عن نطاق التفكير السليم ، فان تلك الدعايات كانت مخططة بشكل يؤدى الى تفكيك الحركة الوطنية . بينما الحقيقة الثابتة حينذاك ، وبعد ذاك ، هى أن فلاحى مصر لم يكونوا قد سمعوا بالشيوعية ولا بكلمة (سوفيت) ، وان (الحزب) الشيوعى المصرى كان يتكون من حوالى عشرين شخصا فقط غالبيتهم العظمى من الأجانب الايطاليين واليونانيين الذين جاءوا بالفكر الشيوعى من مساقط رؤوسهم فى أوربا ، ولم يستطيعوا نشر هذا الفكر بين الفلاحين أو حتى بين العمال بسبب طبيعة تفكير الفلاح والعامل المصرى حينذاك .

ولكن كان تضخيم أبواق الانجليز فى مصر للخطر (الشيوعى) من العوامل التى جعلت الراسمالية المصرية تتخلى بسرعة عن الثورة .

ومع هذا فلربما كان فى استطاعة الفلاحين أن يتابعوا الثورة لفترة أطول وبمقاومة أشد عنادا لو لم تبدأ الثورة فى نفس الوقت الذى كان فيه للانجليز بمصر أكبر جيش فى المنطقة كان قد تكدس بها خلال فترة القتال ضد الاتراك على ضفتى القنال وخلال الزحف الانجليزى عبر فلسطين الى أقصى شمال الشام . ثم عادت وتركزت قوات كبيرة انجليزية فى مصر ولذلك كان هذا التفوق العسكرى الضخم من العوامل التى ارغمت الفلاحين على التوقف عن القتال .

وتخبطت فى أول الأمر السلطات البريطانية فى فهم أسباب هذه الثورة الكبرى ، وفوجئت بها ، ولم تكن تعتقد ابدا أن « أصحاب الجلاليب الزرق » يستطيعون أن يقوموا بكل تلك المجهودات فجأة ، ودون قيادات تتولى توجيههم . حتى لقد بدا هذا التخطيط واضحا فى الوثائق والتقارير البريطانية التى كانت تبعث من مصر الى الحكومة البريطانية . فقد كان الانجليز يقولون «انها تارة موجهة ضد السلطان فؤاد ، وتارة أخرى يقولون انها موجهة ضد البريطانيين ، وثالثة انها موجهة ضد الأجانب ، ورابعة انها ذات اتجاهات بولشفية » . ولا ندرى ان كان هذا التصور فى فهم حقيقة أسباب واهداف الثورة

راجعا الى عدم قدرة فى ادراك هذه الحقيقة بسبب خطورة المفاجأة أو انه كان محاولة مقصودة من جانب سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر .

ولنحاول أن نحلل كل ادعاء من تلك الادعاءات لنحدد ما يمكن أن يحقق الانجليز من ورائه من أهداف تفيدهم فى القضاء على الثورة والابقاء على سيطرتهم العليا على البلاد .

فالقول بأن الثوار المصريين مجرد متمردين على السلطان (الشرعى) للبلاد ، يجعلها حركة محلية ، ضد الحكومة ، وتعيد الى الأذهان ما سبق ان حدث خلال ثورة عرابى من تدخل بريطانى باسم حماية (الحاكم الشرعى) من المتمردين . وهذا الأسلوب من العمل كان مقبولا فى الدوائر السياسية الأوربية على اعتبار انها (دبلوماسية العصر) . وبذلك تكسب بريطانيا وقوف حكومات الدول الأخرى بجانبها ، وبجانب السلطان دفاعا عن (الحقوق الشرعية) .

ومن ناحية اخرى كان السلطان نفسه هو والأقلية الشركسية التركية وكبار الملاك والرأسمالية ، قد ازعجها هذا التصاعد الشعبى السريع ، وان الثورة فعلا لم تعد ثورتهم التى كانوا يريدون أن يلعبوا بها على طاولة المفاوضات .

ولهذا كان ادعاء السلطات البريطانية ان هذه الثورة ضد السلطان من الأمور التى تريح صدور الأقليات التى تخلت عن الثورة عندما أخذت طريقها الحقيقى نحو الثورة الشاملة .

ولكن سرعان ما تبين أن الثورة لا تعنى لا بالسلطان ، ولا بالأقليات التركية ، أو الأجنبية أو الرأسمالية ، تدر عنايتها بالعمل على اخراج الانجليز من مصر . وبدأت هذه الحقيقة بسرعة تتفوق على الدعايات البريطانية ، حتى أصبحت أمرا واقعا فى مختلف الدوائر السياسية الدولية . واضطر الانجليز اضطرارا الى ان يعترفوا فى قرارة انفسهم بأنها (ثورة وطنية) ، وان ظلوا فى نفس الوقت يعملون على تقويض المظهر الوطنى لها بكافة الوسائل .

الادعاء الثانى بأنها ثورة ذات اتجاهات بلشفية كان الغرض منه اثارة

الدوائر السياسية الأوروبية ضدها ، فقد كانت روسيا البلشفية حديثة الظهور (١٩١٧) ، وكان هناك عداء شديد لها فى كافة دول أوربا ، وخاصة فى فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . وكانت الزعامات المصرية الوطنية لا تزال تعتقد أنه يمكن الافادة من الفرنسيين والمنافسات الفرنسية البريطانية فى المنطقة فى ارغام الانجليز على الخروج من البلاد ، كما كان هؤلاء الزعماء يعتقدون أن الرئيس الأمريكى ويلسون يشد أزر الشعوب المطالبة بحق تقرير مصيرها استنادا الى مبادئه الأربعة عشر المعروفة . ومن ثم فان (تشويه) صورة الثورة المصرية لدى الدوائر الفرنسية والأمريكية على هذا النحو يجعل هذه الدوائر اقل تحمسا ان لم تقف الى جانب الانجليز ضد الثورة .

ولا شك فى ان هذه القوة التى بدت عليها الثورة منذ البداية كانت هى العامل الجوهرى — حتى بعد اخمادها بالقوة المسلحة — فى أن يغير الانجليز من اسلوبهم فى علاج الموقف بطريقة أخرى فيها بعض (التراجعات التآمرية) من جانبهم قد اضطروا اليها اضطرارا . ولكن هناك عامل آخر يهمل شأنه كثير من المؤرخين وهو اثر هذه الثورة المصرية فى دفع القوى الثورية الأخرى العربية الى التحرك . وفى هذا تحدثنا وثيقة بريطانية من الجنرال اللنبى الى أيرل كيرزن Curzon وزير خارجية بريطانيا فى ابريل ١٩١٩ ، ولأهميتها فى كشف هذا الجانب وبعض الجوانب الأخرى سنورد فقرات بنصها :

« ان الحركة الوطنية التى كانت فى بادىء الأمر حركة سياسية بحتة ، بدأت الآن تتخذ طابعا دينيا ، وجامع الأزهر هو مركز الاضطرابات الدينية ، حيث تلقى فيه الخطب المثيرة والنارية ليل نهار . وبالنظر الى الطبيعة المقدسة للجامع الأزهر والمعترف بها فى كافة أنحاء العالم الاسلامى فانه من غير الممكن كبح جماح من يرتادونه بالقوة .

وهناك من الشواهد ما يشير الى أن الحركة بدأت تؤثر فى سورية وفلسطين ، والخطر خطر حقيقى وجاد جدا ... وما لم تتقدم حكومة صاحب الجلالة بعض التنازلات فان الحالة ستعود الى ما كانت عليه من سوء ... واذا رفع الحظر المفروض على سفر (سعد زغلول ورفاقه الى مؤتمر الصلح) ... فانى أود أن أؤكد الأهمية العظمى للحصول على بيان عاجل باعتراف الدول الكبرى بحمايتنا » .

هذه هى بداية التراجع التآمرى :

ـ فالحركة حركة قومية تحررية ثورية ارادوا أن يقصروها على الفكر الدينى فقط حتى ينسبوها الى التعصب ، وحتى يثيروا فى داخل البلاد صراعا طائفيا .

ـ ان فرنسا كانت تريد السيطرة على سورية ولبنان ، وبالتالى فان نجاح ثورة مصر يعنى نجاح ثورة الشام من بعدها ولهذا كانت السلطات الفرنسية موافقة على استخدام الانجليز كافة امكانياتهم للقضاء على الثورة ومع هذا تسربت انباؤها الى البلاد العربية فثارت ولكن بعد مرور بعض الوقت .

ـ التنازلات التى يتحدث عنها اللنيبى ، تنازلات مظهرية للغاية (رفع الحظر المفروض على زعماء مصر) . وفى نفس الوقت اكد على العمل البريطانى على ابقاء الحماية على البلاد رغم الشعب وثورته .

وهناك احكام عديدة صدرت على هذه الثورة . وسنبدأ بعرض وجهة نظر متاخرة فى ١٩٥٣ أبداها ثورى من طراز جديد هو جمال عبد الناصر ، فقد قال فى كتابه مانصه :

« الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها افرادا وطبقات » .

« ان هناك ثلاثة اسباب واضحة ادت الى فشل هذه الثورة ولابد من تقييمها فى هذه المرحلة تقييما امينا ومنصفا » .

١ ـ « ان القيادات الثورية اغفلت اغفالا يكاد يكون تاما مطالب التغيير الاجتماعى ، على أن تبرير ذلك واضح فى طبيعة المرحلة التاريخية التى جعلت من طبقة ملاك الأراضى اساسا للاحزاب السياسية التى تصدت لقيادة الثورة ... » وهذا هو الذى ادى الى اخراج الفلاحين والعمال من الثورة فى وقت مبكر .

٢ ـ « ان القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ انه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية » .

٣ — لعب الموقف الدولى دورا خطيرا فى منع الثورة المصرية من الوصول الى اهدافها . ولقد مر بنا كم بذلت الحكومة البريطانية من جهود من اجل الحصول على الاعتراف بحمايتها على مصر من الدول الكبرى ، الأمر الذى أغلق الباب امام الكثير من الجهود المصرية للضغط على بريطانيا .لقد كانت القوى الاستعمارية فى ذروتها ، وكانت اكبر حكومة بدت على جانب من العدالة وهى حكومة الرئيس ويلسون مستعدة للتنحى عن دورها المعتدل وتغليب المصالح الذاتية على المبادىء العالمية الحرة ، فما انحصلت على نصيبها من بترول الموصل ، حتى اغلقت الباب فى وجه الحركات التحررية فى الوطن العربى .

وهذا التفسير لنتائج ثورة ١٩١٩ يتمشى مع ما سبق ان اشرنا اليه عند تحليل قوى الثورة وزعامتها . وكيف ان القيادات خشيت من تطور الثورة الى مفاهيم اجتماعية ، وكيف ان الدول الكبرى خانت قضية التحرر .

ولكن هناك مكاسب حققتها الثورة :

١ — كان اولا لابد من ثورة ، سواء على مفهوم طبقى ، او على مفهوم سياسى ، ضد الاحتلال البريطانى لمصر ، وقدمت ثورة ١٩١٩ هذه الثورة لتكون مثالا تحتذيه شعوب العرب الأخرى المناضلة ضد الاستعمار . وتحدثنا كتابات من شاركوا فى ثورة العراق ١٩٢٠ أن ثورة ١٩٢٠ نشبت بسرعة بتشجيع قوى من ثورة مصر ١٩١٩ .

٢ — اتضح للانجليز انهم ما عادوا يقيمون على أرض خاضعة وانما اصبحت أرض مصر حتى بعد اخماد الثورة بالقوة ، ارضا معادية خطرة على الوجود الانجليزى ، وبالتالى اصبح عليه أن يتخذ طريقا من طريقين :

(أ) اما أن يفرض الانجليز وجودهم بكل قوة وقسوة وان يقضوا على أية بادرة تحرك ثورى فى البلاد .

(ب) او أن يتنازل عن بعض امتيازاته الاستعمارية ليوقع الزعامات المصرية فى حيرة بين الحصول على الاستقلال دفعة واحدة ، والحصول عليه بالتدريج .

ولا شك ان الانجليز ادركوا بسرعة ومنذ البداية انه من العسير كل العسر القضاء على الروح الثورية فى مصر بالسلاح باستمرار . بل قدروا أن

استخدام الضغط العسكرى باستمرار سيسرع من نمو الحركات الثورية مجددا . ورات سلطات الاحتلال ان الطريق الثانى اكثر ملاءمة وخاصة انها وجدت فى السلطان فؤاد ، وفى الذوات وفى الراسمالية وكبار الملاك اعوانا لها فى الاحتفاظ باكبر قدر من الامتيازات ، بل وفى احداث تغييرات مظهرية فى حقيقة أوضاع الاحتلال البريطانى فى مصر الا قليلا .

وفى سبيل ذلك تحركت الدبلوماسية الانجليزية فى عدة اتجاهات سندرسها بالتفصيل فيما بعد ، وهى :

١ – الافراج عن سعد زغلول ورفاقه وتغيير فى القيادات البريطانية وارسال لجنة تحقيق (ملنر) ، واثارة المنازعات بين الزعامات .

٢ – محاكمات قاسية لزعماء الثوار ، والعودة لنفى سعد زغلول ورفاقه .

٣ – الحصول على تاييد الدول الكبرى لسياسة بريطانيا الارهابية فى مصر .

٤ – التراجع المظهرى فى حالة تعذر الوصول الى حل لمشكلة الاضرابات (تصريح فبراير ١٩٢٢) .

فى علاج الحكومة البريطانية للقضية المصرية ، عملت على تغيير فى القيادات البريطانية ، حتى تظهر بمظهر الراغب فى الوصول الى تفاهم ، وحتى تعطى للمصريين صورة من صور الانتصار ، ولكنه انتصار مظهرى . فقد أبعدوا السير ريجلاند وينجت Wingate عن منصب المندوب السامى فى مصر وجاءوا مكانه بالجنرال اللنبى فى خضم اشاعة كبرى ، انه هو القائد المنتصر الذى فتح الشام باسره خلال الحرب العالمية الاولى . وانه لن يقبل السلاح لغة فى التفاهم ، وانه قوى لن يتورع عن استخدام كافة الجيوش (لاعادة فتح مصر) ، والجزء الثانى من حرب الدعاية كان يتحدث عن اللنبى على اعتبار انه الرجل الذى يقدر مطالب مصر حق قدرها ، ويفهم رغبات الشعب ، ويريد الوصول الى حل يرضى المصريين .

وفى نفس الوقت ، استخدم (اللنبى) قواته بقسوة ، فى سياسة ارهاب شاملة ضد مختلف طبقات الشعب . فقبض على المئات ، ثم الألوف وبدات المحاكمات وصدرت احكام السجن المؤبد ، والاعدام بكثرة فى كثير

من اجـزاء البـلاد . وعملت سـلطات الاحتـلال على ضرب القرى بقسـوة ، ممـا أرغـم الثـوار على توقيف حـركتهم العـامة للتحول الى نـوع من حـرب العصابات تولاها المثقفون فى المـدن ، واضرابات تتوالى فى المـدارس والأزهر . وبدا للانجليز انه أمكن السيطرة على الموقف . ولكن قـوة الثـورة ظلت كامنة ، وامكانيات تجددها واضـحة ، ومن ثم كان لابد كما ذكر النبى من تنازلات بريطانية ، وهى التى نطلق عليها (التراجع التآمرى) .

وكان أهم تحـرك انجليزى ضـد الثـورة خارج البـلاد هو منـع القـوى الدولية من مشاركة المصريين آمالهم ، ولذلك عملوا على الحصـول على موافقـة الدول الكبرى على الحماية البريطانية على مصر :

فالمانيا المهزومة ، ارغمت ارغاما على الاعتراف بالحمـاية البريطانيـة على مصر ضمن وثيقة معاهدة فرسـاى .

واذا كانت المانيـا مغلوبة على امرها ، فان موقف الولايات المتحدة الأمريكية من فرض الحماية فرضـا بقوة السـلاح على مصر يختلف اختلافا شديدا .

فالمعروف ان مبدأ « حق تقرير المصير » كان اهـم مبـدأ نادى بـه الرئيس ويلسـون ، ونال من أجله تقدير الجميـع ، وتعلقت به البـلاد المهضـومة الحق لعلها تنـال استقلالها . وروج عملاء وقناصل الولايات المتحدة فى مختلف أجـزاء الشرق العربى ان الولايات المتحدة ذات أهداف سامية راقية لا أهداف اسـتعمارية لها ، بل أهداف حضـارية سـامية ترمى الى تحرير كافة البـلاد من الاسـتعمار والمسـتعمرين .

ولكن كان هـذا كله جـزءا من مناورات دبلوماسـية العصر ، التى تعطى مبادىء سـاميات وتسلب حقوقا للشـعوب والجماعات . فقـد كانت للولايات المتحـدة الأمريكية مصـالح بترولية فى العـراق ، فلمـا لوحت لهـا الحـكومة البريطـانية بأن هذه المسـألة يمكن أن تسـوى بمـا يلبى رغبـات الولايات المتحدة الأمريكية بدأت الحكومة الأمريكية تعيـد النظـر فيما يجب ان تكون عليها سـياسـتها الخارجية . وتخلت عن الأهـداف السـامية ، من أجـل المكاسـب الامبريالية . وبعثت حـكومة الولايات المتحـدة صـاحبة « حق تقـرير المصـير للشـعوب » الى الحكومة البريطانية ردا على الحاحاتها باعلانهـا تأييـد الحمـاية البريطانية جاء فيه :

« اتشرف باخبـاركم ان حكومتى قـد كلفتنى ان ابلغكم ان الرئيس ويلسون يعترف بالحمـاية البريطانية التى اعلنتها حكومة صـاحب الجلالة الملك على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ » .

أما فرنسـا ، ذات التطلعات الاستعمارية بعيدة المـدى فى الشرق العربى فكانت ضـد الثـوار والثـورة فى مصر ، وهنـاك فى باريس سـمع الزعمـاء المصريون من الحكومة الفرنسـية ردها الواضـح انه من العبث الحصـول على شىء منها من اجـل القضية التحررية المصرية . بـل ان الحكومة (الديمقراطية) الفرنسـية استخدمت أساليب دكتاتورية ضـد الشـعب الفرنسى حتى لا يعرف حقيقة ثورة مصر ، وهذا واضـح فى الرسـائل المتبـادلة بين المسئولين فى وزارتى الخارجية الفرنسية والبريطانية ومنها ما جاء فيها بالنص :

Earl Curzon to General Sir Allenby

Foreign Office, May 10, 1919.

No. 606

Telegraphic

My Telegram No. 558.

French Foreign Minister has informed Lord Derby that Censorship has been instructed to stop publication in French press of information regarding Egyptian situation suspected to be from Nationalist sources or savouring of propagenda dangerous to French and British interests in Asia Minor and No th Africa.

ان الحكومة الفرنسـية (الديمقراطية) فى سـبيل تحقيق اهدافها الاستعمارية لا تتورع عن اسـتخدام اشـد الأسـاليب الدكتاتورية الرجعية ضـد الصـحافة الفرنسية لمنعها من نشر اية أنبـاء عن الحركة الوطنية فى مصر . كما هو واضـح من تلك البرقيـة . ان التحالف الاسـتعمارى الفرنسى — البريطـانى اقوى من المبـادىء التحررية التى ينادى بهـا فلاسفة وساسة الدول الأوروبيـة العظمى المتحدة بالحـرية والمسـاواة والاخـاء ، وحق الشـعب فى أن يختـار حكومته البرلمانية ، ذلك الحق الذى يردده الانجليز كمثل أعلى على التقدم البريطانى والحرية البريطانية . فالحرية لدى الأوروبى حريته هو ، أما الوضع بالنسبة للشرقى فهـو وضـع آخـر . لا حرية له . وانمـا هى فى خـدمة الديمقراطية البريطـانية أو الفرنسـية .

أما ايطاليا أكبر الدول الصغرى ، وأصغر الدول الكبرى ، فكانت هى الأخرى تريد أن تلعب بورقة الثورة المصرية لتحصل على مكاسب من بريطانيا ، فحثت سرا الجالية الايطالية على تاييد الثوار المصريين . مما أثار ثائرة الانجليز . ولما كان من العسير على السلطات البريطانية ان تتخذ اجراءات عنيفة ضد رعايا حليفتها ، عمدت الحكومة البريطانية الى أساليب المساومة وتبادل المنافع الذى كانت تريده الحكومة الايطالية . وعلى هذا الأساس سويت (المسألة) على مائدة المفاوضات والوعود . ففى الوثائق البريطانية فى هذا الشأن ما يثبت هذا الأسلوب من المساومات السياسية على حساب الشعوب المكافحة من اجل الاستقلال والحرية .

فقد جاء فى برقية مطولة بعث بها كيرزون (وزير خارجية بريطانيا) الى سفيره فى ايطاليا فى ١٤ اكتوبر ١٩١٩ :

« من المهم جدا الا يتأخر اعتراف ايطاليا بالحماية على مصر أكثر من ذلك ، ان حكومة صاحب الجلالة تعرف ان الحكومة الايطالية قد استنكرت موقف أولئك الايطاليين فى مصر الذين أيدوا الحركة الوطنية واتهما لذلك تعجب لأن الحكومة الايطالية لم تتخذ الأجراء الواضح بالاعتراف بالحماية وبذلك تظهر عدم موافقتها على الحركة ... ان بريطانيا العظمى وفرنسا قد وعدتا فى المعاهدة بتعويض مناسب لايطاليا فى أفريقيا فى حالة توسيع الدولتين نطاق ممتلكاتهما فى تلك القارة لذلك فان هاردنج يود ان يوضح للسفير ان ايطاليا ملتزمة بتنفيذ وعدها بالاعتراف بحمايتنا على مصر بقدر التزامنا بتنفيذ وعدنا باعطاء جوبون وقسمايو وهى منطقة مساحتها ٣٠ الف ميل مربع — وانه اذا اصرت الحكومة الايطالية على هذا التأخير غير المعقول فى الاعتراف بحمايتنا على مصر ، فلا يمكن لها ان تنتظر منا ان نكون فى عجلة من أمرنا فى تسليمها مثل هذه الشريحة الكبيرة من الممتلكات البريطانية فى أفريقية » .

هذه صورة من أساليب الحكومات (الديمقراطية) فى تسوية خلافاتها على حساب الشعوب المكافحة من أجل الاستقلال .

وأدت هذه المؤامرات الى أن تصبح الدوائر السياسية الأوروبية والأمريكية مغلقة فى وجه الزعامات المصرية ، بعد أن اطلق سراحها ، وسافرت الى الخارج للمطالبة بحقوق البلاد .

ثم عمدت الحكومة البريطانية بعد ذلك الى ارسال لجنة للتحقيق فى أسباب الثورة . والتفاوض مع الزعماء المصريين . وهذا التفاوض لابد أن يصبح من مصلحة السلطات الانجليزية المحتلة للأسباب التالية :

١ — ان الدول نفضت يدها عن الحركة التحررية المصرية ، وبالتالى اصبحت المسألة محصورة بين الثوار المصريين والقوة العسكرية البريطانية .

٢ — ان الجبهة الداخلية كانت قد انقسمت على نفسها بسبب مخاوف كبار الملاك ، والذوات ، من ان تتحول الثورة الى ثورة اجتماعية .

٣ — ان اللجنة ستقضى وقتا ليس بالقصير فى الأخذ والرد مع الزعامات المصرية فتتيح لبريطانيا فرصة العثور على ثغرات لضرب الحركة الوطنية المصرية .

٤ — ان اللجنة ستنتهى الى اعداد تقرير . ويقول المارشال ويفل مترجم حياة اللنبى فى كتابه : Wavell : Allenby in Egypt ما نصه :

« ان لجان التحقيق تنتهى بتقرير جيد جم الفوائد ممتع القارىء ... وقد توفق اللجنة فى الوصول الى حل للمشكلة .... » .

وقد لا توفق ، ومن هنا يكون ضياع الوقت بالنسبة للحركة الثورية وفترة استعداد بريطانى للوثوب على قوى الثورة من جهة أخرى .

عرفت اللجنة التى بعثت بها الحكومة البريطانية الى مصر باسم رئيسها ملنر Milner ولننظر فى مؤهلات الرجل ومكانته .

هو لورد انجليزى ، ووزير للمستعمرات ، ودرس تاريخ مصر دراسة مستفيضة ، وله كتاب هو من المراجع الرئيسية التى يعتمد عليها المؤرخون فى كتابة تاريخ مصر واسمه .... England in Egypt وللأسف ان الكثيرين يأخذون عنه ويقتبسون منه ، وكأن ما فيه حقائق مسلمة بينما هى مجرد وجهة نظر بريطانية فى تاريخ مصر تغاضت عن كثير من الحقائق من أجل توطيد السيطرة البريطانية فى مصر .

اما مساعدوه فكانوا جميعا من أبناء المدرسة الاستعمارية البريطانية سواء اكانوا مدنيين أم عسكريين . فكان طبيعيا ان يقاطعهما الشعب وفعلا

لم تجد من تتحدث معه . فبدأت تنفذ سياسة التراجع التآمرى . فاعلن ملنر دهشة « اللجنة من الاعتقاد السائد بأن الغرض من مجيئها هو حرمان مصر من حقوقها التى كانت لها حتى الآن . وانه لا أساس على الاطلاق لهذا الاعتقاد فان اللجنة اوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطانى لأجل التوفيق بين أمانى الأمة المصرية والمصالح الخاصة التى لبريطانيا العظمى فى مصر مع المحافظة على الحقوق الشرعية التى لجميع الأجانب القاطنين فى البلاد ... وما يمكن الأمة المصرية من صرف كل جهودها الى ترقية شئون البلاد فى ظل حكم ذاتى Self Governing Institutions

علينا ان نحلل هذا البيان وتحديد الأهداف الجديدة للسياسة البريطانية :

١ - نلاحظ على هذا البيان انه أغفل الاشارة الى الحماية البريطانية على مصر . وهذا امر يحدث لأول مرة . وخاصة ان الحكومة البريطانية بذلت من الجهود الكثيرة المضنية من اجل الحصول على موافقة الدول الأوروبية على حمايتها على مصر . لقد بدات سياسة التراجع . تحت وطأة المقاومة السلبية (المقاطعة) .

٢ - وضع البيان اسس الوصول الى اتفاق بين الطرفين البريطانى والمصرى وهى :

(أ) امانى الأمة المصرية .

(ب) مصالح بريطانيا .

(ج) حقوق الأجانب .

وبطبيعة الحال ، هذه هى وجهة النظر البريطانية الى هذه الاسس .

ادى هذا البيان الى وقوع اضطراب فى صفوف الزعامات المصرية ، حيث أعتبر قسم منها ان هذا البيان يكفى للدخول فى مفاوضات مع الانجليز ، وتزعم هذا الجناح (عدلى يكن) زعيم فئة (الذوات) ، اما اللجنة المركزية لحزب الوفد فقد أصرت على ان يعلن الانجليز ان المفاوضات يجب ان تؤدى الى (الاستقلال التام) .

ووجدت اللجنة المركزية (للوفد) ان تجرب مع الانجليز سياسة المفاوضة وتقدم ملنر بمشروع بعد مفاوضات مطولة مع سعد زغلول قرر

سعد زغلول الا يبت فيه الا بعد عرضه علي الشعب . وحيث أن مشروع ملنر يعطى مصر بعض الحقوق ويضع الأمور فى يد الانجليز رفضه الشعب . وكان طبيعيا أن يعود الانجليز الى سلاح القوة والبطش فقبضوا على سعد زغلول وصحبه ونفوهم مرة أخرى الى خارج البلاد ، وعادت البلاد الى المقاومة السلبية وفشلت الحكومة البريطانية فى الوصول الى اتفاق مع (الذوات) . ولهذا قررت السلطات البريطانية في مصر والحكومة البريطانية ان الحماية لا يمكن ان تستمر بهذا الشكل ، ولابد من التخلي عنها واعطاء مصر بعض حقوقها . واضطرت الحكومة البريطانية اضطرارا الي اعلان الغاء الحماية فيما عرف باسم تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وهو تصريح من جانب واحد .

هذا هو تفسيرنا للظروف والأسباب التي ادت الى اصدار التصريح البريطانى فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ الذى نص علي :

أن حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التي جاهرت بها ترغب في الحال في الإعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة .

وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر اهمية جوهرية للامبراطورية البريطانية فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية :

١ — انتهت الحماية البريطانية على مصر ، وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة (*)

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقرار الإجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل علي جميع ساكني مصر تلغى الأحكام العرفية التي اعلنت في ٢ نوفمبر ١٩١٢ .

٣ — الي أن يحين الوقت الذى يتمنى فيه أبرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتي بيانها ، وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الطرفين ، تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الأمور ، وهي :

(أ) تامين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بواسطة .

(جـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الاقليات .

(د) الســـودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحـالة فيما يتعلق بهذه الأمور على مـا هى عليـه .

هذا التصريح اصدرته الحكومة البريطانية من جانبها هى دون اخـذ موافقة البـلاد المصرية عليه ، ولا حتى زعماء مصر حينذاك ، ومن ثم فهو التزام من جانبها هى ، دون أن يكون ملزما للشـعب وخاصـة أن الشـعب رفضـه واعتبره صورة أخرى من صور الاحتلال ، وان عبارة الاسـتقلال الواردة فى ذلك التصريح لا تعطى مصر الا مظهر الدولة المستقلة دون ان يكون لها اية حقوق على جـزء من اراضيها ، ونعنى بذلك منطقة قنـاة السويس ، ليس هذا فقط ، بـل اصر الانجليز فى تصريحهم هذا على حقهم فى ضـمان مواصلاتهم عبر مصر وبالتالى وضـع مصر فى خدمة الامبراطورية ، والدفاع عن مصر فى هذا الاطـار حفـاظا على مصالحها ، وليس حفاظا على مصر ، ثم أنها وضـعت التحفظ الأخير بشـكل عجيب قالت (السـودان) ، مـاذا بشـأنه ؟ وهذه طبيعة الأسـاليب الانجليزية الملتوية التى تضع الأمور بشكل غامض لتفسر الأمور حسب أهدافها الامبريالية .

أما التحفظ الثـالث (الدفاع عن مصـالح الأجانب والأقليات) فقـد هدفت بريطانيا من ورائه أن تكسب الدول الأوروبية صـاحبة الجاليـات فى مصر ، حيث ان هذه الجاليات كانت تسـيطر على قطـاع الاسـتثمارات المـالية ، والبيوتات المالية الكبرى ، وبيوت تجارية ، وبنوك ، والبورصـة والصنـاعات الناشـئة . وكانت هذه الجاليات تريد الاحتفاظ بامتيازاتها وبما وضـعت يدها عليه من ثروات مصر خلال فترة الاحتلال ، وكانت تدرك ان الوطنيين لن يتباطأوا — اذا ما حصلوا علي استقلالهم — عن استرداد كافة ما استولى عليه الأجانب . ومن هنـا كانت قوة التلاحم بين الجاليات الأجنبية والاحتلال البريطانى ، واستماتتها فى اسـتمرار الاحتلال البريطانى . واذا ما جاء اليوم الذى ترددت فيه كلمـات الاسـتقلال على لسـان بعض السياسيين الانجليز — مع ان هذا الاستقلال كان مظهريا — انزعجت هذه الجاليات الأجنبية ايما انزعاج ، وحركت حكوماتها ضـد سياسة اسـتقلال مصر .

أما الاشارة الى الأقليات ، فهى محـاولة لخلق معـارك طائفية فى داخـل

مصر نفسها ، اذ كان الانجليز يوحون بذلك الى اقباط مصر بأن يشعروا بانهم اقلية . وهدف الانجليز من وراء ذلك الى اشعارهم بانهم ليسوا مواطنين ، وانما (اقلية) .

ولقد مر بنا كيف أن اقباط مصر كانوا شعلة من شعلات ثورة ١٩١٩ ولكن الانجليز كانوا يودون لو انقسمت البلاد الى قوى طائفية متعددة متناحرة ، فكانت تركز على الايقاع بين الأقباط والمسلمين . وعندما وقعت الثورة فوجئت سلطات الاحتلال بأن الأقباط — وكانوا يشكلون العشر من السكان — كانوا قوة للثورة ، لا أداة ضعف لها . ومع هذا ظلت الخطة البريطانية مستمرة فى تحقيقها ، لعلها تصل اليها يوما ، ولم تصل . وكان من مظاهر هذه السياسة الاشارة الى الأقليات فلم تعر الزعامات المصرية (الاسلامية والمسيحية) هذه العبارة أية اهمية ، فقتلت اهداف التفرقة فى مهدها .

ولكن كان تصريح ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ قد منح شعب مصر فرصة الحصول على قدر أكبر من تولى شئونه بنفسه ، وسعى الى تحقيق جعل مصر دولة مستقلة ذات سيادة . وكان أول مظهر من هذا الاستقلال فى نظر أسرة محمد على والأقليات التركية ، هو تثبيت حقوق الأسرة فى أن تحكم ، وفى أن تستمر فى الحكم ، ومن هنا جاء رفع السلطان فؤاد نفسه الى مرتبة الملك فؤاد الأول .

واتجهت الرأسمالية المصرية ، وكبار الملاك ، وجمهرة المثقفين الى خلق نظام دستورى برلمانى على اعتبار أن النظام الدستورى البرلمانى هو مظهر الاستقلال والصورة التى تعطى لمصر مكانة فى المحافل الدولية ، ولكن هذه الاتجاهات كانت تعطى لكبار الملاك — وكبار الملاك بالذات — فرصة لفرض وصايتهم على الشعب وفى وضع دستور يحقق أهدافها هى قبل أهداف الشعب . وفى هذه الظروف صدر دستور ١٩٢٣ . ولننظر فى هذا الدستور ونحدد المبادىء التى توخاها ولنحدد من بعد قيمته فى تطور الحياة السياسية فى البلاد ، وفى تطور الكفاح من أجل حياة افضل للشعب ، ومن أجل الوصول الى تحرر كامل من التسلط البريطانى .

لقد سبقت الاشارة الى أن الحركة التحررية العرابية أصرت على ضرورة قيام حكم دستورى فى البلاد ، وأن القوى الاستعمارية حينذاك ضربت بالقوة المسلحة تلك الحركة الدستورية التحررية . ومن بعد ذلك عاشت مصر تحت نظم حكم وضعتهاسلطات الاحتلال والوزارة ، جعلت لنفسها اليد العليا فى توجيه أمور

البلاد تشريعيا وتنفيذيا ، وانشأت بعض مظاهر التمثيل على هيئ
القوانين ،أوالجمعية التشريعية ، وهى هيئات لا تضـع الشـ
المسئولية الدستورية وانما تضع الأمور فى يد سلطات الاحتلال فة
الأمور البسـيطة الروتينية فى يد هذه الهيئـات . فلا غرو ان ك
عندما فكر الشعب وزعماؤه فى ١٩٢٢ فى وضع دستور للبلاد .

ومن المتبع فى كثير من الأحيان أن تتكون جمعية تأسيسية ة
الدستور ، وبأن ممثلى الشعب هم الذين يجب أن يضعوا مواد
وكان سـعد زغلول يرى هذا الرأى وقد أيده فى ذلك منافسـه
الوطنى) .

ولكن الملك فؤاد كان يدرك — عن حق — أن تكوين جمعيـ
تتولى اعدادالدستور يعنى انه سيفقـد كل سلطـاته التسلطية ،
ينتقل سلطات الاحتلال اليه هو أولا وقبل كل شىء . ولهذا بذل (
مضنيا من أجل منع ظهور جمعية تأسيسية . ونجح فى ذلك ، وفى
رجالات السياسة والقانون وضع مواد هذا الدستور ، على أن
(الملك فؤاد) ليتولى هو اصداره ليصبح منحة من الملك وليس
عليه . ومع أن لجنة وضع الدستور كانت من بين الشخصيات ال
الدستور بموافقة الشعب ، الا أنها كانت فى نفس الوقت لا تريد
هذا الدستور . وهذا اتجاه واضح فى موقف البرجوازية من الحي
هى الأخرى تضع الدستور لخدمة أهدافها هى فوق أهداف الملكي
الشعب على حد سواء .

فدارت فى أروقة وصالونات السياسيين فى القاهرة مشاورا
تحديد من سيتلو الدستور على الشعب . وأبعد فؤاد عن الوزارة
سياسية من أجل هذا ، وخاصة عندما وجد أن الدستور الذى و
لا يعطى الملك الا حق (الملك) دون حق (الحكم) . فقد نص ال
عرف باسم دستور ١٩٢٣ — على قيام نظام برلمانى انتخـابى تـ
مسئولة أمام البرلمان وليس أمام الملك ، ونص على أن « جميع ا
الأمة » أو بمعنى آخر تأكيد مبدأ سيادة الأمة . وأكد كذلك على ا
التمتع بالحقوق المدنية والسياسـية وفى الواجبـات والأعبـاء ال
تمييز بسبب الدين أو الأصل أو اللغة » وكفل الحريات المعروفة

ولكن هناك عيوب عديدة لهذا الدستور جعلته قاصرا عن تأدية مهمته الكاملة :

اولا : صدر فى عهدالاحتلال والملكية المتربصة بحريات الشعب ، وبرجوازية غير قادرة على فهم حقيقة رغبات الشعب فىحياة افضل من مختلف وجوهها .

ثانيا : أصر الملك فؤاد على أن يصدر هو الدستور ونجح فى ذلك ، ويبدا كأن هذا الدستور منحة منه للشعب . والحق ، أن قيام نظام برلمانى يسلب من الملك معظم سلطاته كحاكم ويقضى على محاولة جعل الدستور منحةملكية ولكن ظل مظهر المنحة موجودا ، ولكنه مظهر لا جوهر . الا أن المظهر استغلته الملكية الى حد كبير فى تقوية مراكزها امام المؤسسات التمثيلية . وخاصة ان حل البرلمان كان فى يد الملك والوزارة ، وان للملك الحق فى التصديق على التشريعات التى يصدرها البرلمان .

ثالثا : عند تطبيق هذا الدستور تولت الوزارة قوى برجوازية ، وكان النواب والشيوخ فى مجلس البرلمان من نفس هذه البرجوازية التي تضع مصالحها فوق مصالح الملكية الراغبة فى الاستبداد بالأمور وفوق تطلعات الشعب .

وطبقا للدستور اجريت الانتخابات وفاز سعد زغلول ومرشحو حزب الوفد باغلبية ساحقة . ونظرة سريعة على الوزارة التى كلف الملك فؤاد سعيد زغلول بتشكيلها ، تبين أنها أول وزارة يؤلفها مصرى من ريف مصر . كما انها تضمنت عددامن أبناء الريف . ولكن ليس معنى هذا أن هؤلاء ظلوا مخلصين لريفهم كل الاخلاص . فقد أصبحوا فقط يشفقون على أهل الريف ، ويدركون ضرورة انقاذ الفلاح من الوضع الاجتماعى المتدنى الذى يعيشه . ولكن لم يصاحب ذلك وضع برنامج اصلاحى ينقذ الفلاح من اوضاعه ، فهل هو الفكر البرجوازى ، كما يرى البعض ؟ أم أنها التطلعات القوية نحو العمل السياسى ضد الانجليز أولا وقبل كل شيء ؟ اغلب الظن أن الاثنين كانا معا يؤثران فى توجيه فكر هؤلاء النواب والوزراء المصريينالذين شكلوا أول حكومة مصرية وأول مجلس نواب مصرى .

كلف الملك فؤاد — علي مضض — سعد زغلول بتأليف أول وزارة دستورية فى مصر . ومنذ البداية شغلت الوزارة بمحاولات الملكية فى اثبات ذاتيتها وسلطاتها ، وبمحاولات سلطات الاحتلال البريطانى القضاء على وزارة سعد زغلول وتوريط البلاد فى الخلافات الحزبية حتى لا يقف شعب مصر — مرة أخرى — وقفة رجل واحد ضد الاحتلال البريطاني للبلاد .

فالملك فؤاد من ناحية عمل على أن يصدر بعض المراسيم دون أخذ رأى أو حتى مجرد اخطار رئيس الوزارة بذلك ، ومن هذا القبيل الأزمة التى نشبت بين سعد زغلول والملك فؤاد بسبب تعيين الملك لحسن نشأت وكيلا للديوان الملكى بأمر ملكى ومنحه وساما دون اخذ رأى الوزارة الأمر الذى أدى الى استقالة سعد زغلول مما اضطرالملك الى ان يعيد النظر فى الموضوع ويقدم المرسوم الى سعد زغلول لتوقيعه بصفته رئيس الوزراء المسئول. ومع أن هذه المشكلة شكلية ، الا انها كانت تتضمن صراعا على تطبيق روح الدستور نفسه ، وحتى لا ينتقل ذلك الى مسائل اخرى تقضى على ما اقره الدستور من مبدأ سيادة الأمة فى الحكم وان الملك (يملك) ولا (يحكم) .

واذا كان سعد زغلول واجه بنجاح تلك الأزمة الدستورية مع الملك فؤاد فقد كان عليه ان يخوض حربا ضروسا دبلوماسية ضد سلطات الاحتلال البريطانية ، وضد الحكومة البريطانية التى تريد أن تجعل للبلاد مظهر الدولة المستقلة ذات السيادة وذات الحكم البرلمانى والوزارة المسئولة ، دون أن يمس هذا بالوجود البريطانى العسكرى والسياسى فى مصر ، وسيطرتها على قناة السويس والسودان . وبطبيعة الحال لايمكن أن يتم ذلك . فاما أن تظل مصر تحت الاحتلال البريطانى ولا قيمة حقيقية لتلك المظاهر الدستورية ، واما أن تعود الى الكفاح من اجل حريتها .

بعد أن تسلم سعد زغلول الوزارة والحكم ، دخل فى مفاوضات مع رمزى مكدونالد محاولا اقناع الانجليز بأن مصر المستقلة استقلالا كاملا ستحافظ على المصالح البريطانية فى قناة السويس وان مصر ستظل على علاقات أقوى ببريطانيا من غيرها . وفى نفس الوقت طالب سعد زغلول الانجليز بما يلى :

١ — سحب القوات البريطانية والمستشارين البريطانيين .

٢ — ازالة كل اشراف بريطانى على علاقات مصر الخارجية .

٣ — تنازل بريطانيا عن مطالبتها بحماية الأجانب والأقليات .

٤ — تنازل بريطانيا عن المشاركة فى الدفاع عن القناة .

هذا بينما قال مكدونالد لسعد زغلول :

« ان ضمان مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر الآن ، كما هو الحال

فى ١٩٢٢ ، مسألة حيوية بالنسبة الى بريطانيا ، وان التاكيد المطلق بأن بقاء قناة السويس مفتوحة فى أوقات السلم والحرب أمام المرور الحر للسفن البريطانية هو الأساس الذى تقوم عليه كل الاستراتيجية الدفاعية الامبراطورية » .

وهكذا كانت بريطانيا قد فرضت استمرار الاحتلال على مصر بالقوة وهو أمر يقضى على حقيقة استقلال البلاد . وكان الخلاف الجوهرى بين الرغبة فى الاستقلال الكامل ، واصرار بريطانيا على استمرار الاحتلال هو محور الصراع بين الحق والاستعمار خلال الفترة التى تلت اصدار دستور ١٩٢٣ . وكلما تصلبت وزارة فى مناوضاتها مع الجانب الانجليزى دبرت لها السلطات البريطانية أزمة للاطاحة بها . وبدأت هذه السلسلة من المناورات السياسية التآمرية بالانذار الانجليزى الموجه الى رئيس الوزراء سعد زغلول فى أعقاب مصرع سيرلى ستاك قائد الجيش فى السودان فى ١٩٢٤ بيد احد الوطنيين المصريين .

كان الانذار الانجليزى على النحو التالى :

١ — أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .

٢ — البحث عن الجناة وانزال أشد العقاب بهم .

٣ — « أن تمنع الحكومة من الآن فصاعدا وتقمع بكل شدة كل مظاهرة شعبية سياسية » .

٤ — « أن تدفع فى الحال الى الحكومة البريطانية غرامة قدرها نصف مليون جنيه » .

٥ — « أن تصدر خلال ٢٤ ساعة الاوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى البحتة من السودان .

٦ — زيادة مساحة اراضى زراعة القطن فى الجزيرة (السودان) الى مقدار غير محدد من الأفدنة .

٧ — اذا لم تنفذ الحكومة المصرية هذه المطالب على الفور اتخذت حكومة بريطانيا الوسائل التى تحافظ بها على مصالحها فى كل من مصر والسودان .

لقد كان مصرع سيرلى ستاك مجرد مصرع موظف كبير بريطانى يشد أزر الاستعمار البريطانى فى كل من مصر والسودان ، ولقد قتل كثير من قبله ، ومن بعده

من العسكريين والسياسيين الانجليز دون أن تتحرك الحكومة البريطانية ، ودون أن تهب هذه الهبة للدفاع عن (شرف) بريطانيا . ونذكر من قبيل هذا قتل الارهابيين الصهيونيين لورد موين الوزير البريطاني فى ١٩٤٧ ، دون أن تفعل الحكومة البريطانية شيئا ، فبريطانيا عندما تجد فى مثل هذه الحوادث فرصة للحصول على مكاسب سياسية لا تتورع عن تضخيم الاهانة التى وجهت اليها . وفى الحادثة التى نحن بصددها ، كانت بريطانيا فى حاجة الى سبب تستند اليه من أجل تحقيق أهداف معينة فى كل من مصر والسودان وكان وقوع مصرع سيرلى ستاك فرصتها لتحقيق ذلك .

ويمكن أن نحدد الأهداف التى سعت اليها بريطانيا : —

١ — اخراج القوات المصرية من السودان وكانت المظهر الوحيد الباقى من مظاهر وحدة وادى النيل .

٢— ابراز بريطانيا وكأنها تدافع عن مصالح السودان فى وجه مصر .

٣ — اقناع كافة القوى المحلية والخارجية ان الكلمة العليا لا تزال لبريطانيا فى مصر .

وما كان سعد ليقبل هذا ، فقدم استقالته (نوفمبر ١٩٢٤) . وحققت سلطات الاحتلال هدفها ، لا فى الانفراد المطلق بالسودان ، وبالعمل على فصلة عن مصر ، وانما من حيث اثبات أنها لا تزال القوة الحقيقية فى البلاد رغم صدور الدستور. ومن ثم أصبح الكفاح من أجل التحرر هو هدف الشعب الأول . ولكن مدى هذا التحرر هو ما اختلف فيه الزعماء ، وخاصة بعد وفاة سعد زغلول فى ١٩٢٧ . كذلك سنلاحظ كثرة تعطيل البرلمان وحله ، فكان ذلك افتئاتا على الدستور كمحاولة من جانب السلطات العليا التحكم فى تطور البلاد واثبات أن الدستور والحياة البرلمانية ليست فوق سلطات الاحتلال ، ولا سلطات الملك ، ولا قدرات الوزارة . فكان ذلك أكبر الأمور تقويضا للحياةالبرلمانية فى مصر . وان كنا نعتقد أن هذا المستوى من الحياة البرلمانية المزعومة هو الطابع الذى يطالعنا فى كل حياة برلمانية تنشأ فى وجود احتلال أجنبى فى البلاد .

وانشأ السراى فى ١٩٢٥ حزب الاتحاد برئاسة يحيى ابراهيم ليكون أداة السراى فى البرلمانات القادمة ، وظهر حزب الأحرار الدستوريين الذي كان من أشد خصوم الوفد ، كما كان الحزب الوطنى يتعاون مع الأحرار الدستوريين لكبير

تفوق (الوفد) . ولم تظهر شخصية قوية قادرة على أن تمسك بزمام الأمور ، وان كان مصطفى النحاس — زعيم الوفد بعد سعد زغلول — يتمتع بشعبية واضحة كانت تثير مخاوف السراى والانجليز باستمرار .

وزادت الانقسامات فى الجبهة المصرية بعد وفاة سعد زغلول ، فكان طبيعيا أن يزداد تصلب حكومة بريطانيا فى مفاوضاتها مع الزعماء المصريين ، وفى التمسك بامتيازات تقضى على استقلال البلاد . وهذا واضح خلال المفاوضات التى دارت بين عبد الخالق ثروت — رئيس الوزارة المصرية وتشمبرلن وزير الخارجية البريطانى (١٩٢٧ — ١٩٢٨) . مع أن هذه المفاوضات دارت فى جو من التساهل الواضح من جانب المفاوضين المصريين الذين كانوا يبذلون اقصى الجهد من اجل الوصول الى وضع مستقر فى العلاقات المصرية — البريطانية . ومع هذا تمسكت بريطانيا بتلك التحفظات الأربعة (١) .

ونظرا لأن المشروع الذى تقدم به تشمبرلن — وزير خارجية بريطانيا لتسوية الخلافات المصرية البريطانية يمثل الحد الأدنى الذى يمكن أن يتنازل اليه الانجليز ، ولأنه يكشف لنا عن أهدافهم سنورد اهم مواده :

١ — عقد محالفة بين الطرفين .

٢ — أن تتمشى سياسة مصر الخارجية مع السياسة البريطانية .

٣ — مسئولية بريطانيا فى الدفاع عن مصر اذا ما هوجمت .

٤ — أن يكون الجيش المصرى على نسق الجيش الانجليزى .

٥ — وجود جيش بريطانى فى مصر .

٦ — الأفضلية للانجليز فى مرافق ومؤسسات الدولة المصرية .

٧ — تمكين مصر من دخول عصبة الأمم .

ومعنى هذا كله استقلال مظهرى واستمرار التسلط البريطانى فى مصر .

استقالت وزارة ثروت ، وجاءت وزارة مصطفى النحاس الذى خلف سعد زغلول فى رئاسة الوفد المصرى . فواجهها الملك والسراى بمؤمرات داخلية عديدة ،

---

(١) انظر ص ٣٨٩ وتصريح ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ م .

وواجهتها سـلطات الاحتلال بما لديها من قدرات على اثارة المشـاكل الداخلية ، وواجهتها حكومة لندن برفض شديد لأية مفاوضات تقوم على اساس احترام حقوق مصر واستقلالها التام ، وحتى لو وافق المصريون على عقد تحـالف مع بريطانيا ، أو على اساس وجود القوات البريطانية على ضفة القناة ، فقد كانت هناك عقبة شديدة ترجع الى تزمت السياسـة البريطانية المناهضة لأية سياسـة وحدوية فى المنطقة . فقد كان المفاوض المصرى يصر على وحدة وادى النيل (مصر والسودان)، وكان الانجليز يصرون على الانفراد بأمور السودان تمشيا مع سياسة تفتيت الوطن الواحد فهذه كانت سياستهم فى الشام ، وفى العراق ، وفى شبه الجزيرة العربية ، وفى شمال افريقيا وفى وادى النيل .

وبفشل محادثات ومفاوضات النحاس — هندرسون ١٩٣٠ بدت البلاد على وشك انفجار شديد. فالساسة الانجليز متصلبون فى استمرار سياستهم الاستعمارية فى مصر ، والدستور ينتهك من وقت لآخر، والحياة البرلمانية تحت رحمة الملك والسراى والسلطات البريطانية فى مصر . وبدا واضـحا أن حزب الوفد أخذ جانب الشعب والدستور ، وان الملك والانجليز اخذوا الجانب الآخر . فمنذ أن اجريت انتخابات جديدة وتبين ان الأغلبية اصبحت للوفد (يناير ١٩٣٠)، شرعت السراى وسلطات الاحتلال تدبر لاسقاط الوزارة الوفدية ، بل والقضاء على دسـتور ١٩٢٣ نفسـه ان امكن . وارغمت هذه المؤامرات الوزارة الوفدية على الاستقالة بعد أن حكمت لمدة اشهر قليلة . وفوجىء الشعب باسناد رئاسة الوزارة الى اسماعيل صدقى الذى كان يعلن انه عدو البرلمان الشعبى .

حل اسماعيل صدقى البرلمان ، والغى دسـتور ١٩٢٣ ، واصدر دسـتورا جديدا عرف باسم دستور ١٩٣٠ وهذا يتضمن الاتجاهات التالية :

١ — تقوية سلطات الملك ووضع مستقبل اصدار القوانين فى يده واعطى الملك كذلك الحق فى ان يعين الرؤساء الدينيين ، واسـتبعدت الوزارة من ذلك . وكان الغرض من هذا هو اسـتخدام القوى الدينية لتأييد الملك فى تصرفاته فضـلا عن وضعها تحت رحمته ان هى انضمت الى الجبهة الشعبية . كما اصبح النواب تحت سيف العقاب القانونى اذاهم انتقدوا الملك . ولم يكن هذا واردا فى دستور ١٩٢٣ .

٢ — ان مجرد الغاء دسـتور ١٩٢٣ ثم اصدار دسـتور ١٩٣٠ كان يعطى الملكية مكانة كبيرة ، وكان فى نفس الوقت يقضى على مبدأ سيادة الأمة .

٣ — اعطاء الفرصة للوزارة لاصدار قوانين وتشريعات استثنائية .

ورغم اصرار الشــعب على مقاطعة الانتخابات التى دعا اليهــا اســـماعيل صــدقى ، أصر الأخير على اجراء انتخــابات زورها تزويرا ، ونجح مرشــحوه ، وتكون برلمان اغلبيته من حزبه ، واستمرت وزارة صدقى فى استخدام القوة الغاشمة ضد الشعب والصحافة والطلبة مدة ثلاث سنوات حتى أن حلفاءه الانجليز وجدوا انه بالغ فى مهمة القمع فتخلوا عنه فاستقال . أما خصومه ، وعلى راسهم (الوفد) فاصروا على التمسك بدستور ١٩٢٣ . وهنا يجب الاشارة الى أن جامعة القاهرة ، وطلبة المدارس لعبوا الدور الأكبر فى اسقاط حكومة اسماعيل صدقى ، وفى ارغام الملك على أن يكف عن التشبث بدستور ١٩٣٠ وبدت الظروف كلها توحى بأن التغيير سيقع قريبا . وادرك الوفد ذلك ، فاخذ يلهب المشاعر بقوة ليرغم الحكومات على الاستقالة ليتولى هو الحكم . وفى سبيل التغيير دعا الطلبة الى تكوين جبهة وطنية من كل الأحزاب لاعادة الحياة البرلمانية وتم ذلك فعلا واصــدرت الجبهة الوطنيــة (١٩٣٤ ــ ١٩٣٥) مطالبها وهى :

١ ــ اعادة دستور ١٩٢٣ .

٢ ــ التفاهم مع الانجليز على أساس ما سبق ان وصل اليه النحاس باشا مع هندرسون الانجليزى من قبل .

ودارت المفاوضات بين النحاس باشا والســير مايلز لامبســون ــ المندوب السامى البريطانى فى مصر فى أوائل ١٩٣٦ ، وكانت هناك ظروف دولية عديدة تؤثر فى الاتجاه نحو عقد معاهدة تحالف مع بريطانيا ، الى جانب الظروف القديمة :

١ ــ فالاحتلال كان لا يزال جاثما . وثبت ان الصراع فى داخل البلاد أصبح بين الاحزاب بعضها وبعض اما الأمة فلم تعد تحارب الانجليز .

٢ ــ ان القوة البريطانية فى نظر ساســة ذلك الوقت اكبــر من ان يرغمهــا الشعب ــ الاعزل ــ على اعلان انسحابها من مصر .

٣ ــ ان الدول الكبرى وقفت تشــد أزر بريطانيا ، فيما عدا الدول الجديدة المنافسة لبريطانيا والتى لم تكن لها قدرات واضــحة على تأييد الحركة الوطنية فى مصر تأييدا قويا .. ونعنى بذلك دولتى المحور Axis المانيــا النــازية وايطاليــا الفاشستية .

والدور غير المباشر الذى لعبته ايطاليا فى الاسراع بعقد معاهدة ١٩٣٦ بين

مصر وبريطانيا يحتـاج الى نوع من الشرح ، لاهميتـه فى فهم ظروف عقـد تلـك المعـاهدة .

ففى ١٩٣٥ رفضـت ايطاليـا كافة الجهود التى كانت تبذل داخـل عصـبة الأمم وخارجها لمنعهـا من الهجـوم على الحبشـة والاسـتيلاء عليها ، مدعيـة عن حق — ان بريطانيا اسـتأثرت دون وجه حق بمسـتعمرات لا تغيب عنهـا الشمس ، مستخدمة فى ذلك قوتها العسكرية فقط لا غير . وانقضت ايطاليـا على الحبشة (١٩٣٥) . وكان من المتوقع — وهذا ما حدث — ان تنهار مقاومة الاحباش عاجـلا أو آجـلا . وحيث ان سقوط الحبشـة يجعل ايطاليا مسامتة للسـودان من الجنوب ، فقد شعرت بريطانيا بضرورة الاسراع فى تسوية مشاكلها مـع مصر ، صـاحبة الحق الشرعى فى السـودان ، حتى لا تسـتغل ايطاليـا هذه الخـلافات البريطانية — المصرية لمصلحتها .

لقد كان فى حكم ايطاليا زعيم قوى الشـكيمة بعيد الامـال . هو موسوليفى وحزبه الفاشسـت . وكانت تحيـة افراده هى تلك التحيـة التى كان يسـتخدمها الرومان ، وكانت اهـدافه فى حوض البحر المتوسـط تتلخص فى كلمتين بحـرنا Mare Nostrum اى اعادة بناء الامبراطورية الرومانية وعززت ايطاليـا حاميتهـا فى ليبيا ، وضاعفت من قوة اسـطولها فى البحر المتوسـط . وتردد فى الصـحف ان ايطاليا — بعد ان تسيطر على الحبشة — لن تلبث ان تعمل على وصـل الحبشة بليبيـا فتصبح مصر والسـودان بذلك مطـوقة بواسـطة الايطاليين التوسـعيين الذين يدعون انهم احق من اية دولة اخرى بالسيطرة على البحر المتوسط .

ومن ناحية اخـرى ، كانت ايطاليـا تخشى من السـيطرة البريطـانية على قناة السويس ،وان بريطانيـا تسـتطيع باساليبها الخاصـة ان تغلق القنـاة فى وجـه الأسـطول الايطالى المتجـه الى الحبشـة ، وان تقطـع خطـوط تموين حملتها فى الحبشـة . ولذلك شنت ايطاليا حملة شـعواء على الوجود البريطانى فى مصر طالبة من الشـعب المصرى ان يتعاون مـع الايطـاليين ضـد الاستعمار الانجليزى .

كذلك طالبت ايطاليا بأن يكون لها دور اكبر فى ادارة شركة قنـاة السويس وبتخفيض الرسـوم المفروضـة على السـفن المـارة بالقناة فعارضـتها كل من بريطانيا وفرنسا بكـل قوة . بـل لقد عملت بريطانيـا على احراج ايطاليـا عن

طريق عصبة الأمم استنادا الى المادة ١٦ التى تعتبر ايطاليا دولة معتدية يجب على الدول الاعضاء اتخاذ الاجراءات اللازمة ضدها لمنعها من الاستمرار فى عدوانها على الحبشة . ولكن ايطاليا الفاشستية كانت تدرك ان العصبة أضعف من ان تفعل شيئا ضدها باستثناء الكلمات والقرارات الجوفاء .

لقد كان الشعب المصرى فى الحقيقة فى حاجة الى كل يد يمتد اليه للتعاون معها ضد الاحتلال الانجليزى ، وخاصة أن فرنسا كانت تؤيد الوجود البريطانى فى مصر . ومع هذا كان زعماء مصر ، والشعب ينظر بعين الريبة الى الايطاليين ، فان افعالهم فى ليبيا العربية كانت معروفة لدى الشعب ، وكان الاستعمار الايطالى فى ليبيا بغيضا حتى لقد سرت عبارة بين الناس وهى ان الاستعمار البريطانى خير من الاستعمار الفرنسى ، وان الاستعمار الانجليزى او الفرنسى خير من الايطالى .

ومن ناحية أخرى ، كان الشعب المصرى يعطف على الشعب الحبشى ، ويتذكر ما فعله الانجليز بمصر فى ١٨٨٢ ولا يحبون ان يتكرر مثل هذا العدوان على شعب آخر .

ولهذا كله كانت مصر من أولى الدول التى اتخذت اجراءات تاديبية ضد ايطاليا ، ونفذت ضدها سياسة المقاطعة التى دعت اليها عصبة الأمم . فما كان من موسيلينى الا أن وجه الانذار بعد الانذار ضد مصر . فكان هذا تأكيدا للحكومة المصرية ، وللشعب المصرى على ان ايطاليا لن تتورع عن استعمار مصر ، على نمط ما حدث فى ليبيا ، اذا ما سنحت لها الفرصة . وسعت الحكومة المصرية الى ضمان التعاون العسكرى الانجليزى ضد الخطر الايطالى .

ولكن الانجليز من النوع الذى لا يتورع عن استغلال أزمات الغير للوصول الى أهداف خاصة بهم . ففى الوقت الذى يوجد فية تعاون بين السلطات المصرية والانجليزية بصدد تقوية الحاميات المصرية على الحدود الليبية اعلنت الحكومة البريطانية من جانبها — ودون موافقة مسبقة من جانب الحكومة المصرية — انها نقلت قاعدتها البحرية الحربية من مالطة الى الاسكندرية فى ٨ أكتوبر ١٩٣٥ .

فكان هذا عاملا مثيرا لمشاعر المصريين الذين كانوا يبحثون عن وسائل تخفف من القوة البريطانية فى مصر ، فاذا بها ترتفع بسرعة رهيبة حيث أن الأسطول البريطانى هو أقوى أسطول فى البحر المتوسط ، وهو لن يكون ضد الايطاليين فقط وانما سيكون أداة بطش بريطانية بالكفاح المصرى من أجل الاستقلال .

ادى هذا الى تحرك وطنى فى داخل البـلاد ، وترتب عليه تجدد نشـاط (الجبهة الوطنية) فى اتجاه الوصول الى معاهدة مع الحكومة البريطـانية تجعل العلاقات المصرية ــ البريطانية قائمة على اسس واضحة .

وحيث ان الحكومة البريطانية كانت فى حاجة الى الوصول الى اتفـاق نهائى مع الحكومة المصرية بسبب تلك التطورات فقد كانت جهود الطرفين قوية جدا من أجل الوصـول الى معاهدة ، وهى التى عرفت بمعاهدة ١٩٣٦ . وهى لا تختلف كثيرا عن ذلك المشروع الذى وضع فى ١٩٣٠ لعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا .

واهم المواد التى وردت فى هذه المعاهدة هى : ــ

١ ــ انتهاء الاحتلال البريطانى لمصر .

٢ ــ عقد محالفة بين الطرفين تضع امكانيات مصر السياسية والاقتصـادية والعسكرية فى خدمة بريطانيا عند وقوع حرب .

٣ ــ « بما ان قناة السـويس التى هى جزء لا يتجزأ من مصر هى فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هى ايضا طريق اساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطـانية ، فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى اصبح فى حالة يستطيع معهـا أن يكفل بمفرده حرية الملاحة فى القناة وسلامتها التامة ، يرخص ملك مصر الملك بريطانيا بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة بالمنطقة المحددة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة .

ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الاحوال، كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية » .

٤ ــ استمرار العمل باتفاقيتى السودان لسنة ١٨٩٩ .

٥ ــ العمل على قبول مصر فى عضوية عصبة الأمم .

٦ ــ العمل على الغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر .

ويجدر بنا هنا أن نحلل هذه المعـاهدة من حيث ما احرزته منها مصر ، ومن حيث ما استبقته بريطانيا فى مصر من امتيازات .

أولا : لقد نصت هذه المعاهدة على انهــاء الاحتــلال ، ثم على وجود قوات بريطانية (بتصريح أو ترخيص) من حكومة مصر . وهــكذا لم يتبدل الاحتلال الا فى الشــــكل فقط .

ثانيا : ثبت ــ كما سنرى ــ ان النص الخاص بوجود تلك القوات البريطانية وبعدم مساسها على الاطلاق بحقوق السيادة المصرية انه كان حبرا على ورق عندما فكرت الحكومة المصرية أن تتخذ لها سياسة خلال الحرب العالمية الثانية .

ثالثا : ان قناة السويس أصبحت ــ باعتراف الحــكومة المصرية ــ جزءا من المصالح الامبريالية البريطانية ، وانها من هذه الناحية فى حاجة الى التحكم فيهــا على هذا الأسـاس فى المستقبل .

رابعا : ان السودان ظل تحت السيطرة البريطانية ، ولم يكن للمصريين الا المشــاركة المظهــرية .

خامسا : أن التحالف مع بريطانيا ربط مصر بالامبراطورية البريطانية بشــكل يجعلهــا تقدم تضــحيات للامبراطورية البريطــانية دون أن تحصــــــل منها على أيــة مكــاسب (*)

سادسا : ان المعاهدة مهما قيل فيها وضعت فى ظل الســلاح العســكرى البريطـــــانى (*)

تلك كانت مكاسب بريطانيا من وراء تلك المعــاهدة ، وهى نفســها جوانب أضرت بمستقبل مصر ، ولكن هناك بعض المكاسب :

١ ــ لقد أصبحت مصر ذات مكانة دولية خاصة بعد دخولها عصــبة الأمم .

٢ ــ اصبحت لمصر علاقات مباشرة مع الدول الأخرى ، وسـفارات ، وقنصليات الأمر الذى فتح أبواب العالم أمام البلاد .

٣ ــ ألغيت الامتيازات الأجنبية فى ١٩٣٧ وتحدد عام ١٩٤٩ نهــاية للمحاكم المختلطة وفعلا انتهت فى هذا العام (١٩٤٩) .

٤ ــ أطلقت يد حكومة مصر فى القيام باصلاحات داخلية سواء استثمرت هذه الفرصة الى أقصى درجاتها أم لم تستغل فقد أصبحت هنا دعوات قوية الى اعــادة بناء الدولة المصرية على أسس حديثة جديدة .

الخاتمة

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين تشكلت قوة فكرية مصرية عالية المستوى فى مختلف المجالات .

ففى عهد الثورة العرابية وبعدها ظهر محمود سامى البارودى شاعرا استطاع أن يحدث نقلة فى الشعر العربى أدت الى ظهور عملاق الشعر أحمد شوقى ، وتربى فى أحضان الثورة كل من مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، وكان الأول رائد الخطابة الوطنية التى بلغت ذروتها على يد سعد زغلول ، وكان الثانى (محمد فريد) رائد الحركة العمالية ، ونمت الدعوة الى الاقتصاد الوطنى وبلغ ذلك ذروته على يد طلعت حرب والحركة النقابية بعد ثورة ١٩١٩ .

وتوالى ظهور رجالات الأدب والاقتصاد والصحافة والطب والهندسة والزراعة والعلوم ، وأصبحت جامعة القاهرة أعظم جامعة فى الشرق الأوسط ، ومنها خرجت العقول المثقفة التى نقلت الحركة الثقافية الى مختلف البلاد العربية . وأصبحت القاهرة معقل الثقافة الاسلامية والعربية . وازدهرت الصحافة بما دار فيها من حوار بين رجالات السياسة والأدب والفكر بصفة عامة .

وأصبحت الطبقة الأرستقراطية تضم أعضاء الأسرة المالكة ، وكبار الاثرياء من بيوت تركية أو شبه تركية ، ومن بيوت مصرية ، ونمت البرجوازية العليا الثرية بأراضيها الواسعة وبأعمالها التجارية ومن ورائها برجوازية متوسطة وصغيرة مثقفة أصبحت قادرة على التحكم فى الانتخابات وفى الادارات الحكومية وفى الأعمال التجارية ومن تحتها العمال وقد تزايدت أعدادهم بفعل الحركة الصناعية التى نشطت فى الفترة ما بين الحربين وان ظلت كما ظل الفلاحون فى حالة اقتصادية متدنية ولكن الجميع كانوا يبغضون الوجود البريطانى فى مصر ويبحثون عن طريق يحقق للبلاد استقلالا كاملا .

٥ ـ بالنسبة لدخل قناة السويس أصبح فى استطاعة حكومة مصر بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ أن تحصل على نصيب منه،فالرأسماليون لم يسرقوا فقط الحكومة المصرية من الأسهم التى كانت لها فى شركة قناة السويس ، « بل سرقوا منها كذلك نسبة ١٥ ٪ من الأرباح التى نص عقد الامتياز على وجوب حصول الحكومة المصرية عليها ، اذ اضطرت الحكومة المصرية الى بيعها الى الرأسماليين الفرنسيين فى عام ١٨٨٠ ، وقد ظلت مصر منذ ذلك الحين حتى عام ١٩٣٧ لا تحصل على نصيب من ارباح شركة القناة الناتجة عن استغلال قناة السويس ـ فلما انتهت من عقد المعاهدة أعادت شركة القناة النظر فيما يجب أن تتمتع به الحكومة المصرية من نصيب أوفى فى ادارة أعمال الشركة فاتفق الطرفان فى يولية ١٩٣٧ على أن يكون لمصر عضوان مصريان فى مجلس ادارة الشركة وتعهدت الشركة بدفع مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه سنويا للحكومة وتوظيف عدد من المصريين كل عام حتى يصبح عددهم ثلث عدد الموظفين جميعا » .

ومن هذا يتبين كم كان الاحتلال البريطانى يحرم مصر من دخل القناة التى شقت بأموال وسواعد مصر ، ولم تتغير سياسة الشركة الا بعد أن حصلت مصر على نوع من الاستقلال . وسنلاحظ أن الاستغلال الأجنبى سيتراجع بقدر ما تنمو فيه القدرات الاستقلالية فى مصر .

ومهما كانت مكاسب مصر من معاهدة ١٩٣٦ ، فان وجود الاحتلال البريطانى فى البلاد كان يفرض على قوى مصر السياسية والشعبية أن تبدأ حركة تحررية جديدة ، وعلى أسس جديدة حتى تستكمل البلاد استقلالها.وحيث أن (الوفد) كان أكبر قوة سياسية فى مصر تستطيع ان تتابع هذه الحركة التحررية سننظر فى امكانيات هذا (الوفد) ، وفى امكانيات مصر الأخرى القادرة على التحرك ، كما نتعرض للتطورات المحلية والدولية التى أثرت على تطور الحركة الوطنية خلال الفترة التى أعقبت عقد معاهدة ١٩٣٦ حتى ثورة ١٩٥٢ .

* * *

وفى خلال تلك الفترة نمت قوة الجيش المصرى على أســاس وطنى ، وأخذ الضباط الصغار يتطلعون الى اليوم الذى تتحرر فيه مصر تماما من وجود أى أجنبى فى البلاد ولكن دون مشاركة فعالة فى الحركة الوطنية وبتجميع تلك التيارات أصبح من المتوقع أن تصل مصر الى هدفها الأسمى وهو الاســتقلال التام . وقد عرقلت الحرب العالمية الثانية هذه التيارات ومن بعدها تصاعدت الحركة حتى وقعت ثورة ١٩٥٣ واضطرت بريطانيا الى توقيع اتفاقية الجلاء ١٩٥٤ .

الثورة العرابية ثورة بدأت من القاهرة بمبدأ مواجهة القوة بالقوة ،ولكن مع فارق هو أن القوة العســكرية للثورة كانت مســتندة الى الشــعب على اختلاف مستوياته (المصرية) ولذلك كان شــعار (مصر للمصريين) وأرض مصر لأبنائهــا الفلاحين يسرى بين أفراد الأمة . فلا غرو أن ظهرت دعوات الى فك زمام الجفالك وتوزيع أراضيها على الفلاحين ولكن كان ذلك فى نطاق ضيق . كمــا أن القــاعدة الشعبية كانت مستعدة لدعم الثورة ولكن لم يكن هنــاك تنظيم لتحويل الشــعب المصرى الى قوة ثورية شاملة . هذه الثورة الشاملة هى التى ظهرت فى ابان ثورة ١٩١٩ بصفة خاصة ، وبعد ذلك أصبح الفلاح والعامل أداة فى يد العناصر الحزبية مثله مثل بقية شرائح المجتمع المصرى فى الثلاثينيات .

وبقيام ثورة ١٩٥٢ دخلت مصر فى عهــد جديد حدثت فيه تطورات جديدة فى التركيب الاجتماعى لمصر .

الفهرس

صفحة

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

رقم الايداع ١٩٨٨/٨٦٤١

دار عطـــوه للطبــاعة

